مكتبة
TELEGRAM NETWORK
2020

كهف الأفكار

الرواية الفائزة بجائزة CWA MACALLAN GOLD DAGGER 2002

خوسيه كارلوس سوموثا

«إثارة من الأصالة العظيمة. المحقق الأكثر ذكاء في الخيال الجنائي.»
Sunday Telegraph

ترجمها عن الإسبانية مارك جمال

التنوير

مكتبة
Telegram Network
2020

«المكتبة النصية»

قام بتحويل رواية:

(كهف الأفكار)

لـ «خوسيه كارلوس سوموثا»

إلى صيغة نصية:

(فريق الكتب النادرة)

تنسيق

ماجدة

كهف الأفكار

إثارة من الأصالة العظيمة. المحقق الأكثر

ذكاء في الخيال الجنائي

رواية

خوسيه كارلوس سوموثا

ترجمها عن الإسبانية:

مارك جمال

دار التنوير للنشر والتوزيع

توطئة

تشتمل رواية كهف الأفكار على قصّتيْن: الأولى في المتن، وتدور حوادثها في أثينا إبان القرن الخامس قبل الميلاد. والثانية في الهوامش التي في أسفل الصفحة، بطلها مترجم عن اللغة الإغريقية، يذيِّل هوامشه بتوقيع المترجم.

هذا وقد روعي الالتزام بالحد الأدنى من التعليقات، بما يحافظ على روح النص من دون أن يُفقِدِه عنصري المتعة والانسيابية، ذلك أن الرواية حافلة بالكثير من الإحالات الثقافية والتاريخية.

ومع الأخذ في الاعتبار أن الكتاب مُوجَّه للقارئ المُلِمّ ولو إلمامًا يسيرًا بالميثولوچيا الإغريقية، وتحديدًا مآثر البطل الإغريقي هرقل، التي ترتكز عليها الحبكة، نورد في ما يلي نبذة عن أسطورة هرقل، نرى أنها مهمّة لمتابعة الحوادث. ونظرًا لتعدُّد روايات الأساطير المذكورة وثرائها بالتفاصيل والحوادث، فالنبذة المشار إليها تقتصر على العناوين الرئيسية فحسب، ولا تعدو أن تكون مفتاحًا يسترشد به القارئ الراغب في الاستزادة.

مآثر هرقل الاثنتي عشرة

طبقًا لما جاء في الأساطير الإغريقية، فإن هرقل (أو هراقليس كما عُرِف باللسان الإغريقي) كان ابنًا لزيوس كبير آلهة الأوليمي وألكميني المرأة الفانية. وتقول إحدى الروايات الشائعة إن الربة هيرا سلَّطَت عليه ربة الجنون التي رمَته بنوبات الهذيان وجعلته يقتل زوجته وأطفاله ظنًّا منه أنه يقتل أعداءه. ولمَّا عاد هرقل إلى صوابه توجَّه إلى أوراكل دِلفوي (أي الوسيطة الروحانية التي تنقل إرادة الآلهة إلى البشر)، فتلقَّى أمرًا بتسليم نفسه إلى الملك يوروسثيوس والبقاء في خدمته والنزول عند أوامره. وهكذا بدأت مآثر هرقل.

I القضاء على أسد نيميا

وجَّه الملك يوروسثيوس أمره إلى البطل هرقل بالقضاء على أسد نيميا الشرس الذي ما برح ينشر الذعر حتى سافر هرقل إلى مدينة نيميا لمواجهته. تقدَّم البطل نحوه في ثبات وشجاعة، ولكن أسلحته لم تترك في الأسد أدنى أثر. فما كان من هرقل إلَّا أن انقضَّ على الأسد آخذًا رأسه بين ذراعيْه القويتيْن وظلَّ يعتصر عنقه حتى تركه جثة هامدة.

IIالقضاء على الأفعوان هيدرا

كانت لأفعوان هيدرا رؤوس تشبه الأفاعي، كل منها مترع بالسمّ الزعاف. خرج الأفعوان من جحره وانقضَّ على هرقل الذي هوى بهراوته الضخمة فوق رؤوس المسخ، بَيْد أنه كلما هشَّم رأسًا نبتَت ثلاثة رؤوس في الحال. صرخ هرقل طالبًا العون من رفيقه البطل يولاوس الذي خفَّ لنجدته وأضرم النار في أشجار الدَّغل المجاور، وطفق يكوي مواضع الرؤوس التي يبترها هرقل، ليحول بذلك دون ظهور رؤوس جديدة للأفعوان. فتمكَّن البطل أخيرًا من القضاء على المسخ.

IIIمطاردة أيلة كيرونيا

كان على هرقل أن يُحضِر الأيلة إلى الملك يوروسثيوس على قيد الحياة من دون أن يمسّها أذى. فوصل إلى تل كيرونيا حيث أخذ يراقب الأيلة، يُطاردها تارة، وينصب لها الشراك تارة. عبثًا راح هرقل يحاول أسر الأيلة على مدى عام كامل، فباءت محاولاته بالفشل. حتى كان أن رآها تنهل من المياه، فاغتنم الفرصة ورماها بسهم نفذ بين عظم الساق والوتر، من دون أن تنزف الأيلة قطرة واحدة من الدماء. فحملها هرقل على كتفيْه وعاد بها إلى يوروسثيوس.

IV أسر الثور الكريتي

كان الثور الكريتي مُتوحِّشًا، هائجًا، يصول ويجول في أنحاء جزيرة كريت. لم يقوَ أحد من أهل الجزيرة على التصدِّي له، فأبحر هرقل إلى كريت، حيث شرع يقتفي أثر الثور حتى عثر عليه. تقدَّم هرقل نحو الثور أعزل، وصارعه صراعًا شديدًا، فكانت الغلبة في النهاية للبطل الذي تمكَّن من أسْر الثور الجبَّار واقتياده إلى الملك يوروسثيوس.

Vطَرْد طيور ستومفالوس

كانت طيور ستومفالوس كثيرة، لا تُعَدّ ولا تُحصَى، لها مخالب وأجنحة ومناقير من البرونز. استقرَّ بها المقام في أحراش مستنقع ستومفالوس، فكانت تخرج بأعداد ضخمة لتهاجم البشر والحيوان وتفسد المحاصيل الزراعية. وصل هرقل إلى ستومفالوس، فخطر له أن يقتنصها بسهامه، بَيْد أن السهام لم تجدِ نفعًا أمام تلك الأعداد الهائلة من الطيور. عند ذاك أدركته الربة أثينة وأعطته صنوجًا ضخمة مجلجلة استعان بها هرقل بغرض إحداث صخب عارم وطرد الطيور التي انطلقت تحلِّق في فزع.

VI تنظيف حظائر أوجياس

كان أوجياس ملك إيليس يمتلك عددًا هائلًا من الماشية. بَيْد أن الثيران كانت تحول دون إمكانية تنظيف الحظائر. وصل هرقل إلى حظائر أوجياس حيث شرع في التنظيف، وإذا بثور ينقضّ عليه، فأمسك هرقل بقرن الثور لشلِّ حركته، ثم تابع التنظيف وفرغ منه في غير مشقة تُذكَر.

VII أسر خنزير أرومانثوس البرِّي

كان خنزير أرومانثوس كاسرًا، مُتوحِّشًا، ينشر الرعب فوق مرتفعات أرومانثوس والمنطقة المحيطة. انطلق هرقل في رحلته لمطاردة الخنزير الكاسر. خرج الوحش من بين الأحراش إلَّا أنه فرَّ من أمام البطل مذعورًا. استدرجه هرقل حتى وصل إلى منطقة خفيضة يكسوها الجليد، وإذا هو يقفز على ظهر الخنزير في خفة ويكبِّله بالسلاسل.

VIII الاستيلاء على قطيع جريون

كان جريون مسخًا معروفًا بجبروته، يمتلك قطيعًا فريدًا، أحمر اللون، بطيء الحركة، جميل المنظر. كان على هرقل الاستيلاء على القطيع من دون أن يستأذن مالكه أو يدفع له ثمنًا. كان يرعى القطيع مسخان. سافر هرقل إلى هناك، وقضى على المسخَيْن بهراوته، ثم شرع في مطاردة القطيع. علم جريون بما حدث، فهرع إلى هرقل وحاول أن ينقضَّ عليه، فرماه البطل بثلاثة سهام في سرعة وخفّة. أصابت السهام السامة جريون، فخرَّ صريعًا من فوره.

IX ترويض أفراس ديوميديس

كان ديوميديس ملك تراقيا يمتلك أربع أفراس نادرة، مُتوحِّشة. أصدر ديوميديس أوامره بالقبض على كل أجنبي يطأ أرض تراقيا، ومن ثم تقديمه طعامًا للأفراس. أبحر هرقل صوب تراقيا. وهناك غلب أولئك الذين عُهد إليهم بالاعتناء بالأفراس، ثم طاردها وألقى بجثة ديوميديس نفسه في المزود، حيث التهمته الأفراس في الحال. ولمَّا شبعت الأفراس، تمكَّن هرقل من ترويضها في غير مشقة.

X الاستيلاء على حزام هيبوليتا ملكة الأمازونيات

كانت الأمازون مملكة نسائية، حيث تقوم الأمازونيات بشؤون الحكم والقتال، فكُنّ نساء محاربات، أو مسترجلات على حد القول الشائع. تربَّعت على عرش الأمازون امرأة تُدعَى هيبوليتا، كانت تتمنطق بحزام أهداه إليها جدها الأكبر إله الحرب آريس. سافر هرقل إلى مملكة

الأمازونيات، فعلمت الملكة بقدومه. أعجبَت به هيبوليتا فرقَّ له قلبها وأهدَته الحزام الذي تلقَّته من الإله آريس دليلًا قاطعًا على حبّها.

XI أسر الكلب كيربيروس وإحضاره من عالم الموتى

نزل هرقل إلى عالم الموتى فاستقبله إله العالم السفلي هاديس. طلب منه هرقل السماح له باصطحاب الكلب كيربيروس، فأبدى هاديس قبوله شريطة أن يخضعه هرقل من دون اللجوء إلى هراوته أو سهامه القاتلة. كان لكيربيروس ثلاثة رؤوس. تقدَّم هرقل وانقضّ على عنق المسخ بقبضته القوية. فأخذ كيربيروس يطوّح بذيله الرهيب ورؤوسه الثلاثة. بَيْد أنه لم يستطع الفكاك من قبضة هرقل القوية، وانتهَت به الحال بالاستسلام للبطل.

XII الاستيلاء على تفاحات الهسبيريديات الذهبية

كانت للربة هيرا شجرة تثمر تفاحات ذهبية، فوضعتها تحت رعاية الهسبيريديات، اللائي عهدن إلى المسخ لادون بحراسة الشجرة النادرة. كان لادون تنينًا يشبه الأفاعي. خرج هرقل بحثًا عن التفاحات الذهبية، حتى وصل إلى بستان الهسبيريديات أخيرًا. وهناك رمى المسخَ لادون بسهم قاتل وأرداه قتيلًا. فأصبح في وسعه الحصول على التفاحات الذهبية.

وختامًا، نورد في ما يلي أسماء بعض المراجع التي استندنا إليها في ترجمة الرواية وإعداد الهوامش والشروح:

- أساطير إغريقية، ج 1 (أساطير البشر)، عبد المعطي شعراوي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (1982).

- أساطير إغريقية، ج 2 (أساطير الآلهة الصغرى)، عبد المعطي شعراوي، مكتبة الأنجلو المصرية، (1995).

- أساطير إغريقية، ج 3 (أساطير الآلهة الكبرى)، عبد المعطي شعراوي، مكتبة الأنجلو المصرية، (2005).

Smith, William. Dictionary of Greek and Roman biography and mythology - by various writers. John Murray, 1880.

المترجم

كهف الافكار

«ثمه حجّة جدِّية تحول دون سعي المرء لكتابة أيّ شيء بصدد مسائل من هذا القبيل، حجّة قد سُقتُها مِرارًا. وعلى الرغم من ذلك، أعتقد بأنني سأكرِّرها مرّة أخرى. لا بد من تمييز عناصر ثلاثة في سائر الكائنات، وهي العناصر التي تسمح باكتساب المعرفة بتلك الكائنات ذاتها: المعرفة نفسها هي العنصر الرابع. وفي الموضع الخامس يأتي الشيء ذاته، معروفًا بحقٍّ، وواقعيًا. أما العنصر الأول فالاسم، والثاني فالتعريف، والثالث فالصورة...».

أفلاطون، الرسالة السابعة

الفصل الأوّل[1]

أُودِعَت الجثّة مُمدَّدة على مِحفَّة هشَّة من خشب القَضْبَان. كان الجذع والبطن بمثابة عجين من مِزَقٍ وأشلاء تكسوها قشرة من الدماء المُتخثِّرة والوحل اليابس، وإن بدا كلٌّ من الرأس والذراعيْن أفضل حالًا. كان جندي قد نحَّى الأردية التي تكسو الجثّة جانبًا حتى يتسنَّى لأسخيلوس فحصها، أما الفضوليون فقد راحوا يقتربون، على استحياء في بادئ الأمر، ثم بأعداد كبيرة، ليشكِّلوا بذلك دائرة تحيط ببقايا الجثة المحفوفة بالموت. بعث البرد قشعريرة في بشرة الليل الزرقاء. أما اللِّبْدَة المُذهَّبة التي انسدلَتْ عن المشاعل، ولِبْدَة الفرس الغزيرة المُثبَّتة في خوذات الجند، والحوافّ الداكنة التي تنتهي بها أردية الكلاميد[2]، فقد راحت تموج في مهبِّ ريح الشمال. فتح الصمت عينيه، بينما تعلَّقَتِ النّظرات بالفحص المُروِّع الذي راح يجريه أسخيلوس، فيما أخذ الأخير يباعد بين أشفار الجروح بحركات تليق بقابلة، أو يغوص بأصابعه في التجاويف البشعة بانتباه فائق، شأن قارئ يمرُّ بسبابته فوق نقوش برديَّة. جرى كل ذلك على ضوء المصباح الذي قرَّبه العبد من سيده أسخيلوس وهو يصدُّ عنه الريح بيده.

وحده كاندالو الكهل خرج عن الصمت. شرع يصرخ وسط الطرقات حين أقبل الجند حاملين الجثّة، فأيقظ الجيران جميعًا، وظل يتردَّد بين جنباته ما يشبه صدى الجلبة التي أثارها. لم يبدُ مُتأثِّرًا بالبرد، رغم كونه شبه عارٍ. بخُطًى عرجاء راح يحوم حول دائرة الرجال، ويجرجر قدمه اليسرى الذاوية، والتي كانت عبارة عن ظِلْفٍ وحيد ضارب إلى السواد يليق بساتير[3]، مادًّا خيزرانَ ذراعيْه بالغتَي النحول ليتّكِئ بهما على الآخرين، فيما يصيح:

- إنه إله...

انظروا إليه! هكذا تنزل الآلهة من الأوليمي...

لا تمسُّوه! ألم أقُل لكم؟ إنه إله...

أقسِمْ على الولاء له، كاليماكو! أقسِمْ على الولاء له، إيوفوربو!

أما لِبْدَته الشيباء المُرْسَلة، التي انبثقَتْ مبعثرةً من رأسه ذي العظام البارزة وكأنها امتداد لجنونه، فقد راحت تتطاير مهتاجةً في مهبِّ الريح حاجبةً نصف وجهه. بَيْد أن أحدًا لم يُعِره من الانتباه الكثير، إذ آثر الناس مشاهدة الميت على مشاهدة المجنون.

ومن البيت الأقرب إلى المكان، خرج قائد حرس الحدود في معيَّة جنديَيْن وهو يعاود وضع خوذته التي تنتهي بلِبْدة مُرْسَلة، إذ تراءى له من الصواب أن يظهر شاراته العسكرية على مرأى من العامة. ومن خلال شقِّ الرؤية في خوذته أخذ يتأمَّل سائر الحضور. انتبه إلى كاندالو فأشار إليه باللامبالاة نفسها التي قد يطرد بها ذبابة مزعجة، وقال من دون أن يخصَّ بحديثه جنديًّا بعينه:

- أسكتوه، بحق زيوس.

اقترب أحدهم من الكهل، ثم شهر رمحه ممسكًا به من الكعب، وبحركة أفقية واحدة سدَّد ضربة إلى أسفل بطنه الذي بدا كالبرديَّة المُجعَّدة. شهق كاندالو في منتصف الكلمة وانثنى على نفسه في غير صخب، كاللِّبْدَة إذ تموج في مهبِّ الريح. ظلَّ يتلوَّى ويتأوَّه على الأرض. في حين قابل الناس ذلك الصمت المفاجئ بالامتنان.

- تقريرك، أيها المداوي؟

لم يستعجل أسخيلوس الطبيب في الرد. بل ولم يرفع حتى ناظريْه إلى القائد. ما كان يروقه أن ينادوه بلقب «المداوي»، ناهيك عن أن يخاطبوه بتلك اللهجة التي بدا أنها تزدري الناس كافّة ما خلا صاحبها. لم يكُن أسخيلوس عسكريًّا، وإن كان سليل أسرة أرستقراطية عريقة، وله حظٌّ في تعليمٍ على أرفع المستويات. كان ضليعًا في المأثورات، وبِرٌّ في قَسَمه بحذافيره. سبق له أن كرَّس فترات طويلة للدراسة بجزيرة كوس حيث تلقَّى الفن المقدَّس لأطباء الأسكليبياديس، ورثة أبقراط وتلاميذه. فلم يكُن بالشخص الذي يستطيع قائد حرس حدود التحقير من شأنه في يسر. فضلًا عن ذلك، كان أسخيلوس يشعر بتعرّضه للمهانة، إذ أيقظه الجند في ساعة مبهمة من ساعات الفجر المدلهمّ حتى يفحص جثة ذلك الشاب على قارعة الطريق، بعد أن جاءوا به من جبل ليكابيتوس[4] محمولًا على مِحفَّة. مما لا شك فيه أنهم قد لجأوا إليه بغرض إعداد تقرير. بَيْد أن أسخيلوس، وكما يعرف الجميع حقَّ المعرفة، لم يكُن طبيب موتى بل طبيب أحياء. فضلًا عن ذلك، فقد وجد أن تلك المهمة المخزية من شأنها أن تنال من سمعة المهنة. رفع يديْه عن الجثمان المُشوَّه، لتتساقط عنهما قطرات الدماء وكأنها خصلات لِبْدَة غزيرة. فسارع عبدُه بتطهيرهما بقطعة قماش مُندَّاة بماء الطهارة المقدَّس. تنحنح مرتين قبل أن يشرع في الحديث. وقال:

- إنها الذئاب. أغلب الظن أنه تعرَّض لهجوم قطيع جائع من الذئاب. آثار نهشٍ وخدوشٍ...

الجثة بلا قلب. انتُزِع القلب من مكانه. تجويف السوائل الدافئة شبه خاوٍ...

وعلى شفاه الجموع، انسابت الهمهمة كما تنساب خصلات لِبْدَة غزيرة..

همس رجل في سمع آخر:

- ها قد سمعتَ بنفسك، هيمودورو. إنها الذئاب.

فأجاب مُحدِّثُه:

- ينبغي عمل شيء بهذا الصدد.

سوف نبحث المسألة في المجلس...

ثم أعلن القائد ليُسكِت التعليقات بما لصوته من صرامة:

- لقد أُبلِغَت الأمُّ بالفعل. لم أرِد إطلاعها على التفاصيل. تعرف أن ابنها قضى نحبه، لا أكثر. ولن ترى الجثمان حتى يصل دامينوس الكلاثوبيوني، فهو رجل الأسرة الوحيد الآن، وهو الذي سيبتُّ في الأمر.

كان يتحدَّث بصوت ذي سطوة، صوت دَرَجَ على فرض الطاعة، فيما باعد ساقيْه ووضع قبضتيْه على تنورة الزي العسكري. بدا كأنه يخاطب الجند، وإن بدا جليًّا أن القائد يلذُّ له جذب انتباه عامة الشعب.

- أما في ما يخصُّنا، فقد انتهينا من عملنا!

ثم ولَّى وجهه شطر جمع من المدنيين قائلًا:

- هيا أيها المواطنون، إلى بيوتكم! لم يعُد ثمة ما يدعو للفرجة هنا. احصلوا على قسط من النوم إن استطعتم...

ما زالت في الليل بقية!

وكلِبْدَة غزيرة تموج في مهبِّ ريح مُتقلِّبة المزاج، حيث كل خصلة تختار لثورتها اتجاهًا مغايرًا، هكذا راح الحشد المتواضع يتفرَّق شيئًا فشيئًا، إذ رحل البعض زرافات والبعض الآخر فرادى، مُعقِّبين على الحادث المُروِّع أو مُطرقين في صمت.

- صحيح، هيمودورو. فالذئاب كثيرة في الليكابيتوس. بلغني أن عدة فلاحين قد تعرَّضوا لهجمات الذئاب...

- والآن...

هذا الإفيبوس

المسكين! ينبغي لنا أن نبحث الأمر في المجلس...

رجل قصير القامة، بالغ البدانة، لم يبرح مكانه بينما رحل الآخرون. وقف عند قدمي الجثّة يتأمَّل بعينيْن ساكنتيْن، مغمضتيْن نصف إغماضة، من دون أن يُبدي أي تعبير على وجهه المكتنز رغم صفائه. بدا وكأنه قد راح في سبات واقفًا على قدميه. تفاداه الرجال الراحلون وهم يمرُّون قُربَه من دون أن ينظروا إليه، وكأنه عمود أو حجر. دنا منه جندي وجذبه من ردائه.

- اذهبْ إلى بيتك أيها المواطن. سمعتَ ما قال قائدنا.

بالكاد أحسَّ الرجل بأنه المعنيّ بما قيل، فما انفكَّ يحدِّق في الاتجاه نفسه بينما راحت أصابعه المكتنزة تربّت على حوافّ لحيته المُفضَّضة المُشذَّبة بعناية. أما الجندي فقد دفعه دفعةً واهنة رافعًا صوته، ظنًّا منه بأنه أصمُّ:

- أنتَ! أتحدَّثُ إليكَ! ألم تسمع ما قال قائدنا؟ اذهبْ إلى بيتك!

فقال الرجل بنبرة لا توحي إطلاقًا بأنَّ تدخُّل الجندي يسبِّب له أدنى قدر من القلق:

- معذرةً. ها أنا ذاهب.

- إلامَ تتطلّع؟

رمشَتْ عينا الرجل مرتيْن، ثم حوَّل بصره عن الجثمان الذي كان يسجِّيه جندي آخر في هذه اللحظة ويغطيه برداء. قال:

- لا شيء. كنت أفكِّر.

- فكِّرْ مستلقيًا في فراشك إذن.

- أنت مُحقّ.

أومأ الرجل برأسه. بدا وكأنه قد أفاق من غفوة خاطفة. تلفَّت حوله ثم سار مبتعدًا بخُطًى وئيدة.

كان الفضوليون قد انصرفوا جميعًا، أما أسخيلوس الذي كان يدلي بتعقيب ما لقائد الحرس، فقد بدا على أتمِّ استعداد لأن يتوارى عن الأنظار سريعًا، بمُجرَّد أن يأذن له مُحدِّثُه بذلك. بل وحتى كاندالو الكهل، الذي ما زال يتلوَّى ويتأوَّه ألمًا، راح يبتعد زاحفًا على أربع، تحثُّه ركلات الجنود، باحثًا عن ركن معتم حيث يتسنَّى له قضاء ليلته، تساوره أحلام الجنون. وفي مهبِّ الريح، دبَّت الحياة في لِبْدته الشيباء المُرسَلة، فراحت تموج على ظهره، وفي اللحظة التالية تتطاير عاليًا في غيمة غير مستوية من خصلات ثلجية، وكأنها تاج من ريشات ناصعة البياض ثائرة في الهواء. وفي السماء، فوق خطوط معبد يارثينون على وجه التحديد، انسابَتْ خصلات لِبْدَة الليل المُرسَلة الغائمة في كسل، حوافّها مُوَشَّاة بالفضة، كما ينساب شَعْر عذراء أثناء تصفيفه على مهل[5].

غير أن الرجل البدين، الذي بدا وكأن الجندي قد أيقظه من سباته، لم يسِر مع الآخرين إلى لِبْدَة الشوارع المُرسَلة التي يتألَّف منها الحي الداخلي المُتشعِّب. بل طاف حول الساحة الصغيرة بخُطى هادئة، في تردُّد، وكأنما قد قلَّب الأمر في رأسه مرتيْن، ثم ولَّى وجهه شطر البيت الذي خرج منه قائد الحرس منذ لحظات، والذي ينبعث منه الآن نواح مشؤوم، مسموعًا على نحو جليّ.

غرق البيت في عتمة الليل. وعلى الرغم من ذلك فقد ظهرت عليه المكانة الاقتصادية المرموقة للأسرة التي تسكنه، إذ كان البيت ضخمًا، من طابقيْن، يتصدَّره بستان رحيب مُسيَّج بسور واطئ، وله دَرَج قصير يفضي إلى بوابة ذات مصراعيْن يحفُّها من الجانبين عمودان على الطراز الدوريسي. كانت الأبواب مفتوحة. وعلى الضوء المنبعث من مشعل مُعلَّق على الجدار، جلس طفل فوق الدَرَج.

اقترب الرجل، فبرز كهل عند البوابة يتعثَّر في سيره. كان يرتدي تونيك[6] العبيد رمادي اللون. وبالنظر إلى حركته، فقد ظنَّه الرجل ثملًا أو كسيحًا في بادئ الأمر، ثم أدرك أنه منخرطٌ في بكاء مرير. مرَّ به الكهل من دون حتى أن ينظر إليه، إذ تابع سيره عَبْر درب البستان على نحو أعمى، دافنًا وجهه بين يديْه القذرتيْن، وصولًا إلى تمثال هرمِس الحامي، فيما راح يتمتم بعبارات مبتورة عصيَّة على الفهم يمكن أن يتبيَّن منها السامع أحيانًا: «سيدتي...!» أو: «آهٍ، ويلي...!».

فلم يُعِره الرجل انتباهًا أكثر من ذلك، وتوجَّه إلى الطفل الذي جعل يتفحَّصه من دون أن يبدو عليه أثر للخجل، وهو لا يزال جالسًا على الدَرَج، عاقدًا ذراعيْه الصغيرتيْن فوق ساقيْه. سأله الرجل مُبديًا له قطعة معدنية صدئة بقيمة أوبول[7] واحد:

- هل تخدم في هذا البيت؟

- أجل، وبالمثل يسعني أن أخدم في بيتك.

فوجئ الرجل بسرعة الردِّ ووضوح الصوت الذي ينمُّ عن تَحَدٍّ. قَدَّرَ عمره بما لا يزيد على عشرة أعوام. كان رأسه معصوبًا برباط من القماش بالكاد يحُدُّ من فوضى خصلات لِبْدَته الشقراء. أو لم تكُن شقراء على وجه التحديد، وإنما بلون العسل، رغم صعوبة تحديد درجة لون تلك اللِّبْدَة بدقَّة على بريق المشعل. كان وجهه الصغير الشاحب ينفي عنه أي أصول ليدية أو فينيقية، بل ويدفع المرء إلى الظنِّ بأنه من أصول شمالية، ربما تراقية. كان تعبير وجهه يشعُّ ذكاءً، بما له من جبين ضيِّق مُقطَّب وابتسامة متناسقة. ما كان يرتدي شيئًا سوى تونيك العبيد الرمادي، الذي كشف عن ذراعيْه وساقَيْه، وعلى الرّغم من ذلك فلم يبدُ أن الطفل يشعر بالبرد. تلقَّف الأوبول بمهارة وأخفاه بين طيّات التونيك. ظلَّ جالسًا مكانه، يؤرجح قدميْه الحافيتيْن. فقال الرجل:

- لستُ في حاجة سوى لهذه الخدمة الآن، أن تُخطِرَ سيدتك بحضوري.

- سيدتي لا تستقبل أحدًا. فقد زارها جندي ضخم، أظنه قائد الحرس، وأخبرها بأن ابنها قضى نحبه. وهي الآن تصرخ وتمزِّق لِبْدَتها وتنادي الآلهة لتصبَّ عليها اللعنات.

وإذا بعويل كورالي مُطوَّل يُدوِّي خارجًا من أعماق البيت، وكأن كلماته في حاجة إلى دليل. أشار الطفل من دون أن يبدو عليه التأثُّر:

- إنهما جاريتا سيدتي.

فقال الرجل:

- أنصِتْ. كانت تجمعني معرفة شخصيّة بزوج سيدتك...

فقاطعه الطفل:

- كان خائنًا. وحُكم عليه بالإعدام منذ أمدٍ بعيدٍ.

- أجل، لهذا قضى نحبه، لصدور حكم بالإعدام في حقّه. ولكن سيدتك تعرفني جيدًا. وبما أنني هنا، أودُّ لو أقدِّم لها آيات التعازي.

ثم أبرز من بين طيّات التونيك قطعة أوبول جديدة، انتقلت من يد إلى يد بالسرعة ذاتها شأن سابقتها.

- اذهبْ وقُلْ لها إن هراقليس اليونتوري قد حضر للقائها. وإن كانت لا ترغب في لقائي، فلسوف أنصرف. ولكن، اذهبْ واخبرْها.

- سأفعل. ولكن ماذا لو أبَتْ أن تستقبلك، هل سأضطرُّ لردِّ قطعتي الأوبول إليك؟

- كلا، فهما لك. ولكني سأعطيك واحدًا آخر إن هي وافقَتْ على استقبالي.

هبَّ الطفل واقفًا على قدميه.

- تعرف كيف تعقد صفقة، وحق أيولُّو!

ثم غاب الطفل في العتمة التي غشيَتْ مدخل البيت.

في الوقت الذي راح خلاله هراقليس يترقَّب ردًّا، ما كادت تتبدَّل هيئة لِبْدَة السحائب المُرْسَلة المائجة في السماء الليلية. وأخيرًا عاد الطفل من قلب العتمة بما له من لبدة خصلاتها كستنائية اللون. ابتسم قائلًا:

- أعطني الأوبول الثالث.

في جوف البيت، تتَّصل الأروقة في ما بينها عَبْر طاقات حجرية بدَتْ وكأنها أَفْوَاه ضخمة فاغرة، تؤلِّف متاهة من الظلمات. وفي منتصف رواق معتّم يشوبه ضوء خافت، توقَّف الطفل كي يعلِّق المشعل الذي أضاء به الطريق في فُوَّهَة حلقة حديدية، غير أن الحلقة كانت أعلى مما يستطيع بلوغه. ومع أن العبد الصغير لم يطلب مساعدته-إذ شبَّ على أطراف أصابعه، يحاول بلوغ الحلقة جاهدًا- فقد أخذ هراقليس المشعل ودسَّه بسلاسة في الحلقة الحديدية. قال الطفل:

- أشكرك، فأنا لستُ شابًّا بعد.

- ستكون شابًّا عما قريب.

وعبر الجدران تسلَّلَتِ الجلبةُ، وأصواتُ الزئير، وأصداءُ الألم، خارجةً من أَفْوَاهٍ خفيَّة، وكأن ساكني البيت جميعًا ينتحبون في آن.

أما الطفل-الذي عجز هراقليس عن رؤية وجهه، كونه يسير في المُقدِّمة، ضئيلًا، أعزل، كحَمَلٍ يُساق إلى حيوان هائل الضخامة، أسود اللون، فاغر الفكين، مُترقِّبًا- فقد بدا مُتأثِّرًا فجأةً. إذ قال من دون أن يلتفت أو يمسك عن المسير:

- كنا جميعًا نحب السيد الشاب. فقد كان طيّبًا للغاية.

ثم ندَّت عنه شهقة مقتضبة، أو تنهيدة، أو ربما غطيط عَبْر أنفه، في حين تساءل هراقليس للحظة عما إذا كان الطفل يبكي.

- لم يكُن يأمر بجَلدنا إلا حين نأتي بفعلة شنعاء حقًّا، بل إنه لم يعاقبني أنا أو إفيماكو الكهل قط...

هل انتبهتَ إلى العبد الذي خرج من البيت عند وصولك؟

- لم أنتبه إليه كثيرًا.

- ذلك هو إفيماكو. كان مربِّيًا لسيدنا الشاب في ما مضى، وقد آلمه الخبر بشدة.

ثم أردف خافضًا صوته:

- إفيماكو شخص طيّب، وإن كان مُغفَّلًا بعض الشيء. تجمعني به علاقة طيّبة، ولكن هذا لأن علاقتي بالجميع تقريبًا طيّبة.

- هذا شيء لا يفاجئني.

كانا قد بلغا حجرة.

- عليك أن تنتظر هنا. ستحضر سيدتي في الحال.

كانت حجرة بلا نوافذ، ليست كبيرة، يكشفها البريق المتذبذب الصادر عن المصابيح المتواضعة المُثبَّتة فوق الأرفف الحجرية الصغيرة، ومُزيَّنة بأمفورات[8] خزفية واسعة الأفواه. كما اشتملَتِ الحجرة على أريكتيْن عتيقتيْن مظهرهما لا يبشِّر براحة البدن إطلاقًا. ما إن بقي هراقليس وحده، حتى بدأ يجثم على صدره كلٌّ من عتمة ذلك الجُحر، والنشيج الذي لا ينقطع، والهواء الآسن الذي طفا في المكان كأنفاس خارجة من فمٍ مُتقيِّح. دار في خلَده أن كل ما في البيت يبدو منسجمًا مع الموت، وكأن المآتم المُطوَّلة اليومية لم تنقطع عن البيت. تساءل: ما هذه الرائحة؟ كانت رائحة نحيب امرأة. إذ عبقَتِ الحجرة بالرائحة الرطبة للنساء الحزانى.

- هراقليس اليونتوري، أهو أنت؟ شَخَصَ ظلٌّ عند المدخل المُؤدِّي إلى الغرفة. وبمحض صدفة غريبة، لم يكشف ضوء المصابيح الواهن من وجهها سوى محيط الشفتيْن. فرأى هراقليس أوَّل ما رأى من إتيس فمها. وفيما انفرجَتْ شفتاها إيذانًا للكلمات بالخروج، كشفتا عن فجوة سوداء على هيئة مغزل، كمحجر عين خاوٍ، راح هراقليس يتأمَّله عن بعد فتراءى له كعين شخص مرسومة.

- لم تطأ قدماك عتبة بيتي المتواضع منذ أمدٍ بعيدٍ.

ثم أردف الفم، لا ينتظر ردًّا:

- أهلًا بكَ.

- أشكركِ.

- صوتك...

ما زلتُ أذكره. ووجهك. ولكن سرعان ما ينسى المرء، حتى وإن كثُرَتِ اللقاءات...

فأجاب هراقليس:

- لقاءاتنا ليست كثيرة.

- صحيح، فبيتك قريب للغاية من بيتي، ولكنك رجل، أما أنا فامرأة. أنا أشغل منصبي بوصفي ديسيوينا، ربة بيت، لا زوج لها، أما أنت فتشغل منصبك بوصفك رجلًا، يبحث الأمور في الأغورا[9] ويدلي برأيه في المجلس...

لستُ أكثر من امرأة أرملة، أما أنت فرجل أرمل. كلانا يلعب دوره باعتباره مواطنًا أثينيًّا.

أُطْبِقَ الفم، وزُمَّتْ الشفتان الشاحبتان لتؤلِّفا خطًّا مقوَّسًا بالغ الدقَّة، يكاد يكون خفيًّا. تُراها ابتسامة؟ صعُب على هراقليس أن يتحقَّق من ذلك. وخلف ظلِّ إتيس، مثلَتْ جاريتان ترافقانها، كلتاهما تبكيان، أو تنشجان، أو ببساطة تصدحان بصوت واحد، متهدِّج، كعازفتي أُبُوَا[10] فدار في خلد هراقليس ما يلي: «يجب عليَّ أن أتحمّل قسوتها، ذلك أنها فقدت ابنها الذكر الوحيد لتوِّها». قال:

- تقبَّلي عزائي.

- عزاؤك مقبول.

- ومساعدتي، في كل ما تدعو إليه الحاجة.

وفي الحال عرف أنه ما كان يجدر به أن يضيف قوله ذلك، إذ كانت رغبته في رأب الصدع، واختزال سنوات الصمت كلها في كلمتين، بمثابة تجاوز لحدود الزيارة. وكما ينفغر فمّ حيوان رابض أو نائم، ضئيل على خطورته، بمُجرَّد أن يشعر بحضور الفريسة بغتةً، هكذا انفغر فمها، وأجابَتْه بجفاء:

- لقد وفَّيتَ صداقتك بميراجرو حقّها على هذا النحو، ولا حاجة لأن تزيد على ما قلتَ شيئًا.

- لا شأن لذلك بالصداقة التي جمعَتْني بميراجرو...

فأنا أعدُّه واجبًا يتحتَّم عليَّ أداؤه.

ارتسمت على فمها ابتسامة مبهمة (هي الآن ابتسامة فعلًا):

- أوه، واجب. واجب مُقدَّس، بالطبع. هراقليس اليونتوري، ما زلتَ تتحدَّث كعهدي بك دائمًا!

تقدَّمَتْ إلى الأمام خطوة ليكشف الضوء عن هَرَم أنفها، ووجنتيْها-اللتيْن بدَتْ عليهما آثار خدوش حديثة- وجمرتي عينيْها السوداويْن. لم تكُن قد طعنَتْ في السن بقدر ما توقَّع هراقليس. بل كانت لا تزال محتفظةً ببصمة الفنّان الذي أبدعها، أو هكذا ظنَّ هراقليس. تلاطمَتْ ثنايا ثوب البيبلوس[11] الداكن في أمواج وئيدة على صدرها. توارَتْ يسراها أسفل الوشاح، أما يمناها فقد تشبَّثَتْ بالثوب لتُحكم وضعه. وعلى هذه اليد انتبه هراقليس إلى آثار الشيخوخة، وكأنما الأعوام قد انسابَتْ نزولًا عَبْر ذراعيْها حتى صبغَتْ طرفيهما بالسواد. فهناك، هناك وحسب، في تلك المفاصل البارزة ووضع الأصابع المُشوَّه، بدت إتيس عجوزًا.

همهمَتْ، وقد لاح في صوتها لأول مرة صدقٌ جارف، اقشعَّر له بدنه:

- أقدِّر لكَ ذلك الواجب. كيف عرفتَ بهذه السرعة؟

- ثارت جلبة في الشارع حين جاءوا بالجثمان، فاستيقظ الجيران جميعًا.

دوَّتْ صرخة. ثم أخرى. وللحظة عبثية، خالَ هراقليس أن الصرخة آتية من فم إتيس المطبق، وكأنها قد زمجرَتْ بزئير داخلي راح ينتفض له جسمها الهزيل، من قمة الرأس إلى أخمص القدمَيْن، بينما الصوت يدوِّي خارجًا من حنجرتها.

ولكن، عند ذاك دلفت إلى الحجرة فتاة تصرخ وقد اتَّشحت بالسواد. دفعَتِ الجاريتيْن، وهرعَتْ في تحفُّز من جدار إلى آخر، ثم خرَّتْ على الأرض في أحد أركان الحجرة، وصراخها يصمُّ الآذان، وأخذت تتلوَّى كما لو أنها قد سقطَتْ صريعة المرض المُقدَّس[12]. وأخيرًا ذابَتْ في نحيب لا يكلّ.

قالت إتيس بنبرة آسفة، وكأنما تودُّ الاعتذار لهراقليس عن مسلك ابنتها.

- الأمر أشقُّ على إِلِيَا بكثير. لم يكُن تراماكو مُجرَّد أخٍ لها، بل كان بمثابة وصيّ شرعي، الرجل الوحيد الذي عرفَتْه إِلِيَا وأحبَّتْه...

التفتَتْ إتيس إلى الفتاة التي استلقَتْ في الركن المعتّم وقد ضمَّت ساقيْها كأنها ترغب في شغل أقل حيِّز ممكن، أو تريد أن تبتلعها الظلال كما تبتلع بيت عنكبوت أسود، رافعةً يديها أمام وجهها، فاتحةً عينيْها عن آخرهما، فاغرةً فاها إلى أقصاه فاستحالت قسماتها ثلاث دوائر تشغل وجهها كاملًا، وراحت ترتجف تحت وطأة النشيج العنيف الذي انخرطَتْ فيه.

قالت إتيس:

- حسبكِ، إِلِيَا. كما تعلمين، لا يفترض بكِ أن تغادري جناح النساء، ناهيك عن مغادرته وأنتِ على تلك الحال. تُبدين ألمكِ على هذا النحو في حضرة زائر...

كيف ذلك! هذا مسلك لا يليق بآنسة شريفة! عودي إلى حجرتك!

بَيْد أن الفتاة زادت في النحيب. فصاحت إتيس رافعةً يدها:

- لن أكرِّر ما أمرتُك به ثانيةً!

فتوسَّلَتْ إليها إحدى الجاريتيْن:

- ائذني لي يا سيدتي.

في عجلٍ جثَتْ الجارية قرب إِلِيَا وأسرَّتْ إليها بكلمات رقيقة لم يستطِع هراقليس أن يتبيَّنها. وما لبث النشيج أن استحال تمتمةً عصيَّةً على الفهم.

التفت هراقليس إلى إتيس مرة أخرى، فلاحظ أنها تراقبه. قالت إتيس:

- تريد أن تعرف ماذا جرى؟ لم يخبرني قائد الحرس سوى أن راعي ماعز قد عثر عليه قتيلًا في موضع لا يبعد عن الليكابيتوس كثيرًا...

- يؤكِّد أسخيلوس الطبيب أنها الذئاب.

- للقضاء على ابني، يستلزم الأمر عددًا ضخمًا من الذئاب!

دار في خلد هراقليس: «وعددًا غير قليل من الذئاب للقضاء عليكِ، أيتها المرأة النبيلة».

ثم أومأ قائلًا:

- لا شك أنها كانت كثيرة.

شرعَتْ إتيس في الحديث بنعومة غريبة، من دون أن تتوجَّه بحديثها إلى هراقليس، وكأنها تبتهل في صلاتها وحيدة. وفي شحوب وجهها بارز العظام، راحت الخدوش الضاربة إلى الحمرة في وجنتيْها تنزف مجدَّدًا.

- رحل منذ يومين. ودَّعتُه كما سبق لي أن فعلت مرات كثيرة، في غير انشغال، إذ كان رجلًا بالفعل ويعرف كيف يعتني بنفسه...

قال لي: «سأقضي اليوم كاملًا في الصيد يا أمّي. ولسوف أملأ الخُرْج بطيور السلوى والسُّمّان من أجلكِ، وأنصب بشباكي شِراكًا للأرانب البرية»...

كان يفكِّر بالعودة في الليلة نفسها. ولم يفعل. كنت أنوي تعنيفه على فعلته عند وصوله، ولكني...

انفغر فمها فجأةً، وكأنما على أهبة النطق بكلمة هائلة. ظلَّتْ على تلك الحال لحظةً، الفكُّ مُتخشِّبٌ، وإهليلج الفم المعتم جامد، غارق في الصمت[13].

ثم أطبقَتْه مرة أخرى بنعومة وهمهمَتْ:

- ولكني الآن عاجزة عن الوقوف في وجه الموت وتعنيفه...

ذلك أنه لن يرُدَّ لي قسمات وجه ابني، طالبًا مني المغفرة...

ابني الحبيب!

فكَّر هراقليس في إعجاب: «إن أدنى بادرة رقَّة منها أشد هولًا من زئير البطل الإغريقي ستينتور[14]».

ثم قال لمُجرَّد التعقيب، وإن كان مقتنعًا بصحة ما يقول في سريرته:

- تكون الآلهة مجحفة أحيانًا.

- لا تحدِّثني عنهم، هراقليس...

أوه، لا تحدِّثني عن الآلهة!

راح فم إتيس يختلج غضبًا:

- لقد أنشبَت الآلهة أنيابها في جسد ابني، ثم كشَّرَتْ عن ابتسامة وهي تنتزع قلبه وتلتهمه، وتتنشَّق عبير دمائه الدافئة في لذّة! أوه، لا تتحدَّث عن الآلهة في حضوري!

بدا لهراقليس أن إتيس تحاول عبثًا تهدئة صوتها، الذي جاء الآن عَبْر فمها يشوبه زئير هادر، ليفرض الصمت على ما حوله. التفتَتْ إليها الجاريتان تتأمَّلانها، بل وحتى إلِيَا نفسها أطرقَتْ تنصت إلى أمِّها في إجلال مهيب.

- لقد اجتثَّ الإله زيوس بن كرونوس شجرة البلوط الأخيرة في هذا البيت وهي لم تزَل خضراء! ألعنكِ أيتها الآلهة وألعن طبقتكِ الخالدة!

كانت قد رفعَتْ يديْها فاردةً راحتيْها، بلفتة مباشرة، دقيقة، تبثُّ الرهبة في النفوس. وبعد ذلك، فيما هي تخفض ذراعيْها وصوت صراخها في آن، رويدًا رويدًا، أردفَتْ بازدراء مباغت:

- إن خيرَ مديحٍ يمكن أن تتوقَّعه الآلهة منا، هو الصمت!

وإذا بصخبٍ مُدوٍّ يخترق كلمة «الصمت». غاص الصوت في سمع هراقليس وسار معه فيما هو خارج من ذلك البيت المشؤوم، وإذا هي صرخة شعائرية، ثلاثية، أطلقَتْها إلِيَا والجاريتان، فيما

فغرن أفواههن إلى أقصاها، وإذا هو زئير جنائزي، حاد، يصمُّ الآذان[15].

الفصل الثاني[16]

أعدَّتْ الجاريتان جثمان تراماكو ابن الأرملة إتيس وفقًا للأعراف المُتَّبعة. فضُمِّخَت الأشلاء البشعة بدهانات من جِرار الليكيتوس، وانسابت أيادٍ رشيقة الأنامل فوق البشرة المهترئة، تمسحها بأطياب وعطور. سُجِّي الجثمان بكفنٍ هشٍّ وثيابٍ نظيفةٍ. كُشِف الوجه وأُحكِم رباط الفكّين بضمادات متينة، للحيلولة دون تثاؤب الموت الذي يبعث القشعريرة في الأبدان. وأسفل لزوجة اللسان دُسَّتْ قطعة أوبول نظير خدمات خارون[17]. ثم أُعِدَّ فراش من الريحان والياسمين، أُودِع فوقه الجثمان وقد وُجِّهت قدماه شطر الباب، حتى يُمكن السهر على الجثمان طيلة اليوم، فيما يحرسه الحضور الرمادي لتمثال هرمِس الحامي صغير الحجم. وعند مدخل البستان، اِستُخدمَت أمفورة الماء المُقدَّس للإعلان عن المأساة على الملأ وتطهير المشيعين إثر اتصالهم بالمجهول. أما النادبات بالأجر، فقد طفقن يصدحن بأناشيدهنّ الملتوية ابتداءً من منتصف النهار، حين بدأت آيُ التعازي تتدفَّق بغزارة أكبر. وفي المساء امتدَّ صفٌّ أفعوانيٌّ من الرجال بحذاء درب البستان. أطرق المشيعون تحت بَرْد الأشجار الرَطْب، يترقَّبون دورهم في الدخول إلى البيت، فالمثول أمام الجثمان، فتعزية الأقرباء. أما عَمّ تراماكو الذي يُدعى دامينوس، القادم من ديموس[18] كلاثوبيون، فقد نهض بمهمّات المضيف. كان يمتلك ثروة من السفن ومناجم الفضة في لاڤريو، ولذا فقد اجتذب حضوره حشدًا ضخمًا من المشيعين. قلائل هم الذين حضروا وفاءً لذكرى ميراجرو والد تراماكو (الذي أُعدِم قبل أعوام طوال بتهمة خيانة الديمقراطية)، أو احترامًا للأرملة إتيس، التي أورثها زوجها وصمة العار.

وصل هراقليس اليونتوري عند مغيب الشمس، إذ كان قد عقد العزم على المشاركة في الموكب الجنائزي، الذي ينطلق في الليل دائمًا. وفي بطء شعائري عبر إلى البهو المعتم-الرطب البارد، المُشبَّع هواؤه بالزيت من رائحة الدهان- ودار حول الجثمان دورة تامّة، يسير على الخُطى المُتموِّجة لصفِّ المشيعين، وفي صمت تعانق كلًّا من دامينوس واتيس، التي استقبلَتْه مُتَّشحةً برداء ييبلوس أسود ووشاح ينتهي بقلنسوة ضخمة. لم يتبادلا حرفًا واحدًا. كان عناقهما واحدًا ضمن معانقات كثيرة. وفي طريقه تسنَّى لهراقليس أن يميِّز رجالًا يعرفهم بالفعل، وآخرين لا يعرفهم. فهناك وقف يراكسينو وابنه أنتيسو رائع الجمال، الذي أكَّد القائلون إنه كان من أعزِّ أصدقاء تراماكو. وهناك أيضًا وقف إسيفينيس وإفيالتيس، التاجران ذائعا الصيت اللذان حضرا من أجل دامينوس بلا شك، فضلًا عن مينيكمو النحّات الشاعر-والذي كان حضوره مدعاة لمفاجأة هراقليس- بثيابه المُهمَلة التي تميِّزه. وعلى سبيل التلهِّي، خرق مينيكمو مراسم العزاء مُوجِّهًا إلى إتيس بضع كلمات بصوت خفيض. وفي نهاية المطاف، وفيما هو خارج عَبْر بَرْد البستان الرطب، تراءى لهراقليس أنه قد لمح هيئة الفيلسوف أفلاطون، قوي البنية، يترقَّب

وسط أولئك الذين لم يدخلوا إلى البيت بعد من الرجال، واستنبطَ أنه قد جاء وفاءً لذكرى الصداقة القديمة التي جمعَتْه بميراجرو.

أما الموكب الذي شرع في المسير نحو المقابر، عَبْر طريق مهرجان الياناتينياس[19]، فقد بدا كائنًا هائل الضخامة، ملتويًا. كان رأسه، في المقام الأول، مُؤلَّفًا من الجثمان المتمايل الذي انتقل محمولًا على أكتاف أربعة من العبيد، ومن خلفه الأقرباء من الدرجة الأولى-دامينوس وإتيس وإلِيَا- غارقين في صمت الألم، ثم عازفي الأَبُوَا، وهم شباب في مقتبل العمر مُتَّشحون بتونيك أسود يترقَّبون بدء الطقوس للشروع في العزف، وأخيرًا ثنايا الثياب البَيض للنادبات الأربع. أما جسم الكائن، فقوامه الأصدقاء ومعارف الأهل، الذين مضوا قدمًا في صفَّيْن.

خرج الموكب الجنائزي من المدينة عَبْر بوابة دييبلون، وتوغَّل في الطريق المُقدَّسة، في منأى عن أضواء البيوت، وسط ضباب الليل الرطب البارد. ارتجَّتْ أحجار منطقة سيراميكوس وراحت تموج على بريق المشاعل، ومن كل حدب وصوب برزَتْ تماثيل آلهة وأبطال يكسوها الزيت الناعم الذي خلَّفه ندى الليل، وكذلك نقوش على أنصاب عالية مُزيَّنة بأخيلة مُتموِّجة، وجِرار مهيبة الهيئة زحف عليها اللبلاب. أودع العبيدُ الجثمانَ بعناية فوق المحرقة الجنائزية. وسمح عازفو الأَبُوَا للأنغام الملتوية المنبعثة من آلاتهم بأن تنساب عَبْر الهواء. أما النادبات فقد مزَّقن ثيابهن، بلفتات راقصة، فيما يصدحن بأناشيدهنّ الباردة المتذبذبة. بدأت طقوس إراقة الخمر على شرف آلهة الموتى. تفرَّقَت الجموع لمراقبة الطقوس، فاختار هراقليس لنفسه موضعًا على مقربة من تمثال هائل الضخامة للبطل بِرسيوس وقد أمسك بأفاعي رأس الميدوسا المبتور[20]. أما رأس الميدوسا المقطوع الذي أمسك البطلُ بأفاعي شَعْره على ارتفاع وجه هراقليس، فبدا كأنما يتأمَّله بعينين شاغرتيْن. بلغَتْ الأناشيد ختامها، وقيلَت الكلمات الأخيرة، وانحنَتِ الرؤوس المُذهَّبة، رؤوس المشاعل الأربعة أمام حوافّ المحرقة. تعالت رؤوس النيران المُتعدِّدة، تتلوَّى، في ما مضَتْ ألسنتها المُتعدِّدة تتموَّج في هواء الليل البارد الرطب[21].

طرق الرجلُ البابَ عدّة مرّات. لم يتلقَّ ردًّا، فعاود طرق الباب مرة أخرى. وفي سماء أثينا المدلهمَّة، شرعَتْ تتلاطم رؤوس غيوم مُتعدِّدة.

انفتح الباب أخيرًا، فأطلَّ من خلفه وجه أبيض بلا ملامح، له جسم مُتَّشح بكفن أسود طويل. أما الرجل، فقد تلعثم في حيرة، في ما يشبه الرهبة، قبل أن يقول:

- أودُّ مقابلة هراقليس اليونتوري، المُلقَّب بكاشف الألغاز.

وفي صمت انساب الجسم المُتَّشح بالسواد إلى داخل البيت المظلم، فتبعه الرجل وهو لم يحسم أمره بعد. وفي الخارج، ما فتئ هزيم الرعد يدوِّي مُتقطِّعًا.

كان هراقليس اليونتوري، الجالس إلى طاولة في حجرته الصغيرة، قد انقطع عن القراءة، وفي شرود جعل يحملق في المسار الملتوي الذي رسمه شرخ ضخم يتدلَّى من السقف وصولًا إلى منتصف الجدار المقابل، حين انفتح الباب بنعومة وبرزت يونسيكا عند المدخل فجأةً.

- زيارة.

قال هراقليس وهو يكشف طلاسم الحركات المتناغمة المُتموِّجة التي أشارت بها الجارية المُقَنَّعة، نحيلة اليديْن، رشيقة الأصابع.

- رجل. يريد رؤيتي.

تمايلت اليدان معًا، فيما راحت رؤوس الأصابع العشرة تتحدَّث في الهواء.

- أجل، ائذني له بالدخول.

كان الرجل فارع القوام، نحيله، يتلفّع برداء متواضع من الصوف جعله هواء الليل الرطب نديًّا، وكأنما قد كساه بطبقة من الحراشف اللزجة. كان له رأس حسن الهيئة، ذو صلعة برَّاقة، وتُزيِّن ذقنَه لحيةٌ بيضاء مُشذَّبة بعناية. تجلَّى في عينيْه صفاء، بَيْد أن التجاعيد المحيطة بهما وشَتْ بعمره وبالتعب الذي يُثقِله. انصرفَتْ يونسيكا في صمت كدأبها دائمًا، أما القادم حديثًا، الذي لم يكُن قد توقَّف عن تفحُّصها بتعبير ينمُّ عن الدهشة، فقد خاطب هراقليس قائلًا:

- تُرى، أيكون الصّيت الذائع عنك في محلّه؟

- وماذا يقول الصّيت الذائع عنِّي؟

- يقول إن كاشفي الألغاز قادرون على قراءة وجوه الناس وهيئة الأشياء كما لو كانت برديَّات مكتوبة. وإنهم يعرفون لغة المظاهر ويتقنون ترجمتها. ألهذا تواري جاريتك وجهها خلف قناع بلا ملامح؟

أما هراقليس الذي وقف ليتناول صحفة من الفاكهة وقارورة من النبيذ، فقد ابتسم ابتسامة خفيفة وقال: - وحق زيوس، لن أكون أنا من يفنِّد صحة ذلك الصيت! أما في ما يتعلَّق بجاريتي، فهي تواري وجهها مراعاةً لراحة بالي أكثر من كونه لراحة بالها. تعرضَّتْ يونسيكا للاختطاف على أيدي قُطَّاع طرق من ليديا وهي طفلة رضيعة. وفي ليلة من ليالي السُّكْر تسلَّى قطاعُ الطرق بكَيِّ وجهها ونزع لسانها الصغير...

تفضَّلْ، خُذْ ما شئت من الفاكهة...

وفي ما يبدو، أشفق عليها أحد قطاع الطرق، أو ربما لمح فرصة سانحة لعقد صفقة، مما دفعه إلى تبنِّيها ليبيعها في وقت لاحق بوصفها جارية أشغال منزلية. اشتريتُها في السوق منذ عاميْن. تروقني لأنها صموت مثل القطط وكفوء مثل الكلاب، بَيْد أن قسمات وجهها المُشوَّهة لا تُدخِل السرور إلى نفسي...

قال الرجل:

- فهمت. أنت تشعر بالأسف من أجلها...

فأجاب هراقليس:

- أوه، كلا، ليس هكذا. الأمر أنها تُشتِّت انتباهي، فعيناي تستسلمان لغواية الأشكال المُعقَّدة في كل ما تقعان عليه، أكثر مما ينبغي. فعلى سبيل المثال، قبل وصولك رحتُ أتأمَّل في شرود مسار ذلك الشرخ المثير للاهتمام في الجدار، مجراه، وفروعه، ومنبعه...

أما وجه جاريتي، فعبارة عن جدائل لا نهائية من الشروخ، لغز دائم على مرمى بصري الذي لا يرتوي، على نحو قرَّرتُ معه أن أحجبه. فأرغمتُها على وضع ذلك القناع الخالي من الملامح. يروقني أن أكون محاطًا بأشياء بسيطة: مستطيل الطاولة، دوائر الكؤوس...

أشكال هندسية بسيطة. ذلك أن عملي ينطوي على عكس ذلك تحديدًا، أي كشف طلاسم ما تَعقَّد من الأمور. أرجوك، خُذْ راحتك على الأريكة...

في هذه الصحفة تجد فاكهة طازجة، ولا سيما حبَّات التين الحلوة. أنا مولع بالتين، ألستَ مولعًا به أنت أيضًا؟ بوسعي أن أقدِّم لك كأسًا من النبيذ الخالص أيضًا...

أما الرجل الذي راح ينصت إلى كلمات هراقليس الهادئة بقدر متزايد من المفاجأة، فقد اتَّكأ بظهره على مسند الأريكة ببطء. وعلى ضوء مصباح الزّيت الصغير الموضوع فوق الطاولة، ألقى رأسه الأصلع بظلٍّ كجسمٍ كرويٍّ تام الاستدارة. في حين ألقى رأس هراقليس بظلٍّ يبلغ السقف، يشبه جذعًا غليظًا مخروطي الشكل، تنمو على قمته طحالب قصيرة من الشعر المُفضَّض.

قال الرجل:

- أشكرك. سأكتفي الآن بالأريكة.

هزَّ هراقليس كتفيْه، نحَّى بعض البرديَّات عن الطاولة، قرَّبَ إليه صحفة الفاكهة، ثم جلس والتقط حبّة تين. سأل بنبرة ودود:

- كيف لي أن أساعدك؟

دوَّى هزيم الرّعد قاسيًا على بُعد. وبعد برهة صمْتٍ، قال الرجل:

- في واقع الأمر، لستُ أدري. تناهى إليَّ أنك تكشف الألغاز، فجئت أعرض عليك واحدًا.

أجاب هراقليس:

- أرِني إياه.

- ماذا؟

- أرِني اللغز. فأنا لستُ أكشف من الألغاز إلا ما استطعتُ أن أتأمَّله. تراه نصًّا؟ أو جسمًا ماديًّا؟

ارتسم على وجه الرجل تعبيرٌ ينمُّ عن الدهشة مجدَّدًا-الجبين مُقطَّب والشفتان شبه منفرجتيْن-فيما أتى هراقليس على رأس حبّة التين[22] بقضمة واحدة نظيفة. ثم قال على مهلٍ:

- كلا، لا شيء من ذلك. فاللغز الذي جئتُ أعرضه عليك مُتعلِّق بشيء كان ولم يعُد. ذكرى. أو فكرة ذكرى.

ابتسم هراقليس وسأل:

- وكيف تريد مني أن أكشف شيئًا من هذا القبيل؟ أنا لستُ أترجم إلَّا ما استطاعت عيناي قراءته، ولستُ أذهب إلى ما وراء الكلمات...

حملق الرجل فيه وكأنما يتحدَّاه. قال:

- ثمة أفكار في ما وراء الكلمات دومًا، حتى وإن كانت خفيَّة. وحدها الأفكار مهمة[23].

انزاح ظلُّ الجسم الكروي إلى الأسفل حين مال الرجل برأسه.

- إننا، على الأقل، نعتقد بالوجود المستقلِّ للأفكار. ولكن دعني أقدِّم لك نفسي. أُدعى دياغوراس، وأنا من ديموس ميدونتي، أُعلِّم الفلسفة والهندسة في مدرسة بساتين الأكاديموس. كما تعلم...

تلك المعروفة باسم الأكاديمية. المدرسة التي يرأسها أفلاطون. أومأ هراقليس برأسه وقال:

- سمعتُ عن الأكاديمية وأعرف أفلاطون معرفة طفيفة. ومع ذلك، أقرُّ بأنني ما عدتُ أراه كثيرًا في الآونة الأخيرة...

فأجاب دياغوراس:

- لا عجب في ذلك، فهو مشغول للغاية في وضع كتاب جديد يضمُّ محاورته حول نظام الحكم الأمثل. بَيْد أني لم آتِ كي أحدِّثك عن أفلاطون، بل عن...

أحد تلاميذي: تراماكو، ابن الأرملة إتيس. الفتى الذي قتلَتْه الذئابُ منذ أيام...

أتعرف من أعني؟

أما وجه هراقليس المكتنز الذي أضاء المصباح نصفه، فلم يبدُ عليه أي تعبير. وإنما دار في خلده: «آه، كان تراماكو طالبًا في الأكاديمية إذًا. لذلك حضر أفلاطون حتى يقدِّم تعازيه إلى إتيس».

أومأ برأسه مرّة أخرى ثم قال:

- أعرف أسرته، ولكني لم أعلم بكون تراماكو طالبًا في الأكاديمية...

فأجاب دياغوراس:

- بالفعل كان طالبًا، وطالبًا مجتهدًا أيضًا.

وفيما هو يعقد رؤوس أصابعه الغليظة، قال هراقليس:

- وهل مِنْ علاقة تجمع بين تراماكو وبين ذلك اللغز الذي جئتَ تعرضه عليَّ...

فأومأ الفيلسوف:

- علاقة مباشرة.

ظلَّ هراقليس مُستغرقًا في التفكير لحظةً. ثم أشار بإشارة مبهمة من يده.

- حسنًا. أطلعني على اللغز بأفضل ما يمكنك، وسنرى.

تاهت نظرات دياغوراس الميدونتي في محيط لسان اللهب المُدبَّب الذي تصاعد على هيئة هرمية من رأسِ ذُبالة المصباح، فيما تتابعَتِ الكلمات بصوته:

- كنتُ مرشده الرئيسي، وكنتُ أفخر به، إذ اجتمعتْ في تراماكو كل السِّمات النبيلة التي يطالب بها أفلاطون أولئك الساعين لأن يصبحوا من حكماء المدينة وحرّاسها. فكان بديعًا كما ليس لأحد أن يكون ما لم ينَل بركة الآلهة، يتقن النقاش بذكاء، مُوفَّقًا في أسئلته دومًا، ذا مسلكٍ نموذجيٍّ وروحٍ يتمايل في انسجام على أنغام الموسيقا وجسم ممشوق استطاع تقويمه بالمواظبة على التمارين في الچيمنازيوم...

كان على وشك أن يبلغ سنّ التجنيد، ويتحرَّق لهفة لأن يخدم أثينا في الجيش. كان مُجرَّد التفكير بأنه سوف يهجر الأكاديمية عما قريب يُحزنني، نظرًا لما كنت أضمره له من تقدير. وعلى الرغم من ذلك، كان قلبي مفعمًا بالغبطة لأن نَفْسَه قد تلقَّتْ عني كل ما أستطيع أن أُلقِّنَها، وصارت أكثر من مُستعدَّة للتعرُّف إلى الحياة...

أطرق دياغوراس هنيهةً، وهو لا يحوِّل نظراته عن تموُّجات لسان اللهب الساكنة. ثم تابع حديثه، وقد اعتور صوته الإجهاد:

- منذ قرابة شهر بدأتُ أشعر بشيء غريب يجري له...

كان يبدو قلِقًا. ما عاد يولي الدروس تركيزه. بل كان يبقى بمنأى عن باقي زملائه، مُتَّكئًا على الجدار الأبعد عن السبّورة، غير آبهٍ بغابة الأذرع التي ترتفع في المكان كرؤوس طويلة الأعناق كلما طَرَحتُ واحدًا من أسئلتي، وكأن الحكمة ما عادت تهمُّه في شيء...

في أول الأمر، لم أُرِد أن أولي مسلكَه قدرًا أكبر مما ينبغي من الأهمية. كما تعرف، فالمشكلات التي تطرأ على المرء في تلك السن مُتعدِّدة، كما أنها تظهر وتتلاشى في سرعة ناعمة. بَيْد أنه ظلَّ غير آبه، بل وتفاقم الأمر، إذ بات يتغيَّب عن دروسه في أحيان كثيرة، وما عاد يتردَّد على الچيمنازيوم...

انتبه بعض زملائه إلى ما طرأ عليه من تغيُّر، لكنهم لم يعرفوا إلامَ يُعزى ذلك. تُراه مرضًا؟ قرَّرتُ الحديث إليه على انفراد...

وإن لم أكفّ عن الاعتقاد بأن مشكلته تافهة...

ربما كانت غرامية...

كما تفهم...

فذلك أمر شائع في تلك السنّ...

فوجئ هراقليس بوجه دياغوراس يتضرَّج كما لو كان فتًى شابًّا. ولمحه يزدرد ريقه قبل أن يتابع قائلًا:

- ذات مساء، في الفاصل ما بين درسيْن، ألفيتُه وحيدًا في البستان، على مقربة من تمثال سفنكس[24]... بين الأشجار، وقف الفتى ساكنًا على نحو عجيب. بدا أنه يتأمَّل التمثال الحجري الذي له رأس امرأة وجسم أسد وجناحا نسر، غير أن جموده المُطوَّل -بالغ الشبَه بجمود التمثال- كان يحدو إلى التفكير بأن ذهنه يُحلِّق على بُعدٍ شاسعٍ من ذلك الموضع. باغته الرجل وهو على

تلك الحال، واقفًا على قدميه، وقد أسدل يديْه على جانبيْه، ومال برأسه قليلًا، وضمَّ كعبيْه أحدهما إلى الآخر. كان الغسق باردًا، وعلى الرغم من ذلك، فلم يرتدِ الفتى من الثياب إلَّا تونيكَ خفيفًا، قصيرًا، شأن رداء الخيتون الإسيرطي[25]، أخذ يتطاير في مهبِّ الريح كاشفًا عن ذراعيْه وفخذيْه البيضاويْن. كانت خصلات شعره الكستنائية المُجعَّدة معقوصة بشريط. وكان ينتعل خُفَّيْن من الجلد غاية في الجمال. استأثر الوضعُ باهتمام الرجل، فدنا منه. وما إن فعل حتى شعر الفتى بوجوده والتفت إليه. - آه، مُعلِّم دياغوراس. أنت هنا...

فشرع يسير مُبتعدًا. إلا أن الرجل استوقفه قائلًا:

- مهلًا، تراماكو. إنما أردتُ أن أتحدَّث إليك على انفراد.

توقَّف الفتى وقد أولاه ظهره (فيما تعرَّتْ كتفاه البيضاوان)، ثم التفت إليه ببطء. أما الرجل الذي حاول أن يبدو حانيًا، فقد انتبه إلى تخشُّب أطراف الفتى الناعمة، ثم ابتسم حتى يبثَّ في نفسه الطمأنينة وقال:

- أليس ثوبك خفيفًا؟ الجو بارد على ثوبك الخفيف...

- لا أشعر بالبرد، مُعلِّم دياغوراس.

وفي حُنُوٍّ ربّت الرجل على العضلات المُتموِّجة البارزة في ذراع تلميذه اليسرى.

- هل أنت متأكّد؟ فبشرتك تكاد تكون مُثلَّجة، يا بنيّ المسكين...

يبدو أنك ترتجف.

دنا منه أكثر، مُزوَّدًا بالثقة التي يبثُّها في نفسه شعوره نحو الفتى بالمودة. وبلفتة ناعمة، بحركة تكاد تكون أمومية، أزاح بأنامله خصلات شعر تلميذه المُجعَّدة الكستنائية التي انسدلت على جبينه. ومرة أخرى عجِب لجمال ذلك الوجه الذي لا تشوبه شائبة، ولحُسن تينك العينيْن العسليتَيْن اللتيْن تتأمَّلانه فيما ترمشان. قال:

- أنصتْ يا بني، لاحظتُ وزملاؤك أن بك شيئًا. في الآونة الأخيرة، لم تعُدِ الشخص الذي كنتَه دائمًا...

- كلا يا مُعلِّم، أنا...

فألحَّ عليه الرجل برقَّة، وربَّت على وجه الفتى البيضاوي الصافي، آخذًا بذقنه في رهافة، كالمُمسِك بكأس من الذهب الخالص:

- أنت خير طلّابي، والمُعلِّم يعرف خير طلّابه حقَّ المعرفة. منذ قرابة شهر يبدو أنك لا تأبه بشيء، ولا تشارك في المحاورات التربوية...

مهلًا، لا تقاطعني...

علاوة على ذلك، فقد نأيتَ بنفسك عن زملائك. تراماكو...

يا بنيّ، ثمة ما يجري لك بالتأكيد. قُلْ لي ماذا بك فحسب، وأقسم لك أمام الآلهة إنني سوف أبذل قصارى جهدي لمساعدتك، علمًا أن جهدي ليس قليلًا. لن أُطلع أحدًا على شيء ما لم تُرِد. أعطيك كلمتي، ولكن ثِقْ فيَّ...

أما عينا الفتى الكستنائيتان فقد نظرتا إلى الرجل، مفتوحتيْن عن آخرهما. ربما كانتا مفتوحتيْن أكثر مما ينبغي. للحظة ساد صمت وسكون. وببطء، حرَّك الفتى شفتيْه المتورّدتَيْن، الرطبتيْن، الباردتيْن، وكأنه يهمّ بالحديث، إلا أنه لم يقُل شيئًا. ظلَّت عيناه محدِّقتيْن، جاحظتيْن، وكأنهما رأسان صغيران من العاج لهما حدقتان هائلتان، سوداوان. انتبه الرجل إلى شيء غريب في هاتيْن العينيْن، فجعل يتأمَّلهما مُستغرقًا إلى حدٍّ كاد لا يدرك معه أن الفتى قد تراجع إلى الخلف بضع خطوات، من دون أن يحوِّل نظراته، وجسمه الأبيض لا يزال مُتخشِّبًا، وشفتاه لا تزالان مزمومتيْن...

وظلَّ الرجل جامدًا ردحًا طويلًا من الوقت بعد أن ولَّى الفتى هاربًا.

بعد صمت عميق، قال دياغوراس:

- كانت فرائصه ترتعد من الهلع.

أخذ هراقليس حبّة تين أخرى من صحفة الفاكهة. وعلى بُعد، دوَّى هزيم الرعد مُضطربًا وملتويًا كالأفعى المجلجلة.

- وكيف تعرف ذلك؟ هل أخبرَك؟

- كلا. قلتُ لك بالفعل إنه قد ولَّى هاربًا قبل أن أتمكَّن من زيادة كلمة واحدة. بلغَتْ حيرتي مبلغها...

ورغم أنني أفتقر إلى قدرتك على قراءة الوجوه، فقد عاينتُ الخوف مرّات كثيرة، أكثر مما ينبغي، وأعتقد بأن في وسعي التعرُّف عليه. أما ذلك الذي استحوذ على تراماكو، فهو أفظع شعور بالهلع عاينتُه على مدى حياتي. كانت نظراته تفيض بذلك الشعور. كشفتُه، غير أنني لم أعرف كيف أتعامل معه. وكأن...

وكأن عينيْه قد جعلتا مني حجرًا، بالفزع الذي يعتمل في نفسه. وحين تلفَّتُّ حولي، كان قد رحل. لم أعُد لرؤيته. في اليوم التالي أخبرني أحد أصدقائه بأن تراماكو قد ذهب للصيد. عجبتُ لذلك قليلًا، آخذًا في الحسبان أن الحالة المعنوية التي وجدتُه عليها في الليلة السابقة لم تبدُ ملائمة لكي يهنأ بذلك التمرين، ولكن...

قاطعه هراقليس وهو يقبض على رأس حبّة تين أخرى من بين الحبَّات المُتعدِّدة التي أطلَّت من حافة صحفة الفاكهة.

- من أخبرك بأنه قد ذهب للصيد؟

- وإيونيو، واحد من أعز أصدقائه. وكذلك أنتيسو بن يراكسينو...

- طالبان في الأكاديمية أيضًا؟

- أجل.

- حسنًا. تابِعْ، من فضلك.

مسح دياغوراس بيده على رأسه (وفوق الظلِّ الساقط على الجدار، تسلَّل حيوان زاحف عَبْر السطح اللزج للجسم الكروي). ثم قال:

- في ذلك اليوم تحديدًا أردتُ أن أتحدَّث إلى كل من أنتيسو وإيونيو، فوجدتُهما في الچيمنازيوم...

أيادٍ ترتفع، تتلوَّى، تلعب بأمطار من حراشف متناهية الدقة. أذرع رشيقة، رطبة. ضحكات مُتعدِّدة، تعليقات هازلة تتقاطع مع صوت المياه، أجفان مُغمَضة بإحكام، رؤوس مرفوعة. دَفْعَة، ثم أصداء قهقهات تتدفَّق مُجدَّدًا. قد يستحضر المشهدُ من أعلى صورةٍ زهرةً مُؤلَّفة من أجسام الفتيان، أو صورة جسم واحد مُتعدِّد الرؤوس.

أذرع كبتلات الأزهار المُتموِّجة.

البخار يربّت على العُري اللزج المُتعدِّد.

لسان رطب من المياه ينساب عَبْر فُوَّهة صنبور على هيئة غرغول[26].

حركات... لفتات زهرة اللحم الملتوية...

وبغتةً، يغشى البخار المشهدَ بأنفاس كثيفة[27].

ينقشع الضباب فيتسنَّى لنا أن نميِّز حجرة صغيرة، هي حجرة تبديل الثياب، بالحكم على الأردية المدلاة من الجدران المُكلَّسة وأجساد الفتيان الذين كانوا على درجات متباينة من العُري. استلقى أحدهم على بطنه فوق أريكة، بلا أثر للثياب، وبنَهَمٍ راحت تنساب فوق جسمه يدان سمراوان، تمسِّدان عضلاته على مهل. تُسمَع ضحكات، إذ طفق الفتيان يمزحون بعد الاغتسال. يخفُتُ فحيحُ البخار الآتي من مراجل المياه المغلية حتى يتلاشى كلّيًا. ينزاح ستار المدخل، وتنقطع الضحكات المُتعدِّدة. رجل فارع القامة، نحيلها، ذو صلعة براقة ولحية مُهذَّبة بعناية، يحيِّي الفتيان الذين سارعوا بردِّ التحية. يشرع الرجل في الحديث. ينصت الفتيان إلى كلماته بانتباه، وإن حاولوا المضي قدمًا في أنشطتهم، فتابعوا وضع ثيابهم، أو خلعها، ومضوا يجفِّفون أجسامهم حسنة الهيئة بمناشف طويلة، أو يضمّخون عضلاتهم المُتموِّجة بدهانات زيتية الملمس.

يخصُّ الرجل اثنين من الشباب بحديثه. أحدهما أسود الشعر، غزيره، له وجنتان مُشرَّبتان بحمرة دائمة، راح يشدُّ سيور خفَّيْه وقد انحنى على الأرض. أما الآخر، الإفيبوس الذي استسلم لتمسيد جسده، عاريًا، فله مُحيّا بديع الجمال (الآن نستطيع رؤيته).

تنضح الحجرةُ سخونةً، شأنها في ذلك الأجساد. عندئذ تزحف زوبعة من الضباب، تتلوَّى أمام أعيننا، ويتلاشى المشهد.

قال دياغوراس شارحًا:

- سألتُهما عن تراماكو. في بادئ الأمر لم يفهما مقصدي جيِّدًا، ولكن كلاهما أقرَّ بأن ثمة تغيُّرًا طرأ على صديقهما، وإن لم يتبيَّنا الدافع وراء ذلك. عندئذ كشف لي ليسيلو (طالب آخر شاءت الصدفة أن يكون هناك) عن أمر عصيّ على التصديق، فأخبرني بأن تراماكو أمضى شهورًا وهو يتردَّد سرًّا على بائعة هوى من بيريوس تُدعى ياسينترا. وأردف هازئًا: «ربما كانت هي أحدثَتْ فيه ذلك التغيير يا مُعلِّم». أما أنتيسو وإيونيو، فقد أكَّدا على وجود تلك العلاقة في خجل بالغ.

تملَّكني شعور بالدهشة، والألم على نحو ما، وإن شعرتُ براحة كبيرة في الوقت ذاته. أن يحجب عني تلميذي زياراته المُخزية إلى بائعة هوى من المرفأ أمر يدعو إلى القلق بالتأكيد، بالأخذ في الحسبان التعليم النبيل الذي تلقَّاه. وعلى الرغم مما تقدَّم، فقد دار بذهني أن ليس هنالك ما يدعو إلى الخوف إذا كانت المشكلة تتلخَّص في ذلك. عقدتُ العزم على مفاتحته في الأمر مُجدَّدًا حين تسنح فرصة أكثر ملائمةً، ومناقشته على نحو معقول بشأن تلك الزلَّة الروحية...

أطرق دياغوراس هنيهةً. كان هراقليس اليونتوري قد أضاء مصباحًا آخر مُثبَّتًا في الجدار، فتضاعفَتْ ظلال رأسيهما. تساقطَتْ عن رأس هراقليس جذوع مخروطية الشكل، تتحرَّك في تواؤم فوق الجدار المصنوع من الطوب، أما الأجسام الكروية الساقطة عن رأس دياغوراس، فظلَّتْ مُستغرقةً في التفكير، ساكنةً، فيما نشز عنها الشعر الأبيض المُنسكِب فوق مؤخِّر العنق واللحية المُشذَّبة بعناية. وحين استطرد في روايته، بدا أن صوت دياغوراس قد تهدَّج فجأة:

- ولكن...

في الليلة ذاتها، عند مطلع الفجر، قرع حرس الحدود بابي...

كان أحد رعاة الماعز قد عثر على جثمانه في الغابة، على مقربة من الليكابيتوس، فأبلغ الحرس بذلك...

تعرَّفوا على الجثمان فلجأوا إليَّ، علمًا منهم بأنه لا رجال في بيته لتلقِّي الخبر وبأن عمه دامينوس في المدينة...

أطرق مرة أخرى، وهدير العاصفة يدوِّي بعيدًا، مصحوبًا بالصوت الناجم عن قطع رأس حبة تين جديدة في نعومة. انقبضَتْ قسمات وجه دياغوراس، وكأن كل كلمة تتطلَّب منه جهدًا هائلًا. قال:

- وبرغم ما قد يبدو عليه الأمر من غرابة، فقد شعرتُ بالذنب...

لو كنتُ قد استطعتُ نيل ثقته ذلك المساء، لو كنتُ قد أفلحتُ في حمله على إخباري بما يجري له...

فلربما كان قد أمسك عن الخروج للصيد...

لربما كان لا يزال على قيد الحياة.

رفع عينيْه إلى مُحدِّثه البدين، الذي راح يصغي إليه مستلقيًا على مقعده فيما ارتسم على وجهه تعبير هادئ، وكأنه على وشك أن يستسلم للنوم. ثم تابع:

- أعترف لك بأنني قضيتُ يومَيْن مُروِّعيْن أفكِّر أن تراماكو قد ارتحل رحلة الصيد المشؤومة تلك ليتملَّص مني ومن خَرَقي...

ولذا فقد اتَّخذتُ قرارًا ذلك المساء. أريد أن أعرف ماذا جرى له، وما الذي أفزع تراماكو كل هذا الفزع، وإلى أي مدى كان التدخُّل من جانبي قادرًا على مساعدته...

ولذا لجأتُ إليك. في أثينا يُقال إنه إذا أراد المرء معرفة المستقبل فمن الضروري أن يلجأ إلى أوراكل دِلفوي[28]، أما إذا أراد معرفة الماضي فحسبه التعاقد مع كاشف الألغاز...

فصاح هراقليس بغتةً:

- ذلك ضرب من العبَث!

كاد دياغوراس يفزع من جرَّاء رد فعله غير المُتوقَّع، إذ هبَّ هراقليس واقفًا بسرعة، ساحبًا خلفه كل الظلال الساقطة عن رأسه، وشرع يذرع الحجرة الرطبة الباردة في جولات قصيرة فيما تربّت أصابعه الغليظة على واحدة من حبَّات التين اللزجة التي التقطها لتوه. ثم استطرد بالنبرة المحتدمة ذاتها:

- أنا لا أكشف طلاسم الماضي ما لم أستطِع رؤيته، فالنصوص أو الوجوه أو الأجسام المادية أشياء أستطيع أن أراها. بَيْد أنك تحدِّثني عن ذكريات، وعن انطباعات...

وعن آراء! كيف لي أن أهتدي بها؟ تقول إن تلميذك كان يبدو قلِقًا منذ شهر، ولكن ماذا تعني بـ«كان يبدو قلِقًا»؟

رفع ذراعه بلفتة مباغتة.

- بالمثل تستطيع القول إنني كنتُ قلِقًا وأنا أتأمَّل ذلك الشرخ في الجدار، قبل دخولك إلى الحجرة بلحظة! ثم تجزم بأنك قد رأيتَ الهلع في عينيْه...

الهلع! دعني أسألك، أكان الهلع مكتوبًا على حدقتيْه بحروف إيونية؟ أيكون الخوف كلمةً تُدوَّن على خطوط الجباه؟ أو رسمًا، كذلك الشرخ في الجدار؟ إن تلك النظرة التي عزوتها أنت إلى الهلع وحسب، قد تكون ناجمة عن ألف شعور من المشاعر المتباينة!

أجابه دياغوراس، بقليل من الضيق:

- أنا أعرف ما رأيت. تراماكو كان مصابًا بالهلع.

فأردف هراقليس مُوضِّحًا:

- بل تعرف ما خلتَ أنك قد رأيت. إن معرفة الحقيقة تعني معرفة مقدار الحقيقة التي نستطيع أن نعرفها.

أقرَّ دياغوراس قائلًا:

- كان سقراط، مُعلِّم أفلاطون، له رأي مشابه. ذلك أنه كان يقول: «كل ما أعرفه أنني لا أعرف شيئًا». وفي واقع الأمر، جميعنا يوافقه الرأي. ولكنْ فِكْرَنا له أعين أيضًا، ومن خلاله نستطيع أن

نرى أمورًا لا تراها أعيننا المادية...

قاطعه هراقليس بغتةً:

- آه، حقًّا؟ حسنًا، أخبرني ماذا ترى هنا إذًا.

ثم رفع يده بسرعة يدنيها إلى وجه دياغوراس. ومن بين أصابعه الغليظة أطلّ رأسٌ أخضرُ لزجٌ.

وبعد لحظة من المفاجأة، قال دياغوراس:

- حبّة تين.

- حبّة تين كغيرها؟

- أجل. يبدو أنها لم تُمسّ. لونها ناضر. إنها حبّة تين عادية.

فصاح هراقليس ظافرًا:

- آه، إليك الفارق بيني وبينك! أنا أتفحَّص الثمرة نفسها فأرى أنها تبدو حبّة تين عادية. بل قد أرى أنها حبة تيّن عادية على الأرجح، ولكني أتوقَّف عند ذلك الحدِّ. أما إذا أردتُ معرفة المزيد، فينبغي لي أن أشقَّ الثمرة...

كما شقَقتُ هذه الثمرة في أثناء حديثك...

وبنعومة باعد بين شِقَّي حبّة التين بعد أن كان يضمُّ كلًّا منهما إلى الآخر. وبحركة واحدة ملتوية، تعالت من جوف الثمرة المعتم رؤوسٌ مُتعددِّة بالغة الضآلة، في غضب، تتلوَّى وتُصدر فحيحًا خافتًا للغاية. ارتسمت على وجه دياغوراس أمارات الاشمئزاز. فأردف هراقليس:

- أشقُّها...

فلا أُفاجأ بقدر ما تُفاجأ أنتَ إن خالفَت الحقيقةُ توقُّعاتي!

عاود ضمَّ شِقَّيّ الثمرة ثم وضعها فوق الطاولة. وفجأةً، بنبرة أهدأ كثيرًا، أشبه بتلك التي كان يتحدَّث بها في مُستهَلِّ اللقاء، تابع كاشف الألغاز قائلًا:

- انتقيتها بنفسي في حانوت تاجر أجنبي في الأجورا. إنه رجل صالح ولا يكاد يغشُّني أبدًا، أؤكِّد لك، فهو يعرف حقَّ المعرفة أنني خبير في ما يتَّصل بالتّين. ومع ذلك، فالطبيعة تفعل أفاعيلها أحيانًا...

تضرَّج رأس دياغوراس مرة أخرى. وصاح:

- هل ستقبل العمل الذي أعرضه عليك، أم إنك تفضّل مواصلة الحديث بشأن التين؟

أخذ كاشف الألغاز القارورة وصبَّ نبيذًا ثخينًا خالصًا في إحدى الكؤوس.

- لو قبلتُه لكانت تلك خيانة أقترفها في حقِّ نفسي. بمَ أخبرتَني؟ بمُجرَّد فرضيات...

وهي ليست حتى فرضيات توصَّلتُ إليها بنفسي، بل إنك أنت الذي توصَّلتَ إليها...

مال برأسه وتابع:

- مستحيل. أتريد قليلًا من النبيذ؟

إلا أن دياغوراس كان قد هبَّ واقفًا، منتصبًا كعود خيزران، تتوهَّج وجنتاه احمرارًا.

- لا أريد نبيذًا. ولا أريد أن آخذ من وقتك المزيد. أعرف أنني قد أخطأت باختيارك. أستميحك عذرًا. لقد أدَّيتَ أنت واجبك إذ قابلتَ مطلبي بالرفض، كما أدّيتُ أنا واجبي إذ عرضتُه عليك. عمت مساءً...

فقال هراقليس بعدم اكتراث بادٍ، وكأن دياغوراس قد نسي شيئًا عند انصرافه:

- مهلًا. قلتُ إنني لا أستطيع أداء عملكَ أنت. أما إن شئت أن تؤدّي أتعابي نظير أداء عملي أنا، فلسوف أقبل نقودك...

- أي ضرب من ضروب المزاح ذلك؟

أطلَّتْ عينا هراقليس من رأسه، تتجلَّى فيهما ومضات مُتعدِّدة تشي بالسخرية، وكأن كل ما قاله حتى هذه اللحظة لا يعدو كونه مزحة هائلة. قال شارحًا:

- عشيّةَ أقبل الجند حاملين جثمان تراماكو، أيقظ كهل مجنون يُدعى كاندالو الجيران جميعًا في الحي حيث أسكن. خرجتُ لأتحقَّق مما يجري كما فعل الآخرون، فاستطعتُ معاينة جثة تراماكو. كان أسخيلوس الطبيب يفحص الجثة، ولكن ذلك الطبيب عديم الكفاءة عاجزٌ عن الرؤية أبعد من لحيته...

أما أنا، فقد رأيتُ بالفعل شيئًا بدا لي جديرًا بالفضول. لم أعُد للتفكير فيه، غير أن طلبك قد ذكَّرني به...

مسح على لحيته مُتفكِّرًا. ثم صاح وكأنه قد اتَّخذ قرارًا مفاجئًا:

- دياغوراس، سأقبل بكشف لغز تلميذك دياغوراس. ولكن ليس من أجل ما خلتَ أنت أنّك قد رأيتَ حين تحدَّثتَ إليه، بل من أجل ما رأيتُ بنفسي حين تفحَّصتُ الجثّة!

لم يُجِب كاشف الألغاز عن سؤال واحد من الأسئلة المُتعدِّدة التي تفتَّق عنها رأس دياغوراس. من بعيد أو من قريب. بل اكتفى بأن أردف قائلًا:

- فلنمسك عن الحديث بشأن التين قبل شقِّه. أفضّل ألا أزيد على ما قلتُ في الوقت الراهن شيئًا، فقد أكون مخطئًا. ولكن ثِقْ فيَّ، دياغوراس. إن استطعتُ كشف اللغز الذي يخصُّني، الأرجح أن ينطوي ذلك على حلِّ اللغز الذي يخصُّك أيضًا. إن شئت، سأتطرَّق إلى مسألة أتعابي...

تطرَّقا إلى الشقِّ المادّي حتى توصَّلا إلى اتفاق. عند ذاك أشار هراقليس إلى عزمه على بدء التحرّيات في اليوم التالي، والذهاب إلى بيريوس سعيًا لمقابلة بائعة الهوى التي كان تراماكو على علاقة بها.

قاطعه دياغوراس سائلًا:

- هل أستطيع الذهاب معك؟

وفيما راح كاشف الألغاز يتفحَّصه بتعبير ينمُّ عن الدهشة، أردف دياغوراس:

- أعرف أنه ليس ضروريًّا، ولكني أودُّ ذلك. أريد أن أتعاون معك. وبذلك أعرف أنني ما زلتُ قادرًا على مساعدة تراماكو. أعدك بأن أمتثل لما تأمر به.

هزَّ هراقليس اليونتوري كتفيْه وقال باسمًا:

- حسنًا. دياغوراس، باعتبار أن النقود نقودك، أفترضُ أن لك مطلق الحقّ في العمل لديّ...

أما الأفاعي المُتعدِّدة المُلتفَّة حول ذاتها أسفل قدميْهما، ففي تلك اللحظة رفعَتْ رؤوسَها المكسوّة بالحراشف، ونفثَتْ بألسنة لزجة مُترعَة بالغضب[29].

الفصل الثّالث[30]

يبدو لي من اللائق أن نوقف مسار القصة الحثيث لحظةً لنقول بضع كلمات سريعة بشأن الشخصيتيْن الرئيسيتيْن: هراقليس بن فرينيكو، من ديموس يونتور، ودياغوراس بن خاميساكو، من ديموس ميدونتي. من كانا؟ ومن كانا يخالان نفسيْهما؟ ومن كانا بحسب اعتقاد الآخرين؟

في ما يتَّصل بهراقليس، دعونا نقُول إن[31].

أما فيما يتَّصل بدياغوراس[32]

الآن وقد ألمَّ القارئ بتلك التفاصيل المُتعلِّقة بحياة كلٍّ من الشخصيتيْن، نستأنف القصة في غير توانٍ، ونسرد ما كان من حوادث في مدينة بيريوس المينائية، حيث ذهب هراقليس ودياغوراس بحثًا عن بائعة الهوى المدعوّة ياسينترا.

بحَثَا عنها عَبْر الأزقة الضيّقة التي يسافر خلالها عبير البحر برشاقة، وعَبْر أُطُر الأبواب المفتوحة المعتمة، هنا وهناك، وسط حشود صغيرة من نساء صامتات يَبتسِمْنَ حين يقتربان منهنَّ، وإذا بهنّ يَتّخذنَ منحًى جادًّا عند استجوابهنّ، في تحوُّل مُفاجئ. بحثًا عنها صعودًا وهبوطًا، عَبْر مرتفعات ومنحدرات تغوص على حافة المحيط، على النواصي حيث يترقَّب ظلٌّ مُطرِقًا، ظلُّ رجل أو امرأة. سألا عنها العجائز اللائي ما زلن يُزَيِّنَّ وجوههنّ البرونزية، المطلية بالمساحيق البيض، الخالية من أي تعبير، وجوههنّ القديمة قِدَم البيوت. دَسَّا قطع الأوبول في أيادٍ مرتعشةٍ ومُتشقِّقةٍ كأوراق البردي. سمِعَا رنين الخلاخيل المُذهَّبة بينما راحت ترتفع الأذرع في إشارة إلى اتجاه أو اسم: اسألْ كويسياس، ميليتا تعرف، ربما كانت في بيت تاليا، أنفيتريتي يبحث عنها هو الآخر، إيو عاش زمنًا أطول في هذا الحي، كليتو يعرفهنّ على نحو أفضل، أنا لست تاليًا بل ميروبيس.

وفي تلك الأثناء، تلتمع العيون، أسفل أجفان مُثقلة بالأصباغ، مُغمضة نصف إغماضة دومًا، رشيقة دومًا، تختلج فوق عروش من أهداب سود ورسوم من زعفران أو عاج أو ذهب مُشرَّب بحمرة...

عيون النساء، سريعة أبدًا، وكأنما في النظرات وحدها تتحرَّر النساء، وكأنما لا يسود حُكمهن إلا خلف سواد الأحداق، التي تلتمع...

في سخرية؟ في شغف؟ عن مقت؟ بينما تظلُّ الشفاه ساكنة، وقسمات الوجوه جامدة، والردود المقتضبة تواري خواطرهنّ. وحدها العيون خاطفة، ثاقبة، مُروِّعة.

وفي السماء، مضى المساء في طريقه بغير توقُّف، حتى أوشك أن ينقضي. وأخيرًا، قرَّر دياغوراس أن يتحدَّث، وراح يفرك ذراعيْه أسفل الرداء بحركات رشيقة: - لن يلبث الليل أن يهبط. لقد مرَّ النهار سريعًا. ولم نعثر عليها بعد...

سألنا عشرين واحدة منهن على الأقل، ولم نتلقَّ سوى إرشادات ملتبسة. أعتقد بأنهنّ يحاولن إخفاءها، أو خداعنا.

مضيا في سبيلهما عَبْر شارع ضيق مُنحدِر. ووراء أسقف القرميد، كشف الشفق الأرجواني عن أفق البحر. تركا خلفهما حشود الناس والإيقاع المحموم الذي يتَّسم به مرفأ بيريوس، والأمكنة التي يتردَّد عليها الباحثون عن المتعة واللهو أكثر من غيرها. والآن بلغا الحي الذي يسكنَّ فيه، هُنَّ. والحي بمثابة غابة من الدروب الحجرية، وأشجار من الطوب، حيث تصل العتمة قبل موعدها وينجلي الليل قبل أوانه. عُزلة مسكونة، محجوبة، مَلأى بعيون خفية.

قال دياغوراس من دون أن يتجشَّم عناء مداراة ضيقه:

- على الأقل حديثك مُسلٍّ!

بدا له أنه قد أمضى ساعات يكلِّم نفسه، في حين اكتفى رفيقه بالمسير، والتبرُّم، والتقاط حبّة تين من خُرْجه ليأتي عليها من آن إلى آخر.

- أنا مفتون بمَلَكة الحوار لديك، وحق زيوس...

توقَّف والتفت برأسه، فلم يجد سوى رجع خطاهما.

- تلك الأزقة المُنفِّرة التي تغصُّ بالقمامة والروائح الكريهة...

أين المدينة «حسنة البناء»، على حدِّ وصف الجميع لبيريوس؟ أهذا هو التصميم «الهندسي» الشهير الذي وضعه هيبوداموس الميليتوسي للشوارع، بحسب ما يُقال؟ وحق الربة هيرا، إنني لم ألمح حتى الأستينوموس[33]، ولا العبيد ولا الجُند، كما في أثينا! لا يبدو لي أنني وسط مواطنين إغريق، بل في عالم همجيّ...

وليس ذلك مُجرَّد انطباع شخصي، فهذا المكان محفوف بالمخاطر، أستطيع أن أشتَمَّ رائحة الخطر بوضوح كرائحة البحر. ولكني أشعر بقدر أكبر من الهدوء، والفضل في ذلك يرجع إلى حديثك المفعم بالحيوية بالطبع. إن حديثك يُعزِّيني، يُنسيني المكان حيث أسير...

فقال هراقليس بعدم اكتراث فائق:

- دياغوراس، أنت لا تؤدِّي أتعابي نظير حديثي إليك.

فسخر الفيلسوف:

- حمدًا لأيولُّو، أخيرًا سمعتُ صوتك! لم تكُن دهشة بجماليون بقدر دهشتي يوم تحدَّث إليه تمثال غالاتيا[34]! غدًا أقدِّمُ عنزةً قربانًا عن...

- اصمتْ! قاطعه كاشف الألغاز بسرعة.

- هذا هو البيت الذي أرْشَدْنا إليه...

كان هناك جدار رمادي مُتشقِّق يرتفع في عُسر على أحد جانبي الطريق. وأمام فجوة الباب، التقى جَمعٌ من الظلال.

فاعترض دياغوراس قائلًا:

- لعلك تقصد سابع بيت. لقد سألتُ في ستة بيوت سُدى.

- نظرًا لخبرتك المتنامية، فلن يشقَّ عليك أن تستجوب أولئك النساء...

أقبل دياغوراس مُقتربًا فاستحالت الأوشحة الداكنة التي توارت خلفها الوجوه نظراتٍ وبسماتٍ.

- نستميحكن عذرًا. أبحثُ وصديقي عن الراقصة المدعوة ياسينترا. قيل لنا إن...

وكالغُصن الذي يتهشَّم تحت أقدام صائد يخطو من دون حذَر، فيُفزِع الطريدة التي تلوذ بالفرار بسرعة خاطفة من رُقعة الأرض الجرداء وسط الغابة بحثًا عن أمان الأَشجار الكثيفة، هكذا أثارت كلمات دياغوراس ردَّ فعل غير مُتوقَّع من الجَمْع، فهرعَتْ إحدى الفتيات مُبتعدةً عَبْر الشارع نزولًا في خفَّة، فيما عجَّلَت الأخريات بالدخول إلى البيت.

صاح دياغوراس في الظلِّ الهارب.

- مهلًا!

ثم سأل الأخريات:

- أتلك هي ياسينترا؟ انتظرن وحق زيوس، فلسنا نريد سوى...!

أُوصِد الباب على عجل. وأمسى الشارع خاويًا. فتابع هراقليس المسير في غير عجلة، بينما تبعه دياغوراس على مضض شديد. وبعد لحظة سأل:

- وماذا الآن؟ ماذا نحن فاعلان؟ لماذا نتابع المسير؟ لقد انصرفَتْ. ولَّتْ هاربة. تُراك تفكِّر في اللحاق بها سيرًا على هذه الوتيرة؟

تبرَّم هراقليس، وبهدوء أخرج حبّة تين أخرى من خُرْجه. وفي أوجّ سخطه، توقَّف الفيلسوف موجِّهًا إليه كلمات محتدمة:

- أنصِتْ إليَّ مرة واحدة! قضينا يومنا نبحث عن بائعة الهوى عَبْر شوارع المرفأ والشوارع الداخلية، في البيوت الأسوأ سُمعة على الإطلاق، في الحي العلوي والحي السفلي، هنا وهناك، على عجل، واضعيْن ثقتنا في كلمات آفِكة أدلَتْ بها نفوس دنيئة، أرواح جاهلة، قوَّادات داعرات، نساء خبيثات...

ولكن، الآن وقد أذن لنا زيوس بأن نعثر عليها، بحسب ما يبدو، فإذا هي تعاود الاختفاء مرة أخرى! أما أنت فتواصل المسير في غير عجلة، كما لو كنتَ جروًا راضيًا عن نفسه، في حين أن...!

- دياغوراس، هدِّئ من روعك. أتريد حبّة تين؟ سوف تزوِّدكَ بالقوى اللازمة لـ...

- دعني وشأني أنت وتينك! أريد أن أعرف لماذا نتابع المسير! بحسب اعتقادي، يجدر بنا أن نحاول التحدُّث إلى النساء اللائي دلفن إلى البيت و...

فقال هراقليس بهدوء:

- كلا، فالمرأة التي نبحث عنها هي التي ولَّتْ هاربة.

- ولماذا لا نعدو خلفها؟

- لأننا متعَبان جدًّا. على الأقل، أنا متعَبٌ جدًّا. ماذا عنك؟

أخذ ضيق دياغوراس يتزايد:

- أما والحال كذلك، فلماذا نتابع المسير؟

ومن دون أن يتوقَّف، سمح هراقليس لنفسه بصمت وجيز فيما جعل يلوك التين، ثم قال:

- التعب يزول بالتعب أحيانًا. فحين يتكرَّر ويتتالى كثيرًا، لا يعود للتعب تأثير علينا.

رآه دياغوراس يبتعد على الوتيرة ذاتها، نزولًا عَبْر الشارع، فلحق به كارهًا وقال بأنفاس مُتقطِّعة:

- وما زلتَ تجرؤ على الادعاء بأن الفلسفة لا تروقك!

سارا لبرهة في صمت الليل الداني. أما الشارع حيث ولَّت المرأة هاربة بلا هوادة، فكان يمتدُّ بين صفَّيْن من البيوت الخَرِبة. لن تلبث العتمة أن تطبق على المكان، حتى البيوت لن تعود رؤيتها ممكنة.

امتعض دياغوراس:

- تلك الشوارع العتيقة القاتمة...

وحدها الربَّة أثينة تعلم أين لتلك المرأة أن تكون! كانت شابة ورشيقة...

أعتقد بأنها قادرة على العدو بلا توقُّف حتى تتجاوز حدود أتيكا...

ومضى يتخيَّلها هاربةً بالفعل، صوب الغابات المُتاخِمة، تاركةً فوق الوحل آثار قدميْها الحافيتيْن، على ضياء قمر في بياض زهرة زنبق بين يدي فتاة، لا تأبه للعتمة (فلا شك أنها تعرف الطريق)، فتثب وسط الزنابق بأنفاسٍ يضطرب لها صدرها، وعينا أيلة مفتوحتَان عن آخرهما، بينما تخفِّف المسافة من وقع خُطاها. ربما تجرَّدَتْ من ثيابها لتعدو بقدر أكبر من الخفَّة، وبياض الزنابق الذي يكسو جسمها العاري يخترق كثافة الغابة كوميض البرق، فلا تعترض سبيله الأشجار. وشعرها المحلول بالكاد يتشابك بقرون أغصان دقيقة، في دقَّة سيقان نبتة أو أنامل فتاة رشيقة، عارية، شاحبة، كزهرة عاجية تمسك بها فتاة وهي تلوذ بالهرب[35].

كانا قد بلغا مفترقًا يمتدُّ الشارع إلى ما ورائه ويضيق ليصبح ممرًّا تتناثر فيه الحجارة. يتفرَّع زقاق آخر من الشارع جهة اليسار، فيما يصل جسر صغير بين بيتيْن شاهقيْن على اليمين ليخلق نفقًا ضيِّقًا يغيب آخره وسط الظلال.

ضاق دياغوراس:

- وماذا الآن؟ هل نقترع لتحديد طريقنا؟

شعَرَ بضغطة على ذراعه فترك نفسه ينقاد في صمت، بسلاسة ولكن بسرعة، نحو الناصية الأقرب إلى النفق.

همس هراقليس:

- دعنا نترقَّب هنا.

- ولكن، ماذا عن المرأة؟

- الترقُّب ضرب من المطاردة أحيانًا.

- تُراك تفترض أنها ستعود أدراجها؟

اقتنص هراقليس حبة تين أخرى:

- بالطبع. فالمرء يعود أبدًا. ويجب عليك خفض صوتك وإلا ذُعرت الطريدة.

راحا يترقَّبان، في حين كشف القمر عن قرونه البيض، ودفقة خاطفة من الريح تحرِّك سكون الليل. أحكم كلٌّ من الرجليْن رداءه. كبح دياغوراس قشعريرة سرَتْ في بدنه، وإن كان الطقس ألطف منه في المدينة نظرًا لحضور البحر الذي كسر من حدَّته. همس دياغوراس:

- أحدهم مُقبِل.

كانت وكأنها خطى وئيدة تخطوها فتاة حافية القدميْن. بَيْد أن المُقبِل نحوهما عَبْر الشوارع الضيقة، فيما وراء المفرق، لم يكُن شخصًا، بل زهرة، زنبقة أتلفَتْها أيادي النسيم القوية، ارتطمَتْ بتلاتُها بالحجارة قُربَ مخبأ هراقليس ودياغوراس. تابعَتْ مسيرها على عجل في هواء مُترَع بشذى الزَّبَد والملح فيما راحت تتناثر بتلاتها، وغابت وهي تسير صعودًا عَبْر الشارع تحملها الريح، وكأن فتاة تبهر الأبصار قد حوَتْها بين أناملها وهي تعدو، فتاة عيناها من بحر وشعرها من قمر.

قال هراقليس:

- لم يكُن ذلك شيئًا. إنها الريح وحسب[36]. ولبرهة وجيزة، مات الوقت. أما دياغوراس الذي بدأت أوصاله تتجمَّد من البرد، فقد وجد نفسه يقول بصوت خفيض متوجّهًا إلى ظلٍّ كاشف الألغاز قوي البنية الذي لم يعُد قادرًا على رؤية وجهه:

- لم أتصوَّر يومًا أن تراماكو...

أعني، أنت تفهم مقصدي...

لم أصدِّق يومًا...

كان النقاء من فضائله الجوهرية، بحسب ما تراءى لي على الأقل. ذلك آخر ما كان يخطر لي على بال...

أن تجمعه علاقة بواحدة من العامة...!

ولكنه لم يكُن قد بلغ طور الرجولة بعد! لم يخطر لي حتى إنه قد يشعر برغبات الشباب...

حين أطلعني ليسيلو على الأمر...

- اسكتْ!

قال ظِلٌ هراقليس فجأةً. ثم أردف:

- أنصِتْ!

وكأنها خدوش سريعة وسط الحجارة. تلقَّى دياغوراس أنفاسَ كاشف الألغاز الدافئة في سمعه للحظات قبل أن يبلغه صوته.

- سارِعْ بالانقضاض عليها! اِحْمِ ما بين فخذيْك بيدك ولا تدَعْ ركبتيْها تغيبان عن ناظريْك...

حاوِلْ تهدئتها!

- ولكن...

- افعلْ كما قلتُ لكَ وإلا ولَّت هاربة مُجدَّدًا. سوف أعينُك.

فكَّر دياغوراس مُتردِّدًا: «وماذا تعني سوف أعينُك؟»، إلا أنه لم يحظَ بالوقت الكافي لطرح المزيد من الأسئلة.

في خفَّة، وسرعة، وصمت، افترش خيالٌ أرضَ المفترق كالبساط، على أثرٍ من الضياء خلَّفه القمر وراءه. ومن دون سابق إنذار، تجسَّد خيالٌ قُربَ دياغوراس، فألقى الأخير بنفسه فوقه. وبعنف ثارَتْ في وجهه خصلات شَعْرٍ مُعطَّرة، وانتفضَت بين ذراعيْه عضلات بارزة. دفع دياغوراس تلك الكُتلة نحو الجدار المُقابِل وصاح مُتعجِّبًا:

- حسبكِ، وحقِّ أيولُّو! ثم انقضَّ عليها:

- لن نمسَّكِ بأذى! نريد أن نتحدَّث وحسب...

هدِّئي من روعك...

أمسكَت الكُتلة عن الحركة فابتعد دياغوراس قليلًا. لم يتسنَّ له أن يرى وجهها، إذ اتَّخذَتْ من يديها لها قناعًا. ومن بين أنامل طويلة نحيلة كسيقان الزنابق، التمعَتْ نظراتها.

- سنطرح عليكِ بضعة أسئلة وحسب...

بشأن الإفيبوس المدعو تراماكو. كنتِ تعرفينه، أليس كذلك؟

ظنَّ أنها في النهاية سوف تفتح له بوابة راحتيْها لتكشف عن وجهها بقدر أكبر من الهدوء. وفي تلك اللحظة، شعر بصاعقة تضرب أسفل بطنه. لمح وميضًا قبل أن يدرك الألم. كان ألمًا يغشى الأبصار، ألمًا مطبقًا، غمر عينيْه كسائل يملأ جرَّةً بسرعة. طال تربُّص الألم أكثر قليلًا، رابضًا بين فخذيه. ثم تمطَّى بغضب، وقفز إلى وعيه بغتةً شأن دُفعة قيء من شظايا الزجاج. فخرَّ دياغوراس على الأرض وهو يسعل، ولم يشعر حتى بارتطام ركبتيه بالحجارة.

اندلع الاشتباك. فألقى هراقليس اليونتوري بنفسه فوق تلك الكُتلة. وعلى عكس دياغوراس، لم يُبدِ هراقليس أدنى قدر من الاحترام في التعامل معها. بل أخذ بذراعيْها الهزيلتيْن ودفعها حتى تراجعَتْ إلى الجدار بسرعة. سمعا أنينها الذي جاء وكأنه لهاث رجل، فعاود هراقليس استخدام

الجدار سلاحًا. حاولت الكُتلةُ التملّص، بَيْد أنه مال عليها بجسمه البدين لئلا تتمكَّن من استخدام ركبتيْها. رأى دياغوراس ينهض بمشقَّة. عندئذ وجَّه كلمات سريعة إلى طريدته:

- لن نمسَّكِ بأذى إلّا إذا لم تتركي لنا خيارًا آخر. وإن عُدتِ لضرب رفيقي، فلن تتركي لي خيارًا آخر.

خفَّ دياغوراس إلى مساعدته بسرعة. فقال هراقليس:

- كبِّلْ حركتها بإحكام هذه المرة. لقد حذرتُك من ركبتيْها.

- إن صديقي...

يقول الحق...

راح دياغوراس يلتقط أنفاسه مع كل كلمة.

- لا أريد أن أمسَّكِ بأذى...

أفهمتِ؟

أومأتِ الكُتلة برأسها، إلا أن دياغوراس لم يُخفِّف من الضغط على ذراعيها.

- لن نزيد على بضعة أسئلة وحسب...

هل أنتِ ياسينترا؟

انقطع الاشتباك بغتةً، كما ينقطع البرد بمُجرَّد أن تبذل العضلات جهدًا في سباق سريع. وفجأةً، شعر دياغوراس بالكُتلة تتحوَّل إلى امرأة. ولأوَّل مرة شعر ببروز نهديها، ونحول خصرها، وعطرها المختلف، وصفاء جسمها المُحكم. انتبه إلى خصلات شعرها المُجعَّدة الداكنة تنمو، وذراعيها الرشيقتيْن تنبثقان، ومحيط جسمها يتكوَّن. وأخيرًا، فوجئ بقسمات الوجه. كانت غريبة، وذلك أوَّل ما دار في خلده. اكتشف أنه قد تخيَّلها بديعة الجمال (من دون أن يعرف لذلك سببًا)، بَيْد أنها لم تكُن. بل كانت خصلات شعرها المُجعَّدة بمثابة كتلة من الفراء الأشعث، وعيناها أوسع وأكثر تألُّقًا مما ينبغي، كعيني حيوان، وإن لم يتبيَّن لونهما تحت جنح الظلام، ووجنتاها ضامرتان، تشيان ببروز عظام الرأس أسفل البشرة المشدودة. ابتعَدَ عنها حائرًا، وهو ما زال يشعر بخفقان الألم البطيء في بطنه. قال، والتفعَت الكلماتُ ببخار أنفاسه:

- هل أنتِ ياسينترا؟

مضى كلاهما يلهث. أما هي فلم تُحِر جوابًا.

- كنتِ تعرفين تراماكو...

كان يزورك.

- حذارِ من ركبتيْها...

تناهى صوت هراقليس إلى أسماعه على بُعدٍ لا متناهٍ. أما الفتاة فظلَّتْ ترنو إليه في صمت.

- هل كان يدفع ثمن زياراته لك؟

لم يفهم جيِّدًا السبب الذي حدا به إلى طرح ذلك السؤال. أما هي فقالت:

- بالطبع. إن طقوس ديونيسوس بروميوس[37]، ثمنها الأناشيد، أما طقوس أفروديت[38]، فثمنها قِطَع الأوبول.

دار في خلد الرجليْن أن لها صوتًا رجوليًّا ليس لكثير من الفتيان مثله، فكان صوتها أشبه بصدى أُبُوَا يتردَّد داخل كهف.

شعر دياغوراس بتعرُّضه للإهانة من دون أن يعرف لذلك سببًا. ربما كان مَرَدُّ الإهانة أن الفتاة لم تبدُ مذعورة. تراه لمح شفتيْها المكتنزتيْن تسخران منه في العتمة؟

- متى تعرفتِ إليه؟

- خلال أعياد لينايا[39] الأخيرة. كنتُ أرقص في موكب الإله. رآني أرقص فجاء يبحث عني لاحقًا.

صاح دياغوراس غير مُصدِّق:

- جاء يبحث عنكِ؟ ولكنه لم يكُن قد بلغ طور الرجولة بعدا!

- الكثير من الصبية يبحثون عني.

- ربما عنَيْتِ شخصًا آخر...

فأجابت ياسينترا:

- تراماكو، الفتى الذي قتلَتْه الذئاب. إنما عنَيْتُ هذا الشخص.

تدخَّل هراقليس، بنفاد صبر:

- من حسبتِنا؟

فحوَّلتْ ياسينترا إليه عينيْن تلتمعان وقالت:

- لا أفهم.

- لماذا ولَّيتِ هاربة حين سألنا عنك؟ لستِ ممن دَرَجْنَ على الهرب من الرجال. من كنتِ تتوقَّعين؟

- لا أحد. أهرب حينما يحلو لي.

بدا أن دياغوراس قد استردَّ هدوءه:

- ياسينترا، نحن في حاجة إلى مساعدتك. نعرف أن شيئًا ما قد جرى لتراماكو، مشكلة بالغة الخطورة كانت تؤرِّقه. كنتُ...

كنا من أصدقائه ونودُّ أن نكشف ما جرى له. لم تعُد العلاقة التي جمعتكِ به ذات أهمية. كل ما يهمُّنا أن نعرف ما إذا كان تراماكو قد تحدَّث إليكِ بشأن ما يقلقه...

أراد أن يضيف: «أوه، أرجوك، أحتاج إلى مساعدتك! الأمر أهم عندي بكثير مما تظنين». كان ليطلب المساعدة مئة مرة، فقد شعر بأنه عاجز، هشٌّ، كزهرة زنبق بين يدي عذراء. لم يعُد للكبرياء في عقله الواعي أثر، وإذا به قد صار فتاةً لها عينان زرقاوان وشعر لامع، تئنُّ قائلة: «أحتاج إلى مساعدتك، أرجوك، أحتاج إلى مساعدتك». بَيْد أن تلك الرغبة لم تُترجَم إلى كلمات، تلك الرغبة الخفيفة كبتلات زهرة تمسُّ ثوبًا أبيض تخطر فيه فتاة، الرغبة المُتوهِّجة كجسد شهيّ في عمر الزواج، جسد الفتاة العارية نفسها[40].

قالَتْ ياسينترا:

- لم يكُن من عادة تراماكو الإكثار من الحديث. كما أنه لم يبدُ لي قلِقًا.

فسألها هراقليس:

- هل طلب مساعدتكِ ذات مرة؟

- كلا. ولمَ كان سيطلب المساعدة؟

- متى رأيتِه للمرة الأخيرة؟

- خلال القمر الماضي.

- ألم يحدِّثكِ عن حياته قط؟

- ومن يتحدَّث إلى نساء على شاكلتي؟

- هل كانت أسرته موافقة على علاقتكِ به؟

- لم تجمعني به علاقة بأية حال، بل كان يزورني من آنٍ إلى آخر، ثم يجزيني عن الزيارة وينصرف.

- ولكن ربما لم يرُق لأسرته أن يفرِّغ ابنهم النبيل شهواته معكِ من آنٍ إلى آخر.

- لا أعرف. لم تكُن مهمتي أن أرضي رغبات أسرته.

- ألم يحظر عليكِ أيٌّ من أقربائه أن تستمرِّي في لقائه؟

فأجابت ياسينترا بنبرة قاطعة:

- لم أتحدَّث إلى أيٍّ منهم قط...

فألحَّ هراقليس بهدوء:

- ولكن ربما كان أبوه على علم بأمركما...

- كان بلا أب.

فقال هراقليس:

- حقًّا. إنما قصدتُ أمه.

- لا أعرفها.

خيَّم عليهم صمت قصير. تطلَّع دياغوراس إلى كاشف الألغاز بحثًا عن المساعدة. هزَّ هراقليس كتفيْه. ثم قالت الفتاة:

- هل لي أن أنصرف الآن؟ أنا متعبة.

لم يحيرا جوابًا، غير أنها تَنَحَّتْ عن الجدار وسارت مُبتعدة. أما جسمها المُتسربِل بتونيك ووشاح طويل داكن، فمضى يتحرَّك برصانة بديعة كما يتحرَّك حيوان في الغابة، فيما جعلَتْ الخلاخيل والأساور الخفية ترنُّ مع كل خطوة. ومن أقصى العتمة التفتَتْ إلى دياغوراس قائلةً:

- ما كنتُ أريد أن أضربك.

عادا إلى المدينة والليل في أوجه، عَبْر طريق الأسوار العالية.

شعر هراقليس بشي من الأسى على الفيلسوف، نظرًا لأن الأخير قد لزم صمتًا عميقًا منذ حديثهما مع بائعة الهوى، فقال كاشف الألغاز مُعقِّبًا:

- آسف على ضربة الركبة. أما زالت تؤلمك؟ على كلّ حال، لا يُمكن القول بأني لم أنبِّهك...

أعرف جيِّدًا ذلك الصنف من الراقصات وبائعات الهوى. ذلك أنهن في غاية الرشاقة ويعرفن كيف يذُدْنَ عن أنفسهن. حين ولَّتْ هاربة، أدركتُ أنها ستهاجمنا إن اقتربنا منها.

أطرق واثقًا أن دياغوراس سيقول شيئًا، إلا أن رفيقه تابع المسير وقد حنى رأسه، وأسند لحيته على صدره. كانا قد تركا خلفهما أضواء بيريوس منذ زمن، وامتدَّتْ أمامهما الطريق الحجرية الكبيرة، معتمةً، يخيِّم عليها الصمت في ليل الشتاء، تحفُّها الأسوار التي شيَّدها تيميستوكليس وهدمها ليساندر ليُعاد بناؤها في وقت لاحق كانت آمَن وأسرع من الطريق المألوفة وإن لم يكثُر سالكوها، على حدِّ قول هراقليس. وبعيدًا، صوب الشمال، تبدَّى البريق الخافت الآتي من أسوار أثينا كالحلم.

- دياغوراس، أصبحتَ أنت من يمسك عن الحديث، منذ وقت طويل. هل تردَّتْ معنوياتك؟ على كل حال، قُلتَ لي إنك تريد التعاون معي على إجراء التحريات، أليس هذا صحيحًا؟ هكذا تبدأ تحرّياتي دائمًا، في بادئ الأمر يبدو أننا لم نتوصَّل إلى شيء، وبعد ذلك...

تُرى، هل بدا لك المجيء إلى بيريوس والحديث مع بائعة الهوى مضيعة للوقت؟ من واقع خبرتي، دعني أقُل لك إن تتبُّع الأثر ليس بمضيعة للوقت أبدًا، على العكس تمامًا. فالصيد يكمن في اقتفاء الآثار، حتى وإن لم يبدُ أنه سيؤدِّي بنا إلى أي مكان. أما رشق السهام في حقْوِ الأيلة، فذلك أيسر ما في الأمر، على عكس ما قد يظنّه أغلب الـ...

- كان صبيًّا...

همهم دياغوراس من دون سابق إنذار، وكأنه يجيب عن سؤالٍ طرحه هراقليس. ثم تابع قائلًا:

- لم يكُن قد بلغ سن التجنيد بعد. كانت له نظرة نقيّة...

وكأن الربّة أثينة ذاتها قد صقلَتْ نَفْسَه...

- لا تلقِ باللائمة على نفسك أكثر مما فعلت، فلقد سعينا إلى تفريغ شهواتنا ونحن في مثل عمره أيضًا. حوَّل دياغوراس بصره عن الطريق المعتمة لأول مرة كي يرمق كاشف الألغاز بازدراء. - أنت لا تفهم. في الأكاديمية نُعلِّم الفتيان محبة الحكمة فوق كل شيء، والإعراض عن الملذّات المحفوفة بالمخاطر التي لا يجني المرء منها سوى منفعة آنية قصيرة الأمد. كان تراماكو يعرف الفضيلة، ويعرف أنها أنفع وأنجع من الرذيلة بفارق لا نهائي...

كيف استطاع أن يتجاهل ذلك عند التطبيق؟

فسأله هراقليس، محاولًا تشتيت ذهن الفيلسوف للمرة الألف:

- وكيف تُعلِّمون الفضيلة في الأكاديمية؟

- من خلال الموسيقى ولذَّة التمارين البدنية.

ران الصمت مرة أخرى. حكَّ هراقليس رأسه ثم عقَّب بقوله:

- حسنًا، دعنا نقُل إن تراماكو وجد لذَّة التمارين البدنية أكثر أهمية من الموسيقى.

إلا أن نظرة حانت من دياغوراس أسكتَتْه مُجدَّدًا.

- الجهل أصل كل الشرور. من سيختار شرّ الأمور عارفًا بأنه شرّ الأمور؟ لو سمح لك العقل، من خلال التعليم، بأن ترى أن الرذيلة شرّ من الفضيلة، والكذب شرّ من الحق، واللذَّة الآنية شرّ من اللذَّة الباقية، فهل تختار شرّ الأمور عن وعي؟ على سبيل المثال، لو عرفتَ أن النيران حارقة، فهل تضع يدك فوق لسان اللهب الخطير طوْعًا؟ إن ذلك ضرب من العبث. عام كامل وهو يتردَّد على تلك الـ...

المرأة! ويؤدِّي أتعابها نظير اللذَّة! كذِب...

لقد كذبَت القول بائعة الهوى. أجزم لك بأنها...

علامَ تضحك؟

فقال هراقليس:

- معذرةً، فقد تذكَّرتُ شخصًا رأيتُه يضع يده فوق لسان اللهب طوْعًا ذات مرة. إنه صديق قديم من ديموس يونتور مثلي، ويُدعى كرانتور اليونتوري. كان يرى عكس ما ترى تمامًا، ويزعم بأن إعمال العقل في الأمور لا يكفي حتى يختار المرء خيرها، لأن الإنسان يهتدي برغباته وليس بأفكاره. ذات يوم شعر برغبة في إحراق يده اليمنى، فوضعها فوق النيران وأحرقها.

أعقب تلك الكلمات صمت طويل. وبعد هنيهة قال دياغوراس:

- وماذا عنك... هل تتَّفق مع هذا الرأي؟

- لا أتَّفق معه بأيّ حال. طالما اعتقدتُ أن صديقي مجنون.

- وماذا كان من أمره؟

- لستُ أدري. أراد أن يرحل عن أثينا فجأةً، فرحل ولم يعُد من حينها.

وبعد صمت جديد وبضع خطوات أخرى قطعاها عَبْر الطريق الحجرية، قال دياغوراس:

- حسنًا.. كثيرة هي صنوف البشر، بكل تأكيد. ومع ذلك، فجميعنا نختار أفعالنا، مهما بدَتْ لنا من العبث، بعد جدال عقلاني يدور بيننا وبين أنفسنا. كان بوسع سقراط أن يتجنَّب إدانته خلال المُحاكمة، إلا أنه اختار ابتلاع الشوكران السام. إذ كان يعرف، على نحو معقول، أن ذلك خير الأمور بالنسبة له. وهكذا كان في واقع الأمر، فبذلك انصاع سقراط لشرائع أثينا التي طالما انبرى للدفاع عنها طيلة حياته. حاول أفلاطون وصحبُه إقناع سقراط بالعدول عن رأيه، فما كان منه إلا أن أقنعهم هو بحجته. إن عرف المرء نفعَ الفضيلة، فلن يختار الرذيلة أبدًا. ولذا أعتقد بأن بائعة الهوى قد كذبَت القول...

ثم أردف:

- وإلا فلسوف يتعيَّن عليَّ الافتراض أن تراماكو كان يتظاهر بتلقِّي تعاليمي...

فأحسَّ هراقليس بالمرارة التي شابت صوته.

- وما رأيك في بائعة الهوى؟

- إنها امرأة غريبة وخطيرة.

سرَتْ رعشة في جسم دياغوراس، ثم تابع:

- وجهها...

نظراتها...

لقد حانت مني إطلالة على عينيْها، فرأيتُ أمورًا مُروِّعة...

في رؤياه، كانت بائعة الهوى غريبة، تأتي بأفعال غير مُتوقَّعة. فعلى سبيل المثال، كانت ترقص فوق قِمَم جبال بارناسوس المُغطاة بالثلوج، ولا يكسوها من الثياب سوى جلود الأيائل، بينما يتحرَّك جسدها بغير تفكير، يكاد يكون مسلوب الإرادة، كزهرة بين أنامل فتاة تحوم حول شفا هاوية زَلِقة على نحو خطير.

في رؤياه، كانت قادرة على إضرام النيران في شعرها، فتَسُوطُ الهواء البارد بخصلاتها الخطيرة، أو تعود برأسها المشتعل إلى الوراء بينما تبرز عظمة الترقوة ناتئةً وسط عضلات العنق وكأنها ساق زهرة زنبق، أو تصرخ وكأنها تطلب المساعدة، مُناديةً بروميوس بأظلافه التي تشبه أظلاف الأيائل، أو تترنَّم بأناشيد الأوريبايسيا الليلية السريعة، تلك الرقصة الشعائرية التي لا تنقطع، فلا تفتأ النساء خلالها يرقصن فوق قمم الجبال طيلة شهور الشتاء. ومن المعروف أن كثيرات يقضين نحبهن من جراء البرد أو التعب، على نحو لا يملك أحدٌ له دفعًا. وحتى وإن لم يرَ ذلك رجلٌ بعينيْه قط، فمن المعروف أن أيدي النساء تعبث بزواحف خطيرة خلال تلك الرقصات أيضًا، زواحف تنفث سمومًا ذات أثر بالغ السرعة، فتعقد أذنابها على نحو بديع الجمال، كفتاة ممشوقة القوام في ثيابٍ بيضٍ تجدِل تاجًا من الزنابق البيض من دون مساعدة. وحتى وإن لم يعلم رجلٌ بذلك علم اليقين، تقول الظنون إن النساء يصرن مُجرَّد هيئات عارية في تلك الليالي الخطيرة المُفعَمة بقرع الطبول السريع، إذ تلتمع أجسادهن بألوان دامية بفعل أضواء المواقد

وعصارة عناقيد العنب، وفي عجلة وإقدام يخلِّفن آثارًا على الثلوج بأقدامهن العارية، كطرائد جَرَحَها الصيَّاد من دون أن ينصت إلى صوت الحكمة الذي يصرخ طالبًا النجدة، كفتاة ممشوقة القوام في ثيابٍ بيضٍ، تطلب إنهاء الطقوس فتضيع طِلْباتُها سُدى. يستغيث الصوت الخافت مناديًا: «ساعدْني»، ولكن بلا جدوى، لأن الخطر عند الراقصات كزهرة زنبق مُشرِقة على ضفة النهر الأخرى. فليس منهنّ مَنْ تملك الصمود أمام غواية عبور النهر سريعًا، فيسبحن من دون حتى أن يفكِّرن في البحث عن مساعدة، إلى أن تبلغ أيديهن الزهرة ويتسنَّى لهن الإمساك بها. ينادي الصوت: «حذار، فالخطر قائم». ولكن زهرة الزنبق أجمل من أن تُقاوَم، والفتاة لا تحفل بالنداء.

كل ذلك شطر من رؤياه، بَيْد أنه أخذ الأمر على محمل الواقع[41].

- دياغوراس، عجيبة هي الأمور التي تراها في نظرات الآخرين!

سخر منه هراقليس بسلامة نية. ثم تابع:

- لا شك عندي أن صاحبتنا بائعة الهوى ترقص من آن إلى آخر في مواكب أعياد لينايا. وإن كان الأمر يبدو لي ضربًا من المبالغة، إن شئت الصراحة، كونك تظنّ أنها تتمرَّغ في نشوى على شرف الإله ديونيسوس مع مريداته اللائي يُلقَّبن باسم مايناديس، خلال تلك الطقوس الخطيرة التي لم يعُد يمارسها سوى بعض القبائل الريفية التراقية في جبال اليونان النائية المقفرة، إن كان هناك من يقيمها حتى الآن. أخشى أن لخيالك بصرًا أحَدُّ من بصر لينسيوس[42]...

فأجابه دياغوراس:

- حكيتُ لك ما استطعتُ تأمُّله بعينيّ الفِكْر، القادرتيْن على تبيُّن الفكرة في حد ذاتها. فلا تُقلِّلْ من شأنهما بهذه السرعة، هراقليس. لقد شرحتُ لك أننا من أنصار العقل أيضًا، غير أننا نعتقد بوجود شيء يسمو عليه، وبذا أعني الفكرة في حد ذاتها، الضياء الذي في حضوره لا نعدو أن نكون ظلالًا مبهمة، نحن وسائر الأشياء والكائنات التي تُعمِّر أرجاء المَسْكونَة. وأحيانًا، لا يقدر على مساعدتنا في اكتناه الفكرة سوى الأسطورة، أو الخرافة، أو الشعر، أو الحلم.

- فليكُن، ولكني لا أجد أفكارك نافعة في حد ذاتها، دياغوراس. فأنا أتحرَّك داخل إطار ما يسعني إعمال العقل فيه بمنطقي والتثبُّت منه بعينَيّ.

- وماذا رأيتَ في الفتاة؟

فأجاب هراقليس باتضاع:

- القليل. لم أرَ سوى أنها كذبَتِ القول.

قطع دياغوراس خطاه الحثيثة بحدَّة والتفت إلى كاشف الألغاز يتأمَّله، في حين ابتسم الأخير برِقَّة وبمظهر يشي بقدر من الإحساس بالذنب، كطفل تلقَّى توبيخًا على تدبير مقلب خطير. تابع هراقليس:

- لقد نصبتُ لها شركًا، فحدَّثتُها عن والد تراماكو. كما تعرف، فقد حُكِم على ميراجرو بالإعدام منذ أعوام بتهمة التعاون مع الطغاة الثلاثين[43]...

- أعرف. كانت محاكمة مؤسفة، فقد دفع ميراجرو ثمن ذنوب اقترفها كثيرون غيره.

تنهَّد دياغوراس، ثم استطرد:

- لم يُرِد تراماكو أن يحدِّثني عن أبيه يومًا.

- بالضبط. زعمَتْ ياسينترا أن تراماكو كان قليل الكلام، ولكنها تعرف جيِّدًا أن أباه قد لقي ميتة مخزية...

- كلا، فهي لا تعرف سوى بموت أبيه.

- ذلك أبعد ما يكون عن الصواب! دياغوراس، شرحتُ لك بالفعل أنني أكشف طلاسم ما أستطيع رؤيته، وأنا أرى ما يقوله لي الآخرون كما أرى مشاعل بوابة المدينة في هذه اللحظة تحديدًا. كل ما نأتي به من أفعال أو أقوال، إنما هي نصوص تقبل القراءة والتفسير. ألا تذكر كلماتها تحديدًا؟ ياسينترا لم تقُل: «توفِّي أبوه»، بل قالت إنه «كان بلا أب». تلك هي العبارة التي نلجأ إليها عادةً لإنكار وجود شخص لا نريد له ذكرًا...

كان تراماكو سيقول عبارة من هذا القبيل. أما أنا فأتساءل، لو أن تراماكو قد تحدَّث إلى بائعة هوى يبريوس بشأن أبيه (وتلك مسألة لم يُرِد حتى أن يحدِّثك بشأنها)، فأي أمور أخرى أفصح عنها لياسينترا، في حين أنك غير مُطَّلع عليها؟

- إذًا، فبائعة الهوى تكذب.

- أعتقد.

فقال دياغوراس مُفخِّمًا كلماته على نحو مُتكلِّف:

- وبناء عليه، فأنا أيضًا كنت أقول الحقيقة حين جزمتُ بأنها كذبَتِ القول.

- أجل، ولكن...

- هراقليس، هل اقتنعتَ بأن عيون الفِكْر تتبيَّن الحقيقة أيضًا، حتى وإن كان ذلك عَبْر سبُل أخرى؟ فقال هراقليس:

- آسف لكوني غير قادر على الاتفاق معك. كنتَ تقصد علاقة تراماكو ببائعة الهوى، أما أنا فأعتقد بأن ذلك هو الشيء الوحيد الذي لم تكذب بشأنه.

قطَعَا بضع خطوات حثيثة في صمت، ثم قال دياغوراس:

- يا كاشف الألغاز، كلماتك سهام سريعة خطيرة رشقَتْ صدري. كنتُ على استعداد للقسم أمام الآلهة على أن تراماكو يضع فيَّ ثقته المطلقة...

هزَّ هراقليس رأسه:

- أوه، دياغوراس، يبدو أن مفهومك عن البشر نبيل، ويجب عليك التخلِّي عنه. إنك وأنت حبيس الأكاديمية، حيث تُعلِّم الرياضيات والموسيقى، تُذكِّرني بفتاة شابة لها شَعْر كالذهب وروح كالزنابق البيض، بديعة الجمال على الرغم من سذاجتها. فتاة لم تخرج من جناح النساء قط، ما إن تتعرَّف برجل لأول مرة حتى تصرخ: «ساعدني، ساعدني، فالخطر يحدِّق بي».

فقال الفيلسوف بمرارة:

- ألا تسأم من السخرية مني؟

- ليست سخرية، بل شفقة! ولكن، دعنا نتطرَّق إلى المسألة التي تهمُّنا. فثمة أمر آخر يستأثر باهتمامي، ألا وهو الدافع الذي حدا بياسينترا إلى الهرب حين سألنا عنها...

- لستُ أظنُّ الأسباب تعوزها. ولكني لم أفهم بعد كيف عرفتَ أنها مختبئة في النفق...

- وأين كانت ستختبئ، إن لم يكُن في النفق؟ لقد ولَّت هاربةً مِنَّا عارفةً بأننا لن نتمكَّن من اللحاق بها قط، لأنها رشيقة وشابة، أما نحن فكلانا كهل أخرق...

وأخصُّ نفسي بالذكر.

وفي الوقت المناسب، رفع يدًا مكتنزة بسرعة ليوقف دياغوراس عن الرد، ثم استطرد:

- ومن ثم استنبطتُ أنها ليست في حاجة إلى مواصلة العدو، بل يكفيها الاختباء وحسب...

وأي مخبأ خير من عتمة ذلك النفق بالغ القُرب من بيتها؟ ولكن...

لمَ ولَّت هاربة؟ إن أسباب عيشها تتوقَّف تحديدًا على الامتناع عن الهرب من الرجال أيًّا كانوا...

- لعل ضميرها مُثقَل بأكثر من جُرمٍ. قد تضحكَ مني يا كاشف الألغاز، ولكني لم أرَ امرأة أغرب منها يومًا. وما زالت ذكرى نظرتها تبعث في بدني رعشة...

ما هذا؟

تطلَّع هراقليس إلى حيث يشير رفيقه، فرأى موكبًا من المشاعل يهيم عَبْر الشوارع القريبة من بوابة المدينة، يحمل السائرون فيه الطبولَ ويضعون الأقنعة. توقَّف جندي للحديث إليهم.

قال هراقليس:

- اليوم يوافق بدء أعياد لينايا.

هزَّ دياغوراس رأسه بلفتة تنمُّ عن الاستنكار.

- ما إن تحين ساعة اللهو حتى يعجِّلوا إليه دومًا.

عَبَرا البوابة بعد أن كشفا عن هويتيْهما للجُند، ثم تابعا المسير صوب المنطقة الداخلية من المدينة. قال دياغوراس:

- والآن، ماذا نحن فاعلان؟

- سوف نستريح، بحق زيوس. قدماي تؤلمانني. لقد صُنِع جسدي كي يتدحرج من مكان إلى آخر كجسمٍ مستديرٍ، وليس للوقوف على قدميْن. غدًا نتحدَّث إلى أنتيسو وإيونيو. أعني تتحدَّث، أما أنا فأنصت.

- وما الأسئلة التي ينبغي لي طرحها عليهما؟

- دعني أفكِّر في الأمر. إلى اللقاء غدًا يا عزيزي دياغوراس. سوف أبعث إليك برسالة مع أحد العبيد. استرخِ، وأرِح جسمك وذهنك. عسى ألّا يسرق القلقُ من عينيْك النومَ الهانئ. وتذكَّر أنك تعاقدتَ مع أفضل كاشف ألغاز في اليونان بأسرها[44].

الفصل الرّابع[45]

كانت المدينة تتهيَّأ لاستقبال لينايا، الأعياد الشتوية المُقامة على شرف الإله ديونيسوس.

فنثر مفتشو الأحياء المعروفون باسم خدم الأستينوموس مئات الأزهار عَبْر طريق الياناتينياس لتزيين الشوارع. بَيْد أن تلك الفسيفساء المُتقزِّحة باتت عجينًا من البتلات المُمزَّقة تحت وطأة أقدام الرجال وأظلاف الحيوانات الهائجة. أُقيمَتْ مسابقات الغناء والرقص في الهواء الطلق، على نحو ما أُعلِن عنه مُسبقًا. على الألواح الرخامية فوق النصب التذكاري المُكرَّس لأبطال إيونيموس، وإن كانت أصوات المغنين لا تبعث على السرور بوجه عام، وقفزات الراقصين خرقاء وهائجة إلى درجة كبيرة، وحركاتهم لا تسير وفق إرشادات آلة الأُبُوَا. لم يكُن للأراكِنة[46] مصلحة في إثارة استياء الشعب، ولذا لم تُحظر وسائل الترفيه المُقامة في الشارع، رغم كونها غير مُستحبَّة. فأقبل الفتيان من مختلف الديموس يتبارون في تقديم عروض مسرحية بالغة الرداءة، كما اجتمع الناس في حلقات بالميادين لمشاهدة عروض الحركات الإيحائية الهائجة التي يقدِّمها الهواة، ويصوِّرون فيها الأساطير القديمة. فتح مسرح ديونيسوس إلِوْثيروس أبوابه للجُدُد والمشاهير من المُؤلِّفين على حدٍّ سواء، وتحديدًا مُؤلِّفي الأعمال الكوميدية الحافلة بالفواحش الهمجية، والتي لا يحضرها سوى الرجال بموجب القاعدة العامة. أما الأعمال التراجيدية العظيمة، فكان يُحتفَظ بها لأعياد ديونيسياكا. وفي الأنحاء كافة، لا سيما الأجورا ومنطقة السيراميكوس الداخلية، زادت كثافة الجلبة والصرخات والقهقهات وقِرَب النبيذ وحشود الناس، من مطلع النهار حتى آخر الليل.

كانت المدينة تتباهى بكونها مُتحرِّرة تميُّزًا عن الشعوب الهمجية، بل وعن مدائن إغريقية أخرى، ولذا كان العبيد يقيمون أعيادهم أيضًا، وإن كانت أكثر تواضعًا وعزلةً بكثير. كانوا يأكلون ويشربون أفضل مما يفعلون بقية العام، ويقيمون الرقصات، بل وكانت البيوت الأكثر نُبلًا تسمح لعبيدها أحيانًا بالتردُّد على المسرح، حيث يتسنَّى لهم أن يروا أنفسهم في المُمثِّلين المُقنَّعين الذين يؤدُّون أدوار العبيد، ويسخرون من الشعب بدعابات خرقاء.

بَيْد أن الأديان كانت هي النشاط الأثير خلال الأعياد، فدائمًا كانت المواكب تعكس كلًّا من الجانبيْن الروحاني والوحشي لديونيسوس باخوس. إذ كانت الكاهنات يعلِّقن في الشوارع قضبانًا هائلة من الخشب، والراقصات فيؤدِّين رقصات محمومة تحاكي الهذيان الديني الذي يستحوذ على مريدات الإله ديونيسوس المُلقَّبات باسم مايناديس أو باخوسيات-نساء بهن مسٌّ من الجنون، يؤمن بهن الأثينيون قاطبةً وإن لم يبصرهن أحد في واقع الأمر- أما الأقنعة فكانت تُحاكي تحوُّلات الإله الثلاثة، إلى ثعبان وأسد وثور، تلك التحوُّلات التي يعيد تمثيلها حملة الأقنعة من الرجال بلفتات بالغة البذاءة في بعض الأحيان.

وفوق كل ذلك الهياج الصاخب، تسمو الأكرويوليس، المدينة العُليا، وهي لا تزال عذراءً صموتًا[47].

صبيحةَ يومئذ (كان يومًا مُشمِسًا باردًا)، حصلَتْ مجموعة من عوام الفنانين من مدينة طيبة على إذن بتسلية الناس أمام رواق يويكيلي. كان أحدهم، وهو طاعن في السن إلى حد بعيد، يتلاعب بعدة خناجر في آن، وإن كثُرَت أخطاؤه فراحَتْ السكاكين تتساقط من بين يديْه ثم ترتدُّ عن الأرض وسط صليل معدني هائج. في حين كان آخر، هائل الجرم، شبه عارٍ، يزدرد ألسنة اللهب المنبعثة من مشعليْن، ثم ينفثها بوحشية عَبْر منخريْه، أما الباقون فراحوا يعزفون الموسيقى بآلات بالية من بيوتيا. وبعد العرض الأوَّلي، وضع الرجال أقنعتهم لتقديم مسرحية هزلية شعرية تجسِّد قصة ثيسيوس والمينوتور[48]. فلعب العملاقُ آكل النار دورَ المينوتور، وأخذ يميل برأسه متظاهرًا بأنه سينطح أحدهم بقرنيْه، ويهدِّد المشاهدين المجتمعين حول أعمدة الرواق مازِحًا. وبغتةً، انتزع المسخ الأسطوري خوذةً مكسورة من خُرْجه واعتمرها مُتعمِّدًا إظهار الخوذة على نحوٍ جليّ. تعرَّف عليها الحضور جميعًا، إذ كانت خوذة إسيرطيّ من جُند الهوبليت[49].

وفي تلك اللحظة، انقضَّ الكهل صاحب الخناجر الذي كان يمثِّل دورَ ثيسيوس على الوحش وانهال عليه ضربًا حتى أرداه صريعًا. كانت مُجرَّد محاكاة تهكمية، بَيْد أن الجمهور فهم المغزى المُراد على أكمل وجه. فهتف أحدهم: «الحرية لطيبة!»، وردَّد المُمثِّلون هتافه في وحشية بينما وقف الكهل شامخًا ظافرًا فوق الحيوان المُقنَّع. عمَّتْ بلبلة وجيزة وسط الحشود الذين تزايد هياجهم أكثر فأكثر، أما المُمثِّلون فقد أوقفوا عرض الحركات الإيمائية خوفًا من الجُند. وعلى الرغم من ذلك، فالمعنويات قد ارتفعَتْ بالفعل. هتفَتْ الحشود بشعارات مناوئة لإسيرطة، وتنبَّأ أحدهم بتحرير مدينة طيبة الوشيك، المدينة الرازحة تحت نير الاحتلال الإسيرطي منذ أعوام، في حين استحضر آخرون اسم الجنرال بيلوبيداس الذي يُفترض أنه قد نُفي إلى أثينا إثر سقوط طيبة، وأطلقوا عليه لقب «المُحرِّر». ثار شغب هائج، فكانت الهيمنة للحقد القديم الثاوي في النفوس تجاه إسيرطة، والبلبلة المُسلِّية التي أفضَى إليها النبيذ والاحتفال. تدخَّل بعض الجُند، ولكن ما كادوا يتحقَّقون من أن الهتافات مناوئة لإسيرطة وليس لأثينا، حتى أبدوا تراخيًا في فرض السيطرة على الموقف.

وطوال الوقت الذي استغرقه ذلك الصخب الهائج، ظلَّ رجل واحد جامدًا، غير آبه، بعيدًا حتى عن لَغَط الحشود. كان فارع القامة، نحيلها، يضع رداءً رماديًّا متواضعًا فوق التونيك. وبالنظر إلى بشرته الشاحبة وصلعته البرَّاقة، فقد بدا بالأحرى تمثالًا مُتعدِّد الألوان يزيِّن بهو الرواق. في حين دنا منه رجل آخر بخطًى هادئة. كان بدينًا قصير القامة (مظهره على النقيض تمامًا من الرجل الأول)، وله عنق غليظ ينتهي برأس مُدبَّب عند القمة. جاءت التحيَّة مقتضبة، وكأنما يتوقَّعان ذلك اللقاء. وفيما تفرَّقَتْ حشود الناس، وخفَتَ الهتاف-الذي استحال الآن سبابًا مقذعًا- سار الرجلان نزولًا عَبْر أحد مخارج الأغورا الضيِّقة.

وفيما هو يجاري خطوات هراقليس الثقيلة بسيره المُندفع، على نحو أخرق، قال دياغوراس بازدراء:

- العوام الهائجون يكيلون السباب للإسيرطيين على شرف الإله ديونيسوس. يخلطون بين السُّكْر والحرية، بين الاحتفال والسياسة. في واقع الأمر، فيمَ يهمُّنا مصير طيبة أو غيرها من المدائن، ما دُمنا قد أثبتنا أننا لا نكترث لأمر أثينا نفسها؟

كانت من عادة هراقليس اليونتوري، بوصفه أثينيًّا صالحًا، المشاركة في الجدال الهائج الذي يدور بالمجلس. كما كان عاشقًا متواضعًا من عشاق السياسة. قال:

- إن جرحنا ينزف، دياغوراس. ورغبتنا في تحرير طيبة من نير احتلال إسيرطة دليل على أننا نكترث لأمر أثينا بحق. لقد مُنينا بالهزيمة، أجل، غير أننا لن نغفر المهانة.

- وما السبب وراء الهزيمة؟ إنها منظومتنا الديمقراطية العبثية! لو سمحنا لصفوة الناس بحكمنا بدلًا من الشعب، لأصبحَتْ لنا الآن إمبراطورية...

فقال هراقليس:

- أفضِّل مجلسًا صغيرًا حيث يتسنَّى لي الصياح، على إمبراطورية مترامية الأطراف حيث أُلزَم بالصمت.

ومن فوره شعر هراقليس بالأسف لكونه لا يحمل قلمًا في متناول يده، إذ بدا له قوله سديدًا.

- ولمَ ستُلزَم بالصمت؟ لو كنتَ واحدًا من صفوة الناس لتسنَّى لك الكلام، وإلا فلمَ لا تكرِّس جهودك كيما تصير من صفوة الناس أولًا؟

- لأني لا أريد أن أكون من صفوة الناس، ولكني أريد أن أتكلَّم.

- هراقليس، ليس يهمُّ ما تريد وما لا تريد، وحده رخاء المدينة يهمّ. على سبيل المثال، من كنتَ تولِّي على حكم سفينة؟ الغالبية من البحَّارة أم أعلم الحاضرين بفن الملاحة؟

فقال هراقليس:

- الأخير، بكل تأكيد.

وبعد برهة صمت، استطرد قائلًا:

- ما دام يُسمَح لي بالكلام طيلة السَّفْرَة.

فاستشاط دياغوراس غيظًا:

- كلام! كلام! وما نفع امتياز الكلام، ما دُمتَ بالكاد تمارسه؟

- نسيتَ أن امتياز الكلام ينطوي على امتياز الصمت عند الرغبة، من بين أمور أخرى. دياغوراس، دعني أمارس ذلك الامتياز وأنْهِ محادثتنا عند هذا الحد، فليس أبغض عندي من إهدار الوقت في هذا العالَم. ورغم أني لست أدري على وجه اليقين ماذا يعني إهدار الوقت، إلا أن الجدال في شؤون السياسة مع أحد الفلاسفة هو أكثر ما يذكِّرني به. هل تلقَّيتَ رسالتي بلا مشاكل؟

- أجل، وعليَّ إخبارك بأن أنتيسو إيونيو ليس لديهما دروس في الأكاديمية صبيحةَ اليوم، ولذا فسوف نلتقي بهما في چيمنازيوم كولونوس. ولكني خِلتُكَ ستحضر في وقت أبكر، وحق زيوس. لقد انتظرتُكَ في رواق يويكيلي منذ أن فتحَتْ الأسواق أبوابها، والآن يكاد ينتصف النهار.

- استيقظتُ عند مطلع الفجر، ولكن لم يُتَح لي الوقت كي ألقاك حتى الآن، إذ كنت أتحرَّى بعض الأمور.

فارتفعَتْ معنويات دياغوراس:

- تراها أمور مُتعلِّقة بعملي؟

- كلا، بل بعملي أنا.

توقَّف هراقليس أمام نصبة بائع جائل يبيع التين الحلو. ثم أردف:

- دياغوراس، تذكَّر أن العمل عملي، حتى وإن كانت النقود نقودك. لستُ أتحرَّى منبع الخوف المزعوم الذي استحوذ على تلميذك، بل اللغز الذي اعتقدتُ أني قد لاحظتُه على جثته. بكم التين؟

زفر الفيلسوف في نفاد صبر، بينما جعل كاشف الألغاز يملأ الخُرْج الصغير المُعلَّق على كتفه فوق الرداء الكتاني. استأنفا المسير عَبْر الشارع المُنحدِر.

- وإلامَ توصَّلت؟ هل يمكنك إخباري؟

فأقرَّ هراقليس:

- إلى القليل، في واقع الأمر. لقد أُعلِن على أحد الألواح الرخامية فوق النصب التذكاري المُكرَّس لأبطال إيونيموس أن المجلس قد اتَّخذ قراره أمس بتنظيم حملة صيد للقضاء على ذئاب جبل الليكابيتوس. هل كنتَ على علم بذلك؟

- كلا، ولكنه يبدو لي قرارًا عادلًا. المُحزِن أن الأمر قد استلزم موت تراماكو للتوصُّل إلى ذلك القرار.

أومأ هراقليس.

- كما اطَّلعتُ على لائحة المُستجدِّين من الجُند. وسوف يلتحق أنتيسو بالجيش فورًا، على ما يبدو...

فأكَّد دياغوراس على قوله:

- فعلًا. فقد بلغ سن التجنيد لتوِّه. بالمناسبة، ما لم نحثّ الخطى، فلسوف ينصرفان عن الچيمنازيوم قبل وصولنا...

أومأ هراقليس مرة أخرى، وإن ظلَّ يسير على وقع الخطى المتأنِّية الخرقاء نفسها. قال:

- ليس هناك من رأى تراماكو وهو خارج إلى الصيد صبيحة ذلك اليوم.

- وكيف عرفت؟

- حصلتُ على إذن بالاطلاع على سجلات بوابة أكارنيا وبوابة فيلاي، المفضيتيْن إلى الليكابيتوس. دعنا نقدِّم تحيَّة صغيرة للديمقراطية، دياغوراس! إن حماستنا لجمع البيانات كي نتمكَّن من مناقشتها في المجلس جارفة للغاية، حتى إنها تحدو بنا إلى تدوين اسم وطبقة الداخلين إلى المدينة والخارجين منها مُحمَّلين بالأغراض يوميًّا. إنها قوائم طويلة تجد فيها مدخلات من قبيل: «ميناكليس، تاجر أجنبي، في معيَّة أربعة من العبيد. ويحمل قِرَبًا من النبيذ». وهكذا نعتقد أننا

نتحكَّم في تجارتنا على نحو أفضل. شباك الصيد وغيرها من الأدوات المُستخدَمة في نشاط الصيد تُقيَّد بدقة بالغة. إلا أن اسم تراماكو لم يرِد بالسجلات، كما لم يخرج أحد من المدينة مُحمَّلًا بشباك الصيد صبيحة ذلك اليوم.

فاقترح دياغوراس قائلًا:

- ربما لم يأخذ معه الشباك، ربما كان في نيته قنص الطيور وحسب.

- ولكنه أخبر أمه أنه سوف ينصب بشباكه شِراكًا للأرانب البرية. طبقًا لما أخبرَتْني به على الأقل. أتساءل لو كانت به رغبة لصيد الأرانب البرية، ألم يكُن أكثر منطقيةً أن يخرج في معيَّة عبد يراقب الشراك أو يتعقَّب الطرائد؟ لماذا خرج وحيدًا؟

- ماذا تفترض إذن؟ أنه لم يخرج للصيد؟ وأنه كان برفقة أحدهم؟

- ليس من عادتي أن أفترض أي شيء في مثل هذه الساعة من ساعات النهار.

كان چيمنازيوم كولونوس بناء ذا رواق رحيب يقع جنوبي الأغورا، له بوابتان تزيِّنهما نقوش تحمل أسماء رياضيين أوليمبيين ذائعي الصيت، فضلًا عن تماثيل صغيرة لهرِمس. وفي الداخل، تساقطَتْ أشعة الشمس في هياج ناري فوق حلبة المصارعة، وهي عبارة عن رقعة مستطيلة من الأرض المُعبَّدة بالمِعْوَل، لا سقف لها، مُخصَّصة لمصارعة اليانكراتيون[50].

أخذت تحلُّ محلَّ الهواء رائحةٌ كثيفة منبعثة من الأجسام المحتشدة والدهانات المُستخدَمة في التمسيد. على رحابته، اكتظَّ المكان بفتيان عراة ومكتسين، وكذلك بأطفال في أوج تدريبهم، وبمدربين لهم أردية أرجوانية وعصي مزدوجة الرؤوس، يصدرون التعليمات إلى تلاميذهم...

وصخبٌ عارم مفترس يحول دون إمكانية تبادل الحديث. وراء ذلك، خلف سقيفة من الحجارة، تقوم الحجرات الداخلية المسقوفة، التي تضمُّ حجرات تبديل الثياب والمغتسلات وصالات التمسيد والدهان.

وفي تلك اللحظة، وقف مصارعان وجهًا لوجه فوق الحلبة، جسداهما عاريان تمامًا، يلتمعان بفعل قطرات العرق، يميل كلٌّ منهما على الآخر وكأنما في محاولة للتناطح برأسيْهما. تحيط ذراعا كلٍّ منهما بعنق الآخر وكأنهما أنشوطة من العضلات. وعلى الرغم من ضجيج الجموع، كان يمكن سماع الخوار الهادر الذي صدر عنهما تحت وطأة الجهود المُطوَّلة. ومن فم كلٍّ منهما تدلَّتْ خيوط بيض سميكة من الزبد، وكأنها زينة همجية غريبة. كانت المصارعة وحشية، بلا رحمة، ولا هوادة.

ما كادا يدلفان إلى المكان حتى جذب دياغوراس رداء هراقليس اليونتوري.

- ها هو!

قالها بصوت عالٍ، وأشار إلى موضع وسط الجموع. فهمهم هراقليس:

- أوه، وحق أيولُّو...

انتبه دياغوراس إلى دهشته، فقال:

- تراني بالغتُ حين وصفتُ لك جمال أنتيسو؟

- ليس جمالُ تلميذك ما يدعوني إلى المفاجأة، بل وجود ذلك الكهل الذي يتجاذب معه أطراف الحديث. أعرفُه.

قرَّرا عقد اللقاء في حجرات تبديل الثياب. سار دياغوراس منُدفعًا لمقابلة أنتيسو، فاستوقفه هراقليس وناوله رُقعة بردي.

- إليك الأسئلة التي ينبغي طرحها عليهما. الأنسب أن تتحدَّث أنت، فبذا تُتاح لي دراسة إجاباتهما على نحو أفضل.

وفيما راح دياغوراس يقرأ، أحدث المشاهدون جلبة هائجة، مما حدا بهما للنظر نحو الحلبة. كان أحد المصارعَيْن قد سدَّد إلى وجه غريمه نطحة وحشية، حتى ليمكن الجزم بأن دويّها قد تردَّد في كل أرجاء الچيمنازيوم كحزمة من القصب تتهشَّم تحت وطأة أظلاف حيوان هائل الحجم، يمضي مُندفعًا. ترنَّح المصارع حتى كاد يهوي أرضًا، وإن لم يبدُ مُتأثِّرًا بالضربة، وإنما بالمفاجأة من باب أولى، حتى إنه لم يرفع يديْه إلى وجهه المُشوَّه (الذي هربت منه الدماء في بادئ الأمر، ثم بدا مُهشَّمًا من جراء الصدمة الفتَّاكة، كجدار تقوَّض تحت وطأة نطحات حيوان هائج)، بل تراجع بعينيْن مُتَّسعتيْن عن آخرهما، تحملقان في غريمه، وكأن الأخير قد هزأ منه بمزحة غير مُتوقَّعة، فيما راح يتداعى هيكلُ وجهه البارز تحت جفنيْه السفليَّيْن، بلا صوت، وانساب خيط سميك من الدماء من شفتيْه ومنخرَيْه الضخمَيْن. وعلى الرغم من ذلك، لم يهوِ أرضًا.

أخذ المشاهدون يكيلون له السباب لحثِّه على ردِّ الهجوم بمثله.

حيَّى دياغوراس تلميذه وأسرَّ في سمعه ببضع كلمات. سار كلاهما صوب حجرات تبديل الثياب، أما الكهل ذو البشرة المُسودَّة المُجعَّدة وكأنها محترقة، ذلك الذي راح يتبادل أطراف الحديث مع أنتيسو، فما كاد ينتبه إلى وجود كاشف الألغاز حتى اتَّسعَتْ حدقتاه كحجريْن من العقيق. وصرخ بصوت هائج، بدا وكأنه يجرجره على أرض خشنة:

- بحق زيوس وأيولُّو، هراقليس اليونتوري، أنت هنا!

ثم أردف:

- دعونا نُرِق الخمور على شرف الإله ديونيسوس بروميوس، فهراقليس اليونتوري، كاشف الألغاز، قرَّر زيارة چيمنازيوم!

- ممارسة التمارين نافعة من آنٍ إلى آخر.

تلقَّى هراقليس عناقَه الهائج عن طيب خاطر. كان يعرف ذلك العبد الكهل منذ أمد بعيد، إذ رآه وهو يؤدِّي عدة مهام في بيت العائلة في ما مضى، وكان يعامله معاملة الأحرار.

- أوه، إوْماركو، لكَ مني تحيَّة! يسرُّني التأكُّد أن شيخوختك ما زالت شابة كعهدي بك أبدًا!

- ها أنت تعود إلى ذلك الحديث مُجدَّدًا!

لم يشقّ على الكهل رفع صوته كي يجعله مسموعًا فوق صخب المكان الهائج:

- زيوس يزيد عمري طولًا، ويزيد جسدي ضآلة. أما أنت فقد اجتمع لك طول العمر وضخامة الجسد، فيما أرى...

- قبل كل شيء، ما زال حجم رأسي كما هو، لم يتغيَّر بعد.

ضحكًا. تلفَّت هراقليس حوله مُجدَّدًا.

- وماذا عن الرفيق الذي جاء بصحبتي؟

أشار إوْماركو إلى موضع وسط الجموع، بإصبع ينتهي بظفر ملتوٍ طويل يشبه القرون.

- هناك، مع تلميذي.

- تلميذك؟ هل أنت مربي أنتيسو؟

- كنتُ! وعسى أن تقبض الإرينيس المحسنات[51] روحي لو عدتُ إلى ذلك.

ثم أشار إوْماركو بيديْه مُتعوِّذًا، كمن يدفع عن نفسه الحظ العاثر الذي يجلبه ذِكر الإرينيس.

- تبدو حانقًا عليه.

- وكيف لا أكون؟ لقد التحق بالجيش من فوره، وفجأةً قرَّر الفتى المُفرط في العناد أنه يرغب في الانضمام إلى حرس معابد أتيكا، بعيدًا عن أثينا! أما أبوه، يراكسينو النبيل، فقد طلب مني محاولة إقناعه بالعدول عن رأيه...

- حسنًا، إوْماركو. على الإفيبوس أن يخدم المدينة الأشد حاجة إلى خدماته...

فصرخ إوْماركو:

- أوه، وحق ترس إيجيس الخارق الذي تتدرَّع به الربة أثينة زرقاء العينيْن! هراقليس، لا تهزأ بشعري الأشيب! فأنا ما زلتُ قادرًا على نطح قِربة بطنك برأسي الغليظ! «الأشد حاجة إلى خدماته»؟...

وحق زيوس بن كرونوس، إن أباه نائب في المجلس خلال العام الجاري! بمقدور أنتيسو أن يختار الوجهة الأكثر راحة من بينها جميعًا!

- ومتى اتَّخذ تلميذك قراره؟

- منذ بضعة أيام! وأنا هنا تحديدًا لمحاولة إقناعه بالتفكير في الأمر مليًّا.

- لهذا الزمان ذائقة مختلفة، إوْماركو. فمن قد يرغب في خدمة أثينا من داخل أثينا؟ الشباب يبحث عن تجارب جديدة...

فعقَّب الكهل وهو يهزُّ رأسه:

- لولا معرفتي بك، لظننتك جادًّا فيما تقول.

كانا قد شقَّا طريقهما وسط الزحام حتى بلغا المدخل المُؤدِّي إلى حجرات تبديل الثياب. وفيما هو يضحك، قال هراقليس:

- لقد ردَدْتَ لي صفو المزاج، إوْماركو!

ثم أودع حفنة من قطع الأوبول في اليد المُتشقِّقة للعبد المربِّي.

- انتظرني هنا. لن أتأخَّر. كنتُ أودُّ طلب خدمة صغيرة منك.

فأجابه إوْماركو مؤكِّدًا، وقد تهلَّلت أساريره بالهدية غير المُتوقَّعة:

- سأنتظرك بالصبر الذي ينتظر به الأرواحَ الجديدة ملَّاحُ نهر ستيكس المقدَّس[52]، في العالم السفلي.

ظلَّ دياغوراس وهراقليس واقفيْن في حجرة تبديل الثياب الصغيرة، فيما جلس أنتيسو عاقدًا كاحليْه على طاولة واطئة.

لم يبادر دياغوراس بالحديث، بل إنه لزم الصمت وراح ينعم أولًا بالجمال المُذهل البادي على ذلك الوجه المثالي، المرسوم بخطوط مقتصدة، الموشَّى بخصلات شقراء مُنسَّقة في تصفيفة جميلة على آخر صيحة.

لم يكُن أنتيسو يرتدي من الثياب سوى كلاميد أسود، علامة على بلوغه سن التجنيد في الآونة الأخيرة، وإن كان يستخدمه بقدر من التهاون أو الخرَق، وكأنه لم يألفه بعد. وفي هياج ناعم، تفجَّر بياضُ بشرته التي لا تشوبها شائبة من بين فتحات ردائه غير المتساوية. مضى أنتيسو يهزُّ قدميْه الحافيتيْن بحركة هائجة، ليفنِّد بتلك اللفتة الطفولية بلوغه سن التجنيد حديثًا.

- دعني أتجاذب أطراف الحديث معك قليلًا ريثما ننتظر مَقْدَم إيونيو.

ثم أردف دياغوراس مُشيرًا إلى هراقليس:

- إنه صديق. لك أن تتحدَّث بمطلق الطمأنينة في حضوره.

تبادل هراقليس وأنتيسو التحية بإيماءة رأس مقتضبة.

تابع دياغوراس:

- أنتيسو، هل تذكر تلك الأسئلة التي طرحتُها عليك بشأن تراماكو، وكيف أخبرني ليسيلو بأمر الراقصة بائعة الهوى التي كانت على علاقة به؟ لم أكُن على علم بوجود تلك المرأة. ولذا فقد خطر لي أنه ربما تكون ثمة أمور أخرى أجهلها...

- أيّ أمور يا مُعلِّم؟

- كل شيء. كل ما تعرفه بشأن تراماكو. ميوله...

ما كان يروق له القيام به بعد الخروج من الأكاديمية...

إنني منشغل قليلًا بسبب القلق الذي لاحظتُه باديًا على وجهه في الأيام الأواخر، وأودُّ معرفة منبع ذلك القلق، بكل السبُل والوسائل، للحيلولة دون انتقاله إلى طلاب آخرين.

فأجاب أنتيسو في عذوبة:

- لم يكُن كثير الاختلاط بنا يا مُعلِّم. أما ما يتعلَّق بعاداته، فأستطيع أن أؤكِّد لكما أنها كانت عادات سليمة...

فعجَّل دياغوراس قائلًا:

- ومن يشكُّ في ذلك؟ يا بنيّ، أنا أعرف جيِّدًا الخصال النبيلة البديعة التي يتَّسم بها تلاميذي، وهو السبب الأدعى لمفاجأتي بما أطلعني عليه ليسيلو. وعلى الرغم من ذلك، فقد أكَّدتم جميعًا على الأمر نفسه. وبالأخذ في الحسبان أنك وإيونيو كنتما أعز أصدقائه، فأنا عاجز عن التصديق بأنكما لا تعلمان أمورًا أخرى لم تجرؤا على البوح بها إليَّ بعد، سواء أكان ذلك عن خَفَر أو أريحيَّة...

ثم غمر الصمتَ ضجيجٌ وحشيٌّ، وكأنه صادر عن أشياء تتهشَّم. كان جليًّا أن المصارعة تحتدم. فقد بدت الجدران وكأنها تخفق على وقع خطوات حيوان مُفرط الضخامة. عاد الهدوء إلى المكان، وفي اللحظة نفسها دلف إيونيو إلى الحجرة، بمحض الصدفة.

شرع دياغوراس يقارن بين تلميذيْه على الفور. لم تكُن تلك المرة الأولى التي يُقدِم فيها على ذلك، إذ يلذُّ له أن يدرس تفاصيل الجمال المختلف الذي يميِّز كلًّا من تلميذيْه. إيونيو، بشعره الفاحم المُتموِّج، كان أكثر طفوليةً من أنتيسو، وأكثر ذكورة في آن. كان له وجه يبدو كثمرة ناضرة مُشرَّبة بحمرة، وبشرة بلون الحليب، أما جسمه القوي فقد غدا ناضجًا كجسم رجل. أما أنتيسو، ورغم أنه يكبره سنًّا، فكانت له هيئة أكثر رهافة وإبهامًا، وبشرة صافية متورِّدة، لا أثر فيها للزغب. وفقًا لرأي دياغوراس، حتى غانيميديس ساقي الآلهة ما كان ليستطيع أن يباريه في جمال المحيَّا، ذلك المحيَّا الخبيث أحيانًا، ولا سيما عند الابتسام، الجميل إلى حدٍّ يبعث على القشعريرة حين ترتسم عليه أمارات الجديَّة المفاجئة، كدأبه وهو يصغي إلى أحدهم باحترام. كان ذلك التباين المادي ينعكس على طباع كلٍّ منهما، وإن على نحو مناقض. فكان إيونيو كثير الخجل والصبيانية، أما أنتيسو، وعلى الرغم من تلك الهالة التي تجعله أشبه بفتاة بارعة الجمال، فكانت له شخصية مفعمة بالحيوية خليقة بقيادي حقيقي. ما كاد إيونيو يفتح الباب حتى همس:

- هل دعوتَني يا مُعلِّم؟

- ادخلْ، أرجوك. أودُّ أن أتحدَّث معك أنت أيضًا.

علَتْ وجه إيونيو حُمرة لا تُصدَّق، ثم عقَّب بقوله إن المُدرِّب قد دعاه لأداء بعض التدريبات، ولذا ينبغي له تبديل ثيابه والانصراف على الفور. فقال دياغوراس:

- لن نستغرق طويلًا يا بنيّ، أؤكِّد لك.

أطلعَه دياغوراس على ما فاته وكرَّر مطلبه. وبعد برهة صمت، تسارعَتْ الوتيرة التي تتأرجح بها قدما أنتيسو المتورِّدتان. ثم قال الأخير في عذوبة، كدأبه على الدوام:

- يا مُعلِّم، لا نعرف أكثر بكثير مما أدلينا به عن حياة تراماكو.

بدا التناقض جليًّا بين حزم أنتيسو الناضر وخَفَر إيونيو الخَجِل. ثم استطرد:

- كُنَّا على علم بشائعات العلاقة التي جمعت بينه وبين بائعة الهوى، إلا أننا لم نعتقد بصحتها في دخيلة نفسيْنا. ذلك أن تراماكو كان نبيلًا فاضلًا.

أومأ دياغوراس قائلًا:

- أعرف ذلك.

في حين استطرد أنتيسو:

- كان تراماكو لا يكاد يجتمع بنا قط بعد دروسه في الأكاديمية، إذ كان مضطرًّا لأداء فروضه الدينية. أسرته تؤمن بالأسرار المُقدَّسة...

لم يُولِ دياغوراس تلك المعلومة قدرًا كبيرًا من الأهمية، فالكثير من العائلات النبيلة في أثينا تعتنق أسرار إليوسيس[53].

- أتفهَّم ذلك. ولكني أقصد رفقات أخرى...

لا أدري...

ربما صداقات أخرى...

تبادل أنتيسو وإيونيو نظرة فيما بينهما. كان إيونيو قد شرع في التجرُّد من التونيك الذي يرتديه.

- لسنا ندري يا مُعلِّم.

- لسنا ندري.

وبغتةً، بدا أن الجيمنازيوم بأسره يرتجف. قرقعَتْ الجدران كما لو كانت على وشك أن تتصدَّع. وفي الخارج جعل حشدٌ مُتَّقد الحماس يجأر ويحثُّ المصارعَيْن اللذيْن جاء خوارهما الهائج مسموعًا على نحو جليّ.

- ثمة أمر آخر يا بنيّ...

مما يدعو للمفاجأة قرار تراماكو المباغت بالخروج للصيد وحيدًا، نظرًا لشعوره البالغ بالقلق...

هل كان ذلك من عادته؟

فقال أنتيسو:

- لا علم لي بذلك يا مُعلِّم.

- وما رأيك، إيونيو؟

وفي الحجرة هوَتْ بضعة أشياء على الأرض تحت وطأة الهزَّة التي كانت تزداد شدة: الثياب المُعلَّقة على الجدران، ومصباح الزيت الصغير، وفيشات التسجيل في قُرعة المباريات[54]...

همهم إيونيو، والحُمرة تصبغ وجنتيْه:

- أعتقد ذلك.

أخذ دبيب الأظلاف الأربعة الشديد يدنو أكثر فأكثر. وعلى رفِّ الجدار، ترنَّح تمثال صغير يجسِّد يوسايدون إله البحر، ثم سقط على الأرض حيث تهشَّم إلى شظايا.

ردَّد باب الحجرة الصدى مُحدِثًا ضجة مُروِّعة[55].

سأل دياغوراس برقَّة:

- أوه، إيونيو الصالح، تُراك تذكر مناسبات مماثلة؟

- أجل يا مُعلِّم، مناسبتيْن على الأقل.

- إذن، هل كان من عادته أن يخرج للصيد وحيدًا؟ يا بنيّ، أقصد هل كان ذلك قرارًا مألوفًا لديه، حتى وإن كان يشعر بالقلق حيال أي مسائل أخرى؟

- أجل يا مُعلِّم.

انبعج الباب تحت وطأة نطحة رهيبة. فيما تردَّد وقع أظلاف وخوار وأصداء شديدة مصدرها وجود خارجي هائل.

تجرَّد إيونيو من ثيابه تمامًا-إلا من عصابة تلفُّ شعره الأسود- وفي هدوء جعل يمسح فخذيْه بدهان بلون الطمي.

وبعد برهة صمت، تذكَّر دياغوراس آخر سؤال يتوجَّب عليه طرحه:

- إيونيو، أنت الذي أخبرتَني يومذاك بأن تراماكو لن يحضر دروسه لأنه قد خرج للصيد، أليس كذلك يا بنيّ؟

- أعتقد يا مُعلِّم.

تحمَّل الباب ضربة جديدة. تناثرَتْ شظايا لا عدّ لها على رداء هراقليس اليونتوري. ودوَّى خوار غاضب.- كيف عرفتَ بذلك؟ هل أخبرك بنفسه؟

أومأ إيونيو برأسه. فاستطرد دياغوراس:

- ومتى؟ أعني أن تراماكو قد رحل فجرًا، بحسب فهمي، ولكنه لم يبُح لي بشيء حول نّيته الخروج للصيد في خلال حديثنا عشية اليوم السابق. فمتى أخبرك؟

لم يحِر إيونيو جوابًا على الفور. في حين برزَتْ تفاحة آدم من عنقه الأهيف، ناتئةً كقرون الثيران.

- في تلك...

الليلة...

نفسها. أعتقد، يا مُعلِّم...

قطَّب دياغوراس حاجبيه:

- هل رأيتَه ليلتها؟ هل كان من عادتك أن تجتمع به ليلًا؟

- كلا...

يبدو لي أنني...

رأيتُه قبل ذلك.

- أتفهَّم.

ثم ساد صمت قصير. أما إيونيو، بقدميْه الحافيتيْن وجسمه العاري، وطبقة الدهان اللامعة على فخذيْه وكتفيْه، فقد علَّق التونيك بعناية على المشجب الذي يحمل اسمه. وعلى رفٍّ مُثبَّت فوق المشجب، استقرَّتْ بعض الأغراض الشخصية: أخفاف، وقوارير من المرمر لحفظ الدهانات، ومشط من البرونز لتصفيف الشعر بعد التدريبات، وقفص خشبي صغير بداخله عصفور بالغ الضآلة. ضرب الطائر بجناحيْه في هياج. عندئذ قال إيونيو:

- يا مُعلِّم، المُدرِّب يترقَّب حضوري...

فابتسم دياغوراس:

- بالطبع يا بنيّ، فنحن ذاهبان أيضًا.

وبعدم ارتياح جليّ، حدج الفتى العاري هراقليس بنظرة من طرف عينه ثم عاود الاعتذار. مرَّ من بين الرجليْن ليفتح الباب-الذي انخلع عن المُفَصَّلات، وكاد يتهشَّم- ثم خرج من الحجرة[56].

التفت دياغوراس إلى هراقليس ترقُّبًا لأية إشارة تفيد أن قد أصبح بإمكانهما الانصراف، في حين جعل كاشف الألغاز يتفحَّص أنتيسو باسمًا:

- خبِّرني، أنتيسو، ممَّ كل هذا الخوف؟

- الخوف، يا سيِّدي؟

أما هراقليس، الذي بدا شاعرًا بقدر كبير من التسلية، فقد أخرج حبة تين من خُرْجه.

- إن لم يكُن هو الخوف، فما الدافع وراء اختيارك أداء الخدمة العسكرية بعيدًا عن أثينا؟ لو شعرتُ بخوفك نفسه، لسعيتُ إلى الفرار أنا أيضًا، بكل تأكيد، ولأقدمتُ على ذلك مُتذرِّعًا بحُجَّة وجيهة بقدر حُجَّتك لئلا يعتبرني الناس جبانًا، بل عكس ذلك تمامًا.

- سيدي، أتنعتني بالجُبن؟

- إطلاقًا. لن أنعتك بالجُبن ولا الشجاعة حتى أعرف الدافع وراء خوفك على وجه التحديد. فالجُبن لا يختلف عن الشجاعة سوى في منبع الخوف. فربما كان السبب في شعورك بالخوف من الفظاعة بحيث يدفع أي شخص عاقل إلى الفرار من المدينة بأسرع ما يمكن.

فأجاب أنتيسو مُشدِّدًا على كلماته، وإن حافظ على نبرته الرقيقة الدالة على الاحترام:

- لستُ ألوذ بالفرار من أي شيء. بل تنازعني رغبة في حراسة معابد أتيكا منذ أمد بعيد يا سيِّدي.

فقال هراقليس في وداعة:

- عزيزي أنتيسو، أقبَلُ خوفك، أما أكاذيبك فلا. إياك أن تفكِّر لحظة واحدة في إهانة ذكائي. لقد اتَّخذتَ قرارك منذ أيام قلائل، وبالأخذ في الاعتبار أن أباك طلب من مُربِّيك القديم إقناعك بالعدول عن رأيك، مع أنه يستطيع أداء ذلك الواجب بنفسه، ألا يعني ذلك أنه قد فوجئ بقرارك كليًّا، وأنه مُثقَل بما يعتبره تغيُّرًا هائجًا وعصيًّا على التفسير في سلوكك؟ ألا يعني ذلك أن أباك، وهو لا يدري إلامَ يعزو ذلك التغيُّر، قد لجأ إلى الشخص الوحيد الذي يعتقد أنه يعرفك جيِّدًا، بخلاف أسرتك؟ وحق زيوس، إني لأتساءل عن الدافع وراء ذلك التغيُّر الشاسع. ترى مصرع صديقك تراماكو قد أثَّر في شيء؟

ومن دون أن تتبدَّل نبرته، وفي لامبالاة مطلقة، أردف هراقليس سائلًا وهو يحكُّ أصابعه التي كان يمسك بها حبة التين:

- أوه، معذرةً، أين لي بتنظيف يدي؟

انتقى هراقليس منشفة على مقربة من الرفِّ الخاص بإيونيو، وهو بعيد كل البعد عن الصمت المحيط به.

- تُرى، أيكون أبي قد طلب مساعدتكما أنتما أيضًا لإقناعي بإعادة النظر؟

لاحظ دياغوراس أن الاحترام قد بدأ يستحيل غضبًا في الكلمات الناعمة التي أدلى بها الفتى، وكأنه ثور ضاق عليه الخناق، فتخلَّى عن طاعته الأزلية مدفوعًا بالخوف، ونطح أصحابه في هياج. غمغم دياغوراس وهو يرشق هراقليس بنظرة حادة:

- أوه، أنتيسو الصالح، لا تغضب...

فصديقي مبالِغ قليلًا...

ليس عليك أن تقلق يا بنيّ، فقد بلغتَ سن التجنيد، وقراراتك تستحقُّ أن تُقابَل بكل احترام دومًا، حتى وإن كانت خاطئة...

ثم اقترب من هراقليس وهمس إليه بصوت خفيض:

- هلا أسديتَني معروفًا وجئتَ معي؟

ودَّعا أنتيسو على عجل. وشرعا يتجادلان قبل خروجهما من البناء. فصاح دياغوراس في ضيق:

- إنها نقودي أنا! أنسيتَ ذلك؟

- ولكنه عملي أنا يا دياغوراس. لا تنسَ ذلك أيضًا.

- وفيمَ يهمُّني عملك؟ هلا فسَّرتَ لي هذه النبرة التي ليس لها ما يبرِّرها؟

أخذ غضب دياغوراس يحتدم أكثر فأكثر، بينما احمرّ رأسه الأصلع كليًّا، ومال إلى الأمام كثيرًا، وكأنما يتأهَّب لنطح هراقليس.

- لقد أهنتَ أنتيسو!

فقال هراقليس بمطلق الهدوء:

- بل رميتُ سهمًا عشوائيًا، فأصاب سهمي لبَّ الهدف.

استوقفه دياغوراس، جاذبًا رداءه في هياج.

- دعني أقُل لك شيئًا، لستُ آبه إن لم يكُن الناس عندك أكثر من برديَّات مكتوبة، تقرؤها وتحلُّ أحاجيها المستعصية. لا أؤدِّي أتعابك لتهين واحدًا من خيرة تلاميذي باسمي، أو لتهين إفيبوس يحمل كلمة «الفضيلة» مكتوبة على كل قسمة من قسماته البديعة...

هراقليس اليونتوري، لا أقبل بأسلوبك!

- دياغوراس الميدونتي، أخشى أنني لا أقبل بأسلوبك أيضًا. فقد بدا لي وكأنك تمدح الفتييْن بدلًا من استجوابهما، رُحتَ تنظم قصيدة غنائية في مديح الفتييْن، كل ذلك لمُجرَّد أنهما يبدوان لك في غاية الجمال. أرى أنك تخلط بين الجمال والحقيقة...

- الجمال مِنْ الحقيقة!

فقال هراقليس:

- أوه!

ثم أشاح بيده إشارةً إلى عدم رغبته في خوض مناقشة فلسفية لحظتها، إلا أن دياغوراس جذبه من ردائه مرة أخرى وقال:

- أنصتْ إليّ! ما أنت بأكثر من كاشف ألغاز بائس. تكتفي بمراقبة الأشياء المادية، ثم الحكم عليها والخلوص إلى النتيجة: جرى ذلك الأمر على نحوٍ أو آخر، لسبب أو آخر. إلا أنك لم ولن تبلغ جوهر الحقيقة أبدًا. فأنت لم تعاينها، ولم ترتوِ برؤياها المطلقة. أما فَنُّك، فيقتصر على كشف ظلال الحقيقة. أنتيسو وإيونيو ليسا كائنيْن كامليْن، كما لم يكُن تراماكو كائنًا كاملًا، بَيْد أنني أعرف جوهر روحيْهما، وفي وسعي التأكيد لك بأن قدرًا لا يُستهان به أبدًا من فكرة الفضيلة يتألَّق في روحيْهما...

وذلك الألَق بادٍ على نظراتهما، وقسماتهما البديعة، وجسدَيْهما المتناغميْن. هراقليس، لا شيء في هذا العالم قادر على السطوع بالقدر نفسه ما لم ينَل قَبَسًا خافتًا-على الأقل- من ذلك الفيض الذهبي الذي لا يسبغه سوى جوهر الفضيلة.

أمسك دياغوراس عن الكلام، وكأنه يخجل من كلماته المحتدمة. طرفَتْ عيناه عدة مرات، واكتسَتْ قسماته بحمرة تامة. عند ذاك استطرد في حديثه بقدر أكبر من الهدوء:

- لا تُهِن الحقيقة بذكائك، هراقليس اليونتوري.

تنحنح أحدهم من موضع ما بحلبة المصارعة الخالية المُقوَّضة الغارقة تحت الأنقاض[57].

كان إوْماركو. سار دياغوراس مبتعدًا عن هراقليس، مُتَّجهًا صوب طريق الخروج باندفاع. قال:

- أنتظرك خارجًا.

غادر الفيلسوف، فقال إوْماركو مُعقِّبًا:

- وحق الإله زيوس رامي الصواعق، لم يسبق لي أن رأيت شخصيْن يتجادلان كما فعلتما، ما خلا الأزواج والزوجات!

كشفَتْ ابتسامته السوداء التي تبدو كالمنجل عن سنٍّ صعب المراس يشبه في التوائه قرون الثيران.

فأجابه هراقليس مُتفكِّهًا:

- ولا تُفاجَأ، إوْماركو، إن تزوَّجتُ من صديقي في خاتمة المطاف، فإننا من الاختلاف حتى يبدو لي أن الشيء الوحيد الذي يجمعنا هو الحب.

تقاسما قهقهة مقتضبة عن طيب خاطر.

- والآن، إوْماركو، ما لم يكُن في ذلك إزعاج لك، دعنا نتجوَّل قليلًا ريثما أُطلعكَ على السبب الذي جعلتُك تنتظر من أجله...

سارا داخل الچيمنازيوم، حيث تناثرَتْ أطلال الخراب الذي لحق به حديثًا. فبدَتْ جدران مُتشقِّقة تحت وطأة النطحات الهائجة، وقطع أثاث مُهشَّمة اختلطتْ بالرماح والأقراص المُستخدمة في المباريات الرياضية، ورمال دهسَتْها أظلاف عملاقة، وبلاط تكسوه القشور المتساقطة عن الجدران، القشور التي تراكمَتْ على هيئة أزهار هائلة الحجم من الأحجار الكلسية، بلون الزنابق. كما استلقَتْ شظايا جرَّة مُهشَّمة مطمورةً تحت الأنقاض. وعلى إحدى الشظايا بدا نقشٌ يصوِّر يدي فتاة باسطةً ذراعيْها، رافعةً راحتيها إلى الأعلى، كأنها تطلب المساعدة أو تحاول تحذير أحدهم من خطر وشيك. فيما راحت سحابة رقطاء من الغبار تتلوَّى في الهواء[58].

فرغا من حديثهما فقال هراقليس:

- آه، إوْماركو، كيف أؤدِّي ثمن صنيعك هذا؟

فأجاب الكهل:

- بأن تؤدِّي لي ثمنه!

عاودا الضحك.

- يا إوْماركو الصالح، ثمة أمر آخر. لقد استرعى انتباهي وجود قفص صغير على الرفِّ الخاص بإيونيو، صديق تلميذك. والقفص يحوي طائرًا، عصفورًا، هو الهدية التقليدية من عاشق إلى معشوقه. أتعرف من يكون عشيق إيونيو؟

- هراقليس، أنا لا أعلم عن إيونيو شيئًا، وحق أيولُّو، بَيْد أن أنتيسو لديه هدية مطابقة، وبوسعي أن أقول لك من قدَّمها له. إنه مينيكمو، النحَّات الشاعر المُتيَّم به!

جذب إوْماركو رداء هراقليس وخفض صوته:

- أخبرني بذلك أنتيسو منذ زمن، واستحلفني بالآلهة ألَّا أخبر أحدًا، أيًّا كان...

جعل هراقليس يتأمَّل هنيهةً.

- مينيكمو...

أجل، رأيتُ ذلك الفنان غريب الأطوار آخر ما رأيتُه في جنازة تراماكو، وأذكر مفاجأتي بحضوره. إذن، فمينيكمو أهدى أنتيسو عصفورًا صغيرًا...

فصاح الكهل بصوته الأجش:

- أيبدو لك ذلك غريبًا؟ وحق عيني الربة أثينة الزرقاويْن، كنتُ أودُّ لو أهديت ألسيبياديس الجميل ذا الشعر الذهبي عشًّا بأكمله، وإن كان ذلك عديم الجدوى، كوني عبدًا طاعنًا.

- حسنٌ، إوْماركو.

وفجأةً بدا هراقليس أكثر سعادةً بكثير.

- والآن عليَّ أن أرحل. نفِّذْ ما أخبرتُك به...

- هراقليس اليونتوري، ما دُمتَ تكافئني كما فعلتَ حتى الآن، سأمتثل لأوامركَ كما تلبِّي الشمس نداء الفجر.

انعطفا عن مسارهما لئلا يُضطرَّا للعودة عَبْر الأغورا المكتظَّة بالناس في مثل هذه الساعة بمناسبة أعياد ليْنايا. وعلى الرغم من ذلك، فقد اعترض مسيرهما تكتُّل الألعاب المُقامة على الملأ، والعقبات المُتمثِّلة في المسرحيات الهزلية المُرتجَلة، وتيه الملاهي، والهياج الوئيد للحشود التي جعلَتْ تناطحهما. سارا في طريقهما لا ينبسان بكلمة، بينما استغرق كلٌّ منهما في أفكاره. وأخيرًا، لمَّا بلغا حيّ إسكامبونيداي الذي يسكن فيه هراقليس، قال الأخير:

- دياغوراس، اقبلْ ضيافتي ليلة واحدة. فطهو جاريتي يونسيكا ليس رديئًا إلى هذا الحد، وعشاء هادئ آخر اليوم خير سبيل لاسترداد القوة اللازمة لليوم التالي.

قبل الفيلسوف دعوته. وفيما هما يسيران عَبْر البستان المعتم الذي يتصدَّر بيت هراقليس، قال دياغوراس:

- كنت أودُّ الاعتذار لك. أعتقد أنه كان بوسعي الاختلاف معك في الچيمنازيوم على نحوٍ أكثر تحفُّظًا بكثير. آسف لأني جرحتك بإساءاتي التي لا ضرورة لها...

فأجابه هراقليس بالهدوء نفسه كدأبه على الدوام:

- دياغوراس، أنت مُستخدِمي وتؤدِّي أتعابي. ولذا أعتبرُ كل ما يحدث بيني وبينك من مشكلات شقًّا من عملي. أما اعتذارك فأقبله باعتباره لفتة صداقة، وإن لم يكن ضروريًّا.

وفيما مضيا عَبْر البستان، دار في خلد دياغوراس: «أي رجل بالغ البرود! يبدو أن شيئًا لا يترك في نفسه أثرًا. أنَّى لشخص أن يكشف الحقيقة ما دام لا يهمُّه الجمال، ولا يفتنه الشغف، ولا حتى من آن إلى آخر؟».

وفيما مضيا عَبْر البستان، دار في خلد هراقليس: «ما زلتُ لم أحدِّد بدقة إن كان هذا الرجل من أنصار المثالية وحسب، أم إنه فوق ذلك أحمق. على كل حال، أنَّى له أن يزهو بكشف الحقيقة ما دام لا يفطن لشيء مما يدور من حوله؟»[59].

وبغتةً، انفتح باب البيت وكأنما على إثر نطحة هائجة، وبرز خيال يونسيكا المُتَّشح بالسواد. أما قناعها الخالي من الملامح فقد ظلَّ بلا تعابير، وإن راحت ذراعاها النحيلتان تتحرَّكان أمام سيِّدها باندفاع غير معهود. فأخذ هراقليس يكشف طلاسم حركاتها:

- ماذا يجري؟...

زائر...

هدِّئي من روعك...

تعرفين أنني لا أستطيع قراءة إشاراتكِ جيِّدًا حين تنفعلين...

ابدئي من جديد...

عند ذاك سُمِع خوار مُنفِّر آتٍ من عتمة البيت. وفي الحال تبعه نباح بالغ الحدَّة.

- ما هذا؟

راحت يونسيكا تلوِّح بيديها بحركات محمومة.

- الزائر؟...

هل زائري كلب؟...

آه، رجل برفقة كلب...

ولكن، لمَ سمحتِ له بالدخول في غيابي؟

فجأر صوتٌ مفعم بالسطوة آتٍ من البيت، وقال بلكنة غريبة:

- ليس لجاريتك ذنب. ولكن لو أردت أن تعاقبها، فأخبرني بذلك وسوف أنصرف.

فهمهم هراقليس:

- ذلك الصوت...

بحق زيوس وأثينة المُدرَّعة بترس إيجيس الخارق...!

ظهر رجل هائل الجرم، مقبلًا من عند عتبة الباب باندفاع. بسبب من لحيته الكثَّة، ما كان بوسع الناظر إليه أن يعرف ما إذا كان يبتسم أم لا. ثم ظهر كلب مُشوَّه الرأس، بشع على صغر حجمه، ينبح عند قدميْه.

قال الرجل:

- قد لا تتعرَّف على وجهي، هراقليس. ومع ذلك، أظنُّ أنك لم تنسَ يدي اليمنى...

رفع يده باسطًا راحته. وفوق الرسغ بقليل، بدت بشرته مُتعرِّجة، وقد تخلَّلَتْها جدائل هائجة من الندوب، وكأنه حقو حيوان هرِمٍ.

فهمس هراقليس:

- أوه، وحق الآلهة...

تبادل الرجلان التحية بحماس جارف. وبعد هنيهة، التفت كاشف الألغاز إلى دياغوراس الذي فغره فمه. قال:

- إنه صديقي كرانتور، من ديموس يونتور. سبق لي أن حدَّثتُك عنه ذات مرة. إنه الرجل الذي وضع يمينه فوق ألسنة اللهب.

كان الكلب يُدعَى كيربيروس. على الأقل، هكذا كان يدعوه الرجل. كانت له جبهة هائلة، مُتموِّجة، مُجعَّدة، كجبهة ثور هرِمٍ، ويكشف عن مجموعة أسنان مُنفِّرة داخل فمه المتورِّد، على نقيض البياض المريض في وجهه. بدَتْ عيناه الدقيقتان، الحاذقتان، الوحشيتان، كعيني والٍ فارسي. أما الجسم فكأنه عبد ضئيل يجرِّر نفسه في إثر سيِّده المتمثِّل في الرأس.

كان للرجل رأس متباهٍ هو الآخر، أما قوامه الفارع القوي فكان بمثابة عمود يليق بذلك التاج الذي يكلِّل قمته. بدا كل ما يتَّصل به مُبالَغًا فيه، ابتداءً من مسلكه وصولًا إلى أبعاد جسمه. كان واسع الوجه، صافي الجبين، ضخم المنخريْن، يكاد الشعر يغطِّيه من قمة رأسه إلى أخمص قدمه، له يدان هائلتان سمراوان، تتخلَّلهما عروق غليظة. كما كان جذعه وبطنه يتَّسمان بالعرض المفرط نفسه. أما قدماه فكانتا مُصْمَتتيْن، شبه مُربَّعتيْن، وتبدو كل أصابع قدميْه في الطول نفسه. كان رداؤه رماديًّا، هائل الحجم، غير متناسق، لا ريب أنه كان رفيق مغامراته المخلص في ما مضى، فقد اكتسب هيئة صاحبه وكأنه قالب صلب.

على نحو ما، كان الرجل والكلب يشبه أحدهما الآخر. إذ يمكن للناظر إليهما أن يتبيَّن البريق الهائج نفسه المُطلّ من نظراتهما. حركاتهما تدعو للمفاجأة، وليس من السهل أن يتوقَّع المرء الغرض من إيماءاتهما، حتى يبدو أنهما يجهلان ذلك أيضًا. ويظهر أن لكلٍّ منهما شهية نهمة تكمِّل شهية الآخر، فكل ما يعافه الأول يزدرده الثاني مهتاجًا. وأحيانًا يلتقط الرجل من الأرض عظمة لم يفرغ الكلب من كشطها، لينتهي مما قد بدأه الكلب بقضمات مقتضبة.

كلاهما تفوح منه الرائحة نفسها، الرجل والكلب.

جعل الرجل يتحدَّث في تلك اللحظة، مستلقيًا على إحدى الأريكتيْن في الحجرة، وقد أمسكت يداه الداكنتان عنقود عنب أسود. كانت نبرة صوته غليظة، عميقة، ولهجته أجنبية ثقيلة.

- أي شيء في وسعي أن أروي لك، هراقليس؟ أي شيء في وسعي أن أقول لك عن العجائب التي عرفتُها، عن المعجزات التي ما كان عقلي الأثيني يرغب في الإقرار بها قط، والتي أبصرَتْها عيناي الأثينيتان. كثيرة هي الأسئلة التي تطرحها عليَّ، وأنا ما عندي ردود. فأنا لستُ كِتَابًا، وإن زخرَتْ جعبتي بالغريب من القصص. لقد جُبتُ بلاد الهند وفارس ومصر ومملكة الجنوب وما وراء النيل. زرتُ المغارات التي يسكنها الرجال الأُسُود، وتعلَّمتُ اللغة الهائجة التي تتكلَّمها الأفاعي

المُفكِّرة. سرتُ فوق رمال محيطات تنفتح أمام المرء ثم تُقفَل دونه كالأبواب. راقبتُ العقارب السود وهي تخطُّ رموزها السرِّية في الوحل. رأيتُ كيف للسحر أن يودي بالحياة، وكيف تتحدَّث أرواح الموتى من خلال أقربائهم، ورأيتُ الأشكال اللانهائية التي تتَّخذها الأرواح الشريرة حين تظهر للسحرة. هراقليس، أقسم لك إن خارج أثينا عالمًا لانهائيًّا.

بدا الرجل وكأنه يخلق بكلماته صمتًا، كما يغزل العنكبوت بالخيوط الخارجة من بطنه بيتًا. إذ كان يمسك عن الكلام، فلا يبادر أحد بالحديث على الفور. وبعد هنيهة، يزول أثر التنويم الذي يوحي به إلى مستمعيه، وتعود الحياة إلى أجفانهم وشفاههم.

عندئذ قال هراقليس:

- كرانتور، يسرُّني أنك قد استطعت تحقيق الهدف الذي وضعتَه نصب عينيك منذ البدء. يومَ عانقتُكَ في بيريوس منذ أعوام، وأنا لا أدري متى سأعود لرؤياك، سألتُك للمرة الألف عن الدافع وراء اغترابك طوعًا. وأذكر أنك أجبتني، للمرة الألف أيضًا: «أريد مفاجأة نفسي كل يوم». ويبدو أنك قد أفلحتَ في ذلك، بكل تأكيد.

ندَّتْ عن كرانتور دمدمة، لا شك أنها تعني ابتسامة موافقة. التفت هراقليس إلى دياغوراس، الذي ظلَّ مطرقًا مطيعًا على أريكته، يرتشف آخر كأس نبيذ له على العشاء.

- أنا وكرانتور من ديموس يونتور، تعرَّفنا في سن الطفولة. تلقَّينا تعليمنا معًا، كما شاركنا في المهام نفسها إبان الحرب، رغم أنني بلغت سن التجنيد أولًا. وعندما تزوَّجتُ لاحقًا قرَّر كرانتور، الغيور جدًّا، أن يشرع في رحلة حول العالم. ودَّعنا بعضنا بعضًا و...

وهكذا حتى اليوم. في تلك الحقبة، ما كان يفرِّق بيننا شيء سوى الرغبات التي تنازع كلًّا منا...

أطرق هراقليس برهةً بينما أطلَّ من عينيْه بريق البهجة. ثم أردف:

- دياغوراس، أتدري؟ كنتُ أودُّ أن أصبح مثلك وأنا في عهد الشباب، فيلسوفًا.

أعرب دياغوراس عن مفاجأته بصدق. ثم قال كرانتور بصوت هادر، مخاطبًا دياغوراس هو الآخر:

- أما أنا فكنتٌ أودُّ أن أصبح شاعرًا.

- وفي النهاية أصبح هو فيلسوفًا...

- وهو كاشف ألغاز!

ضحكا. وفي داخل الحجرة بلغ الليلُ تمامَه، وعزلَتْ مصابيحُ الزيت وجوه الرجال الثلاثة على نحو يتوهَّم معه الناظر أنها طافية في ظلمات كهف. تردَّدت القرقرة المتواصلة الناجمة عن مضغ كيربيروس. ومن آن إلى آخر كانت صيحات الحشود الهائجة في الشوارع تخترق كوَّات الجدار، كوميض البرق.

أبَى كرانتور أن يقبل ضيافة هراقليس، فأوضح له أنه كان مارًّا بالمدينة خلال رحلة حياته الأبدية، مُتَّجهًا صوب الشمال، إلى ما وراء تراقيا، إلى ممالك البربر، بحثًا عن الهيبربورياس، وهم أبناء

بورياس إله ريح الشمال، ساكني أراضي ما وراء الشمال. لم يخطر له المكوث في أثينا أكثر من بضعة أيام، حيث يريد أن يتسلّى في أعياد لينايا وحضور الأعمال المسرحية («الأعمال المسرحية الجيدة الوحيدة في أثينا، أي الكوميديا»). كما أكَّد لهراقليس أنه قد عثر على نُزل يسمح بوجود كيربيروس معه. سمع الكلب اسمه فطفق ينبح بما له من قُبح بالغ. أما هراقليس، الذي لا شك أنه قد أسرف في الشراب، فقد أشار إلى الحيوان قائلًا:

- كرانتور، ها قد تزوَّجتَ في خاتمة المطاف، وأنت الذي طالما انتقدتَني دومًا لأني قد اتَّخذتُ لنفسي زوجة. أين تعرَّفتَ على زوجتك المليحة؟

كاد دياغوراس يغصُّ بالنبيذ. بَيْد أن ردَّة الفعل الودود التي بدرَتْ عن كرانتور أكدَّتْ على ما ذهب إليه بالفعل. فبين ذلك الرجل وكاشف الألغاز يجري غدير مندفع حميميّ من وشائج صداقة طفولية لم تفلح أعوام البُعد ولا الخبرات العجيبة التي باعدَتْ بينهما في اعتراض سبيلها تمام الاعتراض، برغم غموضها في أعين الغرباء. ومَردُّ زيادة «تمام الاعتراض» أن دياغوراس قد حَدَس بأنهما يشعران بقدر من عدم الراحة في وجود الآخر، وكأنهما في أمسِّ حاجة إلى الاستعانة بالطفليْن اللذين كانا فيما مضى كي يتسنَّى لهما فهم وتحمُّل الرجليْن اللذين صارا. لم يكُن دياغوراس يعرف كيف حَدَس بذلك، الأمر الذي كثيرًا ما يجري له.

قال كرانتور بنبرة مختلفة، كابحًا هياجه، وكأنه لا يتحدَّث، بل يهدهد طفلًا رضيعًا:

- عاش معي كيربيروس زمنًا أطول مما تحسبه بكثير. عثرتُ عليه عند أحد المراسي، وحيدًا بقدر ما كنتُ أنا الآخر. فقرَّرنا أن نجعل مصائرنا واحدة.

أخذ يرنو إلى الركن المعتم حيث يمضغ الكلب طعامَه. ثم أردف، ليُضحِكَ هراقليس بقوله:

- إنه زوجة صالحة، أؤكِّد لك. حتى وإن كان كثير النباح، فهو لا ينبح سوى على الغرباء وحسب.

ثم مدَّ ذراعه من فوق الأريكة لينكز اللطخة الصغيرة الضاربة إلى البياض بحنان، فاعترض الكلب مُطلِقًا نباحًا صاخبًا.

وبعد برهة صمت، قال كرانتور مخاطبًا هراقليس:

- وفيما يتعلَّق بزوجتك، آخيسيكورا...

- توفِّيت. قضَتْ ربَّات القدر عليها بمرض طويل الأمد.

فران عليهم الصمت. وفترَ الحديث. وفي النهاية أعرب دياغوراس عن رغبته في الانصراف. فرفع كرانتور يده الهائلة المحترقة:

- لا ترحل بسبب مني، فسرعان ما أنصرف أنا وكيربيروس.

ومن دون أن يبدِّل نبرته تقريبًا، سأل:

- هل أنت صديق هراقليس؟

- بل إني بالأحرى مُستخدِمه.

- أوه، مشكلة غامضة في حاجة إلى حل! أنت في يد أمينة، دياغوراس. هراقليس كاشف ألغاز استثنائي، على حد علمي. زاد وزنه قليلًا منذ آخر لقاء لي به، ولكني أؤكِّد لك أنه لم يفقد نظرته الثاقبة ولا ذكاءه الحاضر. سوف يحلُّ اللغز الذي كلَّفتَه به، أيًّا كان، خلال أيام قلائل...

فتذمَّر هراقليس:

- وحق آلهة الصداقة، دعونا لا نتطرَّق إلى العمل الليلة.

قال دياغوراس سائلًا كرانتور:

- إذن، فأنت فيلسوف؟

أجاب الأخير مُقطِّبًا حاجبيْه السوداويْن:

- وهل مِنْ أثيني إلَّا وكان فيلسوفًا؟

فقال هراقليس:

- لا تسئ فهمي، دياغوراس الصالح، فكرانتور يتعامل بالفلسفة، وليس يفكِّر بها. يتمادى في قناعاته إلى أقصى حدّ، إذ لا يروق له الإيمان بما يعجز عن ممارسته.

بدا هراقليس مستمتعًا خلال حديثه، وكأن تلك السمة على وجه التحديد أكثر ما يثير إعجابه في صديقه القديم. وتابع قائلًا:

- أذكر...

أذكر إحدى مقولاتك، كرانتور: «إني أفكِّر بيدي».

- بل إنك لا تذكرها جيِّدًا، هراقليس. كانت المقولة كما يلي: «الأيدي تفكِّر أيضًا»، ولكني قد عمَّمتُها على سائر الجسد...

ابتسم دياغوراس. جعله النبيذُ ساخرًا، كما يفعل بالمُقلِّين في الشراب عادةً.

- وهل تفكِّر بأمعائك أيضًا؟

- وبالمثانة، والقضيب، والرئتيْن، وأظفار القدم.

راح كرانتور يعدِّد له. وبعد برهة صمت، أردف قائلًا:

- دياغوراس، أنت أيضًا فيلسوف بحسب اعتقادي...

- أنا مرشد في الأكاديمية. أتعرفها؟

- بالطبع. أكاديمية صديقنا الصالح أرستوكليس!

كانت مفاجأة دياغوراس سارة حين تبيَّن له أن كرانتور يعرف أفلاطون باسمه الحقيقي.

- أما نحن فنناديه منذ أمد بعيد بلقبه، أفلاطون.

- أعرف ذلك. قُلْ له نيابةً عني إن ذكراه حاضرة في صقلية بقوة...

- هل كنتَ في صقلية؟

- يكاد يمكن القول بأنني جئتُ من هناك مباشرة. يُشاع أن الطاغية ديونيسوس الأول قد وقع في خصومة مع صهره ديون السيراقوسي بسبب تعاليم رفيقك ليس إلَّا...

سُرَّ دياغوراس بذلك الخبر.

- ستكون سعادة أفلاطون جارفة حين يعرف أن سَفْرَتَه إلى صقلية قد بدأت تؤتي ثمارها. ولكني أدعوك إلى الأكاديمية كيما تخبره بنفسك، كرانتور. زُرْنا متى شئت، أرجوك. إن كانت تلك رغبتك، فيمكنك الحضور لتناول العشاء، وبذا تشارك في محاوراتنا الفلسفية...

أخذ كرانتور يتأمَّل كأس النبيذ بتعبير ينمُّ عن شعوره بالتسلِّي، وكأنما يجد في الكأس أمرًا بالغ الطرافة أو الهَزْل. ثم أجابه:

- أشكرك، دياغوراس، ولكني سأفكِّر في الأمر. في الواقع، نظرياتكم لا تستهويني.

ثم أطلق ضحكة مكتومة، وكأنه قد ألقى دعابة رائعة.

أما دياغوراس، الذي وقع في شيء من الحيرة، فسأله بمودَّة:

- وأيّ نظريات تستهويك؟

- الحياة.

- الحياة؟

أومأ كرانتور من دون أن يكفَّ عن النظر إلى الكأس. فقال دياغوراس:

- الحياة ليست نظرية بأيّ حال. كل ما تحتاج إليه كي تحيا أن تكون على قيد الحياة.

- كلا، بل ينبغي للمرء تعلُّم الحياة.

أما دياغوراس، الذي كان يرغب في الانصراف قُبَيْل لحظة، فقد شعر الآن باهتمام مهني يجذبه إلى المحاورة. مدَّ رأسه، وبأنامله النحيلة ربَّت على لحيته الأثينية المُهذَّبة بعناية.

- كرانتور، إن ما تقوله جدير بالفضول حقًّا. من فضلك، فسِّر لي ما قُلت، إذ أخشى أنني جاهل بذلك. في رأيك، كيف يتعلَّم المرء الحياة؟

- ليس لي أن أفسِّر لك.

- ولكن، يبدو أنك قد تعلَّمتَ ذلك بالفعل.

أومأ كرانتور. فقال دياغوراس:

- وأنَّى للمرء أن يتعلَّم شيئًا يستحيل تفسيره؟

وبغتةً، كشَّر كرانتور عن أسنان بيض هائلة الحجم كامنة وسط متاهة لحيته.

- أولئك الأثينيون...

دمدم كرانتور بنبرة خفيضة للغاية حتى لم يتبيَّن دياغوراس ما قاله بوضوح في بادئ الأمر. ثم أخذ يرفع صوته رويدًا رويدًا وهو يتكلَّم، فكأن صوته آتٍ من مكان قصي، ويقترب باتجاه مُحدِّثه لينطحه في هياج:

- مهما طال غياب المرء عنهم، فما زالوا كعهدي بهم دومًا...

أولئك الأثينيون...

أوه، أي شغف باللعب بالكلمات، بالسفسطة، بالنصوص، بالمحاورات! إن أسلوبكم في التعلُّم وأنتم جلوس على مُؤخِّراتكم فوق المقاعد، فيما تنصتون، وتقرأون، وتكشفون طلاسم الكلمات، وتختلقون حُججًا وحُججًا مضادة، في محاورات لانهائية! إن الأثينيين شعبان...

واحد يفكِّر وينصت إلى الموسيقى...

وآخر أعظم عددًا بكثير، ينعم ويشقى من دون أن يتقن حتى القراءة والكتابة، ويخضع لحكم الشعب الأول...

هبَّ واقفًا ثم اتَّجه صوب كوَّة في الجدار حيث تسلَّلَتْ جلبة وسائل الترفيه المُقامة بمناسبة أعياد لينايا.

- أنصِتْ إليه، دياغوراس...

هوذا شعب أثينا الحقيقي. قصته لن تُنقَش قط على الأنصاب الجنائزية، ولن تُحفَظ منسوخة على البرديَّات حيث يسطر فلاسفتكم روائع أعمالهم...

إنه شعب لا يُقدِم حتى على الكلام، بل يجأر ويخور، مثله كمثل الثور الهائج...

ابتعد عن الكوَّة. وفي حركاته، لمح دياغوراس شيئًا من الوحشية، ما يشبه الشراسة.

- إنه شعب يأكل، ويشرب، ويضاجع، ويتسلَّى، اعتقادًا منه بأنه ثمِلٌ بنشوى الآلهة...

أنصِتْ إليه! إنه في الخارج!

فأبدى دياغوراس ملاحظته التالية:

- كرانتور، إنما البشر طبقات، كما أن النبيذ صنوف. إن ذلك الشعب الذي أشرتَ إليه لا يحسن إعمال العقل في الأمور. أما أولئك الذين يتقنون إعمال العقل فهم من فئة أسمى، ولزام عليهم أن يحكموا...

جاءت الصيحة وحشية، غير مُتوقَّعة. في حين زاد نباحُ كيربيروس الهائج من شدة صياح صاحبه المدوي.

- عقل!...

بمَ ينفعكم العقل؟...

هل أعملتم العقل في الحرب على إسبرطة؟...

هل أعملتم العقل في طموحات إمبراطوريتكم؟...

بيريكليس، وألسيبياديس، وكليون، أولئك الرجال الذين قادوكم إلى المذبحة!...

هل كانوا من المعقولية في شيء؟...

والآن ماذا تبقَّى لكم بعد الهزيمة؟...

أن تعملوا العقل في أمجاد الماضي!

فاعترض دياغوراس قائلًا:

- تتحدَّث وكأنك لست أثينيًّا!

- ارحلْ عن أثينا، ولن تعود أثينيًّا أنت أيضًا! فليس للمرء أن يكون أثينيًّا سوى خلف أسوار هذه المدينة العبثية!...

أما حين ترحل عن هنا، فتدرك أوَّل ما تدرك أن الحقيقة ليست واحدة، بل لكل امرئ حقيقته التي تخصُّه. وبالخارج، تفتح عينيْك...

فلا تتبيَّن شيئًا عدا سواد الفوضى.

مضَتْ برهة صمت. حتى نباح كيربيروس الهائج توقَّف. التفت دياغوراس إلى هراقليس كما لو كان الأخير قد أبدى رغبةً في التدخُّل، إلا أن كاشف الألغاز بدا مستغرقًا في أفكاره، وعليه فقد افترض دياغوراس أن المحاورة «فلسفية» محضة، وأن هراقليس يفسح له المجال للإدلاء بكل الردود. عندئذ تنحنح وقال:

- أعرف ماذا تعني، كرانتور، ولكنك على خطأ. ذلك أن السواد الذي تشير إليه، حيث لا ترى شيئًا عدا الفوضى، إنما هو جهلك ليس إلَّا. تظنُّ أن الحقائق المطلقة الثابتة لا وجود لها، ولكني أستطيع التأكيد على وجودها، وإن صعُبَ إدراكها. تقول إن لكل امرئ حقيقته التي تخصُّه. أما أنا فأجيبك بما يلي: لكل امرئ رأيه الذي يخصُّه. لقد عرفتَ الكثيرين ممن يختلفون عن بعضهم البعض اختلافًا بالغًا، ويفصحون عما بأنفسهم بألسُن متباينة، ولهم آراؤهم التي تخصُّهم، فخلصتَ إلى نتيجة خاطئة مفادها أن شيئًا لا يحظى بالقيمة نفسها عند الناس قاطبةً. ولكن قولك يقتصر على الكلمات، على التعريفات، على صور الأشياء والكائنات. وعلى الرغم من ذلك، فثمة أفكار ما وراء الكلمات...

قاطعه كرانتور قائلًا:

- المترجم.

- ماذا؟

بدا وجه كرانتور الهائل على ضوء المصابيح الآتي من الأسفل وكأنه قناع غامض. قال:

- عقيدة المترجم واسعة الانتشار في بقاع نائية عن بلاد الإغريق. وفقًا لتلك العقيدة، فكل ما نأتي به من أفعال أو أقوال إنما هي كلمات مكتوبة بلسان آخر على بردية هائلة. وثمة شخص يقرأ

البردية في هذه اللحظة تحديدًا، فيكشف طلاسم أفعالنا وخواطرنا، ويكشف مفاتيح محجوبة في نصِّ حياتنا. ذلك الشخص يُدعى المُفسِّر أو المترجم...

ويعتقد المؤمنون به أن لحياتنا مغزًى نهائيًّا لا نعرفه، بَيْد أن المترجم قادر على كشف ذلك المغزى فيما هو يقرؤنا. وفي خاتمة المطاف، يبلغ النصُّ نهايته فنقضي نحبنا ونحن لا نعرف أكثر مما عرفنا من قبل. ولكن المترجم الذي قرأنا سيعرف المغزى النهائي لوجودنا أخيرًا[60].

أما هراقليس الذي لزم الصمت حتى تلك اللحظة فقال:

- وبمَ ينفعهم الإيمان بذلك المترجم الأحمق، ما داموا سيقضون نحبهم وهم على القدر نفسه من الجهل؟

- حسنًا، هناك من يعتقد أن الحديث إلى المترجم ممكن.

ثم ابتسم كرانتور في خبث، وأردف قائلًا:

- يُقال إن في الإمكان مخاطبة المترجم، فهو يصغي إلينا إذ يقرأ كلماتنا ويترجمها.

فسأل دياغوراس، الذي لم تبدُ له تلك العقيدة أقل هزْلًا مما بدَتْ لهراقليس:

- وماذا يقول أصحاب هذا الرأي لذلك الـ...

المترجم؟ فقال كرانتور:

- على حسب. البعض يمجِّدونه ويطلبون منه أمورًا، كأن يُطلعهم على ما سوف يجري لهم في فصول مستقبلية...

في حين يتحدَّاه آخرون، علمًا منهم بأن المترجم لا وجود له في واقع الأمر (أو ظنًّا بأنهم يعلمون ذلك)...

سأل دياغوراس:

- وكيف يتحدَّونه؟

فقال كرانتور:

- يصيحون فيه.

وفجأة، رفع ناظريْه نحو سقف الحجرة القاتم. بدا أنه يبحث عن شيء.

كان يبحث عنكَ أنت[61].

وصاح بصوته الهادر:

- أنصِتْ أيها المترجم! أنت، يا من تثق في وجودك كل الثقة! قُلْ لي من أكون!...

فسِّرْ لغتي، عرِّفْني!...

أتحدَّاك بأن تفهمني!...

أنت، يا من تخالنا لا نعدو أن كون كلمات مكتوبة منذ أمد بعيد!...

أنت، يا من تحسب قصتنا تخفي مفتاحًا نهائيًّا!...

أعمل عقلك فيَّ، أيها المترجم!...

قُلْ لي من أكون...

قُلْ لي إن كنتَ، وأنت تقرؤني، قادرًا على كشف طلاسمي أيضًا!...

وفيما راح يستردُّ هدوءه، التفت إلى دياغوراس مرة أخرى وابتسم قائلًا:

- ذلك ما يصيحون به في المترجم المزعوم. ولكن المترجم لا يجيب أبدًا، بطبيعة الحال، إذ لا وجود له. ولو كان له وجود، فإننا وإياه في الجهل سواء[62]...

دلفَتْ يونسيكا إلى المكان تحمل قارورة مُترَعة وصبَّتْ المزيد من النبيذ في الأقداح. فاستغلَّ كرانتور تلك الوقفة ليقول:

- سأخرج في نزهة. فهواء الليل نافعٌ لي...

تبع خطاه الكلب الأبيض المُشوَّه. وبعد هنيهة، قال هراقليس مُعقِّبًا:

- لا تلقِ إليه بالًا، دياغوراس الصالح. لطالما كان مُندفعًا وبالغ الغرابة دومًا، وقد أبرز كلٌّ من الزمن والخبرات تلك الأطوار الغريبة التي تميِّز شخصيته. لم يحظَ يومًا بالصبر اللازم للجلوس والحديث طويلًا، ذلك أنه يحار في أمر الاستدلال العقلي المُعقَّد...

ما كان يبدو أثينيًّا، ولا إسبرطيًّا، نظرًا لشعوره بالمقت تجاه الحرب والجيش. هل أخبرتُك أنه اعتزل وعاش وحيدًا في كوخ شيَّده بنفسه على جزيرة وَابِيَه؟ كان ذلك في الحقبة التي حرق خلالها يده، على وجه التقريب...

وعلى الرغم من ذلك، لم يجد هناء البال في بغض الجنس البشري. لا أعرف ما يرضيه وما يسوءه، ولم أعرف ذلك قط...

أظنُّ أنه ليس راضيًا عن الدور الذي خصَّه به زيوس في كتاب الحياة العظيم. أعتذر لك عن مسلكه، دياغوراس.

قلَّل الفيلسوف من أهمية الأمر وقام عازمًا على الانصراف. سأل:

- ماذا نحن فاعلان غدًا؟

- أوه، أنت لن تفعل شيئًا. فأنت مُستخدِمي، وقد عملتَ بما فيه الكفاية.

- أريد مواصلة التعاون معك.

- لا ضرورة لذلك. غدًا أُجري تحريات بسيطة بمفردي. وسأحيطك علمًا في حال جدَّ جديد.

توقَّف دياغوراس عند الباب:

- هل كشفتَ شيئًا يمكنك إخباري به؟

فحكَّ كاشف الألغاز رأسه وقال:

- كل شيء يسير على ما يرام. لديَّ بضع نظريات لن تسمح لي بنوم هانئ الليلة، على كلّ حال...

فقاطعه دياغوراس:

- حسنًا. دعنا لا نتحدَّث عن حبة التين قبل شقها.

ثم ودَّع كلٌّ منهما الآخر كما يفعل الأصدقاء[63].

الفصل الخامس

كان هراقليس اليونتوري، كاشف الألغاز، قادرًا على الطيران.

أخذ يحلّق خفيفًا كالهواء، في صمت مطبق، في ظلمات كهف حالكة، كما لو كان جسمه ورقة. أخيرًا عثر على ضالته المنشودة التي كان يفتّش عنها. فتناهى إلى سمعه أوّل ما تناهى خفقان قلبٍ ثقيل كدفقة مياه حمِئة. ثم أبصَرَه، يحلّق في العتمة أيضًا. كان قلبًا بشريًّا انتُزِع من مكانه لتوّه، وما زال يخفق. تشبَّثَتْ به يدٌ وكأنه قِرْبة من الأديم. ومن بين الأصابع راحت تنساب خيوط دم ثخينة. وعلى الرغم من ذلك، لم يكُن القلب العاري أكثر ما يثير قلقه، بل هوية الشخص المُتشبِّث به في إحكام بالغ، إلا أن الذراع المُتَّصلة بتلك اليد بدَتْ مبتورة عند الكتف تحديدًا. أما فيما وراء ذلك، فقد غشيَتْ الظلال كل شيء. دنا هراقليس من الرؤيا التي تبدَّتْ له كي يتفحَّصها، مدفوعًا إلى ذلك بالفضول. إذ بدا له التصديق بأن ذراعًا مبتورة قادرة على التحليق في الهواء ضربًا من العبث. عند ذاك تبيَّن شيئًا أغرب وأغرب. كان خفقان ذلك القلب هو الشيء الوحيد الذي بلغ سمعه. خفض بصره مذعورًا، ثم وضع يديه على صدره ليجد تجويفًا هائلًا.

فأدرك أن القلبَ الذي انتُزِع لتوّه قلبُه.

أفاق من نومه صارخًا.

وحين دلفت يونسيكا إلى حجرته مفزوعة، كان قد بدأ يشعر بتحسُّن، فاستطاع أن يهدِّئ من روعها[64].

توقَّف العبد الصغير كي يعلِّق المشعل في الحلقة المعدنية. هذه المرة، استطاع فعلها بقفزة واحدة قبل أن يتمكَّن هراقليس من مساعدته. قال وهو ينفض الغبار عن يديه:

- لقد تأخَّرتَ في العودة. ولكن ما دُمتَ تكافئني، فلا مانع عندي من الانتظار حتى أبلغ سنَّ التجنيد.

فأجابه هراقليس:

- ما دُمتَ على هذا القدر من الحذق، فسوف تبلغها قبل الأوان الذي تقضي به الطبيعة. كيف حال سيدتك؟

- أفضل قليلًا مما كانت عليه حين تركتَها. رغم أنها ليست بخير حال.

توقَّف الطفل في منتصف رواق معتم ودنا من كاشف الألغاز بمظهر يشي بالغموض، ثم همس إليه:

- إفيماكو، صديقي العبد الكهل، يقول إنها تصرخ في أحلامها.

فأقرَّ هراقليس:

- اليوم انتابني حلم أدْعَى إلى الصراخ. الغريب أن تلك الأمور نادرة الحدوث في حالتي.

- إنها علامة على الشيخوخة.

- تُراكَ مُفسِّر أحلام أيضًا؟

- كلا، بل إن ذلك رأي إفيماكو.

بلغا الحجرة التي كان هراقليس يذكرها، إلا أنها بدَتْ أكثر نظافة وإضاءة هذه المرة، حيث أُضيئتْ المصابيح في مشكاوات الجدران وخلف الأريكتيْن والأمفورات، وكذلك في الأروقة المُمتدَّة إلى ما وراء الحجرة، ما أضفى على الجو ضربًا من الجمال المُذهَّب. سأل الطفل:

- ألن تشارك في أعياد ليناياا؟

- كيف؟ ما أنا بشاعر.

- خِلتُكَ شاعرًا. وماذا تكون إذن؟

فأجاب هراقليس:

- كاشف ألغاز.

- وما ذاك؟

فكَّر هراقليس هنيهة ثم قال:

- بالتأمُّل مليًّا، فعملي يشبه ما يفعله إفيماكو، ذلك أنني أدلي برأيي في أمور يكتنفها الغموض.

التمعَتْ عينا الطفل. وفجأةً بدا أنه قد تذكَّر منزلته بوصفه عبدًا، إذ خفض صوته معلنًا:

- لن تلبث سيدتي أن تستقبلك.

- أشكرك.

انصرف الطفل فانتبه هراقليس باسمًا إلى أنه ما زال لا يعرف اسمه. جعل يتسلَّى بتدقيق النظر في الجزيئات الخفيفة متناهية الصغر السابحة حول ضياء المصابيح، المُشبَّعة بالبريق، تلك التي تشبه بُرادة الذهب. حاول أن يكتشف قانونًا أو نمطًا تتبعه تلك الذرات في حركتها متناهية الخفة. ولكنه ما لبث أن اضطرّ لتحويل ناظريْه، عارفًا بأن فضوله-الشَّرِه إلى كشف طلاسم صور على قدر متزايد من التعقيد- يخاطر بالتيه في حميمية الأشياء اللانهائية.

دلفَتْ إتيس إلى الحجرة، فبدَتْ حوافُ ردائها تخفق كما الأجنحة في مهب تيار مفاجئ من الهواء. أما وجهها، الذي ما زال شاحبًا تعلوه الهالات، فقد بدا عليه قدرٌ أكبر من العناية. كانت نظراتها أقل عتمة، وبدَتْ رائقة خفيفة. انحنَتْ الجاريتان اللتان حضرتا في معيَّتها أمام هراقليس.

- شرَّفتنا بحضورك، هراقليس اليونتوري. أعتذر عن ضيافتي بالغة التواضع. الأسى لا يقبل الحبور.

- أنا ممتن لضيافتكِ، إتيس. ولستُ أرغب في سواها.

أما هي فأشارت إلى إحدى الأريكتيْن.

- على الأقل، يمكنني أن أقدِّم لك نبيذًا خالصًا.

- ليس في مثل هذه الساعة من ساعات النهار.

رآها تشير إلى الجاريتيْن اللتيْن خرجتا في صمت. جلس كلٌّ من هراقليس وإتيس مُتَّكئًا على أريكته، في مواجهة الآخر.

وفيما هي تهندِّم ثنايا ثوب البيبلوس فوق ساقيْها، ابتسمَتْ إتيس قائلةً:

- لم تتغيَّر، هراقليس اليونتوري. ما كنتَ تهدر أتفه خاطرة من خواطرك بقطرة نبيذ في ساعة لم تألف الشرب خلالها، ولا حتى من أجل إراقة الخمر على شرف الآلهة.

- ولا أنتِ تغيَّرتِ، إتيس، فما زلتِ تغوينني بالنبيذ كيما تفقد روحي الاتصال بجسمي، وتحلِّق في السماوات بحريَّة. غير أن جسمي بات أثقل مما ينبغي.

- وعلى الرغم من ذلك، فذهنك يزداد خفة أكثر فأكثر، أليس كذلك؟ عليَّ الاعتراف بأن الأمر نفسه يجري لي، فما عدتُ أملك من تلك الجدران فِكاكًا سوى من خلال ذهني. هراقليس، هل تسمح لذهنك بالتحليق؟ من جانبي لا أستطيع حبسه، ذلك أنه يفرد جناحيْه فأقول له: «خذْني حيثما شئت». ولكنه يأخذني إلى المكان نفسه دومًا، إلى الماضي. أنت لا تعرف هذه الهواية، بالطبع، فأنت رجل. أما نحن، معشر النساء، فنحيىَ في الماضي...

أجابها هراقليس:

- أثينا بأسرها تحيىَ في الماضي.

فابتسمَتْ في وهن:

- ذلك ما كان سيقول ميراجرو.

تابع هراقليس ابتسامتها، وإن انتبه في تلك اللحظة إلى نظرتها الغريبة.

- ماذا جرى لنا، هراقليس؟ ماذا جرى لنا؟

أطرقَتْ برهةً. أما هو فخفض عينيْه.

- ميراجرو، وأنت، وزوجتك آخيسيكورا، وأنا...

ماذا جرى لنا؟ كنا نمتثل للقواعد، للشرائع التي سنَّها رجال لم يعرفونا أو يكترثوا لأمرنا. شرائع امتثل لها آباؤنا وآباء آبائنا. شرائع ينبغي للرجال الامتثال لها وإن كان بوسعهم مناقشتها في المجمع. أما نحن، معشر النساء، فلا يُسمح لنا بالحديث عنها ولا حتى خلال أعياد الثيسموفوريا، حين نخرج من بيوتنا ونجتمع في الأغورا. إذ يجب علينا، نحن معشر النساء، السكوت حتى عن أخطائكم والإذعان لها. وأنا، كما تعلم، لا أزيد شيئًا عن أي امرأة أخرى، فلستُ أتقن القراءة ولا الكتابة، لم أرَ سماوات أخرى، ولا أراضٍ أخرى، وإن كان يروقني التفكير...

أتعرف فيمَ أفكِّر؟ أن أثينا تقوم على شرائع بائدة كأحجار المعابد العتيقة. والأكروبوليس باردة، في برودة المقابر. أعمدة معبد يارثينون بمثابة قضبان قفص، حيث لا يمكن للطيور أن تحلِّق. أما

السلام...

أجل، تحقَّق لنا السلام...

ولكن، بأي ثمن؟ ماذا فعلنا بحياتنا، هراقليس؟ كانت الحال أفضل في ما مضى. أو على الأقل، ذلك ما كنا نحسبه جميعًا...

وذلك ما ذهب إليه آباؤنا.

فقال هراقليس:

- إلا أنهم كانوا على خطأ. فالحال في ما مضى لم تكُن أفضل منها الآن. كما لم تكُن أسوأ كثيرًا. كل ما هنالك أن الحرب كانت دائرة آنذاك.

وفي جمود، قالت إتيس بسرعة وكأنها تجيب سؤالًا:

- لقد أحببتَني في ما مضى.

شعر هراقليس بأنه خارج ذاته، يتأمَّل نفسه مُتَّكئًا على الأريكة، في غاية السكون، يتنفَّس بهدوء، وعلى وجهه تعبير يشي بعدم الاكتراث. وعلى الرغم من ذلك، فقد أحسَّ بأمور تطرأ على جسمه. فعلى سبيل المثال، سرَتْ في يديْه برودة وجعلتا تتصبَّبان عرقًا على نحو مفاجئ. عندئذ أردفَتْ إتيس:- وأنا أيضًا أحببتُك.

تساءل هراقليس، لماذا غيَّرَتْ دفة الحديث؟ تُراها كانت عاجزة عن خوض محاورة معقولة، مُتَّزنة، كمحاورات الرجال؟ وفيمَ التطرُّق إلى تلك المسائل الشخصية الآن، وفجأةً؟ تململ في أريكته مضطربًا.- أوه، هراقليس. أرجو أن تلتمس لي العذر. اعتبرها كلمات امرأة وحيدة تنفِّس عما في صدرها...

ومع ذلك، فإنني أتساءل، ألم تفكِّر قط أن مجريات الأمور كان من الممكن أن تختلف؟ كلا، ليس هذا ما عنيت. فأنا أعرف أنك لم تفكِّر في ذلك قط. ولكن، ألم تشعر به يومًا؟

والآن، ذلك السؤال العبثي! استنبط هراقليس أنه قد فقد عادة الحديث مع النساء. حتى مع مُستخدِمه الأخير دياغوراس يمكن إجراء محادثة منطقية على مستوى معيَّن، رغم التباين الواضح في طباعهما. ولكن، مع النساء؟ ماذا تبغي من وراء ذلك السؤال؟ تُرى، أتكون للنساء القدرة على تذكُّر كل شعور خَبَرْنَه فيما مضى؟ حتى مع الإقرار بصحة ذلك، فيمَ يهمُّ؟ الأحاسيس، والمشاعر، كلها طيور مُتعدِّدة الألوان، تروح وتغدو، خاطفةً كالحلم، الأمر الذي يعرفه هراقليس. ولكن، كيف يفسِّر لها ذلك، وهي الجاهلة به على نحو جليّ؟

قال وهو يتنحنح:

- إتيس، في شبابنا كنا نضمر مشاعر لبعضنا البعض، والآن حلَّتْ محلها مشاعر أخرى بالغة الاختلاف. مَنْ يستطيع الجزم بما كان سيحدث في كلٍّ من الحالات؟ أعرف أن آخيسيكورا هي الزوجة التي فرضها عليَّ أبواي. ورغم أنها لم تهبني أبناءً، فقد سعدتُ معها وبكيتُها يوم رحيلها. أما ميراجرو، فقد اختاركِ أنتِ...

فقاطعَتْه إتيس:

- وأنا قبلتُه حين قبلتَ أنت آخيسيكورا، فهو الرجل الذي فرضه عليَّ أبواي كذلك. وأنا أيضًا سعدتُ معه وبكيتُه يومَ رحيله. والآن...

ها نحن أولاء، كلانا سعيد إلى حد مقبول، لا نجرؤ على الحديث عن كل ما فقدناه، عن كل واحدة من الفرص التي بدَّدناها، عن كل مرة تنكَّرنا فيها لغرائزنا، عن كل إهانة وجَّهناها لرغباتنا...

من خلال العقل...

واختلاق الحُجَج.

أطرقَتْ برهةً ورمشَتْ عدة مرات، وكأنها تفيق من حلم.

- ولكني أكرِّر اعتذاري عن نوبات جنوني الصغيرة. لقد رحل الرجل الأخير عن هذا البيت، و...

وما نحن معشر النساء من دون الرجال؟ أنت أول رجل يزورنا منذ مأدبة الجنازة.

فكَّر هراقليس مُتفهِّمًا: «هكذا إذن. إن حديثها مردُّه الألم الذي تشعر به». ثم قرَّر أن يكون ودودًا معها:

- كيف حال إلِيَا؟

- ما زالت تتحامل على نفسها. وإن كانت تأسى كلما فكَّرَتْ في عزلتها الرهيبة.

- وماذا عن دامينوس الكلاثوبيوني؟

- إنه تاجر. لن يقبل بالزواج من إلِيَا حتى أموت أولًا. فالشريعة تجيز له ذلك. الآن وقد رحل أخوها، فقد أصبحَتْ إلِيَا في نظر الشريعة وريثة ليس لها مَنْ يشاركها في الميراث مِنْ الذكور، ويجب عليها أن تتزوَّج لئلا تصير ثروتنا إلى خزائن الدولة. دامينوس يتمتَّع بالامتياز الحصري للزواج منها، على اعتباره عمّها، غير أنه لا يضمر لي تقديرًا كبيرًا، ولا سيما منذ رحيل ميراجرو. والآن يترقَّب رحيلي كما تترقَّب طيور الموت تساقط الجثامين، وفقًا للمثل السائر. لستُ آبه لذلك.

حكَّتْ إتيس ذراعيْها، ثم تابعت:

- على الأقل، فلسوف أتأكَّد أن هذا البيت من نصيب إلِيَا ضمن الميراث. فضلًا عن ذلك، فليس لديَّ مُتَّسع من الخيارات. لك أن تتخيَّل، فخُطَّاب ابنتي ليسوا كُثرًا بالأخذ في الحسبان ما لحق بأسرتنا من خزي...

وبعد برهة صمت وجيزة، قال هراقليس:

- إتيس، لقد قبلتُ عملًا صغيرًا.

نظرَتْ إليه في حين راح هو يتحدَّث بسرعة وبنبرة رسمية:

- لا أستطيع البوح لك باسم مُستخدِمِي، ولكني أؤكِّد لكِ أنه شخص أمين. أما العمل فمُتعلِّق بتراماكو على نحو ما...

رأيتُ أن من واجبي قبوله...

وإخباركِ بذلك.

زمَّتْ إتيس شفتيْها.

- إذًا، فقد جئتَ لمقابلتي بوصفك كاشف ألغاز؟

- كلا. بل جئتُ أخبرك بما كان. لن أتسبَّب لكِ في المزيد من الإزعاج إن كانت تلك رغبتكِ.

- أي ضرب من الألغاز قد يكون مُتعلِّقًا بابني؟ كانت حياته بلا أسرار، بحسب اعتقادي...

تنفَّس هراقليس بعمق.

- ليس عليك أن تقلقي، فتحرّياتي لا تتمركز حول تراماكو وإن كانت تحوم حوله. ولسوف تساعدينني كثيرًا إن أجبتِني عن بضعة أسئلة.

فقالت إتيس:

- حسنًا جدًّا.

وإن قالتها بنبرة يتجلَّى فيها عكس ما تقول تمامًا.

- هل لاحظتِ على ابنكِ القلق خلال الأشهر الأخيرة؟

قطَّبَتِ المرأة جبينها، متفكِّرةً.

- كلا...

كان كعهده دائمًا. لم يبدُ لي قلقًا بصورة خاصة.

- هل كنتِ تقضين وقتًا طويلًا برفقته؟

- كلا، لأنني لم أُرِد الإثقال عليه، حتى وإن كنت أرغب في ذلك. فقد أصبح بالغ الحساسية في هذا الصدد، كعادة الأبناء الذكور في البيوت التي تحكمها النساء، بحسب ما يُقال. ما كان يطيق أن نتدخَّل في حياته. كان يريد التحليق بعيدًا.

أطرقَتْ برهةً، ثم أردفَتْ:

- كان مُتلهِّفًا على بلوغ سن التجنيد، كي يتسنَّى له الرحيل عن هنا. وتعلمُ الربَّة هيرا أنني لم أفرض عليه رقابة.

أومأ هراقليس وهو يغمض عينيه إغماضة سريعة، في لفتة بدا أنها تشي بموافقته على كل ما قالته إتيس، في غير حاجة لأن تقوله. ثم أدلى بتعقيبه:

- أعرف أنه كان يتلقَّى تعليمه في الأكاديمية...

- أجل. هذا ما أردتُ له، ليس فقط من أجله، بل تكريمًا لذكرى أبيه أيضًا. تعرف أن أفلاطون كان صديقًا لميراجرو. أما تراماكو فكان طالبًا ناجحًا، على حد قول مرشديه...

- ماذا كان يفعل في أوقات فراغه؟

وبعد برهة صمت وجيزة، قالت إتيس:

- أودُّ القول إنني لا أعرف، ولكن باعتباري أمًّا، أعتقد بأنني أعرف. هراقليس، أيًّا كانت أفعاله فهي لم تختلف كثيرًا عمّا يأتي به الفتيان في مثل عمره. لقد كان رجلًا، حتى وإن لم تعترف الشريعة بذلك. كانت حياته ملكًا له، شأنه شأن غيره من الرجال. ما كان يسمح لنا بأن ندسَّ أنوفنا في أموره. كان يقول لي: «حسبكِ أن تكوني خير أمٍّ في أثينا»...

لاحت على شفتيْها الشاحبتيْن بوادر ابتسامة.

- ولكنّي أكرِّر، لم تَكُنْ لديه أسرار، بحسب اعتقادي. كنتُ أعرف أنه يتلقّى تعليمًا جيِّدًا في الأكاديمية. أما شؤونه الحميمة الصغيرة فما كانت تهمُّني، بل كنت أتركه يحلّق طليقًا.

- هل كان كثير التديُّن؟

ابتسمَتْ إتيس وتململَتْ على أريكتها.

- أوه، أجل، كان يؤمن بالأسرار المُقدَّسة. لم يعُد أمامي ملاذ سوى مدينة إليوسيس، حيث تُقام طقوس الأسرار المُقدَّسة. هراقليس، أنت لا تعرف أي قوة يمنحني الإيمان بعقيدة مختلفة، وأنا الأرملة المسكينة...

وفيما راح يرنو إليها، لم يتبدَّل التعبير المرتسم على وجهه. تابعَتْ هي:

- ولكني لم أُجِب على سؤالك...

أجل، كان مُتديِّنًا...

على طريقته. كان يرافقنا إلى مدينة إليوسيس، إن كان ذلك يعني كون المرء مُتديِّنًا. بَيْد أن ثقته في قواه كانت أكبر منها في معتقداته.

- أتعرفين أنتيسو وإيونيو؟

- بالطبع. كانا زميليْه في الأكاديمية وأعز صديقيْن له، كلاهما سليل عائلة كريمة. أحيانًا، كانا يحضران معنا إلى مدينة إليوسيس. لديَّ خير انطباع عنهما. كانا صديقيْن يليقان بابني.

- إتيس...

هل كان من عادة تراماكو الخروج للصيد وحيدًا؟

- أحيانًا. كان يطيب له أن يبرهن على استعداده للحياة.

ثم ابتسمَتْ وأردفَتْ:

- وقد كان مُستعدًّا لها.

- أرجو أن تلتمسي لي العذر عن فوضى أسئلتي، ولكن تحرّياتي لا تتمركز حول تراماكو، كما قلتُ لكِ...

أتعرفين مينيكمو، النحَّات الشاعر؟

أغمضَتْ إتيس عينيْها نصف إغماضة. تخشَّبَتْ أكثر قليلًا على الأريكة، كطائر على وشك أن يحلِّق في الهواء. قالت:

- مينيكمو؟...

ثم عضَّتْ على شفتيْها بنعومة. وبعد برهة صمت وجيزة للغاية أردفَتْ:

- أعتقد بأن...

أجل، الآن أذكره. كان يتردَّد على بيتي قبل وفاة ميراجرو. كان شخصًا غريب الأطوار، إلا أن زوجي كان له أصدقاء غاية في الغرابة...

ولستُ أعنيك أنت بذلك، على وجه التحديد.

قلَّد هراقليس ابتسامتها المهذّبة، ثم قال:

- ألم تعودي لرؤيته؟

أجابت إتيس أن كلا.

- هل تعرفين إن كان على علاقة بتراماكو، على نحو ما؟

- كلا، لا أظنّ. تراماكو لم يحدِّثني بشأنه قط، بالتأكيد.

انعكسَتْ على وجه إتيس أمارات القلق. قطَّبَتْ جبينها وأردفَتْ:

- هراقليس، ماذا يجري؟...

أسئلتك في غاية الـ...

حتى وإن لم يكُن في مقدورك أن تكشف لي عن موضوع تحرياتك، فعلى الأقل، قُلْ لي إن كان مصرع ابني... أقصد...

تراماكو تعرَّض لهجوم قطيع من الذئاب، أليس حقًّا؟ ذلك ما قيل لنا، وذلك ما كان، أليست تلك هي الحقيقة؟

أما هراقليس فقال، بوجه خالٍ من التعابير طوال الوقت:

- ذلك ما كان. مصرعه لا يمتُّ لتحرّياتي بصلة. ولكني لن أتسبَّب لكِ في المزيد من الإزعاج. لقد ساعدتِني، وأنا ممتن لمساعدتكِ. حفظتكِ الآلهة.

ثم رحل على عجل، شاعرًا بوخز الضمير، إذ اضطرَّ للكذب على امرأة صالحة[65].

يُحكَى أن أمرًا لم يُسمع به من قبل وقع يومئذ. فقد تسلَّلَتْ مئات الفراشات البيض خارج جرَّة القرابين المُقدَّمة تكريمًا للربة أثينة، من جرَّاء سهو وقع فيه الكهنة. وصبيحة ذلك اليوم، تحت الشمس الزاهية الدافئة، شمس الشتاء الأثيني، تعرَّضَتْ المدينة بأسرها لاجتياح الأجنحة المتذبذبة، المشرقة، بالغة الرهافة. هنالك من رآها تخترق حَرَم أرتميس الطاهر بلا دنس في

براورون، وتحاول التمويه بالتخفّي في تمثال الربَّة الرخامي، الناصع كالثلج. بينما فوجئ آخرون بأزهار دقيقة مُتحرِّكة، بيضاء اللون، تخفق ببتلاتها وتحوم حول تمثال الربة أثينة مُقاتِلة الصفوف الأولى، فلا تهوي أرضًا. أما الفراشات التي تكاثرَتْ بسرعة، فمن دون أن تُمثِّل بذلك خطرًا، راحت تطارد الأجسام الحجرية للفتيات اللائي يحملن سقف معبد أرخثيون في غير حاجة إلى مساعدة. اتَّخذَتِ الفراشات لنفسها أعشاشًا في شجرة الزيتون المُقدَّسة، المُهداة من الربَّة أثينة المُدرَّعة بترس إيجيس الخارق. وفيما مضَتْ تحلِّق مشرقةً، نزلَتْ عَبْر منحدرات الأكروبوليس وقد صارت جيشًا بالغ الخفّة، لتقتحم الحياة اليومية بنعومة باعثة على الضيق. لم يُرِدْ أحد أن يفعل حيالها شيئًا، فهي تكاد تكون لا شيء. إن هو إلا ضياء خافق، وكأنما النهار قد ترك غبار زينته اللامعة يتساقط فوق المدينة فيما يرمش بأهدابه بالغة الخفة. وفيما راح الشعب يرقب الفراشات مذهولًا، مضَتْ تحلِّق عَبْر الأثير غير المحسوس، لا يعترض سبيلها شيء، صوب معبد آريس ورواق زيوس وبناء تولوس وبناء هيليا ومعبد الإله هيفايستوس والنصب التذكاري المُكرَّس للأبطال. مضَتْ تحلِّق زاهيةً، لا تستقرّ، صعبة المراس في حريتها الشفافة. وبعد أن لثمَتْ أفاريز البنايات العمومية، كصبايا يمررن مرًّا خاطفًا، اجتاحَتْ أشجار البساتين لتتساقط بعد ذلك ثلوجًا، في خطوط مُتعرِّجة، فوق نجيل الينابيع وصخورها. راحت الكلاب تنبح عليها فلا تؤذيها، كما تنبح الأشباحَ والزوبعات الرملية أحيانًا. أخذَتِ القطط تثب نحو الأحجار، منحرفةً عن مساراتها. رفعَتِ العجول والبغال رؤوسها الثقيلة كي تتأمَّلها، إلا أنها لم تحزن لمرآها، ذلك أنها عاجزة عن الحلم.

وفي خاتمة المطاف، تساقطَتِ الفراشات فوق الناس وبدأ الموت يحصدها[66].

حين دلف هراقليس اليونتوري إلى بستان بيته، عند منتصف النهار، وجد الأرض مكسوّة بكفن ناعم من جثث الفراشات. بَيْد أن مناقير الطيور المُعشِّشة في السقيفة وأغصان الصنوبر العالية راحت تلتهمها: طيور الهُدْهُد، والوَقْواق، والصَّعْو، والزَّاغ، والحَسُّون، وحمام الغاب، والعنادل، والغربان، أكبَّتْ جميعها على تلك الأطايب، وقد انصرفت إلى الطعام كما ينصرف الرسام إلى الجِرار التي يزخرفها، وراحت تردُّ اللونَ الأخضر إلى النجيل الخفيف. كان الاستعراض غريبًا، وإن لم يرَ هراقليس فيه بشير خير ولا نذير شر، ذلك أنه ما كان يؤمن بالنُّذُر ولا البشائر، من بين جملة أمور أخرى.

وبغتةً، فيما هو ماضٍ في سبيله عَبْر درب البستان، لفت انتباهه خفقان أجنحة عن يمينه. وإذا بظلٍّ داكنٍ مُتقوِّسٍ يظهر خلف الأشجار ويُفزِع الطيور.

ابتسم هراقليس:

- هل أصبح من عادتك التخفِّي لمفاجأة الناس؟

فقرقر صوت إوْماركو المُسنّ:

- وحقّ صواعق زيوس المُدبَّبة، أقسم لكَ إن ذلك غير صحيح، هراقليس اليونتوري، ولكنّك تكافئني نظير الكتمان والتجسُّس من دون أن يراني أحد، أليس كذلك؟ ها أنا قد تعلَّمتُ المهنة.

أما الطيور التي زجرها الصخب، فقد قطعَتْ وليمتها وحلَّقَتْ في الهواء، حيث توهَّجَتْ أجسامها الضئيلة بالغة الرشاقة، ثم تساقطَتْ على الأرض وقد غدَتْ شعاعًا رأسيًّا، في حين طرفَتْ أجفان الرجليْن وغشيهما بريق شمس الظهيرة المتعامدة[67].

قال إوْماركو:

- أشار إليَّ ذلك القناع البشع بما معناه أنك لستَ في البيت. وبالقناع البشع أعني جاريتك. فرُحتُ أترقَّب وصولك بصبر كي أخبرك بأن عملي قد بدأ يؤتي بعض ثماره...

- هل فعلتَ كما أمرتُك؟

- لقد انصعتُ لأمرك كما تنصاع الأيدي لأفكار صاحبها. فتتبَّعتُ تلميذي عشية أمس كظلِّه، من غير كلل، من على مسافة حذِرة، كما تُتابع أنثى الصقر صغارها خلال طيرانهم الأول. لم تفارقه عيناي وهو يتفادى الناس الذين اكتظَّت بهم الشوارع، ويجتاز المدينة برفقة صديقه إيونيو الذي التقى به ساعةَ الغروب في رواق زيوس. لم يتمشّيا ابتغاءً للنزهة، إن كنتَ تفهم مقصدي. بل تتابعَتْ خطاهما المتطايرة صوب وجهة واضحة. ولكني لم أتصوَّر قط وجهةً على ذلك القدر من الغرابة، هراقليس. وإن كنتُ أكذبك القول، فليشدّ كرونوس الأب وثاقي إلى صخرة، كما شدَّ وثاق بروميثيوس، وليصدر أوامره إلى طائر عملاق كي ينهش كبدي بمنقاره الأسود كل يوم...

أرى على وجهك المتجهّم أنك ضجِرٌ بقصتي...

لا تقلق، فسوف أفرغ منها. في خاتمة المطاف، عرفتُ وجهتهما! سأطلعك عليها، ولسوف تندهش معي...

استأنف ضياء الشمسِ نقراته البطيئة فوق عشب البستان. ثم جثم على غصن، حيث طفق يغرِّد بعدة أنغام. في حين دنا منه عندليب آخر[68].

وأخيرًا فرغ إوْماركو من حديثه. قال:

- يا كاشف الألغاز العظيم، فسِّرْ لي المغزى من وراء الأمر برمته.

وللحظة بدا أن هراقليس يتأمَّل. ثم قال:

- حسنًا، إوْماركو الصالح، ما زلتُ في حاجة لمساعدتك. تتبَّع خطى أنتيسو ليلًا ثم احضرْ لتبلغني بالمُستجدَّات كل يوميْن أو ثلاثة أيام. ولكن، قبل كل شيء، طِرْ مسرعًا إلى بيت صديقي لتحمل إليه هذه الرسالة...

قال كرانتور:

- هراقليس، كم أنا ممتن على هذا العشاء في الهواء الطلق. هل تدري؟ ما عاد يسهُل عليَّ تحمُّل البقاء داخل البيوت الأثينية الكئيبة. بل إن شعوب جنوب النيل تقف عاجزة عن التصديق بأننا نعيش سجناء خلف جدران من الطوب في مدينتنا المُتحضِّرة أثينا. فوحدهم الموتى في حاجة إلى الجدران، بحسب تفكيرهم.

التقط ثمرة أخرى من صحفة الفاكهة ثم غرس نصل خنجره المُدبَّب بين حلقات خشب الطاولة. وبعد برهة صمت، قال:

- لستَ كثير الكلام اليوم.

بدا كاشف الألغاز وكأنه يفيق من حلم. وفي سلام البستان الذي لا تشوبه شائبة، طفق طائر ضئيل يغرِّد. في حين جاءت نقرات معدنية حادة لتفضح وجود كيربيروس في أحد الأركان، يلعق البقايا العالقة في صحنه.

كانا يتناولان طعامهما أسفل السقيفة. ونزولًا عند رغبات كرانتور، أخرجَتْ يونسيكا الطاولة والأريكتيْن من الحجرة بمساعدة من الضيف نفسه. شاعت في الجو برودة أخذَتْ تزداد شيئًا فشيئًا، ذلك أن مركبة الشمس النارية أوشكَتْ على الانتهاء من جولتها، ومضَتْ تحلِّق تاركةً خلفها ذَنَبًا معقوفًا من الذهب، يمتدُّ غير هيَّاب عَبْر كتلة الهواء التي تعلو شجر الصنوبر. وعلى الرغم من ذلك، فما زال بالإمكان أن ينعم المرء بهدوء ساعة الغروب. لم ينقطع صديق هراقليس عن الثرثرة، بل إنه بدا مُتفكِّهًا وهو يقصُّ عليه آلافًا من النوادر الأوديسية، سامحًا له فوق ذلك بالإنصات في صمت من دون الحاجة للتدخُّل في الحديث. وعلى الرغم من ذلك فقد شعر هراقليس بالندم على تلك الدعوة في خاتمة المطاف. إذ كانت تفاصيل المسألة التي أوشك على حلها تؤرِّقه. فضلًا عن ذلك، فهو لم يكفّ عن مراقبة مسار الشمس الملتوي، نظرًا لعدم رغبته في الوصول متأخِّرًا على موعد الليلة. إلا أنه قال مدفوعًا بحس ضيافته الأثيني:

- صديقي كرانتور، أستميحك عذرًا على ضيافتي الرديئة للغاية. فقد أطلقتُ لذهني العنان وتركتُه يحلِّق في مكان آخر.

- أوه، لا أريد أن أكون عقبة في طريق تأمّلاتك، هراقليس. أفترض أنها مقترنة بعملك على نحوٍ مباشر...

- بالفعل. والآن أتبرَّأ من مسلكي الذي يفتقر إلى حسن الضيافة. هيَّا، فلنترك الخواطر تجثم فوق الأغصان ونتبادل أطراف الحديث.

أما كرانتور، فحكَّ أنفه بظاهر يده وازدرد ثمرة الفاكهة.

- هل تسير أمورك على ما يرام؟ أقصد، في عملك.

- لا أملك الشكوى من حالي. فأنا ألقى معاملة أفضل من تلك التي يلقاها زملائي في كورنثوس أو آرجوس، ممن يقتصر عملهم على كشف ألغاز مُتعلِّقة بأوراكل دِلفوي لحساب قلة من المُستخدمين الأثرياء. أما هنا فتُطلَب خدماتي بشأن مسائل متنوّعة ودقيقة. مثال كشف لغز أحد النصوص المصرية، أو العثور على غرض مفقود، أو كشف هوية لصٍّ. بُعَيْد رحيلك، أي بانتهاء الحرب، مررتُ بفترة كنتُ أتضوَّر خلالها جوعًا...

لا تضحكْ، فأنا جاد في ما أقول...

أنا أيضًا اضطررت لحلِّ أحاجي دِلفوي. أما الآن، وفي ظلِّ السلام، فأهل أثينا لا يفلحون في شيء سوى كشف الألغاز، حتى وإن لم تكُن ثمة ألغاز. إذ نجتمع في الأغورا، أو في بساتين لوقيون[69]،

أو في مسرح ديونيسوس إلِوْثيروس، أو ببساطة في الشارع، فيتبادل الناس الأسئلة بلا انقطاع... وحين يقف الكل عاجزًا عن الإجابة، عند ذاك يلجأون إلى خدمات كاشف الألغاز.

ضحك كرانتور مُجدَّدًا.

- هراقليس، لقد اخترتَ الحياة التي أردتَها أنت أيضًا.

حكَّ هراقليس ذراعيْه العاريتيْن أسفل الرداء.

- لستُ أدري، كرانتور، لستُ أدري. أعتقد بأن هذه الحياة هي التي اختارتني...

جلبَتْ يونسيكا قارورة أخرى من النبيذ الخالص، فبدا أن صمتها قد انتقل إليهما. لاحظ هراقليس أن صديقه لم يحوِّل بصره عن الجارية (ولكن، أما زال كرانتور صديقًا له؟ ألم يصبحا مجهولَيْن يتحدَّثان بشأن صداقات قديمة مشتركة؟). جثمَت أشعة الشمس الأخيرة نقيةً على الانحناءات الناعمة في القناع الخالي من الملامح. وعَبْر الفتحات المتناسقة في ردائها الأسود مُدبَّب الحوافّ، الذي يغطِّيها من قمة رأسها إلى أخمص قدميْها، برزَتْ ذراعاها ناصعتيْن كالثلج، لا تكلَّان على هزالهما، كأرجُل الطير. أودعَتْ يونسيكا القارورة فوق الطاولة بخفَّة، وانحنَتْ ثم عادت أدراجها إلى داخل البيت. أما كيربيروس، فمن ركنه أخذ ينبح في هياج.

وفجأةً همهم كرانتور:

- أنا لا أستطيع، ما كنتُ أستطيع...

- ماذا؟

- ... أن أضع قناعًا كيما أخفي قبحي. وأفترض أن جاريتك ما كانت لتضعه ما لم ترغمها أنت على ذلك. فقال هراقليس:

- إن تعقيد ندوبها يشتِّت ذهني.

ثم هزَّ كتفيْه كي يردف:

- زِدْ على ذلك أنها جاريتي، في خاتمة المطاف. هنالك من يرغمهن على العمل عاريات. أما أنا فغطَّيتُها بالكامل.

ابتسم كرانتور وهو ينتف لحيته بيده المحترقة.

- هل جسمها يشتِّت انتباهك أيضًا؟

- كلا. ومع ذلك، فلا يهمُّني من أمرها سوى كفاءتها وصمتها، فأنا في حاجة إلى كليهما للتفكير بهدوء.

أطلق الطائر الخفي صفيرًا حادًّا بثلاث نغمات متباينة. في حين التفت كرانتور برأسه إلى البيت وقال:

- هل رأيتَها يومًا؟ أعني، هل رأيتَها عارية؟

أومأ هراقليس.

- يومَ أبديتُ اهتمامي بها في سوق فاليرو، جرَّدها تاجر الرقيق من ثيابها تمامًا، ظنًّا منه بأن جسمها قد يعوِّضني عن تشوُّه وجهها، وبالتالي سأدفع المزيد. غير أني قلتُ له: «ضعْ ثيابها مرة أخرى. كل ما أريد معرفته إن كانت طاهية ماهرة، وقادرة على القيام بشؤون بيت ليس بالغ الضخامة في غير حاجة للمساعدة». أكَّد لي التاجر أنها في غاية الكفاءة، ولكني أردتُ منها أن تخبرني بنفسها. لاحظتُ أنها لا تحير جوابًا، فعرفتُ أن التاجر يحاول إخفاء عجزها عن الكلام. عند ذاك عجَّل التاجر بتوضيح السبب وراء خرسها، وهو في خزي شديد، فأطلعني على قصة قُطَّاع الطرق الليديين. ثم أردف قائلًا: «ولكنها تعبِّر عن نفسها بحروف بسيطة من الإشارات». عند ذاك اشتريتُها.

أطرق هراقليس برهةً ورشف رشفة من النبيذ. ثم قال:

- أؤكِّد لك أنها أفضل صفقة شراء عقدتُها في حياتي. كما أنها ربحَتْ بذلك هي الأخرى، فقد أوصيتُ لها بأن تنال حريتها بموتي، وأتحتُ لها قدرًا مُعتبَرًا من الحرية. بل إنها تسألني الإذن في الذهاب إلى مدينة إليوسيس أحيانًا، لأنها مؤمنة بالأسرار المُقدَّسة، فآذن لها من دون مشكلات.

ثم ختم حديثه باسمًا:

- كلانا يعيش سعيدًا.

سأل كرانتور:

- وما أدراك؟ تراك سألتَها يومًا؟

رمقه هراقليس من فوق حافة كأسه المعقوفة وقال:

- لا حاجة بي إلى سؤالها، فأنا أستنبط ذلك.

انتشرَتْ في الهواء أنغام موسيقية حادة. في حين أغمض كرانتور عينيْه نصف إغماضة، وقال بعد برهة صمت:

- أنت تستنبط كل شيء...

جعل ينتف شاربه ولحيته بيده المحترقة، وأردف:

- هراقليس، دائمًا ما تستنبط...

تتبدَّى الأشياء أمامك مُقنَّعةً خرساء، أما أنت فتستنبط وتستنبط...

هزَّ رأسه في حين ارتسم على وجهه تعبير ينمُّ عن الفضول، وكأنه معجب بصعوبة المراس الاستنباطية التي يتَّسم بها صديقه.

- هراقليس، أنت أثيني على نحو لا يُصدَّق. على الأقل، يؤمن الأفلاطونيون بحقائق مطلقة وثابتة لا يملكون رؤيتها (كما يفعل مُستخدِمُك الذي التقيتُ به منذ أيام)...

أما أنت؟...

فبمَ تؤمن؟ تراكَ تؤمن بما تستنبط؟

فقال هراقليس بقدر عظيم من البساطة:

- أنا أومن بما أستطيع رؤيته وحسب. أما الاستنباط فطريقة أخرى من طرائق رؤية الأشياء.

أطرق كرانتور برهةً وابتسم كما لو كان يتخيَّل الأمر بحق. ثم قال:

- أتخيَّل عالَمًا حافلًا بأمثالك. كم سيكون حزينًا!

فأجاب هراقليس:

- بل سيكون عالَمًا كفؤًا وهادئًا. أما عالَم من الأفلاطونيين، فلسوف يكون حزينًا فعلًا، ذلك أنهم سيجوبون الشوارع وكأنهم يحلِّقون في الهواء، بأعين مغمضة وفِكْر ينصبُّ على ما خفي من الأمور.

ضحكا، وإن أمسك كرانتور عن الضحك أولًا ليقول، بنبرة غريبة:

- وعليه، فإن عالَمًا من أمثالي سيكون هو الحلّ الأمثل.

رفع هراقليس حاجبيْه هازلًا.

- أمثالك؟ في لحظة بعينها، سيشعر أهل ذلك العالَم بنزوة تدفعهم لإحراق أيديهم أو أرجُلهم أو ضرب الجدران برؤوسهم...

فيغدون جميعًا مُشوَّهين. من يدري، فربما أقدمَ بعضهم على تشويه البعض الآخر...

فأجاب كرانتور بسرعة:

- بلا شك. في الواقع، هذا ما يحدث كل يوم في العوالم قاطبةً. خُذ السمك الذي قدَّمتَه لي اليوم على سبيل المثال، فقد مزَّقناه بأسناننا الحادة. يؤمن الأفلاطونيون بما لا يرون، في حين تؤمن أنت بما ترى...

أما على المائدة، فكلكم تمزِّقون اللحوم والأسماك...

أو حبّات التين الحلوة.

أما هراقليس، فمن دون أن يلقي إلى استهزاء الآخر بالًا، ازدرد حبة التين التي وضعها في فمه. بينما استطرد كرانتور:

- وتفكِّرون، وتعملون العقل، وتعتقدون، وتؤمنون...

غير أن الحقيقة...

أين الحقيقة؟

ثم أطلق قهقهة هائلة ارتجَّ لها صدره. عندئذ فارقَتْ عدَّة طيور أمكنتها فوق تيجان الأشجار، كما تتساقط الأوراق حادّة الحواف.

وبعد برهة صمت، أخذ كرانتور يتفرَّس في هراقليس بحدقتيْه السوداوين.

- لاحظتُ أنك لا تكفّ عن مراقبة الندوب في يميني. هل تشتّت ذهنك أيضًا؟ أوه، هراقليس، كم أنا سعيد بما فعلتُه عشية ذلك اليوم في جزيرة وَابِيَه، ونحن نتجادل بشأن مسألة مشابهة! أتذكر؟ جلستُ وإياك وحدنا، قرب موقد نيران صغير في كوخي. قلتُ لك: «لو شعرتُ الآن بنزوة تدفعني لإحراق يميني وأقدمتُ على إحراقها، هل سأبرهن لك بذلك على وجود أمور لا يُمكن أن تُعقَل؟». عند ذاك أجبتَني: «كلا، كرانتور، فمن خلال العقل يسهل الخلوص إلى أنك قد فعلتَها كي تبرهن لي على وجود أمور لا يمكن أن تُعقَل». عندئذ مددتُ ذراعي واضعًا يدي فوق ألسنة اللهب.

قلّد كرانتور الحركة نفسها، باسطًا ذراعه اليمنى فوق الطاولة. ثم استطرد:

- أما أنت، فقد هببتَ واقفًا، مذهولًا، وصحتَ: «كرانتور، بحق زيوس، ماذا أنت فاعل!». فأجبتُك من دون أن أسحب يدي: «فيمَ مفاجأتك، هراقليس! ألستُ أحرق يدي رغمًا عن استدلالك العقلي؟ هراقليس اليونتوري، أليس صحيحًا، أليس واقعًا، أنني أحرق يدي رغمًا عن كل التفاسير المنطقية التي يقدّمها لك ذهنك بشأن الدافع وراء فعلتي هذه؟

ثم أطلق قهقهة قوية أخرى، وأردف:

- بمَ يجديك عقلك نفعًا حين ترى الواقع يحرق يديْه؟

خفض هراقليس عينيْه إلى كأسه.

- كرانتور، في واقع الأمر، ثمة لغز لا يجدي عقلي معه نفعًا. كيف يمكن أن نكون صديقيْن؟ ضحكا مُجدَّدًا، وإن يكُن بحساب. في تلك اللحظة جثم طائر ضئيل على طرف الطاولة، وطفق يخفق بجناحيْن رقيقيْن لونهما بني. تأمّله كرانتور مطرقًا[70].

ثم قال:

- راقبْ هذا الطائر، على سبيل المثال. لمَ جثم على الطاولة؟ وفيمَ تواجده هنا، معنا؟

- لعل لديه سببًا، وإن كان ينبغي لنا سؤاله.

- أنا جاد في ما أقول. من منظورك، هل يمكنك التفكير بأن هذا الطائر الضئيل له أهمية أكبر مما يبدو في حياتنا؟

- ماذا تعني؟

فقال كرانتور بنبرة غامضة:

- ربما كان شقًّا من مفتاح قد يفسّر وجودنا في كتاب الحياة العظيم...

ابتسم هراقليس، وإن لم يكُن في مزاج رائق.

- أهذا ما تؤمن به الآن؟

- كلّا، فحديثي مقتصر على منظورك وحسب. كما تعلم، مَنْ يبحث عن التفاسير على الدوام عرضة لخطر اختلاقها.

- ليس هنالك من يختلق أمرًا عبثيًّا إلى هذا الحد، كرانتور. من يصدِّق أن وجود هذا الطائر شقٌّ من...

ماذا قلت...

مفتاح يفسِّر كل شيء[71]؟

لم يحِر كرانتور جوابًا، بل مدَّ يده اليمنى ببطء باعث على النوم بالإيحاء، باسطًا أصابعه ذات الأظفار الحادة المعقوفة على مقربة من الطائر. وبحركة واحدة صاعقة، اقتنص الطائر الضئيل. قال:

- هنالك من يؤمن بذلك. سأروي لك قصة...

قرَّب رأسَ الطائر متناهي الضآلة من وجهه فيما جعل يتأمَّله، وفي أثناء حديثه ارتسم على وجهه تعبير غريب (لا يمكن القول إن كان ينمُّ عن حُنُوٍّ أم فضول).

- منذ زمن تعرَّفتُ على رجل يفتقر إلى الموهبة. كان ابنًا لكاتب لا يقلُّ عنه افتقارًا للموهبةِ. وكان طموح ذلك الرجل أن يصبح كاتبًا شأن أبيه، بَيْد أن ربَّات الفن لم ينعمن عليه بتلك الموهبة. ولذا فقد أقبل على تعلُّم ألسُن أجنبية وكرَّس نفسه لترجمة النصوص، وتلك أشبه المهن التي وجدها بمهنة الوالد. وذات يوم، تلقَّى هذا الرجل بردية عتيقة وطُلِب منه أن يترجمها. فشرع في العمل بحماسة حقيقية، نهارًا وليلًا. كان عملًا أدبيًّا نثريًّا، قصة عادية للغاية، ولكن الرجل أراد الاعتقاد بأنها تنطوي على مفتاح محجوب، ربما لعجزه عن كتابة نص من ابتكاره. وهكذا بدأ شقاؤه: أين يكمن ذلك السر؟ في أقوال شخوص الكتّاب؟...

في الأوصاف؟...

في حميمية الكلمات؟...

في الصّور التي يستحضرها النص؟...

وأخيرًا، ظنَّ أنه قد عثر على ضالته...

فقال لنفسه: «وجدتُها!». ثم راح يسائل نفسه: «تُرى، أيأخذني هذا المفتاح إلى آخر، ثم آخر، ثم آخر...؟».

كأعداد لا تُحصَى من الطيور التي لا سبيل إلى قنصها... أما عينا كرانتور اللتان بدَتَا كثيفتيْن على نحو مفاجئ، فقد نظرتا إلى نقطة في ما وراء هراقليس.

كانت عيناه تنظران إليك أنت[72].

- وماذا جرى لذلك الرجل؟

مطَّ كرانتور شفتيْه بابتسامة حادّة معقوفة تحت فوضى لحيته الكثَّة:

- جُنَّ جنونه. كان ذلك مُروِّعًا، فما كاد يظنّ أنه قد عثر على مفتاح النص النهائي، حتى وقعَتْ يداه على مفتاح آخر، ثم آخر، ثم آخر...

وفي خاتمة المطاف، بعد أن جُنَّ جنونًا مطبقًا، أمسك عن ترجمة النص ولاذَ بالهرب من بيته. هام على وجهه في أنحاء الغابة بضعة أيام، وكأنه طائر أعمى. وفي النهاية نهشَتْه الضواري[73].

خفض كرانتور بصره يطالع الهياج العارم الذي أحدثه الكائن متناهي الضآلة الحبيس في راحة يده، ثم ابتسم مُجدَّدًا.

- إليك التحذير الذي أوجِّهه إلى كل من ينهمكُ في بحث مُضْنٍ عن مفاتيح محجوبة: ما لم تتوخّوا الحذر فلن تدركوا أنكم تحلِّقون تحليقًا أعمى، واضعين كل ثقتكم في سرعة أجنحتكم...

وبنعومة، بما يشبه الحُنُوّ، قرَّب ظفرَ إبهامه الحادّ المُدبَّب من رأس الطائر الصغير المُطلّ من بين أصابعه.

كان عذاب الطائر ضئيلًا، فظيعًا، كصراخ طفل يُعذَّب تحت الأرض.

رشف هراقليس رشفةً من النبيذ في هدوء.

فرغ كرانتور من الطائر، فأطلق سراحه فوق الطاولة كما يلقي بالأحجار لاعب الداما، ثم أردف:

- إليك تحذيري.

كان الطائر لا يزال على قيد الحياة وإن طفق يرتجف ويصدح محمومًا. قفز مرّتَيْن، على نحوٍ أخرق، ثم هزَّ رأسه لينفض عنه قطرات قانية لامعة، ذات اليمين وذات اليسار.

وبشراهة، التقط هراقليس حبّة تين أخرى من صحفة الفاكهة. جعل كرانتور يتأمَّل ترنُّحات الطائر الدامية بعينيْن نصف مغمضتيْن، كمن يفكِّر في أمر غير ذي أهمية. ثم قال هراقليس بشيء من الضجر، شاخصًا إلى الأفق:

- غروب بديع.

فأبدى كرانتور موافقته.

أما الطائر فانطلق مُحلِّقًا بغتةً على نحو غاشم، كرمية حجر، ليرتطم بجذع شجرة قريبة بكل جسمه. صدح الطائر تاركًا على الشجرة أثرًا قرمزيًا. ثم ارتفع وهو يتخبَّط في الأغصان السفلية. هوى على الأرض، ثم استأنف طيرانه مرة أخرى ليسقط ثانيةً ويجرّر خلفه جديلة دماء تسيل من محجريْه الخاويَيْن. وإثر عدة وثبات راحت سدًى، تدحرج فوق العشب حتى مكث مكانه بلا حراك، يترقَّب الموت ويتوق إليه.

وفيما هو يتثاءب، قال هراقليس مُعقِّبًا:

- الجو ليس قارس البرودة، بالتأكيد[74].

وبغتةً قام كرانتور من مكانه على الأريكة، كمن يعتبر المحادثة منتهية. ثم قال:

- كانت سفنكس تلتهم أولئك الذين يخطئون في الإجابة عن أسئلتها. ولكن، أتعرف أفظع ما في الأمر، هراقليس؟ أفظع ما في الأمر أن سفنكس كانت مُجنَّحة، فحلَّقَتْ في الهواء ذات يوم ثم

اختفَتْ عن الأنظار. ومنذ ذلك الحين يعاني البشر ما هو أسوأ كثيرًا من الوقوع فريسة لسفنكس، فما عُدنا نعرف إن كانت إجاباتنا صائبة.

مسح بإحدى يديْه الهائلتيْن على لحيته وابتسم.

- هراقليس اليونتوري، أنا مُمتنٌّ لك على العشاء وحسن الضيافة. ولسوف تُتاح لنا فرص أخرى كي نلتقي مُجدَّدًا قبل رحيلي عن أثينا.

فقال هراقليس:

- أنا واثق من ذلك.

ثم سار الرجل والكلب مبتعديْن عن البستان[75].

بلغ دياغوراس الموضع المُتَّفق عليه عند الغروب. وكما تصوَّر بالفعل، اضطرَّ للانتظار، وإن شعر بالامتنان لأن كاشف الألغاز لم يختَر مكانًا مزدحمًا بقدر سابقه. ذلك أن الموضع المُتَّفق عليه ليلتها كان ركنًا منعزلًا وراء منطقة التُجَّار الأجانب، أمام الأزقَّة المُفضية إلى داخل حي كوليتوس وحي ميليتا، بمنجاةٍ من نظرات الشعب الذي يمكن سماع لهوه الفاضح، آتيًا من الأغورا على وجه الأخص، بأصوات ليست خافتة كما كان دياغوراس يتمنَّى. كانت ليلة باردة، يكتنفها الضباب على نحو مُتقلِّب، مستغلقة على الأنظار. وبين الفينة والأخرى، كان أحد السكارى يعكِّر صفو السلام المعتم الذي يسود الشوارع بخطاه المُترنِّحة. أما خدم الأستينوموس، فقد راحوا يذرعون الشوارع جيئةً وذهابًا، اثنيْن اثنيْن، أو زرافات، كدأبهم أبدًا، يحملون العصي والمشاعل، في حين أقبلَتْ دوريات الجُند العائدين من خدمة الحراسة بعد الشعائر الدينية. لم ينظر دياغوراس إلى أحد، كما لم ينظر إليه أحد. غير أن رجلًا اقترب منه. كان قصير القامة، يرتدي رداءً مهترئًا ويستخدمه كقلنسوة أيضًا. من بين طيّات ردائه، تسلَّلت بحذر ذراع طويلة بارزة العظام، وكأنها ساق طائر الكركي، تنتهي براحة يد مفرودة. نعق بصوت كصوت الغراب:

- وحق الإله آريس المحارب، لقد خدمتُ عشرين عامًا في جيش أثينا، ونجوتُ في صقلية، وفقدتُ ذراعي اليسرى...

فماذا فعل من أجلي موطنو أثينا؟ ألقوا بي إلى الشارع لأفتِّش عن العظام المتآكلة كالكلاب. كُنْ أوسع رحمة من حُكَّامنا أيها المواطن الصالح!...

وبجلال فتَّش دياغوراس في طيّات ردائه عن بضع قطع أوبول. فقال الشحاذ ممتنًّا:

- عسى أن تعمِّرَ أعوامًا طوالًا كأبناء الآلهة! ثم مضى مُبتعدًا.

وفي الوقت نفسه تقريبًا، سمع دياغوراس من يناديه. وإذا خيال كاشف الألغاز البدين شاخص وقد

أحاطه القمر بهالة في طرف زقاق من الأزقة. قال هراقليس:

- هيا بنا.

سارا في صمت، وهما يتوغَّلان في حي ميليتا.

سأل دياغوراس:

- إلى أين تأخذني؟

- أريدك أن ترى شيئًا.

- هل عرفتَ المزيد؟

- أعتقد بأنني عرفتُ كل شيء.

كان هراقليس قليل الكلام كدأبه دومًا، بينما تراءى لدياغوراس أنه قد لمح في صوته توتُّرًا لم يملك له تفسيرًا. دار في خلده: «ربما كانت في انتظاري أخبار مؤسفة».

- ببساطة، أخبرْني إن كان أنتيسو وإيونيو على علاقة بالأمر.

- انتظر. سرعان ما تخبرني بنفسك.

مضيا في سبيلهما عَبْر شارع الحدادين المعتم، حيث تنتشر مشاغل الحدادة التي أغلقت أبوابها في هذه الساعة من ساعات الليل. تركا خلفهما حمَّام ييديا ومعبد هيفيستوس الصغير. دلفا إلى شارع يبلغ من الضيق مبلغًا اضطرّ عبدًا-حمل على كاهله قائم خشبي تتدلّى منه أمفورتان- إلى الانتظار ريثما يخرجان من الشارع حتى يتسنَّى له المرور. اجتازا الساحة الصغيرة المُقامة على شرف البطل ميلاميوس، سارا نزولًا عَبْر شارع حظائر الخيل المنحدر، وعَبْر الظلمات الكثيفة التي اكتنفَتْ شارع الدبَّاغين، يسترشدان بنور القمر. أما دياغوراس الذي لم يألف تلك المسيرات الصامتة بعد، فقال:

- وحق زيوس، آمل ألا نُضطرّ لملاحقة بائعة هوى أخرى...

- كلا. ها نحن قد اقتربنا.

امتدَّ صفٌّ من الأطلال بحذاء الشارع حيث كانا يسيران، والجدران تتأمَّل الليلَ بعيون خاوية. أشار هراقليس:

- هل ترى الرجال حَمَلة المشاعل عند باب ذلك البيت؟ تلك هي وجهتنا. والآن، افعل ما أمليه عليك. حين يسألونك عن مقصدك، قُلْ: «جئتُ لمشاهدة العرض»، ثم أعطِهم بضع قطع من الأوبول. سوف يسمحون لك بالدخول. وأنا سوف أرافقك وأفعل كما تفعل.

- ماذا يعني كل هذا؟

- قلتُ إنك سوف تفسِّر لي الأمر بنفسك لاحقًا. هيا بنا.

وصل هراقليس أولًا. قلَّد دياغوراس إيماءاته وكلماته. وفي ردهة البيت الخَرِب التي غشيَتْها الظلمة، تبدَّى المدخل المفضي إلى درج حجري ضيِّق. نزل عَبْره عدد من الرجال. أما دياغوراس، فسار خلف كاشف الألغاز بخطًى مرتجفة، وغاص في قلب العتمة. وللحظة واحدة استطاع أن يتبيَّن ظهر رفيقه القوي. كانت درجات السلَّم العالية تقتضيه أن يجمع كل تركيزه. بعد ذلك تناهَتْ إلى سمعه الأناشيد والكلمات. في الأسفل كانت الظلمة مختلفة، وكأنها من صنع فنان آخر، وكأنها تستلزم عيونًا أخرى. أما عينا دياغوراس اللتان لم تألفاها بعد، فبالكاد لمحتا هيئات

مبهمة. امتزج عبق النبيذ العطري بروائح الأجسام. جلسا على مقاعد من الخشب فوق المُدرَّجات. قال هراقليس:

- انظرْ.

وفي خلفية البهو، جعلَتْ جوقة مُقنَّعة تتلو أشعارًا حول مذبح مُقام فوق خشبة مسرح صغيرة. أخذ أفراد الجوقة يرفعون أيديهم مبدين راحاتهم. ومن خلال فتحات الأقنعة، بدَتْ عيونهم رقيبةً على الرغم من دُكنتها. أضاءت مشاعل الأركان بقية المشهد، غير أن دياغوراس، الذي أغمض أجفانه نصف إغماضة، استطاع أن يميِّز خيالًا آخر مُقنَّعًا خلف طاولة مُكتظَّة بالرقوق. سأل دياغوراس:

- ما هذا؟

فقال هراقليس:

- عرض مسرحي.

- أعرف. إنما قصدتُ، ما...

أشار إليه كاشف الألغاز أن الزمِ الصمت. كانت الجوقة قد فرغَتْ من تلاوة المقطوعة الشعرية واصطفَّ أفرادها أمام الحضور. بدأ دياغوراس يحسُّ بالضيق الذي يغلِّف ذلك الهواء الخانق. وإن لم يكُنِ الهواء وحده ما أثار ضيقه، بل كذلك الحماسة الجارفة البادية على الحضور. لم يكُنْ عدد الحضور بالغ الضخامة، علمًا بوجود مقاعد شاغرة. غير أنهم تفاعلوا مع العرض، فجعلوا يرفعون رؤوسهم، ويتمايلون بأجسامهم على وقع الأناشيد، ويرشفون النبيذ في قِرَب صغيرة. أخذ واحد من الجلوس بجوار دياغوراس يلهث جاحظ العينيْن. إنها الحماسة.

يذكر دياغوراس أول مرة أبصر فيها ذلك خلال عروض الشاعريْن إسخيلوس وسوفوكليس، إذ كاد اللقاء يكون دينيًّا...

صمت مطبق، ألمعي، كذلك الصمت الذي يسكن الكلمات المكتوبة، وضرب من...

ماذا؟...

المتعة؟...

الخوف؟...

السُّكر؟...

لم يتسنَّ له أن يفهم. أحيانًا كانت تبدو له تلك الطقوس الهائلة أكثر إيغالًا في القدم من قدرة البشر على الفهم بكثير. لم يكُن ذلك مسرحًا على وجه التحديد، بل شيئًا سابقًا عليه، شيئًا ذا طابع فوضوي. فما كان يقدِّم أشعارًا جميلة يتسنَّى للمشاهد المُثقَّف ترجمتها إلى صور بديعة، ولا كان الخطاب الذي يشتمل عليه عقلانيًّا إلا فيما ندَر. فالأمهات يضاجعن أبناءهن، والآباء يَلقون حتفهم على أيدي الأبناء، والزوجات يوقعن أزواجهن في شباك دامية مُعقَّدة، والجريمة تُقابَل بالجريمة، والثأر بلا نهاية، والغضب يلاحق المذنبين والأبرياء، والجثث تتساقط بلا مثوى،

ومن كل حدبٍ وصوبٍ تُطلِق الجوقة صرخات الألم بلا هوادة، ويسود الهلع عملاقًا، كذلك الذي يستبدُّ برجل مهجور في عرض البحر. كان ذلك المسرح يشبه عين سايكلوب[76] يتربَّص بالحضور من كهفه.

لطالما شعر دياغوراس باضطراب يعتريه إزاء تلك الأعمال المفعمة بالشقاء. ما كان يفاجئه مطلقًا أن أفلاطون يمقتها إلى هذا الحد! فأين هذه العروض المسرحية من العقائد الأخلاقية وقواعد السلوك والأعمال الصالحة للشاعر الذي من واجبه تعليم الشعب، والـ...؟

همس هراقليس:

- دياغوراس، انتبه إلى فردي الجوقة إلى اليمين، في الصف الثاني.

دنا أحد المُمثِّلين من الخيال الماثل خلف الطاولة. بالحكم على حذائه العالي والقناع المُعقَّد الذي أخفى به وجهه، كان يبدو أنه هو قائد الجوقة. عند ذاك بدأ محاورةً شعرية مع الشخص الجالس:

قائد الجوقة: هيا أيها المترجم، فتِّش عن المفاتيح، إن كان لها وجود.

المترجم: قضيتُ زمنًا طويلًا وأنا أفتِّش عنها. بَيْد أن الكلمات تختلط عليّ.

قائد الجوقة: إذًا، أتحسب الإصرار غير مُجدٍ؟

المترجم: كلا، بل أعتقد بأن كل ما كُتِب يمكن كشف طلاسمه.

قائد الجوقة: ألا يخيفك بلوغ النهاية؟

المترجم: ولمَ قد يخيفني ذلك؟

قائد الجوقة: نظرًا لاحتمال عدم وجود حلول من أي صنف.

المترجم: ما دمتُ أمتلك القوى اللازمة، فأنا ماضٍ في سبيلي.

قائد الجوقة: أوه، أيها المترجم، وكأني بك تدفع حجرًا سيعاود السقوط من فوق القمة.

المترجم: إنه قدَري، وأيّ محاولة من جانبي للتمرُّد ضائعة سدًى!

قائد الجوقة: تبدو مدفوعًا بثقة عمياء.

المترجم: لا بد أن هنالك شيئًا ما وراء الكلمات! فالمغزى موجود أبدًا!

سأل هراقليس:

- هل تعرَّفتَ عليهما؟

فغمغم دياغوراس:

- وحق الآلهة!

قائد الجوقة: أرى أن إقناعك بالعدول عن رأيك غير مُجدٍ.

المترجم: أنت مخطئ في ما قلت، ذلك أن وثاقي مشدود إلى هذا المقعد وتلك البرديات.

سُمِع رنين الصنوج. وترنَّمَتِ الجوقة بأنشودة إيقاعية:

الجوقة: إني لأَبْكِي مصيرك أيها المترجم، يا من تشدُّ وثاق عينيْك إلى الكلمات، ظنًّا أنك واجِدٌ مفتاح النصِّ الذي تترجمه أخيرًا! فيمَ رغبة الربّة أثينة-بعينيْها اللتين تشبهان أعين البوم- أن تمنحنا المعرفة النيِّرة؟ أيها التعيس، ها أنت ذا تسعى إلى نيل جزاء هزيل نظير جهودك، بَيْد أنك عاجز عن القبض على المعاني المُتملِّصة بيديْك المفرودتيْن ونظراتك الخبيرة! أي شقاء[77]!

لم يُرِد دياغوراس مشاهدة المزيد. قام من مكانه ثم اتَّجه صوب طريق الخروج. تردَّد صدى الصنوج قويًّا حتى استحال الصوتُ نورًا، ورفَّتْ سائر العيون. رفع أفراد الجوقة أذرعهم:

الجوقة: حذار أيها المترجم، حذار! إنهم يراقبونك! إنهم يراقبونك!

صاح هراقليس اليونتوري:

- دياغوراس، انتظرني!

الجوقة: ثمة خطر قائم يتربَّص بك! ها قد بلغكَ التحذيرُ أيها المترجم[78]!

في عتمة الشارع الباردة، تحت عين القمر الرقيبة، التقط دياغوراس أنفاسه عدة مرات. أما كاشف الألغاز الذي جاء في إثره، فقد راح يلهث هو الآخر، وإن كان الأخير يلهث بسبب من الجهد الذي بذله وهو يرتقي الدَرَج. سأل:

- هل تعرَّفتَ عليهما؟

أومأ دياغوراس.

- كانا هما بالفعل، وإن كانا مُقنَّعيْن.

عاد دياغوراس وهراقليس أدراجهما عَبْر الشوارع المنعزلة نفسها. قال الأخير:

- إذًا، ماذا يعني ذلك؟ فيمَ حضور أنتيسو وإيونيو إلى هذا المكان ليلًا، وكلاهما متخفٍّ بتونيك قاتم طويل. أفترض أنك قادر على تفسير ذلك من أجلي.

فقال دياغوراس ببطء:

- في الأكاديمية نرى أن المسرح فنٌّ سوقيٌّ قائم على التقليد، فنحظر على تلاميذنا صراحةً حضور العروض الدرامية، ناهيك عن المشاركة فيها. يعتقد أفلاطون...

أعني، نعتقد جميعًا أن جُلَّ الشعراء يفتقرون إلى الحذر ويقدِّمون قدوة رديئة للشباب من خلال تصوير شخوص غارقين في الرذائل المُستهجَنة، رغم كونهم من النبلاء. إن المسرح الحقيقي عندنا لا يتمثَّل في وسيلة ترفيه مبتذلة ترمي إلى انتزاع الضحكات أو الصيحات من العوام. بل إنه في حكم أفلاطون الأمثل...

فقاطعه هراقليس:

- في ما أرى، ليس كل تلاميذك عند هذا الرأي.

أغمض دياغوراس عينيْه وعلى وجهه أمارات الألم. همهم قائلًا:

- أنتيسو وإيونيو...

ما كنت أصدِّق يومًا.

- وتراماكو أيضًا، على الأرجح. آسف.

- ولكن، أي ضرب من...

الأعمال الغروتسكية[79] كانا يتمرَّنان عليه؟ وأي مكان ذلك؟ لا أعرف مسرحًا مُغطًّى واحدًا في المدينة، ما خلا مسرح أوديون.

فصاح هراقليس مُتنهِّدًا:

- آه، دياغوراس، أثينا تتنفَّس ونحن نفكِّر! ثمة أمور كثيرة لا تبصرها عيوننا، وإن كانت تنتمي للشعب أيضًا: وسائل تسلية عبثية، ومهن بعيدة عن التصديق، وأنشطة غير عقلانية...

أنت لا تغادر الأكاديمية قط، أما أنا فلا أغادر عقلي قط، وكلاهما واحد. بَيْد أن أثينا ليست هي فكرتنا عن أثينا، يا عزيزي هراقليس...

- هل أصبحتَ عند رأي كرانتور الآن؟

هزَّ هراقليس كتفيه.

- دياغوراس، ما أسعى لقوله إن في الحياة أمكنة غريبة لم نزُرها قط، لا أنا ولا أنت. لقد أكَّد لي العبد الذي زوَّدني بتلك المعلومات أن في المدينة عدة مسارح سرية مشابهة. بوجه عام، تُقام تلك المسارح في بيوت قديمة يشتريها تجار أجانب بثمن بخس، ثم يؤجِّرونها لشعراء. وبالنقود التي تدرُّها عليهم يدفعون الضرائب الباهظة المفروضة عليهم. بطبيعة الحال، الأراكِنة لا يسمحون بمثل هذا النشاط. وعلى الرغم من ذلك، فتلك المسارح لا يعوزها الحضور، كما رأيتَ من فورك...

إنها تجارة مربحة إلى حد بعيد في أثينا.

- وماذا عن العمل المسرحي...

- لا أعرف العنوان ولا الموضوع، وإن كنتُ أعرف المُؤلِّف. إنها تراچيديا من تأليف مينيكمو، النحَّات الشاعر. هل رأيتَه وهو يمثِّل؟

- مينيكمو؟

- أجل، كان هو الرجل الجالس خلف الطاولة، ويلعب دور المترجم. كان قناعه صغيرًا فاستطعتُ التعرُّف عليه. إنه شخص جدير بالفضول حقًّا. له مَنْحَت في سيراميكوس، حيث يكسب قوته بصناعة الأفاريز لبيوت نبلاء أثينيين، ويكتب أعمالًا تراچيدية لا تُعرَض بصفة رسمية قط، بل يقدِّمها لمجموعة من «المُصطَفين»، وهم شعراء يفتقرون للموهبة مثلهم كمثل مينيكمو، في تلك المسارح الصغيرة المحجوبة عن الأنظار. أجريتُ بعض التحرّيات في حيِّه. وطبقًا لما يبدو،

فهو يستخدم المَنْحَت لغرض آخر إلى جانب العمل. ذلك أنه يقيم حفلات ليلية على الطريقة السيراقوسية، حفلات ماجنة يشيب لهولها الولدان، حيث المدعوون الرئيسيون شباب يستلهم منهم مينيكمو تماثيله الرخامية ويتَّخذ منهم جوقةً في أعماله المسرحية...

التفت دياغوراس إلى هراقليس وقال:

- لعلَّك لا تجرؤ على التلميح إلى...

هزَّ هراقليس كتفيْه ثمَّ تنهَّد، وكأنه مضطرٌّ لحمل نبأ مؤسف، الأمر الذي يشقُّ عليه بعض الشيء. قال:

- تعالَ. دعنا نتوقَّف هنا ونتكلَّم.

كانا في منطقة رحيبة، قرب رواق ذي جدران مُزيَّنة برسوم تمثِّل وجوهًا بشرية، استغنى الفنان الذي صنعها عن كل القسمات ما خلا العيون التي ظلَّت مفتوحة، رقيبة. وبعيدًا، في الشارع الذي يرقبه القمر، طفق كلبٌ ينبح.

قال هراقليس ببطء:

- دياغوراس، رغم قِصر الوقت الذي تعاملنا خلاله، أعتقد أني أعرفك بعض الشيء، كما أظنُّ أنك تبادلني الشعور. لن يروقك ما أنا موشك على قوله، إلا أنها الحقيقة، أو شيء منها. الحقيقة التي من أجلها تؤدِّي أتعابي.

فقال دياغوراس:

- هات ما عندك. أنا منصت.

وبنبرة مرهفة كأجنحة طائر ضئيل، شرع هراقليس في الحديث:

- لقد عاش تراماكو وأنتيسو وإيونيو...

وما زال الأخيران يعيشان...

حياةً، دعنا نقُل إنها ماجنة بعض الشيء. لا تسألني عن الدافع من وراء ذلك. لستُ أعتقد بأن من واجبك الشعور بالمسؤولية بوصفك مرشدًا لهم. إليك الأمر الواقع، الأكاديمية تنصحهم بالتنزُّه عن العواطف السوقية والمتع المادّية والمشاركة في الأعمال المسرحيّة، وعلى الرغم من ذلك فهم يرافقون بائعات هوى ويشاركون في الجوقات...

رفع يده بسرعة، وكأنما قد أدرك أن دياغوراس على وشك مقاطعته.

- دياغوراس، لا بأس بذلك نظريًا. بل وربما كان بعض زملائك المرشدين يعرفون بذلك ويسمحون به. فتلك أمور شبابية في خاتمة المطاف. أما في حالة أنتيسو وإيونيو... وتراماكو أيضًا على الأرجح... دعنا...

دعنا نقُل إنهم قد أسرفوا قليلًا. لقد تعرَّفوا على مينيكمو، ما زلتُ لا أعرف كيف، وأصبحوا من التلاميذ... المُتحمِّسين له في... «مدرسته» الليلية الغريبة. العبد الذي تعاقدتُ معه لاقتفاء أثر

أنتيسو أخبرني ليلة أمس بأن إيونيو وأنتيسو قد رافقا مينيكمو إلى مَنْحَتِه بعد أداء دوريْهما في المسرح الذي رأيناه... ثم شاركا في حفل صغير.

جعلَتْ عينا دياغوراس تتحرَّكان في محجريْهما بترقُّب، وكأنما ترغبان في احتواء هيئة كاشف الألغاز كاملة بنظرة واحدة. سأل:

- حفل...

أي حفل؟

أطلَّتْ عينا الكهل، تراقبان... المَنْحَت... رجل ناضج... فتيان... يضحكون... بريق المصابيح... فيما يترقَّب الفتيان...

يد...

خصر...

رطَّب الكهل شفتيْه بلسانه...

ربتة... شاب أروع جمالًا بكثير...

عارٍ تمامًا...

النبيذ المسكوب...

مضى يقول: هكذا...

فوجئ الكهل...

بينما النحَّات... يدنو...

بنعومة وعلى مهل...

أكثر نعومة...

جعل يئنُّ: آهٍ...

في الوقت نفسه مع باقي الشباب...

انحناءات. عندئذ، انقلبوا جميعًا...

وَضْعٌ عجيب...

سيقان...

باستماتة...

في العتمة...

والعرق...

سمعه يهمس: مهلًا...

دار في خلد الكهل: «شيء لا يُصدَّق»[80].

ثم قال دياغوراس بصوت أجشّ:

- ذلك ضرب من الهَزْل. ولمَ لا يتركون الأكاديمية إذًا؟

هزَّ هراقليس كتفيه:

- لا أدري. ربما كان مرادهم التفكير كالبشر صباحًا وطلب اللَّذة كالحيوانات ليلًا. ليست لديَّ أدنى فكرة بشأن ذلك. وإن لم تكُن تلك المشكلة الأكثر خطورة. فعائلاتهم تجهل الحياة المزدوجة التي عاشوها. الأرملة إتيس، على سبيل المثال، تشعر بالرضا عن التعليم الذي تلقَّاه تراماكو في الأكاديمية...

ناهيك عن يراكسينو النبيل والد أنتيسو، النائب في المجلس، أو تريسييو والد إيونيو، الخبير الاستراتيجي الماجِد القديم...

أتساءل عمّاَ سيكون إن ذاع أمر النشاط الليلي الذي يمارسه تلميذاك؟

همهم دياغوراس:

- سيكون ذلك فظيعًا بالنسبة للأكاديمية...

- أجل، ولكن ماذا عنهما؟ لا سيما الآن وقد بلغا سن التجنيد واكتسبا حقوقًا مشروعة...

كيف ستكون ردَّة فعل آبائهما النبلاء، الذين طالما رغبوا أن يتلقَّى أنتيسو وإيونيو تعليمهما وفقًا لمُثُل المُعلِّم أفلاطون؟ أعتقد أن تلميذيْك هما أول المهتمين بألا يُعرَف من ذلك شيء...

ناهيك عن مينيكمو.

وكأنما لم يعُد لديه ما يقوله، استأنف هراقليس المسير عَبْر الشارع المنعزل. ثم لحق به دياغوراس مطرقًا، وجعل يراقب وجهه. قال هراقليس:

- كل ما أطْلعتُك عليه حتى الآن قريب جدًّا من الحقيقة. والآن سأشرح لك فرضيَّتي التي أعتبرها راجحة إلى حدّ بعيد. في رأيي، كان كل شيء يسير على ما يُرام إلى أن قرَّر تراماكو الوشاية بهم...

- ماذا؟

- يُحتمَل أنه قد شعر بوخز الضمير حين علم بخرقه قواعد الأكاديمية، من يدري! أيًّا كان ما جرى، فإليك نظريتي: تراماكو قرَّر البوح بالأمر. قرَّر أن يحكي كل شيء.

عجَّل دياغوراس بقوله:

- لو فعل لما كان ذلك فظيعًا إلى هذا الحد. كنتُ سأتفهَّم...

قاطعه هراقليس:

- تذكَّرْ أننا لا نعرف حجم الأمر برمّته. لا نعرف على وجه الدقة طبيعة العلاقة التي كانت تجمعهم بالمدعو مينيكمو، وما زالت...

أطرق هراقليس برهةً ليخلق بذلك صمتًا صريحًا إلى حد كبير. همهم دياغوراس:

- هل تحاول أن تخبرني بأن...

الهلع الذي انتابه في البستان...؟

بدا على وجه هراقليس أن ذلك ليس هو الجانب الأكثر أهمية في رأيه. ومع ذلك قال:

- أجل، ربما. على الرغم من ذلك، يجب عليك الأخذ في الحسبان أنني لم أُرِد تحرِّي ذلك الهلع المزعوم الذي تؤكِّد أنك قد لاحظتَه في عيني تراماكو، بل إنني... نفد صبر دياغوراس:

- ... بل إنك لاحظتَ شيئًا على جثته ولم ترِد إخباري بذلك.

- بالضبط. ولكن الصورة قد اكتملَت الآن. أما في ما يتعلَّق بإخفائي تلك التفصيلة عنك، دياغوراس، فقد أقدمتُ على ذلك لأن عواقبها وخيمة للغاية، ولذا أردتُ بناء فرضية قادرة على تفسيرها أولًا. أما الآن، فأعتقد بأن الوقت قد حان لأن أبوح بها إليك.

وضع هراقليس يده على فمه بغتةً. وللحظة بدا لدياغوراس أن كاشف الألغاز يحاول تكميم فمه كي يلجم نفسه عن الكلام. بَيْد أن هراقليس، بعد أن ربت على لحيته الدقيقة المُفضَّضة، قال:

- لأول وهلة، يبدو الأمر في غاية البساطة. كما تعرف، كانت آثار النهش منتشرة في جثة تراماكو، وإن...

وإن ليس في مواضع الجسد كافة. أعني أن ذراعيْه كانتا سليمتيْن تقريبًا، التفصيلة التي فاجأتني. لأن أوَّل ما نفعله هو رفع الذراعيْن إن تعرَّضنا لهجوم، وبهما نتلقَّى الضربات الأولى. فبمَ نفسِّر هجوم قطيع كامل من الذئاب على تراماكو المسكين من دون أن يجرح ذراعيْه تقريبًا؟ يوجد تفسير واحد ممكن: لقد عثرَتِ الذئاب على تراماكو غائبًا عن الوعي، على أقل تقدير، فطفقَتْ تلتهمه في غير حاجة لمواجهته...

انقضَّتْ على أضمن موضع في جسده، بل وانتزعَتْ قلبه...

فأجاب دياغوراس:

- أعفِني من التفاصيل. الأمر الذي أعجز عن فهمه، ما علاقة كل ذلك بـ...؟

وفجأةً قطع حديثه، في حين أخذ كاشف الألغاز يراقبه بتفرُّس، وكأن عيني دياغوراس تفصحان عن خواطره بأفضل مما تفعل كلماته.

- تمهَّلْ لحظة. قلتَ إن الذئاب قد عثرَتْ على تراماكو غائبًا عن الوعي، على أقل تقدير...

فاستطرد هراقليس، في غير تأثُّر:

- تراماكو لم يخرج للصيد قط. وفقًا لفرضيَّتي، كان مزمعًا على البوح بكل شيء. الأرجح أن مينيكمو هو من أقدم على ذلك...

وأودُّ التفكير أن مينيكمو هو من فعلها...

فاستدعاه يوم ذاك إلى لقائه على مشارف المدينة بغرض التوصُّل إلى اتفاق. تجادلا...

وربما دبّ شجار بينهما. أو ربما كان مينيكمو قد فكَّر بالفعل في إسكات تراماكو بأبشع السبُل. ثم أخفَتْ الذئابُ الأدلَّة، بالصدفة. ولكن ما سبق لا يعدو أن يكون فرضيَّة...

ثم أشار دياغوراس:

- صحيح، فربما كان تراماكو ببساطة غافيًا حين عثرَتْ عليه الذئاب.

فأومأ هراقليس برأسه نافيًا.

- الرجل الغافي قادر على الاستيقاظ والدفاع عن نفسه...

كلا، لا أظنّ، فجروح تراماكو تُظهِر أنه لم يدافع عن نفسه. لقد عثرَتِ الذئاب على جثة هامدة. - ولكن ربما...

- ... ربما غاب عن الوعي لسبب آخر، أليس كذلك؟ هذا ما دار في خلدي في بادئ الأمر، ولذا لم أرِد البوح بظنوني. ولكن، في تلك الحالة، لماذا بدأ الخوف يتسلَّل إلى أنتيسو وإيونيو بعد مصرع صديقهما؟ حتى إن أنتيسو قرَّر الرحيل عن أثينا...

- ربما كانا يخشيان أن نكشف الحياة المزدوجة التي يعيشانها.

فأجاب هراقليس من فوره، وكأن جميع المقترحات التي قد يدلي بها دياغوراس تُعدُّ بمثابة أرض معلومة في نظره:

- نسيتَ التفصيلة الأخيرة، لو أنهما يخشيان افتضاح أمرهما إلى ذلك الحد، فما الدافع وراء الاستمرار في نشاطهما؟ لستُ بمنكر أنهما قلقان خشية افتضاح أمرهما. وإن كان في اعتقادي أن القلق الذي يبعثه مينيكمو في نفسيْهما أشد كثيرًا...

قلتُ لك بالفعل إني أجريتُ تحرّيات بشأنه. إنه شخص سريع الغضب، عنيف، له قوة بدنية عجيبة على هزاله. ربما عرف أنتيسو وإيونيو ما هو قادر على فعله الآن، فاستبدَّ بهما الفزع.

أغمض الفيلسوف عينيْه وزمَّ شفتيْه. أطبق الغضب على أنفاسه. غمغم:

- ذلك... اللعين. ماذا تقترح؟ هل نوجِّه له الاتهام علنًا؟

- ليس بعد. ينبغي لنا التأكُّد من حجم مسؤولية كلٍّ منهم أولًا. وبعد ذلك يجب علينا الوقوف على حقيقة ما جرى لتراماكو بدقة. وأخيرًا...

ارتسم على وجه هراقليس تعبير غريب، ثم أردف:

- أهم ما في الأمر الآتي، يجب عليَّ الوثوق بأن الإحساس المشوب بالقلق الذي ما زال يعتمل في دخيلة نفسي منذ قبلتُ بهذا العمل، وكأنه عين ضخمة تراقب خواطري، إنما هو إحساس زائف...

- أي إحساس؟

أما نظرات هراقليس الزائغة في هواء الليل فقد بدَتْ مستغلقةً. وبعد برهة صمت أجاب في بطء:

- الإحساس بأني، ولأول مرة في حياتي، مُخطئ تمامًا[81].

***

كان هناك (استطاعت عيناه أن تتبيَّناه في الظلام). فتَّش عنه بلا هوادة، بترقُّب، بين أحجار الكهف الحلزونية القاتمة. كان هو نفسه، بلا أدنى شك. تعرَّف عليه من الصوت المنبعث منه كما فعل مرات أخرى، خفقان مكتوم، وكأنه صادر عن قبضة ملاكم مكسوة بالأديم، تنهال ضرباتها داخل رأسه على فترات منتظمة. وإن لم يكُن ذلك ما يقلقه. فالشيء العبثي، غير المنطقي، الأمر الذي أبَتْ عينه العقلانية أن تقبله، هو وجود الذراع المُحلِّقة في الهواء، الذراع التي تنتهي بَيْد قابضة على القلب بإحكام. هناك، في ما وراء الكتف، حيث يجب عليه أن ينظر...

ولكن، لمَ تتكاثف الظلال عند تلك النقطة تحديدًا؟ انقشعي أيتها الظلمات! من الضروري أن يعرف أي شيء تحجبه تلك الكتلة الخاثرة من السواد، أي جسد، أي صورة...

اقترب مادًّا يده...

اشتدَّتْ الخفقات. صمَّتْ أذناه. أفاق بحدَّة...

ليجد الصوت ما زال مُستمرًّا، على نحو لا يُصدَّق.

أخذ أحدهم يطرق باب بيته طرقًا شديدًا.

- ماذا...؟

لم يكُن ذلك جزءًا من الحلم، بل إنها طرقات لجوجة. مضى يتحسَّس بيديه حتى عثر على ردائه مطويًّا بنظام فوق مقعد قريب من مضجعه. وعَبْر كوَّة في جدار مخدعه، بالكاد راحت تتسلَّل نظرات الفجر الرقيبة. خرج إلى الرواق فدنا منه وجه بيضاوي يحلِّق في الهواء، خلا من كل شيء سوى فتحتيْن سوداويْن. قال:

- يونسيكا، افتحي الباب!...

وفي غفلة منه، شعر في البدء بالاضطراب لأنها لا تحير جوابًا. «وحق زيوس، ما زلتُ غافيًا. يونسيكا عاجزة عن الكلام!». حرَّكتِ الجارية يمينها بإشارات منفعلة، في حين أمسكَتْ مصباح الزيت بيسارها.

- ماذا؟...

خوف؟...

تشعرين بالخوف؟...

دعي عنكِ هذه الحماقة!...

علينا أن نفتح الباب!

أزاح الفتاة عن طريقه مُتبرِّمًا واتَّجه صوب الردهة. توالت الطرقات على الباب. خلا المكان من الضوء. تذكَّر أنها تحمل المصباح الوحيد. مسَّ ذاكرتَه الحلمُ المُروِّع الذي راوده منذ لحظات

فحسب-بالغ الشبه بحلم الليلة السابقة- كبيت عنكبوت يمسُّ عينيْن غافلتيْن...

عيني السائر إلى الأمام عَبْر عتمة بيت عتيق، وهو لا يراقب خطاه. ولكن، عند عتبة البيت، لم تكُن في انتظاره يدٌ تعتصر قلبًا خافقًا، بل شَخَصَ أمامه خيال رَجُل. في اللحظة نفسها تقريبًا، وصلت يونسيكا تحمل المصباح لتكشف عن وجه القادم. كان في منتصف العمر، له عينان رقيبتان يتجمَّع فيهما القذَى، ويرتدي رداء العبيد الرمادي.

قال بلكنة ثقيلة تميِّز أهل بيوتيا:

- أرسلني سيِّدي دياغوراس برسالة إلى هراقليس اليونتوري.

- أنا هراقليس اليونتوري. هات ما عندك.

أما العبد فقد انصاع لأمره مُتردِّدًا، شاعرًا بقليل من الرهبة نظرًا لحضور يونسيكا الباعث على الاضطراب:

- الرسالة تقول: «احضرْ بأسرع ما يمكن. سقط قتيل آخر»[82].

الفصل السّادس[83]

كانت الجثة لفتاة مُلثَّمة الوجه، ترتدي ثوب بيبلوس يغطِّي خصلات شعرها، وتلفُّ ذراعيْها برداء. استلقَتْ مُمدَّدة على جانبها فوق الفضلات المبعثرة اللانهائية. وبالحكم على وضع ساقيْها المكشوفتيْن حتى الفخذيْن، الجديرتيْن بالتأمُّل حتى في ظل تلك الظروف، يمكن القول إن الموت قد باغتها وهي تركض أو تثب رافعةً حافة ثوب البيبلوس. بدَتْ قبضة يدها اليسرى مضمومة، كما في ألعاب الأطفال حين يخفون أشياء عن بعضهم، في حين أمسكَتْ يمينها بخنجر يبلغ طول نصله شبرًا، يبدو وكأنه مصنوع من دماء مطروقة. كانت حافية القدميْن. أما في ما عدا ذلك، فلم يخْلُ موضع واحد في جسدها الأهيف من الجروح، من جِيدها إلى رَبْلَتيْها: جروح قصيرة، وطويلة، وطوليَّة، وملتوية، ومُثلَّثة، ومُربَّعة، وغائرة، وسطحيَّة، وطفيفة، وخطيرة. اكتسى ثوبها كاملًا بآثار الجروح، في حين تلوَّثَتْ حوافُّ المِزَق بالدماء. وعلى الرغم من ذلك، فالمشهد التعيس لا يعدو كونه مُقدِّمة لما هو آتٍ. فبمُجرَّد تعرية الجسد ظهرَتْ تشوُّهات بشعة، بالكاد أمكن تبيُّنها وسط انتفاخات غروتسكية في الثوب، تراكمَتْ أسفلها الأخلاط والإفرازات المُلوَّثة وكأنها نباتات مائية يراقبها المرء من فوق سطح مياه بلّورية. لم يبدُ أن تلك الميتة تنطوي على مفاجآت أخرى. ومع ذلك، كانت ثمة مفاجأة أخرى بالفعل. فما كاد هراقليس يميط اللثام عن الجثة حتى وجد قسمات وجه رجل.

وبإعجاب أنثوي قال الأستينوموس زاعقًا:

- آه، ما أعظم دهشتك يا كاشف الألغاز! لستُ ألومك، وحق زيوس! فأنا عن نفسي لم أرِد تصديق الأمر حين أطلعني الخدم على فحواه!...

والآن، اسمحْ لي بسؤال، ماذا أنت فاعل هنا؟

ثم أشار إلى رجل أصلع وأردف:

- لقد أكَّد لي هذا الشخص الودود أنك ستكون حريصًا على رؤية الجثة. وإن لم أفهم لذلك سببًا. فليس هنالك شيء يستدعي كشف طلاسمه، بحسب اعتقادي، ما خلا الدافع المبهم الذي حدا بهذا الإفيبوس إلى...!

وفجأةً حانت منه التفاتة إلى الرجل الأصلع.

- ماذا قلتَ لي إنه يُدعَى؟...

فقال دياغوراس كالحالم:

- إيونيو.

- ... الدافع المبهم الذي حدا بإيونيو إلى التنكُّر في ثياب فتاة ليل والسُّكْر وإحداث تلك الجروح الرهيبة في جسمه...

عمَّ تفتِّش؟

رفع هراقليس حوافّ ثوب الييبلوس بنعومة. جعل يترنَّم:

- تا، تا، تا، را، را، را...

بدَا الجثمان مُندهشًا من ذلك الفحص المهين، فراح يتأمَّل سماء الفجر بعينه الوحيدة المُتبقِّية (أما عينه الأخرى، المخلوعة من مكانها، المُعلَّقة بخيط مرهف لزج، فقد أخذَتْ تحملق داخل أذنه). ومن الفم الفاغر برز اللسان مشقوقًا إلى نصفيْن، هازئًا.

صاح الأستينوموس في نفاد صبر، رغبةً منه في الانتهاء من عمله:

- ولكن، هل لي أن أعرف إلامَ تنظر؟

كان هو المُكلَّف بتنظيف المدينة من الروث والقمامة، وبتشييع الجثث التي تنبت فيها إلى مثواها. وعليه، تقع على عاتقه مسؤولية تلك الجثة التي ظهرَتْ فجرًا في أرض خلاء تغصُّ بالمُخلَّفات والفضلات في حي سيراميكوس الداخلي.

سأل هراقليس، منشغلًا بفتح يد الجثمان اليسرى:

- أيها الأستينوموس، لمَ أنت متأكِّد إلى هذا الحدِّ أن إيونيو قد ألحق بنفسه كل تلك الجروح؟

تذوَّق الأستينوموس لحظته الكبرى، في حين تلوَّث وجهه الضئيل الصافي بابتسامة غروتسكية. ثم قال:

- لم أكُن في حاجة إلى التعاقد مع كاشف ألغاز حتى أتحقَّق من ذلك! هل تشمَّمتَ رائحة ثيابه المُنفِّرة؟...

يفوح منها عبق النبيذ!...

ثمة شهود رأوا كيف شوَّه نفسه بذلك الخنجر...

- شهود؟

لم يبدُ هراقليس مُتأثِّرًا. كان قد عثر على شيء صغير في راحة الجثة اليسرى، فاحتفظ به في ردائه.

- شهود على قدر عظيم من الوقار. أحدهم حاضر هنا...

رفع هراقليس بصره، في حين أشار الأستينوموس إلى دياغوراس[84].

قدَّما آيات التعازي لتريسييو، والد إيونيو. سرعان ما ذاع الخبر. وعند وصولهما كان المكان حافلًا بالكثيرين، جلّهم من الأهل والأصدقاء، إذ يحظى تريسييو بمكانة مرموقة للغاية بصفته خبيرًا استراتيجيًّا، كما أن ذكرى بطولاته في صقلية ما زالت حاضرة، والأهم من ذلك أنه واحد من القلائل الذين عادوا ليحكوا ما جرى. وتحسُّبًا لسؤال المُشكِّكين، فقد بقيَتْ قصّته محفورة بندوب مُلوَّثة على وجهه كما تُكتَب القصص على أنصاب القبور، «وجهه الذي اسودَّ خلال حصار سيراقوسة»، كما دأب على القول. ومن بين كل آيات التكريم التي نالها طيلة حياته، فإن أكثرها مدعاةً للزهو عنده تلك الندبة القاطعة المائلة التي تركَتْها ضربة سيف سيراقوسي، وتمتدُّ من يسار الجبين إلى يمين الوجنة، مرورًا بالحدقة الرطبة في طريقها نزولًا. لم يكُن مظهره يسرُّ الناظرين بذلك الصدع الأبيض في بشرته المحمّصة وعينه التي تشبه زلال البيض، بَيْد أنه كان مصدر فخر يحسده عليه الكثيرون من الشبان الوسيمين.

عمَّتِ الفوضى العارمة بيت تريسييو يومذاك، وإن ترك المكان انطباعًا بأنه لم يخلُ من الفوضى قط، بغضِّ النظر عن كونه يومًا استثنائيًّا. وصل دياغوراس برفقة الأستينوموس، وجاء كاشف الألغاز في إثرهما، إذ لم يُرِد الانضمام إليهما لسبب ما. عندئذ كان هنالك عبدان يحاولان الخروج مُحمَّليْن بسلال مُكتظَّة بالفضلات، ربما خلَّفَتْها إحدى المآدِب العامرة الكثيرة التي أقامها الرجل العسكري من أجل أعيان المدينة. كاد يتعذَّر استخدام الباب نظرًا لتكدُّس الكثيرين أمامه. راحوا يسألون في غير فهم، ويدلون برأيهم عن غير علم، ويراقبون، وحين تقطع أحاديثهم صرخاتُ النساء الشعائرية، يتأسَّفون. تطرَّق حديث ذلك الجمع المفعم بالحيوية إلى ما هو أكثر من الموت، إذ تطرَّق إلى النَّتْن أيضًا، أكثر من أي شيء سواه. كان النَّتْن يفوح من مصرع إيونيو. ثياب فتاة ليل؟ ولكن...

تُراه كان مخمورًا؟...

أو كان به مسٌّ من الجنون؟...

ابن تريسييو الأكبر؟...

إيونيو، ابن الخبير الاستراتيجي؟...

الإفيبوس، فتى الأكاديمية؟...

خنجر؟...

ولكن...

ما زال الوقت أبكر مما ينبغي لطرح النظريات والتفاسير والألغاز. ففي الوقت الراهن، انصبَّ التركيز على الوقائع من أجل المصلحة العامة. كانت الوقائع أشبه بالقمامة المُكدَّسة أسفل الفراش، لا أحد يعرف ما كانت قبل أن تصير قمامة، وإن لاحظ الجميع رائحتها الكريهة.

تلقَّى تريسييو آيات التعازي، جالسًا كالبطريرك على مقعد في الحجرة، مُحاطًا بالأهل والأصدقاء، وهو لا يأبه بمن يقدِّمها له. فكان يمدُّ إحدى يديْه أو كلتيهما، ويرفع رأسه، ويشكر مُعزِّيه، بمظهر يشي بالحيرة. فما كان حزينًا ولا حانقًا، بل حائرًا (الأمر الذي يدعو إلى الشفقة)، وكأن حضور هذا الجمع من الناس قد دفعه إلى الارتباك في خاتمة المطاف. تهيَّأ لرفع صوته بخطاب جنائزي مُرتجَل. كان التأثُّر قد زاد بشرةَ وجهه البرونزي دُكنةً. أما لحيته الرمادية الشعثاء، التي تدلَّتْ من ذقنه، فقد أبرزَتْ بياض ندبته المُلوَّث وأسبغَتْ عليه مظهرًا غريبًا، مظهر رجل هزيل البنيان. بدا أنه وجد الكلمات الملائمة أخيرًا. وفي وهن فرض الصمت على الحضور بقوله:

- أشكركم جميعًا. لو كان لي من الأيادي بقدر ما لبرياريوس العملاق ذي المائة ذراع، لوددتُ أن أمدَّها لأعانقكم بقوة، وأنصتوا إليَّ جيِّدًا. الآن سررتُ بالتأكُّد من محبتكم لابني...

اسمحوا لي بتكريمكم بكلمات ثناء وجيزة[85]... فرغ تريسييو من خطاب الشكر ثم قال:

- ظننتُ أنني أعرف ابني. كان يجلُّ الأسرار المُقدَّسة، رغم أنه الوحيد الذي آمن بها في أسرتنا. وفي مدرسة أفلاطون، كان يُعَدُّ طالبًا مجتهدًا...

الأمر الذي يستطيع مرشدُه الحاضر هنا أن يشهد على صحته...

التفت الجميع إلى دياغوراس، الذي قال متضرِّج الوجه:

- حقًّا.

دائمًا ما كان تريسييو يتحدَّث بصفته عسكريًّا، لا ينتظر ردًّا قط، ولذا كان يسهب في الحديث بلا داعي، حتى وإن استهلك أوجه الموضوع كافة. ومع ذلك، فما كان أعتى أنصار الإيجاز يجد الموضوع مستهلكًا في تلك اللحظة. على العكس، فقد أنصت الجميع إلى كلماته باهتمام شبه مَرَضيّ:

- قيل إنه كان مخمورًا...

إنه كان يرتدي ثياب امرأة...

إنه مزَّق جسده إربًا بالخنجر...

بصق ثم تابع حديثه:

- ابني؟ ابني إيونيو؟...

كلا، ما كان يأتي بفعلة...

نتنة إلى هذا الحدِّ. إنكم تتحدَّثون عن آخر، وليس عن ابني إيونيو!...

قيل إنه قد جُنَّ! إن عقله قد ذهب بين عشية وضحاها، فأهان الهيكل المُقدَّس المُتمثِّل في جسمه الفاضل...

بَيْد أنها أقاويل باطلة، وحق زيوس وأثينة المُدرَّعة بترس إيجيس الخارق! وإلا، فهل يجب عليَّ التصديق بأن ابني كان غريبًا عن أبيه! وأنكم جميعًا غامضون، في غموض مشيئة الآلهة! لو كان ذلك الغثّ من القول صحيحًا، فسوف أصدِّق من الآن فصاعدًا أن وجوهكم، وما ارتسم عليها من أمارات الألم، ونظراتكم المتعاطفة، نتنة كالجيف التي لا مثوى لها!

سرَتْ همهمة. وبالحكم على تعبير اللامبالاة المرتسم على الوجوه، يمكن القول بأن سائر الحضور قد أبدوا موافقتهم على كونهم «جيفًا لا مثوى لها»، في حين لم يُبدِ أحدهم استعداده لتبديل رأيه بشأن ما جرى ولو بمقدار يسير. كان ثمة شهود من أهل الثقات شأن دياغوراس، ممن أكَّدوا على استحياء أنهم قد رأوه مخمورًا، وقد جُنَّ جنونه، فارتدى ثوب بيبلوس ورداءً من الكتان، وشرع يُحدِث جروحًا على قدر من الخطورة في أنحاء جسمه كافة. أشار دياغوراس إلى أنه كان لقاءً عارضًا:

- كنتُ في طريق العودة إلى بيتي ليلًا حين رأيتُه. في بادئ الأمر خِلْتُه بائعة هوى. عند ذاك بادرني بالتحية، فاستطعتُ التعرُّف عليه. ولكني لاحظت سُكره، أو جنونه. راح يخدش جسمه بالخنجر ويضحك في آن، فلم أدرك خطورة الموقف في الحال. وحين أردتُ ردعه عمَّا هو فاعل، كان قد ولَّى هاربًا، مُتَّجهًا صوب منطقة سيراميكوس الداخلية. عجَّلتُ بالبحث عن المساعدة، فوجدتُ إيسيلو وديوليوس وأرخيلاوس، وثلاثتهم من تلاميذي القدامى...

كانوا قد رأوا إيونيو بدورهم...

وأخيرًا أبلغنا الجُندَ بما جرى...

وإن تأخَّر ذلك أكثر مما ينبغي...

لم يعُد دياغوراس محطّ الانتباه، فشرع يبحث بناظريْه عن كاشف الألغاز. وجده يتفادى الحضور، وعلى وشك أن ينسلَّ من الباب. هرع في إثره واستطاع أن يلحق به في الشارع، غير أن هراقليس تجاهل كلماته، حتى انتهى الأمر بدياغوراس إلى جذبه من ردائه.

- انتظرْ!...

إلى أين أنت ذاهب؟

حانت من هراقليس نظرة جعلَتْه يتراجع. ثم قال بسخط جليدي:

- دياغوراس الميدونتي، تعاقَدْ مع كاشف ألغاز سواي، على أن يجيد الإنصات إلى الأكاذيب أفضل مني. سأعتبر نصف النقود التي تقاضيتُها منك حتى الآن أتعابي. أما البقية فلسوف تسلِّمك جاريتي إياها وقتما شئت. طاب يومك...

فتوسَّل إليه دياغوراس:

- أرجوك! انتظرْ!...

أنا...

ومرة أخرى، بثَّتْ تينك العينان الباردتان القاسيتان الرهبةَ في نفسه. لم يسبق لدياغوراس قط أن رأى كاشف الألغاز حانقًا إلى هذا الحد.

- لم يسئ إليَّ خداعك بقدر ما فعل ظنُّك الأحمق بأنك قادر على خداعي...

فذلك عندي ذنب لا يُغتفَر، دياغوراس!

- لم أرِد خداعك!

- إذًا، تهانئي للمُعلِّم أفلاطون، فقد لقَّنك فنَّ الكذب عن دون قصد، وأي فنّ عسير!

ضاق دياغوراس:

- ما زلتَ تعمل لحسابي!

- مرة أخرى نسيتَ أن العمل عملي أنا؟

انتبه دياغوراس إلى وجود عدد أكبر مما ينبغي من الفضوليين مجتمعين حول جدالهما، كما تتكوَّم الفضلات، فاختار أن يخفّض صوته.

- هراقليس...

هراقليس، لا تهجرني الآن...

لم يعُد بوسعي الوثوق في أحد سواك بعد الذي جرى!...

- عُدْ إلى التأكيد بأنك قد رأيتَ ذلك الإفيبوس في ثياب فتاة شابة، يقطع من لحمه جِزَلًا أمام ناظرَيْك، وأقسم بثوب الربة أثينة حامية المدينة إنك لن تعرف عني شيئًا من الآن فصاعدًا!

- تعالَ، أرجوك...

دعنا نبحث عن مكان هادئ للحديث...

غير أن هراقليس استطرد:

- أيّ طريقة عجيبة لمساعدة تلاميذك، أيها المرشد! هل تعتقد أنك تساهم في الكشف عن الحقيقة إن طمرتَها بالفضلات؟

- أنا لا أسعى لمساعدة التلاميذ، بل الأكاديمية!

كان رأس دياغوراس الكروي قد تضرَّج كليًّا. أخذ يلهث. بدَتْ عيناه رطبتيْن. عندئذ تأتَّى له شيء يدعو إلى الفضول، فقد صرخ بغير صوت. استطاع أن يصدر نواحًا داخليًّا، وكأنه يريد لصراخه أن يبلغ هراقليس، وليس سواه. وبالسحر الصوتي نفسه أردف قائلًا:

- يجب أن تبقى الأكاديمية خارج الأمر برمته!...

أقسمْ لي على ذلك!...

- ليس من عادتي القسم لمن يسهُل عليهم الكذب إلى هذا الحدِّ!

فصاح دياغوراس بأعلى نواحه الداخلي، بهمسه الجهوري:

- أنا على استعداد لأن أقتل...

أنصتْ إليَّ جيِّدًا، هراقليس، أنا على استعداد لأن أقتل من أجل مساعدة الأكاديمية...!

لولا شعوره البالغ بالسخط، لأغرق هراقليس في الضحك. دار في خلده أن دياغوراس قد اكتشف «الهمهمة الصاخبة»، أي ذلك الأسلوب في صمِّ آذان مُحدِّثيه بهمسات مُتشنِّجة. بدَتْ زعقاته المختنقة وكأنها لطفل يخشى أن ينتزع زميله في الصفِّ لعبة الأكاديمية الرائعة من يده خلال الدرس، فيحاول ردعه بأي ثمن، من دون أن يلمح المُعلِّم شيئًا. والأكاديمية هي الكلمة التي كاد صوته ينحبس كليًّا عند التفوُّه بها، على نحو لم يملك هراقليس معه سوى الحدس بها من خلال حركة شفتي دياغوراس.

كرَّر دياغوراس قوله:

- أنا على استعداد لأن أقتل! فما كذبة واحدة عندي مقارنةً بالضرر الذي قد يلحق بالأكاديمية؟...

ينبغي لما هو أدنى أن يفسح السبيل لما هو خير! ينبغي لما هو بخس أن يضحِّي بنفسه لما هو نفيس!...

فأجابه هراقليس بقدر عظيم من الهدوء، وقدر ليس يسيرًا من السخرية:

- دياغوراس، ضحِّ بنفسك إذن وقلْ لي الحقيقة. وتأكَّد أنك لم تكُن في نظري يومًا أبخس مما أنت عليه الآن.

سارا عَبْر رواق يويكيلي. كان موعد التنظيف قد حان، فراح العبيد يتراقصون بمقشاتهم المصنوعة من الخيزران، وهم يلملمون الفضلات التي تراكمَتْ طوال اليوم السابق. تلك الجلبة السوقية، الشبيهة بثرثرة العجائز، أضفَتْ مسحة من الاستهزاء على أسلوب دياغوراس الشغوف الاستعلائي (وإن لم يعرف هراقليس لذلك سببًا). في حين أن دياغوراس، العاجز دائمًا عن معالجة المسائل بخفة، قد أبدى في تلك اللحظة مدى الجدية التي يقتضيها الموقف أكثر من أي وقت مضى، برأسه المطرق، ولغته الجديرة بخُطباء المجلس، وتنهيداته العميقة التي قطعَتْ حديثه.

- أنا...

في واقع الأمر، لم أعُد لرؤية إيونيو منذ الليلة الماضية، حين تركناه يؤدِّي دوره في ذلك العمل المسرحي...

قُبَيْل طلوع فجر اليوم، أيقظني أحد عبيدي ليخبرني بأن خدم الأستينوموس قد عثروا على جثة وسط الفضلات المُتراكمة في أرض خلاء بحي سيراميكوس الداخلي. أطلعني على التفاصيل، فهالني ما جرى...

فدار أوَّل ما دار في خلدي أن: «الواجب يقتضي مني أن أذود عن شرف الأكاديمية»...

فسأل هراقليس:

- إذًا، فأن تُوصَم أسرة بالعار خير من أن تُوصَم مؤسَّسة بالعار؟

- أترى غير ذلك؟ إذا كانت المؤسَّسة أعظم قدرةً من الأسرة على حُكم الناس وإرشادهم على نحو نبيل، كما هو الحال، أتكون نجاة الأسرة أولى من نجاة المؤسَّسة؟

- وإن ذاع احتمال سقوط إيونيو قتيلًا، كيف تتضرَّر الأكاديمية؟

فأشار دياغوراس إلى حبة تين أوشك هراقليس على وضعها في فمه:

- لو أنك وجدتَ وَسَخًا مجهول المصدر على واحدة من تلك الثمار، هل ستكون واثقًا من سلامة باقي ثمار شجرة التين نفسها؟

عند ذاك بدا لهراقليس أن طرح الأسئلة على الأفلاطونيين يعني الإجابة على أسئلتهم في الأساس.

- قد لا أكون واثقًا من ذلك.

فاستطرد دياغوراس:

- ولكن ماذا لو عثرتَ على حبّة تين وَسِخة على الأرض، تُراك تفكِّر أن شجرة التين هي المسؤولة عن ذلك الوَسَخ؟

- كلا، بطبيعة الحال.

- هذا ما فكَّرتُ فيه. كان الاستدلال العقلي الذي ذهبتُ إليه كالآتي: «لو أن إيونيو هو المسؤول الأوحد عن مصرعه، فلن يلحق بالأكاديمية ضرر. بل سوف يسعد الناس بإقصاء حبّة التين المعطوبة عن الحبّات السليمة. أما لو ثبَت تورُّط أحدهم في مصرع إيونيو، فكيف لنا أن نتلافى الفوضى، والفزع، والارتياب؟». بل والأكثر من ذلك، فكِّرْ في احتمال أن يُقْدِم أيٌّ من خصومنا، وهم كُثْر، على عقد مقارنات خطيرة بين مصرع إيونيو ومصرع تراماكو...

هل تتصوَّر ما سيكون لو ذاع أن أحدهم يقتل تلاميذنا؟

فابتسم هراقليس قائلًا:

- نسيتَ تفصيلة تافهة، أنك بقرارك هذا تساهم في تمرير مقتل إيونيو من دون عقاب...

فصاح دياغوراس مُظفَّرًا لأول مرة:

- كلا! هنا مكمن الخطأ. كنت أنوي إطْلاعك على الحقيقة، وبذلك تواصل تحرياتك سرًّا من دون تعريض الأكاديمية للخطر، ثم تُوقِع بالجاني...

فقال كاشف الألغاز ساخرًا:

- خطة محكمة. دياغوراس، خبِّرني، كيف فعلتها؟ أعني، هل وضعت الخنجر في يده أيضًا؟

تضرَّج وجه الفيلسوف وعاد إلى أسلوبه الهامس الاستعلائي.

- كلا، وحق زيوس، ما كان يخطر لي أن أمسَّ الجثة قط!...

حين أخذني العبد إلى الموضع، كان الأستينوموس وخدمه حاضرين في المكان. أوضحتُ لهم نسختي من الواقعة، النسخة التي أعددتُها وأنا في الطريق. كما ذكرتُ لهم أسماء تلاميذ قدامى أعرف أنهم سيؤكِّدون على كل ما أقول إن اقتضى الأمر...

ما كدتُ أرى الخنجر في يده وأشتمُّ رائحة النبيذ النفَّاذة حتى فكَّرت أن تفسيري وجيه...

في واقع الأمر، ما المانع أن يكون ذلك ما جرى بالفعل، هراقليس؟ لقد أخبرني الأستينوموس الذي فحص الجثة أن كل الجروح في متناول اليد اليمنى...

فلم يُصَب بجروحٍ في الظهر على سبيل المثال...

في الحقيقة، يبدو أنه هو الذي...

صمت دياغوراس حين لاحظ الحنق يتفاقم في نظرات كاشف الألغاز الباردة.

- أرجوك، دياغوراس، لا تهِن ذكائي باستشهادك برأي جامع قمامة تعِس كذلك الأستينوموس... فأنا كاشف ألغاز.

- وما الذي يدفعك إلى التفكير بأن إيونيو قد قُتِل؟ كان مُتنكِّرًا في ثياب نساء، وممسكًا بخنجر في يمينه، ويفوح منه عبق النبيذ. قد يكون هو من أحدث في جسده كل تلك الجروح...

أعرف حالات عدَّة أسفر فيها النبيذ الصِّرْف عن آثار مُروِّعة في نفوس الشباب. صبيحة اليوم خطرت لي ذكرى شاب من ديموس ميدونتي، ثمِل لأول مرة خلال أعياد لينايا فطفق يضرب رأسه بالجدار حتى لقي حتفه...

ولذا فكَّرتُ أن... فقاطعه هراقليس بهدوء:

- شرعتَ تفكِّر في أمور، كدأبك دائمًا، أما أنا فقد اكتفيتُ بفحص الجثمان. إليك الفارق الشاسع بين الفيلسوف وكاشف الألغاز.

- وماذا لاحظتَ على الجثمان؟

- الثوب. ثوب البيبلوس الذي كان يرتديه، الذي مزَّقَتْه طعنات الخنجر...

- أجل، ماذا عنه؟

- الرُّقَع المُمزَّقة لا تطابق مواضع الجروح أسفل الثوب. حتى إن طفلًا صغيرًا يستطيع إدراك الأمر...

حسنًا، لم أعْنِ طفلًا صغيرًا...

ولكني أدركتُه. مُجرَّد فحص بسيط كافٍ للتأكُّد مما يلي: ثمة جرح دائري أسفل القطع الطولي في النسيج، فضلًا عن مسارات مستقيمة وسطحية في البشرة أسفل الثقوب النافذة...

من الجليّ أن أحدهم قد ألبسه ثوب امرأة بعد طعنه...

وإن أقدم على تمزيق الثوب وتلويثه بالدماء أولًا، بالطبع.

أبدى دياغوراس دهشة صادقة:

- شيء لا يُصدَّق!

فأجابه كاشف الألغاز في غير اكتراث:

- من الضروري أن يعرف المرء كيف يرى الأشياء. والأدهى مما تقدَّم أن القاتل قد أخطأ في تفصيلة أخرى، فلم تكُن ثمة دماء قرب الجثمان. لو كان إيونيو هو من أحدث تلك الجروح الوحشية في جسمه، لغرقَت المُخلَّفات والفضلات القريبة من جثمانه في بركة من الدماء، على أقل تقدير. ومع ذلك، فلم يكن هناك أثرٌ للدماء على الفضلات. بل كانت «فضلات نظيفة»، إن جاز القول! ما يعني أن إيونيو لم يتلقَّ الطعنات هناك، بل في مكان آخر ثم نُقِل لاحقًا إلى منطقة الأطلال في حي سيراميكوس الداخلي...

- أوه، وحق زيوس...

أغمض هراقليس عينيْه نصف إغماضة وملَّس لحيته النظيفة المُفضَّضة وراح يتأمَّل. وعندئذ قال:

- ربما كان ذلك الخطأ الأخير حاسمًا. على كل حال، ما زلتُ لا أفهم الدافع الذي حدا بقاتل إيونيو لإلباسه ثياب النساء ووضع هذا الشيء في يده...

أبرز شيئًا من بين طيات ردائه. جعل كلاهما يتأمَّلانه مُطرقيْن. ثم سأل دياغوراس:

- لماذا تعتقد بأن شخصًا آخر قد وضع هذا الشيء في يده؟ ربما كان إيونيو قد التقطه قبل...

وفي نفاد صبر هزَّ هراقليس رأسه نافيًا، ثم قال شارحًا:

- كانت الجثة مُتيبِّسة لا تجري فيها الدماء حين وُضِع ذلك الشيء في يده. فلو كان إيونيو مُمسكًا به حين لقي حتفه لانقبضَتِ الأصابع بشدّة حتى ما كنتُ لأقدر على نزعه من يده بيسر كما فعلت. كلا، بل إن أحدهم قد ألبسه ثياب فتاة ووضع ذلك الشيء بين أصابعه...

- ولكن ما الدافع وراء ذلك، بحق الآلهة المُقدَّسة؟

- لست أدري. والأمر يحيِّرني. دياغوراس، إن هذا هو الشطر الذي لم أترجمه من النص بعد...

وإن كان بوسعي أن أؤكِّد لك، بكل تواضع، أنني لستُ بالمترجم الرديء.

وفجأةً دار هراقليس على عقبيْه وشرع ينزل دَرَج الرواق.

- ولكن، ها نحن قد قلنا كل شيء! دعنا لا نهدر المزيد من الوقت! فأمامنا مهمّة أخرى شاقة وكأنها مأثرة من مآثر هرقل!

- إلى أين نحن ذاهبان؟

اضطرَّ دياغوراس أن يحثَّ الخطى للحاق بهراقليس، الذي صاح قائلًا:

- نحن في طريقنا للتعرُّف على شخص بالغ الخطورة، ربما ساعدنا!...

سنذهب إلى مَنْحَت مينيكمو!

وفيما سار مُبتعدًا، أعاد إلى طيات ردائه زهرة الزنبق البيضاء الذاوية[86].

سأل صوت في العتمة:

- هل مِنْ أحد هنا؟[87]

كان مكانًا معتمًا يكسوه الغبار. اكتظَّت الأرض بالفضلات وربما بالقمامة أيضًا، بأشياء لها وقع الحجارة، وأشياء لها وقع البقايا الرخوة الهشَّة. كانت العتمة مطبقة، فلا يعرف المرء إلى أين يمضي أو في أي اتجاه. قد يكون مكانًا مترامي الأطراف أو بالغ الصغر. قد يكون ثمة طريق خروج آخر بخلاف الرواق المُؤدِّي إلى الداخل، وقد لا يكون.

همس صوت آخر:

- هراقليس، تمهَّل. فأنا لا أراك.

كان أكثر الأصوات وَهَنًا يبثُّ فزعًا لا سبيل إلى كبحه.

- هراقليس؟

- هأنذا.

- أين؟

- هنا.

كان اكتشاف حقيقة وجود أحدهم هناك يكاد يقتضي من المرء الصياح.

- ماذا يجري، دياغوراس؟

- أوه، وحق الآلهة...

للحظة دار في خلدي أنه...

ولكنه تمثال.

دنا هراقليس وهو يتلمَّس طريقه، مدَّ يده ومسَّ شيئًا. لو كان وجه كائن حي لغاصت أنامله في العينيْن مباشرةً. تحسَّس الحدقتيْن، وتعرَّف على الأنف المائل، وعلى محيط الشفتيْن المُتموِّج، ونتوء الذقن المشطور. ابتسم قائلًا:

- إنه تمثال. لا بد أن المكان حافل بالكثير منها. فنحن في المَنْحَتِ الخاصّ به.

فأقرَّ دياغوراس قائلًا:

- أنت مُحقّ. فوق ذلك، أكاد أتبيَّن التماثيل بعيني، فقد بدأتا تألفان العتمة.

كان ذلك صحيحًا، فقد بدأتْ حدقتاه تتبيَّنان هيئات بيضاء اللون وسط السواد، وخطوطًا، ومُسودَّات يمكن تمييزها، وكأن فرشاةً ترسمها على مرأى منه. حاصر الغبارُ هراقليس فسعل،

وبخفَّيْه أثار الوَسَخَ المستلقي أسفل قدميْه، مُحدثًا صوتًا يشبه الصوت الناجم عن حركة خزانة ملأى بحبات الخرز. سأل:

- تُرى، أين يكون؟

أما دياغوراس الذي شعر بعدم الارتياح من الغبش الذي لا ينضب وظهور التماثيل البطيء، فقال مُقترحًا:

- لا أظنُّه سيتأخَّر في الحضور...

فقال هراقليس:

- إنه هنا. وإلا، فلِمَ كان سيترك الباب مفتوحًا؟

- مكان في منتهى الغرابة...

- إنه ببساطة مَنْحَت فنان. الغريب في الأمر أن النوافذ موصدة. هيا بنا.

مضيا في سبيلهما. بات الأمر أسهل من ذي قبل. فرويدًا رويدًا، ظهرَت لهما الجُزُر الرخامية، والتماثيل النصفية التي استقرَّتْ فوق أرفف عالية خشبية، والأجساد التي لم تتملَّص من الحجر بعد، ومستطيلات الأفاريز. حتى المكان الذي حوى تلك الأشياء بدأ يظهر للعيان. كان مَنْحَتًا فسيحًا إلى حد كبير، له مدخل في طرف المكان، فيما وراء البهو، وما يبدو أنه أستار أو حُجُب ثقيلة في الطرف المقابل. بدَتْ على أحد الجدران خدوش خلَّفَتْها خيوط من الذهب، ولُطَخ طفيفة برَّاقة تنساب عَبْر خشب المصاريع الهائلة الموصدة. أما التماثيل فكانت مُوزَّعة على مسافات غير منتظمة عَبْر أرجاء المكان كافة، شاخصةً وسط فضلات الفن. وسط الرواسب، والشظايا، والحصى، والأحجار الرملية، والأدوات، والمُخلَّفات، ومِزَق النسيج...

أمام الأستار ارتفعَتْ منصة خشبية كبيرة إلى حد ما، يُمكن بلوغها عَبْر درجات واطئة على الجانبيْن. وفوق المنصة، لاحَتْ ملاءات بيض تحاصرها حاوية نفايات. سرَتْ بين تلك الجدران برودةٌ. ورغم غرابة الأمر، فقد فاحَتْ رائحة الحجارة، رائحة كثيفة على نحو غير مُتوقَّع، وَسِخة، كتلك التي تبلغ

أنف المرء حين يتشمَّم الأرض بقوة حتى يتنشَّق ذرات الغبار الدقيقة الحرّيفة أيضًا.

سأل هراقليس اليونتوري بصوت مرتفع:

- مينيكمو؟

جاء سؤاله متبوعًا بضوضاء عارمةٍ، لا تليق بشبه العتمة المعدنية التي غلَّفَتِ المكان، وبدَّدَتْ الصمتَ كالدخان. كان أحدهم قد أزاح اللوح الذي يسدُّ إحدى النوافذ الواسعة-أقربها إلى المنصّة- وتركه يهوي على الأرض. تسلَّلت إلى القاعة أشعة الظهيرة ساطعة قاطعة، وكأنها لعنة أحد الآلهة، من دون أن يعترض سبيلها شيء، فيما راح الغبار يحوم حولها في سُحُبٍ مرئية، كلسية.

وإذا برجل يقول:

- المَنْحَت يغلق أبوابه في المساء.

ما من شك في وجود باب سرِّي خلف الأستار، إذ لم ينتبه هراقليس أو دياغوراس إلى وصوله.

كان بالغ النحول، يفتقر إلى الهندام، وله مظهر يشي بالمرض. لم يمتدّ الشيب إلى شعره المُجعَّد كاملًا، بل انبثق في خصلات وَسِخة ضاربة إلى البياض. في حين لطَّخَتِ الهالاتُ شحوبَ وجهه. لم تَكُن ثمة تفصيلة واحدة في مظهره قد لا يرغب فنان في مداراتها، اللحية الخفيفة الشعثاء، والمواضع المُمزَّقة عشوائيًّا في ردائه، والخفَّان المهترئان. بدا على يديْه المعروقتيْن السمراويْن عددٌ من الآثار التي خلَّفَتْها شتَّى الحوادث، وكذلك على قدميْه. كان جسمه بأسره أداةً مُستعمَلة. أخذ يسعل، وعبثًا راح يملِّس شعره. طرفَتْ عيناه الداميتان. تجاهل زائريْه اللذيْن أولاهما ظهره، ثم اتَّجه صوب طاولة تكتظُّ بالمُعدَّات قرب المنصة وعكف على اختيار أنسبها للعمل، بحسب ما يبدو (فما من سبيل للتحقُّق من ذلك). تردَّدَتْ ضوضاء معدنية، وكأنه رنين صنوج خارج عن الإيقاع.

قال هراقليس بنعومة لا تشوبها شائبة:

- نحن على علم بذلك، مينيكمو الصالح. وما أتينا لابتياع تماثيلك...

أدار مينيكمو رأسه وحدج هراقليس ببقايا نظرة.

- ماذا أنت فاعل هنا يا كاشف الألغاز؟

فأجاب هراقليس:

- جئتُ لمحاورة زميل. فكلانا فنان، أنت تنحت الحقيقة، وأنا أكشف عنها.

تابع النحَّات عمله على الطاولة، وعكف على تحريك أدواته بحدّة وفي غير تناغم. ثم قال:

- ومَنْ رفيقك؟

رفع دياغوراس صوته في جلال بالغ:

- أنا...

فقاطعه هراقليس:

- إنه صديق. وصدِّقني حين أؤكِّد لك أنه على صلة وثيقة بحضوري هنا. ولكن دعنا لا نهدر المزيد من الوقت...

فأومأ مينيكمو:

- صحيح، إذ يجب عليَّ أن أعمل. لقد كلَّفَتْني أسرة أرستقراطية من إسكامبونيداي بعمل، وينبغي لي الانتهاء منه قبل مضي شهر. بخلاف الكثير من الأشياء...

ومرة أخرى سعل سعالًا وَسِخًا معطوبًا، شأن كلماته.

انصرف عن عمله وعن الطاولة بغتةً-بحركات حادّة متنافرة دومًا- ثم ارتقى أحد الدَرَجيْن المُفضيَيْن إلى المنصّة. قال هراقليس، بودٍّ غامرٍ:

- صديقي مينيكمو، إن هي إلا بضعة أسئلة. سنفرغ منها سريعًا إن ساعدتَني. نريد معرفة إن كانت الأسماء التالية مألوفة لديك: تراماكو بن ميراجرو، وأنتيسو بن يراكسينو، إيونيو بن تريسييو.

وفوق المنصة، كان مينيكمو منشغلًا بإماطة الملاءات عن التمثال، ثم توقَّف.

- ما الدافع وراء سؤالك؟

- أوه، مينيكمو. كيف نفرغ من مهمتنا سريعًا إن أجبتَ كل عن سؤال بسؤال؟ دعنا نباشر حديثنا في نظام. أجبْ عن أسئلتي أولًا، ثم أجيب عن أسئلتك لاحقًا.

- أعرفهم.

- تعرفهم لأسباب مهنية؟

- أعرف الكثير من الإفيبوس في المدينة...

ثم قطع حديثه لإماطة إحدى الملاءات العالقة عن التمثال. كان نافد الصبر، يبذل جهدًا بالغًا في كل حركة من حركاته. بدا وكأنما الأشياء تتحدَّاه. كرَّر المحاولة، فجذب النسيج بحركتيْن مقتضبتيْن، وكأنما يحذِّره أولًا. ثم صرَّ على أسنانه، وثبَّت قدميه على المنصّة الخشبية، وأطلق دمدمة وَسِخة، وجذب بكلتا يديْه. انتزع الملاءة فتردَّدَتْ في المكان ضوضاء وكأنها ناجمة عن كبِّ فضلات، واختلَّتْ حركة سحائب الغبار غير الملموسة.

أما التمثال الذي انكشف أخيرًا، فكان مُعقَّدًا، يجسِّد رجلًا جالسًا إلى طاولة تكتظُّ برقوق البردي. كانت القاعدة غير المكتملة عديمة الشكل كالحجارة الرخامية البكر التي لم يمسسها إزميل بعد. بدا التمثال مُكبًّا على العمل، وقد أولى ظهره لهراقليس ودياغوراس. أما رأسه فلم يبدُ منه سوى قمّته وحسب.

سأل هراقليس:

- هل وقف أمامك أحدهم كي تستلهم منه تمثالًا؟

فجاء رده مقتضبًا:

- في بعض الأحيان.

- ومع ذلك، لا أظنُّ أن كل من تستلهم منهم تماثيلك يشاركون بالتمثيل في أعمالك المسرحية...

كان مينيكمو قد عاد إلى طاولة المُعدَّات وراح يُعِدُّ صفًّا من الأزاميل مختلفة الأحجام. ثم قال من دون أن ينظر إلى هراقليس:

- أترك لهم حرية الاختيار. أحيانًا يُقبِلون على الأمريْن.

- كما فعل إيونيو؟

أدار النحَّات رأسه بحدّة، فدار في خلد دياغوراس أن مينيكمو يسيء لعضلاته كما يسيء أبٌ مخمور لأبنائه. قال مينيكمو، وقد تعلَّقت عيناه بهراقليس كظلّه:

- إن كان هذا مقصدك، فقد علمتُ بما كان من أمر إيونيو لتوّي. وأنا لا أمتُّ بأدنى صلة لنوبة الجنون التي داهمَتْه.

فرفع هراقليس يديْه، باسطًا راحتيْه، وكأنما قد تلقَّى تهديدًا من مينيكمو:

- لم يقُل أحدٌ غير ذلك.

انصرف النحَّات إلى أدواته مُجدَّدًا، فأردف هراقليس:

- بالمناسبة، هل تعلم أن تراماكو وأنتيسو وإيونيو كانوا يشاركون في أعمالك سرًّا؟ لأن مرشدي الأكاديمية يحظرون عليهم المشاركة في المسرح...

ارتفع منكبا مينيكمو الضامران معًا.

- أعتقد بأن شيئًا من هذا القبيل قد نما إلى سمعي. وذلك أغبى ما سمعتُ طيلة حياتي!

قالها ثم ارتقى دَرَج المنصة مرة أخرى على وثبتيْن. صاح:

- ليس هنالك من يستطيع أن يحظّر الفن!

وبإزميله سدَّد ضربة مندفعة شبه عشوائية إلى إحدى زوايا الكتلة الرخامية. ترك الصوتُ الناجم عن الضربة أثرًا موسيقيًّا خفيفًا في الهواء.

فتح دياغوراس فمه وهمَّ بالرد، ولكن يبدو أنه عدّل عن رأيه. فقال هراقليس:

- هل كان يبدو عليهم الخوف خشية افتضاح أمرهم؟

حام مينيكمو حول التمثال وقد ارتسم على وجهه تعبير ينمُّ عن الجهد المبذول، وكأنه يبحث عن زاوية عاصية أخرى في كتلة الرخام كي يُنزل بها عقابه. قال:

- أفترض ذلك. بَيْد أن حياتهم الشخصية لم تكُن تهمُّني في شيء. قدَّمتُ لهم فرصة المشاركة في الجوقة، هذا كل ما في الأمر. أما من جانبهم، فقد قبلوا في صمت. وتعلم الآلهة أنني كنت مُمتنًّا لذلك، فأعمالي التراچيدية لا تدرُّ عليَّ شهرةً ولا مالًا، على عكس تماثيلي، إنما هي للمتعة فحسب. والعثور على من يشارك فيها ليس بالأمر اليسير...

- متى تعرَّفتَ عليهم؟

وبعد برهة صمت، أجاب مينيكمو:

- خلال أسفارنا إلى إليوسيس. فأنا مؤمن بالأسرار المُقدَّسة.

- ولكن علاقتك بهم لم تقتصر على مشاطرة المعتقدات الدينية، أليس كذلك؟

كان هراقليس قد شرع في جولة وئيدة عَبْر أرجاء المَنْحَت، جعل يتوقَّف خلالها من حين إلى آخر كي يتفحَّص عدة تماثيل، بالاهتمام المحدود الذي قد يُبديه أحد رعاة الفنون الأرستقراطيين.

- ماذا تعني؟

- أوه مينيكمو، أعني أنك عشقتَهم...

عندئذ كان كاشف الألغاز في مواجهة تمثال غير مُنجَز يجسِّد هرمِس وهو يمسك بصولجانه، ويعتمر قبعته ذات الحافّة العريضة المستديرة المعروفة باسم ييتاسو، وينتعل خفَّيْه المُجنَّحيْن.

ثم أردف:

- ولا سيما أنتيسو، وفق ما أرى.

وأشار إلى التمثال، الذي لاح في ابتسامته قدر من الخُبث الجميل.

- ماذا عن رأس هذا التمثال الذي يجسِّد ديونيسوس باخوس، المُتوَّج بعناقيد العنب؟ وهذا التمثال النصفي للربة أثينة؟

راح يتنقَّل بين التماثيل واحدًا تلو الآخر، ملوِّحًا بيديه كبائع يودُّ رفع ثمنها.

- أرى أن ربَّات الأوليمي المُقدَّس وآلهته لهم وجه أنتيسو الجميل في هذا المَنْحَت!...

استأنف مينيكمو عمله ساخطًا:

- عُشَّاق أنتيسو كُثْر.

- إلا أنه معبودك أنت. أتساءل كيف تتعامل مع الغيرة. أتصوَّر أن ميلك البيِّن إلى زميل تراماكو وإيونيو لم يرق لهما كثيرًا...

وللحظة، بين دقَّة إزميل وأخرى، بدا مينيكمو وكأنه يلهث بقوة. ولكن ما إن التفت إليهما حتى تبيَّن لهراقليس ودياغوراس أنه كان باسمًا.

- وحقّ زيوس، أتظنُّ أنهم كانوا يكترثون لأمري كثيرًا؟

- أجل، بالأخذ في الحسبان قبولهم التمثيل في أعمالك المسرحية والوقوف أمامك كي تستلهم منهم تماثيلك، ليخرقوا بذلك الوصايا المُقدَّسة التي تلقُّوها في الأكاديمية. أعتقد بأنهم كانوا يضمرون لك الإعجاب، مينيكمو. ومن أجلك كانوا يقفون أمامك عراة أو في ثياب النساء، ومن ثم يسخِّرون عريهم أو ثيابهم المسترجلة لملذاتك بعد الانتهاء من العمل...

على نحو جعلهم عرضة لافتضاح أمرهم وإلحاق الخزي بأسراتهم...

صاح مينيكمو من دون أن تفارقه الابتسامة:

- وحقّ الربة أثينة! هراقليس اليونتوري، أتظنُّ أنني ألقى تقديرًا كبيرًا إلى هذا الحد، رجلًا وفنانًا؟

فأجاب هراقليس:

- مينيكمو الكاريسي، كل الأراضي ملائمة لتضرب فيها الأرواح الشابَّة بجذورها-تلك الأرواح غير المكتملة، مثلها كمثل تماثيلك- ولا سيما الأراضي التي فيها تكثُر الفضلات...

لم يبدُ على مينيكمو أنه ينصت إليه. في تلك اللحظة عكف على نحت بعض الثنايا في ثياب الرجل، بتركيز كبير. كليك. كليك! كليك! وفجأةً شرع في الحديث وكأنه يخاطب الرخام. فتلوَّثَتْ جدران المَنْحَت بأصداء صوته الخشن المُتقلِّب.

- الكثير من الإفيبوس يعتبرونني دليلًا لهم، بالفعل...

هراقليس، أتخال شبابنا في غير حاجة إلى دليل؟ تُرى...

بدا أنه يستعين بغيظه المتنامي لتسديد ضربات أقوى. كليك!

- ... تُرى، أيكون العالَم الذي هم وارثوه عالمًا يبعث على السرور؟ انظرْ حولك!...

انظرْ إلى فنوننا الأثينية...

أي فنون؟...

قديمًا كانت التماثيل مفعمة بالعنفوان. كنا نقلّد المصريين الذين طالما فاقونا حكمةً على الدوام!... كليك!

- والآن، ماذا نحن فاعلون؟ نصمّم أشكالًا هندسية، ونصنع هيئات وفق القواعد المتّبعة بصرامة!...

لقد فقدنا التلقائية، والعنفوان، والجمال! كليك! كليك!

- تقول إني أترك أعمالي غير مكتملة، وقد أصبتَ...

ولكن هل لك أن تتكهّن بالسبب؟...

لأنني عاجز عن إبداع شيء وفق القواعد المتبعة!...

همَّ هراقليس بمقاطعته، إلا أن بداية مداخلته النظيفة غاصت في وحل ضربات مينيكمو وصيحاته.

- وكذلك المسرح!...

في سالف الزمان، كان المسرح حفلًا ماجنًا تشارك فيه الآلهة!...

فماذا فعل به الكاتب المسرحي يوريبيديس؟ لقد صنع منه جدليَّة بخسة تناسب ذائقة عقول النبلاء في أثينا!... كليك!

- فبدلًا من العيد المُقدَّس الذي كانه المسرح، جعله نشاطًا تأمُّليًّا!...

حتى إن يوريبيديس الكهل قد أقرَّ بذلك في أواخر أيامه!

انقطع عن العمل والتفت إلى هراقليس باسمًا:

- ثم بدَّل رأيه على نحو راديكالي...

وكما لو أن عبارته الأخيرة تقتضي منه وقفة، فقد استأنف ضربات الإزميل بقوة أكبر من ذي قبل، فيما تابع:

- يوريبيديس الكهل هجر الفلسفة ونذر نفسه لتقديم مسرحٍ حقيقيٍّ! كليك!

- هل تذكر عمله الأخير؟...

ثم صاح شاعرًا برضا عظيم، وكأنما الكلمة حجر نفيس اكتشفه بين الفضلات فجأةً:

- باخوسيات!...

ثم فرض صوتٌ آخر هيمنته على الحديث:

- باخوسيات! إنه عمل من تأليف مجنون!

التفت مينيكمو إلى دياغوراس الذي راح ينثر صيحاته محمومًا، وكأنما قد بذل جهدًا عظيمًا كي يلزم الصمت حتى هذه اللحظة.

- لقد فقد يوريبيديس قواه العقلية حين طعن في السن، كما يجري للجميع عادةً، فانحطَّ مسرحه إلى حد لا يمكن تصوُّره!..

وبمضي الأعوام، تقوَّضَتِ الدعائم النبيلة التي كان يرتكز عليها روحه العقلاني، الذي كان مُتعطِّشًا إلى البحث عن الحقيقة الفلسفية خلال مرحلة نضجه...

فاستحال عملُه الأخير مكبَّ نفايات نتن الرائحة، تستشري فيه أوبئة النفس وتجري دماء الأبرياء، مثله كمثل أعمال إسخيلوس وسوفوكليس!

ثم حملق في مينيكمو، يتحدَّاه بنظراته، وقد تضرَّج وجهه إثر خطابه المندفع.

بعد صمت وجيز، استفهم النحَّات بنعومة:

- هل لي أن أعرف من هذا الأبله؟

همَّ دياغوراس بالردِّ حانقًا، فاستوقفه هراقليس بإيماءة:

- مينيكمو الصالح، أستميحك عذرًا، فما جئنا هنا للحديث عن يوريبيديس ومسرحه...

دياغوراس، دعني أتابع!...

بالكاد كبح الفيلسوف جماح نفسه. في حين استطرد هراقليس:

- نريد سؤالك عن...

فقاطعه صخب مدوٍّ. كان مينيكمو قد شرع في الصياح وهو يذرع المنصة جيئة وذهابًا، ويشير إلى الرجليْن بالمطرقة الصغيرة من آن إلى آخر، وكأنما يتأهَّب لتسديدها إلى رأسيْهما.

- وماذا عن الفلسفة!...

تذكَّروا هرقليطس!...

«لا وجود بغير تضاد»!...

ذلك ما ذهب إليه الفيلسوف هرقليطس!...

تُرى، ألم تتغيَّر الفلسفة أيضًا؟...

قديمًا كانت الفلسفة قوة، نزوة!...

أما الآن فإلامَ صارت؟...

فكر محض!...

ما الذي كان يستأثر باهتمامنا قديمًا؟...

المادة...

مثال ما ذهب إليه طاليس، وأناكسيماندر، وإيمبيدوكليس...!

قديمًا كنا نفكِّر في المادة! والآن؟ فيمَ نفكِّر الآن؟ ثم أردف بصوت مُشوَّه على نحوٍ غروتسكي:

- في عالَم الأفكار!...

«فالأفكار لها وجود، بالطبع، إلا أنها تعيش في مكان آخر، بعيدًا عنا!...

إنها كاملة، نقية، خيِّرة، نافعة...!».

فهبَّ دياغوراس وهو يقول زاعقًا:

- إنها كذلك! فالأفكار تتَّسم بتلك الصفات، كما أنك تتَّسم بالسوقية، والسفالة، وتفتقر إلى الكمال، و...! صاح هراقليس:

- أرجوك، دياغوراس، اسمح لي بالحديث!

فقال مينيكمو مُتهكِّمًا:

- «لا ينبغي لنا أن نعشق الشباب، أوه، كلا!...

ينبغي لنا أن نعشق فكرة الشباب!...

أن نلثم خاطرة الشفاه، أن نربّت على تعريف الفخذ!...

ينبغي لنا ألَّا نصنع التماثيل، وحق زيوس! فذلك فن سوقي قائم على التقليد!...

فلنصنع أفكار التماثيل!»...

تلك هي الفلسفة التي سوف يرثها الشباب!...

لقد أحسن أرسطوفانيس صنعًا بتسفيه الفلاسفة في مسرحية «السُّحُب»!

راح دياغوراس يزفر، وهو في أوج سخطه.

- كيف تجرؤ على الإدلاء برأيك عمَّا تجهل بهذا القدر من التهاون، أنت...؟

- دياغوراس!

جاء صوت هراقليس حازمًا فسادَ صمتٌ مفاجئ.

- ألم تلاحظ أن مينيكمو يحاول تغيير الموضوع؟ اتركْ لي دفة الحديث نهائيًّا!...

ثم استطرد في هدوء يدعو إلى المفاجأة، مُوجِّهًا حديثه إلى النحَّات:

- مينيكمو، لقد جئنا لسؤالك عن مصرع تراماكو وإيونيو...

قالها بنبرة تكاد تشي بالأسف، وكأنما يعتذر عن التطرُّق إلى مسألة تافهة إلى هذا الحد أمام شخص على قدر عظيم من الأهمية في نظره. وبعد صمت قصير، بصق مينيكمو على أرض المنصة، ثم حكَّ أنفه وقال:

- تراماكو لقي مصرعه إثر تعرُّضه لهجوم الذئاب وهو يصطاد. أما إيونيو، فقد قيل لي إنه ثمِل، فأنشب الإله ديونيسوس أظفاره في عقله وأرغمه على طعن جسمه بالخنجر مرة تلو أخرى...

ما صلتي بذلك؟

ومن فوره أجابه هراقليس:

- صلتك بذلك أنهم كانوا يتردَّدون على المَنْحَت الخاص بك ليلًا ويشاركون في حفلاتك اللاهية الجديرة بالفضول، بمن فيهم أنتيسو. ثم إن ثلاثتهم كانوا معجبين بك ويرضخون لمطالبك الغرامية، في حين أنك آثرت واحدًا منهم فحسب. والأرجح أنهم تجادلوا، وربما تبادلوا التهديدات في ما بينهم، نظرًا لأن الحفلات اللاهية التي تُقيمها في حضور الشباب الإفيبوس لا تحظى بسمعة طيبة، ولم يُرِد أيٌّ منهم افتضاح أمرها...

ثم إن تراماكو لم يخرج للصيد، في حين ظلَّ المَنْحَت الخاص بك مقفلًا يومَ خروجه من أثينا، وليس هنالك مَنْ رآك يومها...

قطَّب دياغوراس حاجبيْه والتفت إلى هراقليس، نظرًا لأنه لم يكُن مُطَّلعًا على النقطة الأخيرة. إلا أن كاشف الألغاز تابع وكأنه يترنَّم بأنشودة شعائرية:

- ثم إن تراماكو، في واقع الأمر، قُتِل أو تعرَّض للضرب حتى فقد وعيه، وبعد ذلك تُرِك تحت رحمة الذئاب...

ثم إن إيونيو وأنتيسو قد حضرا إلى هنا ليلة أمس بعد الانتهاء من تأدية دورَيْهما في عملك المسرحي. ثم إن المَنْحَت الخاص بك هو المكان الأقرب لموضع العثور على جثة إيونيو فجرَ اليوم. ثم إني أعرف حق المعرفة أن إيونيو قُتِل هو الآخر، وأن قاتله اقترف الجريمة في مكان آخر قبل أن ينقل الجثمان إلى موضع العثور عليه لاحقًا. ثم إنه من المنطقي الافتراض بأن المسافة الفاصلة بين الموضعَيْن ليست كبيرة، فلا أحد قد يفكِّر في اجتياز أثينا حاملًا جثة على كاهله.

أطرق برهةً فاتحًا ذراعيْه بحركة تكاد تكون ودية، ثم أردف:

- مينيكمو الصالح، كما لك أن تتأكَّد بنفسك، فإن صلتك بكل ما يجري وثيقة.

بدَتِ التعابير المرتسمة على وجه مينيكمو مستغلقة حتى قد يخالها الناظر ابتسامة. إلا أن نظراته كانت قاتمة. ومن دون أن ينبس، التفت إلى الرخام ببطء، موليًا ظهره لهراقليس، وتابع العمل بضربات مُتمهِّلة من إزميله. عندئذ قال، بصوت جاء مُتفكِّهًا:

- أوه، الاستدلال العقلي! أوه، ما أعجب الاستدلال العقلي، ما أبدعه!

ثم ندَّتْ عنه ضحكة مكتومة وأردف:

- لقد ثَبَتَ ضلوعي في الجريمة بعملية قياس منطقي! بل والأفضل من ذلك، ثَبَتَ ضلوعي فيها بحساب المسافة الفاصلة بين بيتي والأرض الخلاء حيث يعمل الخزَّافون!

ومن دون أن يتوقَّف عن النحت، هزَّ رأسه ببطء ثم عاود الضحك، وكأن عمله أو التمثال يبدوان له جديريْن بالاستهزاء.

- هكذا نبني الحقائق في يومنا الراهن، نحن الأثينيين: من خلال الحديث عن المسافات، وحساب العواطف، وإعمال العقل في الوقائع...!

فقال هراقليس بنعومة:

- مينيكمو...

غير أن الفنان استطرد في حديثه:

- خلال أعوام مقبلة، هل سيكون في الإمكان الجزم بأن مينيكمو هو الجاني استنادًا إلى حساب الأطوال!...

في يومنا الراهن، يسير كل شيء وفق قواعد متبعة. ألم أقُلها مرارًا وتكرارًا؟ بات العدل مُجرَّد مسألة مسافات...

أصرَّ هراقليس بالنبرة نفسها:

- مينيكمو، كيف عرفتَ أن جثمان إيونيو قد عُثِر عليه في الأرض الخلاء حيث يعمل الخزَّافون؟ فأنا لم أقُل شيئًا من ذلك.

فوجئ دياغوراس ببردة فعل النحَّات العنيفة، إذ التفت إلى هراقليس بعينيْن مفتوحتيْن عن آخرهما، وكأنما الأخير نسخة بدينة من تمثال غالاتيا الذي صنعه بجماليون، دبَّتْ فيها الحياة فجأة. وللحظة لم ينبس. ثم صاح ببقايا صوت:

- هل جُنِنت؟ الكل يتداول الخبر!...

إلامَ تحاول أن تلمح بقولك؟...

ومن جديد، لجأ هراقليس إلى نبرته الآسفة الأكثر اتِّضاعًا:

- لا شيء. لا تقلق، فذلك جزء من استدلالي العقلي عن المسافة.

وعندئذ حكَّ رأسه المخروطي وكأنما قد نسي شيئًا:

- يا مينيكمو الصالح، الأمر الذي لم أفهمه تمام الفهم هو لماذا اكتفيتَ بالتركيز على استدلالي العقلي عن المسافة وليس على استدلالي العقلي عن احتمال مقتل إيونيو على يد أحدهم؟ رغم أنها فكرة أكثر غرابة بكثير، بحقّ زيوس، وليس هنالك من يتداولها، بلا شك. ومع ذلك، فما كدتُ أشير إليها حتى بدا أنك تقرّ بها عن طيب خاطر. فشرعتَ تنتقد استدلالي العقلي عن المسافة، غير أنك لم تسألني: «هراقليس، لماذا أنت متأكِّد من مقتل إيونيو إلى هذا الحد؟»...

لم أفهم ذلك، في حقيقة الأمر.

لم يشعر دياغوراس بأدنى شفقة تجاه مينيكمو. وإن لاحظ كيف راحَتْ تُغرقه الاستنباطات القاسية التي ساقها كاشف الألغاز في حيرة مطلقة، شيئًا فشيئًا، وتوقعه في شراك كلماته المحمومة، على نحو أشبه بما تفعله بحيرات العَفَن التي كلما جاهد المرء للخلاص منها بالالتواءات والحركات العنيفة، ابتلعَتْه بسرعة أكبر (وذلك طبقًا لشهادات مسافرين كُثُر سبق لدياغوراس الحديث إليهم). وفي خضم الصّمت الكثيف الذي تبع قوله، أراد أن يضيف تعقيبًا فارغًا على سبيل الاستهزاء، ليؤكِّد انتصاره على ذلك الوحش الضاري. فقال بابتسامة ساخرة:

- تمثال بديع هذا الذي تعمل عليه، مينيكمو. مَنْ يجسِّد؟

للحظة ظنَّ أنه لن يتلقَّى جوابًا. ثم لاحظ أن مينيكمو يبتسم، فكان ذلك كافيًا لإثارة الاضطراب في نفسه.

- يُدعَى المترجم. الرجل الذي يسعى لكشف لغز وارد في نصٍّ مكتوب بلسان آخر، وهو لا يدرك أن الكلمات لا تُفضي سوى إلى كلمات جديدة، والخواطر إلى خواطر جديدة، أما الحقيقة فتظلُّ عصيّة على البلوغ. أليس تشبيهًا جيدًا بما نفعله جميعًا؟

لم يفهم دياغوراس مقصد النحَّات جيّدًا. ومع ذلك فقد عقَّب قائلًا، رغبةً منه في حفظ ماء الوجه:

- تمثال يدعو إلى الفضول. أي ثوب يرتدي؟ لا يبدو ثوبًا إغريقيًّا...

لم يُجِر مينيكمو جوابًا. بل جعل يراقب عمله باسمًا.

- هل لي أن أراه عن كثب؟

فأجابه مينيكمو:

- أجل.

دنا الفيلسوف من المنصّة وارتقى أحد الدَّرَجيْن. تردَّد صدى خطاه فوق الخشب الوَسِخ. دنا من التمثال وجعل يراقب منظره الجانبي.

كان التمثال الرخامي يُجسِّد رجلًا مُكبًّا على الطاولة، ممسكًا بريشة دقيقة بين السبابة والإبهام، وقد أحاطَتْ به رقوق البردي من كل صوب. تساءل دياغوراس: «أي ضرب من الثياب يرتدي؟». كان صنفًا من الأردية المشدودة على الجسم بإحكام...

من الجلي أنها ثياب أجنبية. تأمَّل العنق المائل، ونتوء الفقرات الأولى، وخصلات الشعر الكثيفة على جانبي الرأس، والأذنيْن، وشحمتي الأذن الغليظتيْن للغاية (كان مُتقَن الصنع، وجب الإقرار بذلك)...

لم يتهيَّأ له أن يرى الوجه بعد، إذ كان التمثال مطأطأ الرأس أكثر مما ينبغي. فطأطأ دياغوراس رأسه هو الآخر قليلًا. جعل يراقب صدغيْه حيث ينحسر الشعر على نحو جلي، ومواضع الصلع المُبكِّر...

وفي الوقت نفسه، لم يملك إلا الإعجاب بيديْه المعروقتيْن، الضامرتيْن. أمسكَتْ يمين التمثال بساق الريشة، في حين استراحَتْ يساره وقد اتجهَتْ راحتها إلى الأسفل لتساعد على فرد الرق حيث راح يكتب. أما الإصبع الوسطى فكانت مُزيَّنة بخاتم غليظ يتوسَّطه خَتْمٌ على هيئة دائرة. ثمة برديَّة مفرودة قرب اليد نفسها. لا شك أنه النصّ الأصلي. أخذ الرجل يخطُّ ترجمته على الرق. حتى إن حروف الترجمة بدَتْ منقوشة بمهارة لا تشوبها شائبة! استأثر الأمر باهتمام دياغوراس، فأطلَّ من فوق كتف التمثال وقرأ الكلمات التي يُفترَض أن المترجم قد «ترجمها» من فوره. لَمْ يعرف ماذا قد تعني تلك الكلمات، التي جاءت كما يلي:

«لَمْ يعرف ماذا قد تعني تلك الكلمات، التي جاءت كما يلي».

ورغم ذلك، لم يكُن قد رأى وجه التمثال بعد. فمال برأسه أكثر قليلًا ليتأمَّله[88].

كانت قسمات وجهه... [89].

قال هراقليس وهما خارجان من المَنْحَت:

- رجل بالغ الحذق. يترك العبارات غير مكتملة، شأنها شأن تماثيله. ويتطبَّع بطباع مُنفِّرة حتى نسدَّ أنفيْنا ونعود أدراجنا، ولكني على يقين أنه يعرف كيف يخلب ألباب تلاميذه.

سأل دياغوراس:

- أتظنُّ أنه هو...؟

- دعنا لا نتعجَّل. حتى وإن بعُدَتِ الحقيقة، فإنها تترقَّب وصولنا إليها بصبر لا نهائي. قبل كل شيء، أودُّ أن أحظى بفرصة للحديث مع أنتيسو مُجدَّدًا...

- ما لم أكُن مخطئًا، فلسوف نلقاه في الأكاديمية. اليوم يُقام عشاء على شرف أحد مدعوي أفلاطون، وسيكون أنتيسو بين السُّقاة.

فابتسم هراقليس اليونتوري:

- عظيم. دياغوراس، أعتقد أن الوقت قد حان للتعرُّف على أكاديميتك[90].

الفصل السابع

إن بداية الطريق المفضية إلى مدرسة الفلسفة، أي الأكاديمية، لا تعدو أن تكون حارة ضيِّقة مُتفرِّعة عن الدرب المُقدَّس بُعَيْد بوابة دييبلون. يطويها المسافر فلا يرى فيها شيئًا مُميَّزًا. ذلك أنها تتخلَّلُ دغلًا من أشجار الصنوبر الباسقة ذات الأطراف الملتوية الحادة في آن كما الأنياب، على نحو يحسُّ المرء معه بأنه، في لحظة بعينها، سينتهي به المسير إلى أيكة عصية على الاختراق لا تُفضي إلى أي مكان. ولكن ما إن يترك المرء خلفه المنعطفات الأولى ويطوي تلك الرقعة القصيرة على كثافتها، الرقعة التي تنتشر فيها الأحجار والنباتات ذات الأوراق الملتوية كالأنياب،

حتى ينتبه إلى الواجهة الرائقة التي تتصدَّر البناء الرئيسي. والبناء على هيئة مُكعَّب عاجيّ وُضِع بعناية فوق تلّ صغير. بعد قليل، تتَّسع الطريق بشيء من الخيلاء. ثمة رواق عند المدخل. ليس يُعرَف على وجه اليقين مَنْ أراد النحَّات أن يصوِّر بالوجهيْن العاجييْن كالأنياب اللذيْن يتأمَّلان وصول المسافر في صمت متناسق من مقصورتَيْهما. يجزم البعض أنهما يمثِّلان الحقيقة والبُهتان، في حين يجزم البعض الآخر أنهما يمثِّلان الجمال والخير، أما الأقلية-وربما الأوفر حظًّا من الحكمة- فتجزم أنهما لا يمثِّلان أحدًا، بل إنهما قد وُضِعا على سبيل الزينة وحسب، فلا بد من وضع شيء في هاتين المقصورتيْن في خاتمة المطاف.

وفي الرُّقعة الواقعة بينهما، ثمة نقش مُؤطَّر بخطوط ملتوية، ورد فيه الآتي: «لا يدخلها إلا عالِم بالهندسة». وفي ما وراء ذلك، تقوم بساتين أكاديموس البديعة التي تحفُّها الدروب المُتشعِّبة. يتوسَّط تمثال البطل ساحةً صغيرة، حيث يبدو وكأنه يطلب من الزائر أن يُبدي الاحترام اللائق، فيقف مادًّا يده اليسرى، مُشيرًا بسبابته إلى الأسفل، والرمح في يده الأخرى، بينما تطلُّ عيناه من شقِّ الرؤية في خوذته ذات الشعر الشائك كالأنياب. وعلى مقربة من الغابة، تتبدَّى عمارة الأكاديمية بما لها من مهابة رخامية. تمتلك المدرسة مساحات مفتوحة تقع بين أعمدة بيضاء لها سقوف مُسنَّنة ضاربة إلى الحمرة حيث تُقام الدروس الصيفية، فضلًا عن مكان مُسيَّج يلوذ به التلاميذ والمرشدون حين يكشر البرد عن أنيابه. أما الچيمنازيوم فيشتمل على التجهيزات اللازمة كافة، وإن لم يكُن في ضخامة چيمنازيوم لوقيون. أما الأبنية الأكثر تواضعًا، فتضمُّ صوامع بعض المُعلِّمين ومحل عمل أفلاطون.

حين وصل هراقليس ودياغوراس، كان الشفق قد أرسل رياحًا شمالية شائكة ماجَتْ لها الأغصان الملتوية على قمم الأشجار.

ما كادا يتجاوزان الرواق الأبيض، حتى استطاع كاشف الألغاز أن يلاحظ التغيُّر التام الذي طرأ على مسلك رفيقه وحالته المعنوية. يمكن القول إنه كان يشبه كلب صيد يتشمَّم الطريدة، إذ جعل يرفع رأسه ويُكثر من مسح شفتيْه بلسانه. أما لحيته التي دَرَج على تهذيبها، فقد بدَتْ حينها شائكة. بالكاد راح يصغي إلى هراقليس ويكتفي بالإيماء من دون أن ينظر إليه، أو يهمهم بكلمة «أجل» ردًّا على تعليق بسيط منه، أو يجيب على أسئلته بقوله «انتظرْ لحظة» (رغم أن هراقليس لم يُكثِر من الحديث، كما هي عادته). أدرك هراقليس بالبداهة حرصَ دياغوراس على أن يُبدي له ذلك المكان بوصفه الأكمل بين سائر الأمكنة، ومُجرَّد التفكير بأن شيئًا قد يسير على غير ما يُرام يكدِّر صفوه على نحو لا يملك له دفعًا.

خوَتِ الساحة الصغيرة، في حين بدا بناء المدرسة مهجورًا، وإن لم يستأثر شيء من ذلك باهتمام دياغوراس الذي قال:

- من عادتهم الخروج في جولات قصيرة عَبْر البساتين قبل العشاء.

وبغتةً شعر هراقليس بردائه يلتوي على إثر جذبة عنيفة. في حين أشار الفيلسوف إلى موضع معتم في المتنزه قائلًا:

- ها هم مقبلون.

ثم أردف بتفخيم نشوان:

- وها هو أفلاطون!

وعبر الدروب المُتشعِّبة دنا رَهْط من الرجال، كلهم يغطِّي كتفيْه برداء هيماتيون[91] قاتم، من دون تونيك أو خيتون بالأسفل. بدوا وكأنهم قد تعلَّموا فن السير على طريقة البط، فمضوا في صفٍّ واحد، من الأطول إلى الأقصر. كانت رؤيتهم وهم يتحدَّثون ويسيرون صفًّا واحدًا في آنٍ مدعاةً للذهول، حتى ظنَّ هراقليس أن لكل منهم رقمًا مرصودًا، على نحو يُعرَف معه بدقة متى يحين دور كل واحد في الإدلاء بقوله أو الردّ. لم يحدث أن قاطع أحدهم الآخر قط، فما إن يسكت الثاني عن الحديث، حتى يردَّ الرابع. أما الخامس، فيبدو وكأنه يعرف بالبداهة متى يختتم الرابع كلماته، بما لا يدع مجالًا للخطأ، فيدلي بمداخلته عند تلك النقطة. تردَّدَتْ ضحكاتهم كورالية. علاوةً على ذلك، فقد تراءى لهراقليس أن الجميع يوجِّه حديثه إلى الأول-أفلاطون- حتى وإن لم يشيروا إليه صراحةً، على الرغم من صمته. ولكي يتحقَّق لهم ذلك، كانت أصواتهم تعلو على نحو تدريجي ومتناغم، مِنْ صاحب الصوت الأكثر انخفاضًا-الثاني- إلى صاحب الصوت الأعلى-السادس-، أما أخيرهم وأقصرهم قامةً فكان يصيح عاليًا، وكأنما ليتأكَّد أن الأول يسمعه بوضوح. في المجمل، كان المشهد يستدعي إلى الأذهان صورة قيثارة مُتحرِّكة.

سار الرهط في خطٍّ ملتوٍ عَبْر البستان، فأخذ يدنو أكثر فأكثر مع كل منعطف يتجاوزه. وبمصادفة غريبة، ظهر لحظتها جمع من الفتيان خارجًا من الجيمنازيوم، بعضهم عراة تمامًا وبعضهم يرتدي تونيك قصيرًا. ما إن لمحوا صفَّ الفلاسفة حتى توقفوا عن جلبتهم.

تلاقى الجمعان في الساحة الصغيرة. وللحظة تساءل هراقليس عما كان سيراه مُراقِبٌ افتراضي يطلُّ على المشهد من مكانه في السماء: صفّ الفتيان وصفّ الفلاسفة يدنو أحدهما من الآخر حتى يتلاقيا عند رأس الزاوية...

ربما صنعا بلقائهما مُثلَّثًا تامًّا (ضلعُه السُّفلي سياج البستان) يشبه حرف دلتا باللسان الإغريقي؟

أشار إليه دياغوراس كي يدنو. شقَّ طريقه برفقة هراقليس وصولًا إلى الفيلسوف العظيم، وقال في إجلال:

- يا مُعلِّم أفلاطون! يا مُعلِّم أفلاطون! أقدِّم لك هراقليس، من ديموس يونتور. كان توَّاقًّا للتعرُّف على المدرسة، فخطر لي أنه لا مانع من دعوته الليلة...

فأجابه أفلاطون بدماثة، بصوت خفيض بديع:

- إطلاقًا، دياغوراس. ما لم يُمانع هراقليس.

ثم التفت إلى كاشف الألغاز ورفع يده مُحيِّيًا:

- نزلت أهلًا، هراقليس اليونتوري.

- أنا ممتنٌّ لك، أفلاطون.

اضطرَّ هراقليس -شأنه في ذلك شأن الكثيرين- أن يرفع بصره لمخاطبة أفلاطون ذي القامة الفارعة، والمنكبيْن القويَّيْن، والجذع الصلب الذي بدا وكأن تيار الصوت المُفضَّض ينساب من خلاله. وعلى الرغم من ذلك، فقد لاح شيء في طباع الفيلسوف ذائع الصيت جعله يشبه طفلًا حبيسًا داخل حصن. ربما كانت دهشته الودود شبه الدائمة. إذ كان من عادة أفلاطون كلما تحدَّث أو أنصت إلى حديث أحدهم، أو بمُجرَّد استغراقه في التأمُّل، أن يفتح عينيْه الهائلتيْن الرماديتيْن عن آخرهما، عينيْه اللتيْن تظلِّلهما أهداب ملتوية، ويرفع حاجبيْه إلى درجة تكاد تكون هزليَّة، أو يقطِّبهما بشدة. حتى يكاد يشبه كائن الساتير كثّ الحاجبيْن. كان ذلك يسبغ على وجهه تعبير رجل تلقَّى عضةً في ردفه من دون سابق إنذار. مِنْ عادة معارفه الجزم أن دهشته غير مشروعة، ذلك أنه كلما قلَّ اهتمامه بشيء، زادت أمارات الدهشة البادية عليه.

وفي حضرة هراقليس اليونتوري، بدَتْ على أفلاطون أمارات الدهشة البالغة.

شرع الفلاسفة يدخلون إلى بناء المدرسة بالترتيب، بينما جعل الطلاب يترقَّبون دورهم. أما دياغوراس فقد استوقف هراقليس قائلًا:

- لستُ أرى أنتيسو. لعلَّه ما زال في الچيمنازيوم و...

ثم قطع حديثه وهمهم فجأة:

- أوه، وحق زيوس...

نظر كاشف الألغاز في الاتجاه نفسه.

كان ثمة رجل يسير وحيدًا، ويدنو عَبْر طريق المدخل. ما كان مظهره يقلُّ مهابة عن مظهر أفلاطون. ومع ذلك، فقد اجتمعَتْ له فوق ذلك سمة وحشية تميِّزه عن الأخير، على ما يبدو. مضى يهدهد بين ذراعيْه الهائلتيْن كلبًا أبيض مُشوَّه الرأس. وعندئذ قال كرانتور باسمًا، دمثًا:

- دياغوراس، لقد قرَّرتُ قبول دعوتك في خاتمة المطاف. أعتقد بأننا سنقضي سهرةً مؤنسة[92].

قال إيودوكسوس:

- يا مُعلِّم أفلاطون، فيلوتِكستو يقدِّم لك تحياته، ويضع نفسه رهن إشارتك. لقد سافر بمقدار ما سافرتَ، وأؤكِّد لك أن حديثه لا تشوبه زيادة...

فأردف بوليكليتوس:

- كاللحم الذي تذوَّقناه اليوم.

تعالت الضحكات، وإن كان الجميع يعرف أن التعليقات التافهة أو الشخصية التي غلبَتْ على الاجتماع حتى تلك اللحظة، ينبغي لها أن تفسح الطريق أمام المحاورة التأمُّلية وتبادل الآراء المُثمر، من أقصى البهو إلى أقصاه، كما في أي لقاء ملائم. جلس النُّدَمَاء في دائرة مُتَّكئين على أرائك وثيرة، فيما راح الطلاب يقدِّمون لهم الشراب كما يفعل العبيد المثاليون. لم يولِ أيٌّ من الندماء حضورَ كاشف الألغاز من الاهتمام الكثير، ذلك الحضور الصامت برغم ما ينطوي عليه من سُمعة رديئة. إذ كانت مهنته ذائعة الصيت، وإن ارتأتِ الغالبية العظمى أنها مهنة سوقية.

جعل الحضور يتقصُّون أمر شخصيْن بلهفة متزايدة. أولهما فيلوتِكستو الخيرسونيسي، صديق المرشد إيودوكسوس، الكهل الضئيل الغامض الذي توارَى وجهه في البهو شبه المعتم ذي المصابيح القليلة، وثانيهما الفيلسوف كرانتور اليونتوري، «صديق المرشد دياغوراس» طبقًا لما قال بنفسه، ذلك الذي وصل أثينا حديثًا عقب رحلة طويلة يترقَّب سائر الحضور أن يسرد عليهم وقائعها بنفاد صبر. أما الآن وقد جعلَتِ الألسُن تتلوَّى وتتحرَّك في غير كلل لتنظيف الأنياب الحادة من بقايا اللحم-البقايا التي ستذوب لاحقًا مع رشفات النبيذ العطري الذي يترك في الحلق خشونة-، فقد حان الوقت لإشباع الفضول الذي أثاره هذان الزائران.

استطرد إيودوكسوس في حديثه، فقال مخاطبًا أفلاطون:

- فيلوتِكستو كاتب، وهو ملمٌّ بمحاوراتك ومعجب بها. علاوةً على ذلك، يبدو أن الإله أيولُّو قد أنعم عليه بقدرات تنبوئية مثله كمثل أوراكل دِلفوي...

إذ تتمثَّل له رؤى...

ويؤكِّد أنه رأى عالَم المُستقبل، وأن ذلك العالَم يقوم على نظرياتك، في بعض المناحي...

مثال ما تنادي به من مساواة في العمل بين الرجال والنساء...

تدخَّل يوليكليتوس مُجدَّدًا، مُتظاهرًا بكدر عظيم:

- وحقّ زيوس بن كرونوس! دعني أحتسي المزيد من النبيذ قبل أن تلتحق النساء بالجندية...

وحده دياغوراس لم يشاطرهم المجاملات المُتبادلة بين عموم الحاضرين، إذ كان يتوقَّع أن ينفجر كرانتور بين لحظة وأخرى. أراد أن يخبر هراقليس بذلك، بصوت خفيض، فلاحظ أن كاشف الألغاز لم يندمج في أجواء المُلتقى هو الآخر، على طريقته، فمكث على أريكته بلا حراك، ممسكًا بكأس النبيذ بيسراه المكتنزة من دون أن يحسم أمره بشأنها بعد، فلا هو ترك الكأس على الطاولة ولا حملها إلى شفتيْه. بدا وكأنه تمثال لطاغية بدين مُستلقٍ على أريكته. في حين أطلَّتْ عيناه الرماديتان مفعمتيْن بالحياة. إلامَ راح ينظر؟ تأكَّد دياغوراس أن كاشف الألغاز لم يحوِّل ناظريْه عن أنتيسو في روحاته وغدواته.

كان الفتى الذي ارتدى ثوبًا أزرق مفتوحًا في خبث عند الجانبيْن قد نُصِّب كبير السُّقاة، وزيَّن شعره المُجعَّد الأشقر الشائك بإكليل الغار على جري العادة، فيما تدلَّتْ من فوق كتفيْه العاجيتيْن جديلة من الأزهار. في تلك اللحظة راح يصبُّ النبيذ لإيودوكسوس، يليه هاريوكراتيس، يليه باقي النُّدَمَاء، مُتَّبِعًا نظام أسبقية صارمًا.

سأل أفلاطون:

- وماذا تكتب، فيلوتِكستو؟

فأجابه الكهل الضئيل من موضعه الظليل:

- كل شيء...

الشعر، والتراجيديا، والكوميديا، والأعمال النثرية، والملاحم، وألوان أخرى من الأدب غاية في التنوُّع. فقد ترفَّقَتْ بي ربات الفن ولم يضعن في سبيلي من العقبات الكثير. ومن ناحية أخرى، فعلى الرغم من إشارة إيودوكسوس إلى «رؤاي» المزعومة، بل ومقارنتي بأوراكل دِلفوي، تنبغي لي مصارحتك بأنني لستُ «أرى» المستقبل، أفلاطون، بل أبتدعه. ذلك أنني أكتبه، الأمر الذي يوازي عندي ابتداعه. فأنا أتصوَّر عوالم مغايرة، وأصواتًا تُحدِّثنا من عصور أخرى، من الماضي أو المستقبل، في سبيل المتعة المحضة. وبالانتهاء من إبداعاتي، أقرأها وأجد أنها حسنة. أما إن كانت رديئة، الأمر الذي يحدث أيضًا، فألقي بها في سلة المهملات، وأشرع في غيرها.

وبعد القهقهات المقتضبة التي قوبلَتْ بها عباراته الأخيرة، أردف قائلًا:

- صحيح أن أيولُّو ينعم عليَّ أحيانًا باستنباط ما قد يكون عليه المستقبل. في واقع الأمر، لديَّ انطباع بأن الرجال والنساء سوف يمتهنون الوظائف نفسها في خاتمة المطاف، كما أوعزتَ أنت في محاوراتك. وعلى الرغم من ذلك، في اعتقادي أنه لن يكون ثمة وجود للحكومات الرائعة أو الحُكَّام «الذهبيين» الذين يعملون من أجل مصلحة المدينة...

فسأل أفلاطون بفضول صادق:

- ولمَ؟ من العسير أن تتواجد حكومات كتلك في الزمن الحالي، صحيح...

ولكن، في المستقبل البعيد، بعد مضي مئات أو آلاف الأعوام...

لمَ لا؟

فأجاب فيلوتِكستو:

- لأن الإنسان لم ولن يتغيَّر أبدًا، أفلاطون. مهما آلمنا الاعتراف بذلك، فالبشر لن يسترشدوا بالأفكار الخفيّة المثاليّة، ولا بالاستدلال المنطقي، بل بنزواتهم، وبرغباتهم غير العقلانية...

اندلع جدل مفاجئ. فقاطع الحضور بعضهم بعضًا في لهفة على الإدلاء بمداخلاتهم. بَيْد أن صوتًا طغى على باقي الأصوات، وقال بلكنة خشنة ملتوية:

- أتَّفق مع هذا الرأي.

التفتَتِ الوجوه إلى كرانتور. في حين سأل إسبيوسيبوس (أحد المرشدين الأوفر حظًّا من التوقير، إذ يفترض الجميع أنه وارث إدارة الأكاديمية بعد وفاة أفلاطون):

- ماذا تعني، كرانتور؟

- إنني أتَّفق مع هذا الرأي.

- مع أي شيء تتَّفق؟ مع قول فيلوتِكستو؟

- أجل.

أغمض دياغوراس عينيْه وأخذ يبتهل في صمت.

- إذًا، فأنت تعتقد بأن الإنسان لا يسترشد بحضور الأفكار الجليّ، بل بنزوات غير عقلانيّة؟ وبدلًا من الإجابة على سؤاله، قال كرانتور:

- إسيبوسيبوس، بما أن الأسئلة السقراطية تروقك إلى هذا الحد، فسأطرح عليك واحدًا. لو اضطررتَ للحديث عن فنِّ النحت، فهل تضرب مثلًا بنقش بديع مرسوم على أمفورة ويمثِّل فتًى شابًّا، أم بتمثال بشع تالف مصنوع من الطين ويجسِّد كهلًا يحتضر؟

فأجاب إسيبوسيبوس، من دون أن يتجشَّم عناء مداراة الاستياء الذي أثاره السؤال في نفسه:

- كرانتور، في المعضلة التي تذكرها، لم تترك لي خيارًا باستثناء التمثال المصنوع من الطين، بالأخذ في الاعتبار أن الآخر رسم وليس تمثالًا.

فابتسم كرانتور:

- إذًا، دعنا نتحدَّث عن تماثيل الطين، لا عن الرسوم البديعة.

أما الفيلسوف ذو البنية القوية، الذي طفق يتجرَّع رشفات طويلة من النبيذ، فبدا بعيدًا كل البعد عن التوقُّعات المعقودة عليه. في حين قبع كيربيروس، الكلب الأبيض المُشوَّه، عند قوائم الأريكة، حيث أتى على بقايا طعام سيّده مصدِرًا همهمة صاخبة لا تكلّ. قال إسيبوسيبوس:

- لم أفهم مقصدك تمام الفهم.

- وأنا لم أقصد شيئًا.

عضَّ دياغوراس شفتيْه لئلا يتدخَّل في الحديث، علمًا منه أنه لو فعل لتفتَّت تناغم اللقاء كما يتفتَّت الكعك المُحلَّى بالعسل بين الأنياب.

تدخَّل المرشد هاريوكراتيس قائلًا:

- بحسب اعتقادي، كرانتور يقصد أن البشر مُجرَّد تماثيل من الطين ليس إلا...

فسأل إسيبوسيبوس:

- هل تعتقد ذلك حقًّا؟

ندَّتْ عن كرانتور إيماءة مبهمة.

فأردف إسيبوسيبوس:

- أمر جدير بالفضول، كل هذه الأعوام التي قضيتَها مسافرًا عَبْر أراضٍ نائية...

وما زلتَ حبيس كهفك. أفترض أنك ملمٌّ بأسطورة الكهف، أليس كذلك؟ تتطرَّق الأسطورة إلى سجين يقضي حياته في كهف وهو يتأمَّل ظلالًا متساقطة عن أشياء وعن كائنات واقعية، حتى ينال حرّيته فجأةً ويخرج إلى ضياء الشمس...

فيدرك أنه لم يكن قد رأى سوى خيالات، وأن الواقع أجمل وأعقد كثيرًا مما دار بمخيلته...

أوه، كرانتور، يحزُّ في نفسي أنك ما زلتَ سجينًا، لم تتبيَّن عالَم الأفكار النيِّر بعد![93].

وبغتةً هبّ كرانتور واقفًا بسرعة صاعقة، وكأنما قد انتابه سأم، من المجلس أو باقي النُّدَمَاء أو الحديث. كانت حركته من الحدَّة حتى انتبه هييسيييلو (مرشد كثير الشبه بهراقليس اليونتوري، بالأخذ في الحسبان استدارات جسمه المكتنز شحمًا)، واستيقظ من النوم الذي غالبه منذ شروعهم في احتساء النبيذ، فكاد يسكب كأسه فوق إسيبوسيبوس ذي الثياب التي لا تشوبها شائبة. وعلى نحو خاطف تساءل دياغوراس: «بالمناسبة، أين هراقليس اليونتوري؟». فقد خلَتْ أريكته منه، إلا أن دياغوراس لم يلمحه وهو ينهض من مكانه.

عندئذ قال كرانتور:

- تحسنون الكلام كثيرًا.

وبابتسامة ملتوية مطَّ لحيته السوداء الشائكة.

ثم شرع يحوم حول دائرة النُّدَمَاء. ومن آن إلى آخر، جعل يهزُّ رأسه ويطلق ضحكة مقتضبة، وكأنه يجد الموقف برمّته بالغ الطرافة. قال:

- كلماتكم لا تنضب، على عكس اللحم طيّب المذاق الذي قدمتموه لي اليوم...

أما أنا، فقد نسيتُ فنَّ الخطابة، إذ عشتُ بأمكنة لا لزوم فيها للخطابة...

وعرفتُ فلاسفة كُثُرًا ممن تقنعهم العاطفة بأكثر ما يفعل الخطاب...

وغيرهم ممن لا سبيل إلى إقناعهم بشيء، فما كانت لديهم آراء يمكن الإعراب عنها، أو فهمها، أو إبداؤها، أو دحضها بالكلمات، بل إنهم يكتفون بالإشارة بأصابعهم إلى السماء الليلية بما معناه أنهم غير عاجزين عن الكلام، بل يتحاورون كما تفعل الأنجم فوق رؤوسنا...

ما انفكَّ يحوم حول الطاولة، وإن أمسَتْ نبرة صوته أكثر قتامة.

- كلمات...

تتحدَّثون...

أتحدَّث...

نقرأ...

نكشف طلاسم الحروف...

بينما نلوك الطعام...

نشعر بالجوع...

أليس كذلك؟[94] تستقبل معدتنا الغذاء...

نزفر ونَنْخُرُ...

ننشب أنيابنا في قطع اللحم الملتوية...

وفجأةً، قطع حديثه ليقول مُشدِّدًا على كلماته بقوة:

- لاحِظْ أنني قلتُ «أنياب» و«ملتوية»![95]

لم يفهم أحدٌ مَنْ يعنيه كرانتور بتلك العبارة مِنْ بين الحضور. وبعد برهة صمت، استأنف خطابه وطوافه حول الطاولة:

- أكرِّر، إننا ننشب أنيابنا في قطع اللحم الملتوية، نحرِّك أيدينا رافعين كؤوس النبيذ إلى شفاهنا، تقشعرُّ أبداننا فتصبح شعورنا شائكةً حين تهبُّ دفقات الرياح، تنتصب أعضاؤنا إذ تتنشَّق شذى الجمال، وأحيانًا ينتاب الكسل أمعاءنا...

الأمر الذي يمثِّل مشكلة، أليس كذلك؟ اعترفْ بذلك[96]...

أحسَّ هيبسيبيلو بأنه المعنيُّ بالحديث، فقال:

- صدقت! فأنا لم أقضِ حاجتي بسلاسة منذ أعياد الثيسموفوريا الأخير...

أسكته مرشدون آخرون في سخط. بينما استطرد كرانتور:

- لدينا أحاسيس...

أحاسيس، يستحيل تعريفها أحيانًا...

ولكن، ما أكثر الكلمات الجاثمة فوقها!...

كيف نبدِّل بها الصور، والأفكار، والعواطف، والوقائع!...

أوه، إن هذا العالَم لنهر دفَّاق من الكلمات! كم انجرفنا معها!...

إن كهفكم، أسطورتكم النفيسة...

لا تعدو كونها كلمات...

سأقول لكم شيئًا، وسأقوله بالكلمات، ثم أعود إلى صمتي. إن كل ما نفكِّر فيه وما سوف نفكِّر فيه، ما نعرف وما سوف نعرف في المستقبل، كل شيء على الإطلاق، يمثِّل كتابًا بديعًا نشترك في كتابته وقراءته! وفيما نحن نجاهد لكتابة ذلك الكتاب وكشف طلاسمه...

فإن أجسادنا...

ماذا؟...

أجسادنا تطالبنا بأمور...

ينال منها الإعياء...

والجفاف...

إلى أن تذوي في خاتمة المطاف...

أطرق برهةً. مطَّ وجهه العريض بابتسامة تشبه قناعًا أرسطوفانيًّا[97]، ثم أردف:

- ولكن...

أوه، أي كتاب جدير بالاهتمام! أي كتاب مُسلٍّ، وكم يحوي من الكلمات! حقًّا؟

فرغ كرانتور من الحديث فخيَّم صمت كثيف[98].

أما كيربيروس، الذي قبع عند قدمي سيده يتابع حديثه، فقد أطلق نباحًا مهتاجًا فيما أبدى أنيابه الحادّة ونفش شعر ذنبه الشائك وكأنما يسائل كرانتور عما هو فاعل بعد ذلك. مال كرانتور كأبٍ حانٍ صرفه الحديث مع الكبار، ولا يغضبه إلحاح ابنه الصغير، وحمل كيربيروس بين يديْه الهائلتيْن إلى الأريكة كما لو كان خُرْجًا صغيرًا ضاربًا إلى البياض، أحد طرفيْه ممتلئ والآخر شبه خاوٍ. واعتبارًا من تلك اللحظة، بدا أنه قد فقد اهتمامه بكل ما يجري من حوله وانصرف إلى مداعبة الكلب. قال إسبيوسيبوس:

- كرانتور يلجأ إلى الكلمات من أجل انتقادها. كما ترون، فهو يكذِّب نفسه بنفسه خلال حديثه.

فقال فيلوتِكستو مُعقِّبًا، من مكانه وسط الظلال:

- يروقني أمر الكتاب الذي يجمع سائر خواطرنا. تُرى، هل يمكن وضع كتاب مماثل؟

أطلق أفلاطون قهقهة مقتضبة.

- كم جليٌّ أنك كاتب ولستَ فيلسوفًا! لقد كتبتُ أنا أيضًا في ما مضى...

ولذا أميِّز بين الأمريْن بوضوح.

فأجابه فيلوتِكستو:

- ربما كان كلاهما واحدًا، فأنا أبتدع شخوصًا، أما أنت فحقائق. ولكني لا أريد تغيير دقّة الحديث. كنتُ أتحدَّث عن كتاب يعكس فكرنا...

أو معرفتنا بالأشياء والكائنات. هل يمكن وضع مثل ذلك الكتاب؟

أما كاليكليس-عالِم الهندسة الشاب الذي لا يعيبه سوى أمر واضح للجميع، ألا وهو حركته الخرقاء كما لو كان مُفكَّك الأطراف- فقد استأذن لحظة، وقام من مكانه مُتَّجهًا صوب الظلال، حاملًا مجموع عظام جسده. انتبه دياغوراس إلى غياب أنتيسو، كبير السُقاة خلال اللقاء. «أين عساه يكون؟». هراقليس لم يعُد هو الآخر.

بعد برهة صمت، قال أفلاطون مُعترضًا:

- فيلوتِكستو، إن الكتاب الذي تتحدَّث عنه عصيٌّ على الكتابة.

- ولمَ؟

أجاب أفلاطون بهدوء:

- لأن ذلك مستحيل.

فقال فيلوتِكستو راجيًا:

- أرجوك، فسِّرْ مقصدك!

ملَّس أفلاطون لحيته الضاربة إلى اللون الرمادي ببطء، وقال:

- يعلم أعضاء هذه الأكاديمية منذ أمد بعيد أن معرفة أي شيء تنطوي على خمسة مستويات أو خمسة عناصر، ألا وهي: اسم الشيء، وتعريفه، وصورته، والنقاش الفكري بشأنه وأخيرًا الشيء في حدِّ ذاته، أي الغاية الحقيقية من المعرفة. بَيْد أن الكتابة تبلغ المستويَيْن الأول والثاني فحسب، الاسم والتعريف. فالكلمة المكتوبة ليست صورة، ولذا نجدها عاجزة عن بلوغ المستوى الثالث. كما أن الكلمة المكتوبة لا تفكِّر، وبالتالي لا تقدر على الوصول إلى عنصر النقاش الفكري. وبالتأكيد، فإن احتمال بلوغها آخر العناصر جميعًا-الفكرة في حدِّ ذاتها- أبعد كثيرًا. وعلى هذا النحو، سيكون من المستحيل وضع كتاب يصف معرفتنا بالأشياء.

وللحظة ظلَّ فيلوتِكستو مستغرقًا في التفكير. ثم قال:

- اضربْ لي مثلًا على كل واحد من تلك العناصر حتى يتهيَّأ لي فهمها، ما لم يكُن لديك ما يمنع.

تدخَّل إسيبوسيبوس من فوره، وكأن مهمّة ضرب الأمثلة ليست من اختصاص أفلاطون.

- الأمر غاية في البساطة، فيلوتِكستو. العنصر الأول هو الاسم، وقد يكون أي اسم. على سبيل المثال: «كتاب»، «بيت»، «حُجرة»...

أما العنصر الثاني فالتعريف، أي العبارات التي تتحدَّث عن تلك الأسماء. في مَثَل «الكتاب»، يكون التعريف كالآتي: «بردية مكتوبة وتحوي نصًّا كاملًا». والأدب، كما هو جلي، قد يشتمل على الأسماء والتعريفات فحسب. أما العنصر الثالث فالصورة، أي الرؤية التي تتمثَّل في رأس كل منا عند التفكير في شيء ما. على سبيل المثال، عند التفكير في كتاب أرى لفافة بردي مفرودة فوق الطاولة...

أما العنصر الرابع فهو الفِكْر، أي ما نفعله الآن على وجه التحديد: النقاش حول مسألة باللجوء إلى الذكاء، أيًّا كانت المسألة. فعلى سبيل المثال، في حالتنا يتمثَّل العنصر الرابع في الحديث بشأن الكتاب: أصله، والغرض منه...

أما العنصر الخامس والأخير فهو الفكرة في حدِّ ذاتها، أي الغاية الحقيقية من المعرفة. ففي حالة الكتاب على سبيل المثال، يتمثَّل العنصر الخامس في الكتاب في حدِّ ذاته، الكتاب الأمثل، الذي يسمو فوق كتب العالم كافة...

ثم قال أفلاطون:

- ولذا نعتبر الكلمة المكتوبة شيئًا بالغ البعد عن الكمال، فيلوتِكستو. ليكُن في معلومك أننا لا نرمي بذلك إلى الحطِّ من قدر الكُتَّاب...

ندَّتْ ضحكات مكتومة. في حين أردف أفلاطون:

- وعلى اعتبار كل ما سبق، في اعتقادي أنك تتفهَّم الآن الأسباب التي تحول دون وضع كتاب بتلك الصفات...

بدا فيلوتِكستو مُستغرقًا في التفكير. وبعد برهة صمت قال، بصوت خافت مُرتعِش:

- هلا تراهنَّا على ذلك؟

عند ذاك تردَّدَتِ القهقهات بالإجماع.

أما دياغوراس، الذي بدأ النقاشُ يبدو له غبيًّا، فقد تململ على الأريكة مُضطربًا. تُرى، أين زجَّ هراقليس وأنتيسو بنفسيْهما؟ أخيرًا، وبارتياح كبير، لمح خيالَ كاشف الألغاز البدين عائدًا من عتمة المطبخ، بوجهٍ خالٍ من التعابير كدأبه أبدًا. تُرى، ماذا جرى؟ هراقليس لم يعُد إلى أريكته، بل أعرب عن امتنانه للعشاء الذي قُدِّم إليه، ثم زعم بأن ثمة مشاغل تقتضي تواجده في أثينا. ودَّعه المرشدون بسرعة ومودَّة، ثم صحبه دياغوراس إلى المخرج.

وحين تأكَّد أن أحدًا لا يستطيع سماع حديثهما، سأله:

- أين كنتَ؟

- لقد قاربَتْ تحرياتي على الانتهاء. لا تنقصني سوى الخطوة الأخيرة. ولكننا نلنا منه.

بانفعال أدرك دياغوراس أنه ما زال ممسكًا بكأس النبيذ:

- مِنْ مينيكمو؟ أهو مينيكمو؟ هل أستطيع اتهامه علانية؟

- ليس بعد. غدًا يتقرَّر كل شيء.

- وماذا عن أنتيسو؟

- لقد رحل. ولكن لا تقلق، سيكون تحت المراقبة الليلة.

ابتسم هراقليس ثم تابع:

- والآن عليَّ أن أنصرف. هدِّئ من روعك، دياغوراس الصالح. وغدًا تعرف الحقيقة[99].

الفصل الثامن

غفوتُ مُكبًّا على المكتب، ليست تلك هي المرة الأولى منذ تواجدي هنا، ولكني ما كدتُ أسمع ذلك الصوت حتى أفقت من فوري. استويتُ في جلستي ببطءٍ مُكثَّفٍ، تحسَّستُ وجنتي اليمنى التي ناءت بحمل رأسي المُسنَد فوق ذراعي. حرَّكتُ عضلات وجهي. مسحتُ الأثر الواهن الذي خلَّفه ريقي. رفعتُ مرفقي ساحبًا بعض الأوراق حيث دوَّنتُ الجزء الأخير من ترجمة الفصل السابع. حككتُ عيني وتلفَّتُّ حولي، فلم يبدُ أن شيئًا قد تبدَّل. ألفيتُ نفسي في الحجرة المستطيلة نفسها، جالسًا أمام المكتب، تعزلني بِرْكةُ الضياء الآتي من المصباح. أحسستُ

بالجوع، وإن لم يكُن ذلك بالأمر الجديد. عند ذاك تفرَّستُ في الظلال وعرفتُ أن شيئًا قد تبدَّل بالفعل.

وقف هراقليس اليونتوري وقد غشيته العتمة، يتأمَّلني بعينيْه الرماديتيْن الوديعتيْن. همهمتُ:

- ماذا أنت فاعل هنا؟

فأجابني بالصوت نفسه الذي تخيَّلتُه وأنا أقرأه، وإن لم يخطر لي ذلك سوى لاحقًا:

- أنت في مأزق عظيم.

قلتُ مُعترضًا:

- أنت واحد من شخوص العمل.

فأجابني كاشف الألغاز:

- هذا هو العمل. من الجلي أنك تمثِّل جزءًا منه. إلا أنك في حاجة إلى مساعدة، ولذا أتيتُ. دعنا نعقل المسألة، لقد تعرَّضتَ للاختطاف كي تترجم هذا النص، بَيْد أن أحدًا لا يضمن لك أن تنال حريتك بالانتهاء منه. على كلٍّ، لا تنسَ أن سجَّانك مُهتمٌّ بالترجمة للغاية. ليس عليك سوى اكتشاف الدافع وراء ذلك. من الأهمية بمكان أن تكتشف الدافع وراء رغبته في أن تترجم كهف الأفكار. وحين تعرف ذلك، يمكنك إجراء مقايضة معه. فأنت ترغب في نيل حريتك، وهو يرغب في شيء ما. كلاكما قادر على بلوغ مراده، ألا تعتقد؟ تأوَّهتُ قائلًا:

- مُختطِفي لا يرغب في شيء، إنه مجنون!

هزَّ هراقليس رأسه القوي.

- وما الفارق؟ لا تشغل نفسك الآن بسلامة عقله، بل بما يهمُّه. لمَ يعتبر انتهاءك من ترجمة النص على هذا القدر من الأهمية؟ تأمَّلتُ لبرهة.

- لأنه يحوي سرًّا.

وبالحكم على التعبير المرتسم على وجهه، استنبطتُ أنه لم يكُن الجواب الذي توقَّعه. إلا أنه قال:

- عظيم! ذلك دافع جليّ. يجب أن يكون لكل سؤال جليّ جواب جليّ. لأن النَصَّ يحوي سرًّا. وعليه، فلو أنك استطعتَ اكتشاف ذلك السرَّ، ستكون في موقف يسمح لك بأن تعرض عليه اتفاقًا، أليس كذلك؟ ستقول له: «أعرف السرّ. ولكني لن أتفوَّه بشيء ما لم تسمح لي بالخروج من هنا». فكرة حسنة.

قال قوله الأخير بنبرة مُشجِّعة وكأنه يريد أن يرفع من روحي المعنوية، وإن لم يكُن مُتأكِّدًا من كونها فكرة حسنة إلى هذا الحد. قلتُ:

- لقد اكتشفتُ أمرًا بالفعل، مآثر هرقل، وفتاة زهرة الزنبق التي...

فقاطعني بإيماءة تشي بنفاد صبره:

- هذا لا يعني شيئًا. إنها مُجرَّد صور! إن ما يبدو لك على أنه مآثر هرقل وفتاة ممسكة بزهرة زنبق قد يبدو لقارئ غيرك على أنه شيء آخر، ألا تفهم؟ الصور مُتغيِّرة، وتفتقر إلى الكمال! ينبغي لك أن تعثر على فكرة نهائية، على أن تكون واحدة عند سائر القُرَّاء! يجب عليك أن تسأل نفسك: «ما المفتاح؟». لا بد أن يكون ثمة معنًى محجوبٌ!...

تمتمتُ بكلمات خرقاء. في حين جعل هراقليس يتأمَّلني ببرود باعث على الفضول. ثم قال:

- ها! فيمَ بكاؤك؟ ليست هذه هي اللحظة المواتية للقنوط، بل للعمل! ابحثْ عن الفكرة الرئيسية. استخدمْ منطقي، فأنت تعرفني وتعرف كيف أعقل الأمور. عليك بالتقصِّي عن الكلمات! لا بد أن هنالك شيئًا ما!...

شيئًا ما! أكبَبْتُ على أوراقي وعيناي ما زالتا رطبتيْن. وإن بدا لي فجأةً أن سؤاله عن كيفية خروجه من الكتاب وظهوره في محبسي أكثر أهمية بكثير. بَيْد أنه قاطعني بإيماءة مُستبدَّة، وقال:

- ختام الفصل[100].

الفصل الثّامن[101]

أسفرَتِ الأيامُ الأواخر من أعياد لينايا عن بطء في إيقاع المدينة الطبيعي.

في ذلك اليوم المشمس، تراصَّتْ عربات التجار في صفٍّ كثيف لتعترض بذلك سبيل بوابة دييبلون. تعالت الشتائم والأوامر، وإن لم يحُلْ ذلك دون بطء الحركة. أما عند بوابة بيريوس، فكانت الخُطى أبطأ فأبطأ، إلى حدٍّ ربما استغرقَتْ معه عجلاتُ مركبة ربع ساعة مائية لإتمام دورة واحدة. أما العبيد المُحمَّلون بالأمفورات أو الرسائل أو حزم الأحطاب أو جوالات القمح، فقد راحوا يتصايحون عَبْر الشوارع، مطالبين بإفساح الطريق. استيقظ الناس من نومهم في وقت متأخِّر، كما تأخَّر انعقاد المجلس في ديونيسوس إلِوْثيروس نظرًا لغياب بعض النوَّاب، فتعذَّر إجراء التصويت. تراخت الخُطَب، في حين تسلَّل النعاس إلى الحضور القلائل وهم جلوس على المدرجات. والآن، دعونا ننصت إلى خانوكراتيس (وهو مالك ضِياع مهمة على مشارف المدينة). جعل خانوكراتيس يحرِّك جسده متباهيًا بخُطًى مُتعرِّجة وصولًا إلى منبر الخطيب، حيث شرع يلقي خطبة بطيئة لم يحفل بها أحد. وفي المعابد، عُلِّق تقديم القرابين بسبب غياب الكهنة الذين انشغلوا بإعداد المواكب الأخيرة. وعند النصب التذكاري المُكرَّس لأبطال إيونيموس، انحنَتِ الرؤوس في فتور لقراءة المراسيم والأحكام الجديدة. وفي طيبة ظلَّ الوضع راكدًا، في حين ترقَّب الناس عودة بيلوبيداس، الجنرال المنفي ذي الأصول القادمية. أما الملك الإسبرطي أجيسيلاوس، فقد قوبل بالرفض في بلاد اليونان بأسرها تقريبًا. «أيها المواطنون، إن دعمنا السياسي لطيبة أمر حيوي من أجل استقرار...». ولكن، بالحكم على التعابير التعِبة على وجوه أولئك الذين راحوا يقرأون ما ورد في الألواح، فلم يبدُ أن هناك من يرى أمرًا «حيويًّا» في تلك اللحظة.

استغرق رجلان في تأمُّل الألواح، فيما جعلا يتبادلان كلمات مُتروِّية:

- أنْفيكو، انظرْ، ورد هنا أن الدورية المُكلَّفة بالقضاء على ذئاب الليكابيتوس لم تكتمل بعد، فما زالوا في حاجة إلى مُتطوِّعين...

- نحن أبطأ من الإسبرطيين وأكثر خرَقًا...

- إنه الاسترخاء الذي يسود في ظلِّ السلام، حتى الرغبة في التطوُّع لقتل الذئاب فارقتنا...

أخذ رجل آخر يتأمَّل الألواح بالاهتمام الخامل نفسه، شأنه شأن الآخرين. بالحكم على التعبير الحيادي المرتسم على وجهه، المُطلّ من رأسه المستدير الأصلع، يمكن القول بأن خواطره راحت تطوف في خرق وبطء. إلا أنه ما كاد يحظى بقسط من الراحة طيلة الليلة السابقة في واقع الأمر. دار في خلده: «حان موعد زيارة كاشف الألغاز». سار مبتعدًا عن النصب التذكاري بخُطًى بطيئة صوب حي إسكامبونيداي.

تساءل دياغوراس: ما بال هذا اليوم؟ لمَ يبدو كل شيء من حوله وكأنه يتحرَّك في بطء أخرق مُتثاقل؟[102]

شُلَّتْ مركبة الشمس في حقل السماء، في حين انساب الوقت ببطء كالعسل الثخين، وكأن آلهة الليل والفجر والنهار قد أمسكَتْ عن المضي في سبيلها، فمكثَتْ مكانها ساكنة، مُتَّحدَة، ومزجَتْ بين العتمة والضياء في لون رمادي راكد. شعر دياغوراس ببطء وارتباك، غير أنه ظلَّ نشِطًا، مدفوعًا إلى ذلك بلهفته. أثقلَتِ اللهفة على معدته، وخرجَتْ في بطء مع العرق المُتصبِّب من يديْه، وحثَّتْه كما تحثُّ البراغيثُ القطيعَ وترغمه على المضي في سبيله بلا تفكير.

بدَتْ له الطريق إلى بيت هراقليس اليونتوري لا نهائيَّة، وكأنها مضمار ماراثون. غرق البستان في الصمت. إن هي إلا تغريدات وقواق بطيئة زيَّنَتِ الصمت المطبق. طرق الباب طرقات قوية، ثم جعل يترقَّب. سمع وقع خُطًى، وحين انفتح الباب قال:

- أودُّ لقاء هراقليس اليونت...

لم تكُن الفتاة هي يونسيكا. طفا شعرها المُجعَّد الثائر بحرية فوق رأسها ذي العظام البارزة. لم تكُن بارعة الجمال، وإن كانت عجيبة، غامضة، تتَّسم بالتحدّي، كنقوش هيروغليفية ظاهرة على حَجَر. كانت لها عينان لا يرفّ لهما جفن، في صفاء المَرْو، وشفتان مكتنزتان، وجِيد أهيف. بالكاد بدَتْ ثنايا ثوب البيبلوس على نهديْها الكاعبيْن و...

وحقّ زيوس، الآن تذكَّر من تكون!

أطلَّ هراقليس اليونتوري برأسه من وراء كتف الفتاة، وقال:

- دياغوراس، هَلُمّ، هَلُمّ. كنتُ أترقَّب وصول شخص آخر، ولذا...

- لم أُرِد إزعاجك...

ما دُمتَ مُنشغلًا...

راحت عينا دياغوراس تتنقَّلان بين هراقليس والفتاة، وكأنه يترقَّب من كليهما جوابًا.

- لم تزعجني في شيء. هيا، هَلُمّ إلى الداخل.

كانت لحظة بطيئة خرقاء. تنحَّتِ الفتاة جانبًا في صمت. أما هراقليس فأشار إليها قائلًا:

- أنت تعرف ياسينترا بالفعل...

تعالَ. سيكون الحديث أفضل في شرفة البستان.

سار دياغوراس في إثر هراقليس كاشف الألغاز عَبْر الردهات المعتمة. أحسَّ بأنها لم تتبعهما-لم يُرِد أن يلتفت إليها- فتنفَّس الصعداء. وفي الشرفة لاح ضياء النهار مرة أخرى، بقوة تغشى الأبصار. كان الجو حارًّا، وإن لم يكُن مزعجًا. وبين أشجار التفاح، مالت يونسيكا على فُوَّهة بئر من الحجر الأبيض، حيث جاهدَتْ لرفع المياه بواسطة دلو ثقيل. تردَّدَ لهاثها الناجم عن الجهد المبذول كأصداء واهنة من وراء القناع. أما هراقليس فقد صحب دياغوراس إلى حافة الشرفة، ودعاه إلى الجلوس. كان كاشف الألغاز مسرورًا، بل ومُتحمِّسًا، فراح يفرك يديه الغليظتيْن ويبتسم. تضرَّجَتْ وجنتاه الممتلئتان في حين لاح في نظراته بريقٌ جديدٌ خبيثٌ، دهش له الفيلسوف. - آه، لقد قدَّمَتْ لي تلك الفتاة من المساعدة الكثير، رغم أنك قد لا تصدِّقني!

- بل إنني أصدِّقك، بالطبع!

تفهَّم هراقليس ارتياب دياغوراس، فبدَتْ عليه أمارات المفاجأة.

- دياغوراس الصالح، ليس الأمر كما تخيَّلتَه، أرجوك...

إئذنْ لي بأن أقصَّ عليك ما جرى ليلة أمس...

حين عدتُ إلى بيتي بعد الانتهاء من كل مشاغلي على نحوٍ مُرْضٍ...

كانت سيليني ربة القمر قد طوَتْ بخفّيْها اللامعيْن أكثر من نصف المسافة عَبْر مسارها السماوي الذي تحرثه كل ليلة، حين بلغ هراقليس بيته واخترق عتمة البستان المألوفة، أسفل أوراق الشجر الكثيفة التي أسبغ عليها فيضُ القمرِ البارد لونًا مُفضَّضًا، وراحت تتأرجح في صمت من دون أن تُقلق راحة الطيور الضئيلة التي ترتجف بردًا فوق الأغصان الثقيلة، حيث غفَتْ مجتمعة في أعشاش كثيفة[103]...

عند ذاك لمحها. لاحظ ظلّها وسط الأشجار بارزًا بتأثير نور القمر. توقَّف بحدَّة. ندم لأنه ليس من عادته التسلُّح بخنجر أسفل الرداء (الأمر الذي تقتضيه مهنته أحيانًا).

بَيْد أن الخيال ظلَّ بلا حراك، إذ كان عبارة عن شكل هرمي داكن، له قاعدة عريضة وقمة مستديرة مزدهرة بخصلات شعر مُوشَّاة بالرمادي اللامع. سأل هراقليس:

- من أنت؟

- أنا.

كان صوت شاب، إفيبوس. ولكن تلك النبرة...

كان قد سمعها من قبل، وهو على يقين من ذلك. خطا الخيال نحوه خطوة.

- ومَنْ يكون «أنا»؟

- أنا.

- عمَّ تبحث؟

- عنك.

- ادْنُ مني حتى أراك.

- كلا.

شعر بعدم الارتياح. بدا له ذلك المجهول خائفًا وآمنًا، خطيرًا ولا ضرر منه في آن. وفي الحال أعمل هراقليس عقله في الأمر واستنتج أن تناقضًا مثل هذا خليقٌ بامرأة. ولكن...

مَنْ تكون؟ وبطرف عينه استطاع أن يلمح مشاعل تدنو عَبْر الشارع، وحاملوها يتغنَّون بأصوات ناشزة. ربما كانوا رهطًا من الناجين من إحدى مواكب أعياد لينايا الأخيرة، من أولئك الذين يعودون إلى بيوتهم أحيانًا وقد انتقلَتْ إليهم عدوى الأغنيات التي استمعوا إليها أو تغنَّوا بها خلال الشعائر، مدفوعين إلى ذلك بتأثير النبيذ.

- هل أعرفك؟

فقال الخيال:

- أجل...

كلا.

وللمفارقة، كشف له ذلك الجواب الملغز عن هوية الخيال أخيرًا.

- ياسينترا؟

استغرق الخيال قليلًا قبل أن يجيبه. كانت المشاعل تدنو بالفعل، وإن لم يبدُ أنها تتحرَّك طيلة ذلك الوقت.

- أجل.

- وماذا تريدين؟

- أريد منك أن تساعدني.

قرَّر هراقليس أن يدنو منها، فخطَتْ قدمه اليمنى خطوة إلى الأمام. بدا أن غناء الجداجد يخبو. اختلجَتْ ألسنة المشاعل بتراخٍ كأستار ثقيلة ترتجف بين يديّ كهل. قطعَتْ قدم هراقليس اليسرى خطوة «إيليَّة» أخرى. عادت الجداجد إلى غنائها. تبدَّلَتْ هيئة ألسنة المشاعل على نحو غير ملحوظ، كما تتبدّل هيئة السحب. رفع هراقليس قدمه اليمنى. غرقَتِ الجداجد في صمت مطبق. زحفَتْ ألسنة المشاعل، في جمود. لامسَتْ قدمه الأرض. لم يعُد للأصوات وجود. سكنَتْ ألسنة المشاعل. حطَّتْ قدمه فوق العشب[104]...

ترك حديثُ هراقليس لدى دياغوراس انطباعًا بأنه قد أمضى ردحًا طويلًا وهو ينصت إليه. قال له هراقليس موضحًا:

- لقد عرضتُ عليها أن تنزل عندي ضيفة ووعدتُها بالمساعدة. إنها مذعورة، فقد تلقَّتْ تهديدًا في الآونة الأخيرة، ولم تعرف بمن تلوذ. فكما تعلم، شرائعنا لا ترأف بالنساء ممن يحترفن مهنتها.

- ولكن، من يهدِّدها؟

- أولئك الذين سبق لهم تهديدها قبل حديثنا إليها، ولذا ما كادت تلمحنا حتى لاذت بالهرب. ولكن لا تفقد صبرك، فسوف أوضح لك كل شيء. أعتقد بأن أمامنا بعض الوقت، فقد أصبحَتِ المسألة تقتصر على ترقُّب الأنباء...

آه، إن اللحظات الأخيرة من كشف اللغز تنطوي على لذَّة مُميَّزة عندي! أتريد كأسًا من النبيذ الخالص؟

همهم دياغوراس قائلًا:

- هذه المرة، أجل.

انصرفَتْ يونسيكا بعد أن وضعتْ لهما صينية ثقيلة حوَتْ كأسيْن وقارورة من النبيذ الخالص، فقال هراقليس:

- دياغوراس، اسمع ولا تقاطعني، وإلا استغرق تفسير الأمر وقتًا أطول إن شرد ذهني.

شرع يتكلَّم وهو يتنقَّل من موضع إلى آخر في الشرفة، بخطى بطيئة مُتعرِّجة، مُتَّجهًا صوب الجدار تارة، والبستان البرَّاق تارة، وكأنه يتدرَّب على خطاب من المزمع إلقاؤه أمام المجلس، في حين راحت يداه المكتنزتان تغلِّف الكلمات بإشارات متثاقلة[105] يتعرَّف تراماكو وأنتيسو وإيونيو على مينيكمو.

متى؟ أين؟ ليس يُعرف، وإن لم يكُن ذلك مهمًّا. صحيح أن مينيكمو يعرض عليهم الوقوف أمامه كي يستلهم منهم تماثيله والمشاركة في أعماله المسرحية، إلا أنه علاوةً على ذلك يعشقهم ويدعوهم للمشاركة في حفلاته العابثة مع غيرهم من الإفيبوس[106]. ولكنه يولي أنتيسو قدرًا أكبر من الاهتمام بالقياس إلى رفيقيْه. فيبدأ الشعور بالغيرة يتسلَّل إليهما. تراماكو يتوعَّد مينيكمو بالبوح بكل شيء ما لم يعدل النحَّات بينهم في الهوى[107]. يفزع مينيكمو، فيضرب لتراماكو موعدًا في الغابة. يتظاهر تراماكو بالخروج للصيد، ولكنه في الواقع يولِّي وجهه شطر الموضع المُتَّفَق عليه، حيث ينشب جدال بينه وبين النحَّات. يضربه الأخير حتى يتركه قتيلًا أو مغشيًّا عليه، إما مع سبق الإصرار أو في لحظة غضب أعمى، ثم يهجر الجثمان كي تنهشه الضواري. يبلغ النبأ كلًّا من أنتيسو وإيونيو فيتملَّكهما الذعر. ذات ليلة يواجهان مينيكمو ويطالبانه بتفسير لما جرى. ببرود يعترف مينيكمو بجريمته، ربما في محاولة لتهديدهما، فيقرِّر أنتيسو الهرب من أثينا متذرِّعًا بحجة التحاقه بالخدمة العسكرية. أما إيونيو، الذي لا يملك من نفوذ مينيكمو فكاكًا، فيفزع وتنتابه رغبة في الوشاية به. غير أن النحَّات يصفِّيه هو الآخر. أنتيسو يشهد كل شيء. فيقرِّر مينيكمو طعن جثة إيونيو بوحشية، ثم يضمّخه بالنبيذ ويُلبسه ثياب فتاة، حتى يبدو وكأن الفتى المخمور قد أُصيب بنوبة جنون[108].

وذلك كل شيء[109].

- دياغوراس الصالح، إن كل ما أطلعتُك عليه من استنباطات كنت قد اهتديتُ إليها قُبَيْل لقائنا بمينيكمو. كدتُ أقتنع بضلوعه في الجريمة. ولكن، أنَّى لي التأكُّد من ذلك؟ ثم فكَّرتُ في أنتيسو، فهو نقطة الضعف في ذلك الغصن، وعرضة للانكسار عند أدنى بادرة ضغط...

وضعتُ مُخطَّطًا بسيطًا. فخلال العشاء الذي أُقيم في الأكاديمية، وفيما رُحْتُم تهدرون وقتكم بالحديث عن الفلسفة الشاعرية، جعلتُ أتجسَّس على ساقينا الجميل. كما تعلم، فالسُّقاة يقدِّمون الشراب للمدعوين وفقًا لنظام أسبقية مُعَدّ من قبل. وحين تأكَّدتُ من وشك اقتراب أنتيسو من أريكتي لتقديم الشراب، أبرزتُ رقعة بردي صغيرة من بين طيّات ردائي وسلَّمتُه إياها في صمت، وإنْ بإيماءة ذات مغزى. كتبتُ فيها ما يلي: «أعرف كل شيء عن مقتل إيونيو. إن لم يكُن في مصلحتك أن أبوح بما أعرف، فلا تعُدْ لتقديم الشراب للنديم التالي. بل انتظرني لحظة في المطبخ على انفراد». - وكيف تأكَّدتَ إلى هذا الحدِّ من كون أنتيسو قد شهد مقتل إيونيو؟

فجأة بدَتْ على هراقليس أمارات السرور البالغ، وكأنه السؤال الذي توقَّعه. أغمض عينيْه نصف إغماضة وهو يقول باسمًا:

- لم أكُن مُتأكِّدًا إلى هذا الحدِّ! كانت رسالتي طعمًا، فابتلعه أنتيسو. لاحظتُ أنه قد تأخَّر في تقديم الشراب للمدعو التالي...

فقمتُ مُتَّجهًا صوب المطبخ. زميلك الذي يتحرَّك مثلما يتمايل الخيزران في نهر...

أومأ دياغوراس:

- كاليكليس. أجل. الآن أذكر أنه قد غاب لحظةً...

- فعلًا. ذهب إلى المطبخ، محتارًا لأن أنتيسو لم يقدِّم له الشراب. كان على وشك أن يباغتنا، ولكننا فرغنا من الحديث قبل وصوله، من حسن الحظ. كما قلتُ لك، لاحظتُ أن أنتيسو لم يعُدْ فقمتُ مُتَّجهًا صوب المطبخ...

حكَّ هراقليس يديْه باستمتاع بطيء، وقطَّب أحد حاجبيْه الرماديين.

- آه، دياغوراس! ماذا أقول عن ذلك الكائن الحاذق الجميل! أجزم لك بأن تلميذك قادر على تلقيننا دروسًا في أكثر من موضوع. راح يترقَّبني منزويًا في أحد الأركان، مرتجفًا، بعينيْن برَّاقتيْن واسعتيْن. ومع أنفاسه جعلَتْ جديلة الأزهار ترتعش على صدره. أومأ إليَّ أن اتْبَعْني على عجل، ثم أخذني إلى مخزن مؤن صغير، حيث تهيَّأ لنا الحديث على انفراد. فقال أوَّل ما قال: «لم أفعلها، أقسم لكم بآلهة البيت المُقدَّسة! لم أقتل إيونيو! بل إنه هو الذي فعلها!». أفلحتُ في حمله على البوح بما يعرف، إذ أقنعتُه بأنني مُطَّلع على ما جرى، الأمر الذي كان صحيحًا بالفعل، فقد أكَّدَتْ إجاباته على صحة نظرياتي نقطة تلو الأخرى. فرغ من حديثه فطلب مني ألَّا أبوح بشيء، توسَّل إليَّ وقد اغرورقَتْ عيناه بالدموع. لم يحفل بمصير مينيكمو أيًّا كان، ولكنه لم يُرِد أن يجد نفسه مُتورِّطًا، إذ يجب عليه التفكير في أسرته...

ولو افتضح أمره في الأكاديمية لكان ذلك باختصار شيئًا مُروِّعًا. أخبرتُه أني لا أعرف إلى مدى يسعني النزول عند هذا المطلب. عند ذاك دنا مني بإغواء لاهث، خافضًا عينيْه. راح يهمس في سمعي. جاءتْ كلماته وعباراته بطيئة عمدًا. وعدني بأن يسدي إليَّ من الجمائل الكثير، فهو يعرف كيف يكون ودودًا مع الرجال (بحسب قوله). ابتسمتُ له بهدوء وقلت: «أنتيسو، لا حاجة لأن نبلغ هذا الحدِّ». فما كان منه إلا أن نزع مشبكي الخيتون بحركة سريعة، تاركًا الثوب يسقط إلى كاحليْه...

قلتُ «سريعة»، وإن بدَتْ لي حركته غاية في البطء...

وفجأةً أدركتُ كيف لفتى كهذا أن يثير الشغف في الصدور ويخلب أرجح العقول. شعرتُ بأنفاسه العطرة تلفح وجهي فنأيتُ عنه. قلتُ له: «أنتيسو، أرى أمريْن على قدر كبير من التضارب، جمالك العجيب من ناحية، وواجبي الذي يلزمني بتحقيق العدالة من ناحية أخرى. وهما أمران يُملي علينا العقل الإعجاب بأولهما وتأدية ثانيهما، وليس العكس. وعليه، فلا تخلط بين جمالك الباعث على الإعجاب وبين تأديتي واجبي». فلم يقُلْ شيئًا أو يفعل شيئًا، ما كان منه إلا أن وقف يرنو إليَّ. لا أدرى كم من الوقت ظلَّ يرنو إليَّ هكذا، واقفًا على قدميْه، وهو لا يرتدي سوى إكليل الغار وجديلة الأزهار المُعلَّقة على كتفيْه، بلا حراك، مُطرقًا. كان الضوء في مخزن المؤن خافتًا للغاية. ومع ذلك فقد تسنَّى لي أن ألمح تعبيرًا هازئًا على مُحيَّاه الخلَّاب. في اعتقادي أنه أراد أن يُبدي مدى إدراكه لما يملكه من نفوذ عليَّ، برغم تمنُّعي...

إن ذلك الفتى طاغية على الرجال، ويعلم ذلك. عندئذ سمعنا صوت أحدهم يناديه. كان هو زميلك. فارتدى أنتيسو ثوبه في غير عجلة، وكأنما يتلذَّذ باحتمال أن يباغته أحدهم وهو على تلك الحال، ثم غادر مخزن المؤن. أما أنا فعدتُ لاحقًا.

رشف هراقليس رشفة نبيذ، في حين اكتسى وجهه بحمرة طفيفة. وعلى العكس منه، بدا وجه دياغوراس في شحوب المَرْو. حانَتْ من كاشف الألغاز إيماءة مبهمة وقال:

- لا تلقِ باللائمة على نفسك. لا شك أن مينيكمو هو من أفسدهم.

فأجاب دياغوراس بنبرة محايدة:

- لا يسوؤني أن يلقي بنفسه بين ذراعيْك كما فعل، أو حتى بين ذراعي مينيكمو أو سواه من الرجال. في خاتمة المطاف، هل مِنْ لذَّةٍ تفوق عشق الإفيبوس؟ ليس المريع في الأمر هو العشق، بل دوافعه. فالعشق من أجل لذَّة الجسد، ولا شيء سواها، شيء مقيت. والعشق من أجل شراء الصمت مقيت أيضًا.

بدَتْ عيناه رطبتيْن. وجاء صوته واهنًا كالغروب حين أردف قائلًا:

- ليس بالعاشق الحقيقي حاجة لأن يمسَّ ولو بشرة معشوقه، فوحده النظر إلى المعشوق كافٍ للإحساس بالسعادة وبلوغ الحكمة وكمال الروح. أنا مشفق على أنتيسو ومينيكمو، لأنهما يجهلان جمال العشق الحقيقي الذي لا يضاهيه جمال.

ندَّتْ عنه تنهيدة ثم أردف:

- ولكن دعنا من هذه المسألة. ماذا نحن فاعلان الآن؟

أما هراقليس، الذي كان يراقب الفيلسوف بفضول، فقد تأخَّر في الردِّ.

- كما يقول لاعبو النرد: «اعتبارًا من الآن، كلها رميات مُوفَّقة». دياغوراس، لقد عرفنا الجاني، ولكن من الخطأ أن نتسرَّع. فكيف نعرف إن كان أنتيسو قد أطلعنا على الحقيقة كاملة؟ أؤكِّد لك أن ذلك الشاب الفاتن في حذق مينيكمو نفسه، إن لم يكُن أكثر حذقًا. ومن ناحية أخرى، فما زلنا في حاجة لاعتراف علني أو دليل حتى يتسنَّى لنا اتهام مينيكمو أو كليهما مباشرةً. وعلى الرغم من ذلك، فقد خطونا خطوة مهمة. ذلك أن أنتيسو يشعر بذعر بالغ الآن، الأمر الذي يصبُّ في مصلحتنا. ما عساه أن يفعل؟ لا شك أنه سوف يحذِّر صديقه حتى يلوذ بالهرب، وذلك أكثر الأمور منطقية. ولو هجر مينيكمو المدينة لما أفدنا شيئًا من اتهام أنتيسو علانيةً. كما أنني على يقين من أن مينيكمو يؤثر المنفى على الحكم بالإعدام...

- ولكن في تلك الحال...

فلسوف يهرب مينيكمو!

هزَّ هراقليس رأسه ببطء وهو يبتسم ابتسامة حاذقة:

- كلا، دياغوراس الصالح، أنتيسو تحت المراقبة. فمُربِّيه القديم إوْماركو يقتفي خطواته كل ليلة امتثالًا لأوامري. ليلة أمس، وبعد خروجي من الأكاديمية، بحثتُ عن إوْماركو وأصدرتُ إليه بعض التعليمات. لو تلقَّى مينيكمو زيارة من أنتيسو، فسوف نعرف. وإن اقتضَتِ الحاجة، سأكلِّف عبدًا آخر بمراقبة المَنْحَت. لن يتهيَّأ لمينيكمو أو أنتيسو الإتيان بأدنى حركة من دون علمنا. أريد أن يتاح لهما الوقت الكافي للإحباط والشعور بأنهما محاصران. إذا اتَّخذ أحدهما قراره باتهام الآخر علانيةً سعيًا لتخليص نفسه، ستكون المشكلة قد حُلَّتْ بأيسر ما يمكن. أما إذا...

رفع سبابته الغليظة مشيرًا إلى جدران بيته بحركات بطيئة.

- ... أما إذا لم يشِ أحدهما بالآخر، فسنلجأ إلى بائعة الهوى.

- ياسينترا؟ كيف؟

أشار هراقليس بالسبابة نفسها إلى الأعلى، مُشدِّدًا على كلماته:

- بائعة الهوى هي الخطأ الفادح الذي ارتكبه مينيكمو! ذلك أن تراماكو، الذي عشقها، قد أطلعها على صلته بالنحَّات جملة وتفصيلًا، معترفًا بأن النحَّات يبثُّ في نفسه مشاعر العشق والخوف في آن. وخلال الأيام السابقة على مصرعه، كشف لها تلميذك عن استعداده لأي شيء بما في ذلك إطلاع أسرته ومرشديه على ما كان من أمر تلك الملذَّات الليلية، في سبيل أن يتحرَّر من النفوذ المُضرِّ الذي يمارسه عليه مينيكمو. ولكن تراماكو زاد على ذلك خوفه من انتقام النحَّات، بعد أن أكَّد له الأخير عزمه على قتله إن تفوَّه بشيء. لا ندري كيف عرف مينيكمو بوجود ياسينترا. ومع ذلك، فيسعنا التكهُّن بأن تراماكو هو من فضح أمرها في لحظة غضب. عرف النحَّات من فوره أنها قد تمثِّل مشكلة، فأرسل زوجًا من العبيد إلى بيريوس بغرض تهديدها، تحسُّبًا لأن يخطر لها البوح بما جرى. وعقب حديثنا مع مينيكمو، انفعل الأخير وتراءى له أن بائعة الهوى قد خانته،

فعاود تهديدها بالقتل. عند ذاك عرفَتْ ياسينترا من أكون، فجاءتني ليلة أمس مذعورة، تنشد المساعدة. - إذًا، فهي دليلنا الوحيد الآن...

أومأ هراقليس فاتحًا عينيْه عن آخرهما، وكأن دياغوراس قد أدلى بشيء مذهل على نحو استثنائي.

- بالفعل. إذا أبَى القاتلان الحاذقان أن يعترفا، فلسوف نتَّهمهما علانيةً بالاستناد إلى شهادة ياسينترا. أعرف أن كلمة فتاة ليل لا قيمة لها أمام كلمة مواطن حُرّ، ولكن غالب الظن أن الاتهام سيحلُّ عقدة لسان أنتيسو، أو ربما مينيكمو نفسه.

رمش دياغوراس وهو يحوِّل ناظريْه إلى البستان البرَّاق تحت أشعة الشمس. وعلى مقربة من البئر، جعلَتْ بقرةٌ بيضاء هائلة ترعى في تثاقل وديع[110].

أما هراقليس، فقال بمعنويات مرتفعة للغاية:

- سيصل إوْماركو مُحمَّلًا بالأنباء بين لحظة وأخرى. عندئذ نعرف ماذا ينتوي هذان الوغدان فعله، ونتصرَّف بناء على هذا الأساس...

رشف رشفة أخرى من النبيذ وأداره في فمه برضا بطيء. ربما شعر بعدم الارتياح، إذ عرف بالبداهة أن دياغوراس لا يشاطره تفاؤله، فبدَّل نبرته فجأةً ليقول بشيء من الحدَّة:

- حسنًا، ما رأيك الآن وقد استطاع كاشف الألغاز أن يكشف اللغز!

ما انفكَّ دياغوراس يتأمَّل البستان رانيًا إلى ما وراء البقرة التي تجترُّ في هدوء. قال:

- بل إنك لم تفعل.

- ماذا؟

ولَّى دياغوراس وجهه شطر البستان، وكأنه يخاطب البقرة.

- لم تفعل يا كاشف الألغاز. فأنا أذكر جيِّدًا ما لمحتُ في عينيْه. تراماكو لم يكُن قلقًا وحسب، بل مفزوعًا. تريد مني الاعتقاد بأنه كان على وشك إطلاعي على ألعابه العابثة مع مينيكمو، ولكن...

كلا. إن سرَّه أفظع من ذلك بكثير.

هزَّ هراقليس رأسه بحركة خاملة، وكأنما يستجمع صبره للحديث إلى طفل صغير. قال:

- تراماكو كان يخاف مينيكمو، اعتقادًا منه بأن النحَّات سيقتله إن وشى به! وذلك هو الخوف الذي لمحتَه في عينيْه!...

فأجاب دياغوراس بهدوء لا نهائي، وكأنما قد تسلَّل إليه خدر من تأثير النبيذ أو الظهيرة المتراخية:

- كلا.

ثم أردف ببطء بالغ وكأنه يقول كلماته بلسان آخر، مما يقتضيه أن ينطقها برويَّة كي يتيح الوقت اللازم لترجمتها إلى اللسان الإغريقي:

- كان تراماكو مفزوعًا...

إلا أن فزعه عصيٌّ على الفهم...

إنه الفزع في حد ذاته، أي فكرة الفزع، شيء لا سبيل لعقلك أن يتبيَّنه، هراقليس، لأنك لم تنظر في عينيْه كما فعلتُ أنا. تراماكو لم يكُن خائفًا مما قد يفعله به مينيكمو...

بل من شيء آخر أكثر مدعاة للرهبة بكثير. أعرف أنه كان يخاف شيئًا آخر.

ثم أردف قائلًا:

- لا أعرف جيِّدًا كُنْه ذلك الشيء. ولكني أعرف أنه كان يخافه.

سأل هراقليس، بازدراء:

- أتحاول إخباري بأن تفسيري ليس صائبًا؟

- التفسير الذي قدَّمتَه لي معقول. معقول جدًّا.

ظلَّ دياغوراس يتأمَّل البستان حيث تجترُّ البقرة. أخذ نفسًا عميقًا، ثم أردف:

- ولكني لا أظنُّ أنها الحقيقة.

- «تفسير معقول، ولكنها ليست الحقيقة»؟ أي أمور تختلق الآن، دياغوراس الميدونتي؟

- لستُ أدري. منطقي يحدِّثني بأن هراقليس مُحقّ، ولكن...

ربما استطاع صديقك كرانتور أن يشرح مقصدي بأفضل مما أنا فاعل. ليلةَ أمس، تناقشنا في الأكاديمية طويلًا بشأن تلك المسألة. يُحتمل أن تكون الحقيقة عصية على إعمال العقل...

أعني...

إن قلتُ لك الآن شيئًا عبثيًّا، مثال: «هراقليس، ثمة بقرة ترعى في بستانك»، فهل ستعتبرني مجنونًا؟ ولكن، أليس ممكنًا أن يكون قولٌ كذلك حقيقيًّا عند شخص آخر، غيري وغيرك؟ همَّ هراقليس بالرد، فقاطعه دياغوراس مُستطردًا:

- أعرف أن ليس من العقلانية القول بأن هنالك بقرة في بستانك، إذ لا وجود لها، ولا يمكن أن يكون لها وجود في بستانك. ولكن، هراقليس، لِمَ ينبغي للحقيقة أن تكون عقلانية؟ ألا يُحتمَل أن يكون ثمة وجود...

لحقائق غير عقلانية؟[111]

بالكاد كظم هراقليس غضبه العارم:

- أهذا ما رواه لكم كرانتور البارحة؟ دياغوراس، سوف تذهب الفلسفة بعقلك في خاتمة المطاف! أحدِّثك عن أمور مُتَّسقة منطقية، أما أنت...

إن لغز تلميذك ليس نظرية فلسفية، بل سلسلة من الحوادث العقلانية التي...!

قطع حديثه حين لاحظ أن دياغوراس يلتفت برأسه مُجدَّدًا من دون أن ينظر إليه، وهو ما زال يتأمَّل البستان الخالي[112].

قال دياغوراس:

- أذكر إحدى مقولاتك: «في الحياة أمكنة غريبة لم نزُرها قط، لا أنا ولا أنت». صحيح، هراقليس...

إننا نعيش في عالَم غريب، حيث لا يُمكن لشيء أن يُعقَل أو يُفهَم كلّيًا. عالَم لا يتبع شرائع المنطق في بعض الأحيان، بل شرائع الأدب أو الأحلام...

سقراط، المُفكِّر العقلاني العظيم، كان من عادته الجزم بأن روحًا شريرًا يلهمه الحقائق الأكثر عمقًا. في حين يرى أفلاطون أن الجنون شكل غامض من أشكال بلوغ المعرفة، بطريقة ما. وذلك ما يجري لي الآن! روحي الشرير أو جنوني يحدِّثاني بأن تفسيرك باطل.

- بل إن تفسيري منطقي!

- ولكنه باطل.

- لو أن تفسيري باطل، إذًا، فكل شيء باطل!

فأقرَّ دياغوراس بمرارة:

- هذا جائز! أجل، من يدري!

تذمَّر هراقليس:

- عظيم! دياغوراس، لا يهمُّني إن غرقتَ ببطء في مستنقع تشاؤمك الفلسفي! سوف أثبتُ لك أن...

آه، هناك من يطرق الباب. لا بد أنه إوْماركو. عزيزي دياغوراس، ابقَ مكانك، مُتأمِّلًا في عالم الأفكار! سوف أقدِّم لك رأس مينيكمو على صينية، أما أنت فسوف تجزيني نظير عملي!...

يونسيكا، افتحي الباب!...

كانت يونسيكا قد فتحَتِ الباب بالفعل، وفي تلك اللحظة دلف الزائر إلى الشرفة. كان كرانتور.

- أوه، هراقليس اليونتوري، كاشف الألغاز. وأنت، دياغوراس الميدونتي. لقد عمَّتِ الصدمة أثينا وزلزلَتْها من الأعماق. وكل مَنْ تبقَّى في صوته بقية يصرخ مُطالبًا بحضوركما...

وبابتسامة، حاول تهدئة كيربيروس الذي هاج ثائرًا بين ذراعيْه. ثم أردف من دون أن يكفّ عن الابتسام، وكأنما يتهيَّأ لنقل خبر سار:

- لقد وقع شيء مُروِّع.

بدا الضياء المنساب عَبْر نوافذ المَنْحَت وكأنه ينعكس في موجات مُكثَّفة على يراكسينو، بهيئته المهيبة الوقور. بلفتة رقيقة نحَّى يراكسينو أحد مرافقيه جانبًا، في اللحظة التي طلب فيها مساعدة

آخر بحركة أخرى. جثا على ركبتَيْه. ظلَّ على تلك الحال دهرًا. في حين راح الفضوليون يتساءلون إن كانت التعابير المرتسمة على وجهه مغمومة، أم أليمة، أم انتقامية، أم ساخطة. إلا أن يراكسينو خيَّب آمالهم جميعًا وحافظ على سكون قسماته. كان وجهه مُفعمًا بذكريات جلّها طيب. في حين ظهر التفاوت بين حاجبيْه المتناسقيْن السوداويْن ولحيته البيضاء بلون الثلج. لم يكُن شيء واحد يدلُّ على أن يراكسينو يتأمَّل جثمان ابنه المُشوَّه في تلك اللحظة. إن هي إلا تفصيلة واحدة. فقد طرفَتْ عيناه، ولكن ببطء غير معقول. ظلَّ شاخصًا إلى نقطة بين الجثتيْن، وبدأتْ عيناه تغيبان في بطء بالغ أسفل الأهداب، حتى اكتسب محجراه شكلًا هلاليًّا. انفتحَتْ أجفانه مرة أخرى. وكان ذلك كل شيء. نهض بمساعدة المحيطين به، ثم قال:

- يا بني، لقد نادَتْكَ الآلهة قبل أن تناديني. اشتهَتْ جمالك فصيَّرتكَ خالدًا، رغبةً منها في استبقائك معها.

سرَتْ همهمة إعجاب احتفاءً بكلماته النبيلة الفاضلة. وصل رجال آخرون: عدة جنود، وشخص يوحي مظهره بأنه طبيب. رفع يراكسينو بصره، في حين استأنف الزمنُ جريانَه بعد أن توقَّف إجلالًا. قال:

- مَنْ ارتكب هذه الفعلة؟

لم يعُد صوته بالجمود نفسه. ربما أجهش بالبكاء بعد قليل، حين تنصرف عنه الأنظار كافة. تأخَّرَتِ العاطفة في الظهور على وجهه.

مضَتْ برهة صمت. كانت تلك واحدة من اللحظات التي تتشاور فيها النظرات لتقرِّر من يدلي بمداخلته أولًا. قال أحد مرافقيه:

- سمع الجيران صرخات في المَنْحَت فجرَ اليوم، إلا أنهم ظنُّوها حفلة أخرى من حفلات ذلك المدعو مينيكمو...

تدخَّل أحدهم في الحديث قائلًا:

- لقد لمحنا مينيكمو يخرج من هنا راكضًا!

وفي صوته وهيئته الرثّة ظهر التفاوتُ بينه وبين الجلال الوقور الذي يميِّز رجال يراكسينو. سأله يراكسينو:

- هل رأيتَه بنفسك؟

- أجل! رأيتُه وآخرون، فنادينا خدم الأستينوموس!

بدا الرجل وكأنه يتوقَّع ضربًا من المكافأة عما قد أدلى به من تصريحات. إلا أن يراكسينو قابله بالتجاهل. ومرة أخرى رفع صوته سائلًا:

- هلَّا أخبرني أحدكم، من ارتكب هذه الفعلة؟

تلفَّظ بكلمة «فعلة» وكأنه إزاء انتهاك للحرمات وتدنيس للمُقدَّسات لا يمكن تصوُّره، جدير بأن يلاحقه السخط. خفض الحضور أبصارهم جميعًا. ولم يُسمَع في المَنْحَت ولا حتى طنين الذباب،

رغم أن ذبابتيْن أو ثلاثًا حلَّقَت ببطء في دوائر قرب بريق النوافذ المفتوحة. أما التماثيل، غير المُنجَزة في غالبيتها، فقد بدَتْ وكأنها تتأمَّل يراكسينو بشفقة جامدة.

جثا الطبيب على ركبتيْه، بجسمه النحيل وهيئته الرثَّة وبشرته الأكثر شحوبًا من الجثتيْن بكثير، فيما جعل يتلفَّت برأسه وهو يراقب كلا الجثمانيْن بالتبادل. راح يتلمَّس جثمان الكهل، وبعدها مباشرةً جثمان الشاب، كما لو كان يرغب في عقد مقارنة بينهما، فيما راح يهمهم باكتشافاته ببطء مثابر يليق بطفل يتلو حروف الهجاء قبل الامتحان. وعلى مقربة منه، مال الأستينوموس على الجثمانيْن هو الآخر بينما جعل ينصت ويومئ إليه موافقًا بإجلال.

استقرَّتِ الجثتان على أرضية المَنْحَت، الواحدة في مواجهة الأخرى، مُمدَّدتيْن على جانبَيْهما، طافيتَيْن على سطح بحيرة مهيبة من الدماء. كانت الجثتان وكأنهما نقش على جرَّة من الخزف يمثِّل راقصتَيْن. فبدا الكهل بردائه الرمادي السَمِل طاويًا ذراعه اليمنى، مادًّا ذراعه اليسرى فوق رأسه. في حين تمدَّدَتْ جثة الشاب في الوضع نفسه، وكأنها صورة طبق الأصل، وإن تجرَّد من الثياب تمامًا. أما فيما عدا ذلك، فقد كانا في الجروح البشعة سواء (كهلًا وشابًّا، عبدًا وحرًّا). كان كلٌّ من الجثمانيْن منزوع العينيْن، مُشوَّه الوجه، مبتورًا ما بين الساقيْن، مصابًا بجروح غائرة في البشرة. وبخلاف الثياب، كان ثمة اختلاف آخر بينهما. فقد أمسك الكهل في يمينه المُتيبِّسة بعينيْن اقتُلعتا من محجريْهما.

صرَّح الطبيب، وكأنه بصدد إعداد جَرْد:

- لونهما أزرق.

قالها وعطس على نحو عبثي. ثم أردف:

- إنهما عينا الشاب.

أعلن أحدهم مُبدِّدًا الصمت المُروِّع:

- لقد حضر معاون الأحد عشر! اقتفَتِ الأنظار أثر الصوت وسط جمع الفضوليين المتزاحمين عند مدخل البهو. وعلى الرغم من ذلك، لم يتسنَّ لأحد أن يعرف من كان الواصل حديثًا. عند ذاك جاء صوت مباغت ليجذب الانتباه من فوره بكلماته المُفعمة بالصدق.

- أوه، يراكسينو! نبيل وسط النبلاء!

كان صوت دياغوراس الميدونتي، الذي بلغ المَنْحَت قُبَيْل وصول يراكسينو بقليل رفقة رجل بدين قصير القامة وآخر هائل الجرم عجيب الهيئة يحمل كلبًا صغيرًا بين ذراعيْه. غاب الرجل البدين عن الأنظار وكأنما قد تبخَّر في الهواء. أما دياغوراس فقد جعل حضوره جليًّا لوقت غير قصير، إذ رآه الجميع يبكي بمرارة جاثيًا قرب الجثتيْن. في حين بدا الآن نشِطًا حازمًا، وكأن طاقته مُركَّزة في نقطة ثابتة في حنجرته بغرض أن يضفي على عباراته القوة اللازمة، بلا شك. احمرَّتْ عيناه وشحب وجهه شحوب الموت. قال:

- أنا دياغوراس الميدونتي، مرشد أنتيسو في...

فقاطعه يراكسينو في غير رفق:

- أعرف من تكون. هات ما عندك.

مسح دياغوراس شفتيْه الجافّتيْن بلسانه ثم التقط أنفاسه.

- أريد اتهام مينيكمو النحَّات علانيةً بارتكاب تلك الجرائم.

سُمِعَتْ همهمة متثاقلة. غلب التأثُّر على تعابير يراكسينو بعد معركة بطيئة. وبوجه مُتورِّد رفع أحد حاجبيْه السوداويْن جاذبًا خيوط العين والجفنيْن ببطء. خرجَتْ أنفاسه مسموعة. قال:

- دياغوراس، تبدو مُتأكِّدًا مما تقول.

- حقًّا يا يراكسينو النبيل.

ثم هتف صوت آخر، بلكنة أجنبية:

- ماذا جرى هنا؟

أخيرًا حضر معاون الأحد عشر، وليس سواه، معاون الأحد عشر قاضيًا أعضاء السلطة القضائية العليا المعنية بالشؤون الجنائية. كان رجلًا ضخمًا، يرتدي ثيابًا من أديم الحيوانات على طريقة الهمج، ويلفّ حول خصره سوطًا من جلد العجول. كان مظهره منذرًا، برغم ما يشي به وجهه من بلاهة. راح يلهث بقوة، وكأنما قد جاء راكضًا. وبالتأمُّل في التعبير المرتسم على وجهه، فقد بدا كمن خابَ ظنُّه إثر معرفته بأن أكثر الأمور إثارة للاهتمام قد وقع في غيابه. دنا بعض الرجال ممن لا تخلو منهم تلك المواقف لإحاطته علمًا بما يعرفون، أو ما ظنُّوا أنهم يعرفون. في حين ظلَّ غالب الحضور يتابعون كلمات يراكسينو بانتباه:

- دياغوراس، وفيمَ اعتقادك بأن مينيكمو هو من ارتكب هذه الفعلة في حقِّهما...

في حق ابني ومُربِّيه الكهل إوْماركو؟

عاود دياغوراس مسح شفتيْه بلسانه.

- يراكسينو النبيل، سيخبرنا مينيكمو بنفسه، تحت التعذيب إن اقتضَتِ الحاجة. لا تشكّ في ضلوعه بالجريمة، فذلك أمر واضح وضوح الشمس.

سرى اسم مينيكمو على كل لسان، منطوقًا بطرق مختلفة، وبأصوات متباينة. استحضرَتِ الأذهان هيئتَه وتقاسيم وجهه. صاح أحدهم بشيء، وإن تلقَّى أمرًا بأن يلزم الصمت في الحال. وأخيرًا بدَّد يراكسينو الصمت المهيب بقوله:

- ابحثوا عن مينيكمو.

كانت وكأنها كلمة السر المُرتقَبة، فقد ارتفَعتْ رؤوس وامتدَّتْ أذرع مدفوعة بالغضب. البعض نادى بالانتقام، في حين راح البعض الآخر يقسم بالآلهة. البعض نادى بأن يلقى مينيكمو من العذاب أفظعه، وهم لا يعرفون حتى كيف يبدو. أما من يعرفونه فقد راحوا يهزُّون رؤوسهم ويملِّسون لحاهم، وربما تساءلوا: «مَنْ كان يتصوَّرا!». وحده معاون الأحد عشر بدا أنه لم يفهم جيِّدًا ما يجري من حوله، فجعل يسأل أولئك وهؤلاء عمَّ يتحدَّثون، ومَنْ الكهل المُشوَّه المُمدَّد قرب أنتيسو الشاب، ومَنْ ذلك الذي اتَّهم مينيكمو النحَّات، وبمَ يهتف الجميع، ومَنْ، وماذا...

أما دياغوراس، فقد سأل كرانتور وهو يجذبه من ردائه:

- أين هراقليس؟

كانت البلبلة عظيمة.

هزَّ كرانتور منكبيْه الهائليْن قائلًا:

- لستُ أدري. منذ لحظات كان يتشمَّم الجثتيْن كالكلاب. أما الآن...

ألفى دياغوراس المَنْحَتَ يضمُّ صنفيْن من التماثيل: صنفٌ جامدٌ بلا حراك، والآخر يتحرَّك بالكاد. راح يتفاداها جميعًا على نحو أخرق، فتلقَّى دفعات، وسمع مَنْ يناديه في خضمّ الجلبة، بينما شُدَّ رداؤه في الاتجاه المعاكس. التفت دياغوراس برأسه ليجد وجه أحد رجال يراكسينو يدنو منه وهو يحرِّك شفتيْه.

- عليك بالحديث مع الأركون إن شئت توجيه الاتهام...

قال دياغوراس من دون أن يفهم جيِّدًا ما يقول الرجل:

- أجل، سأفعل.

تجاوز العقبات كافة، وانسلَّ من بين الجموع، وشقَّ طريقه وصولًا إلى المخرج. وهناك كان النهار بديعًا. وقف الناس عبيدًا وأحرارًا في جمود أمام رواق المدخل، فيما بدا أنهم يغبطون تماثيل المَنْحَت. أثقل وجودُ الناس على صدر دياغوراس وكأنه لوح حجري. ترك البناء خلفه، فاستطاع أن يلتقط أنفاسه بحرية. توقَّف، تلفَّت يمنةً ويسرةً. ثم انتقى طريقًا صاعدة، في يأس. وأخيرًا، وبارتياح عظيم، لمح كاشف الألغاز بعيدًا، بخطاه الملتوية ومشيته الخرقاء، يسير في بطء تأمُّلي. ناداه. لحق به، فقال:

- وددتُ أن أشكرك.

لاحت في صوته لجاجة غريبة، وكأنه راعٍ يسعى لحثِّ القطيع من دون صياح حتى يمضي بسرعة أكبر. أردف:

- لقد أنجزتَ عملك على ما يرام، ولم أعُد في حاجة إليك. عشيةَ اليوم أؤدِّي أتعابك المُتَّفق عليها.

بدا وكأنه عاجز عن تحمُّل الصمت، فاستطرد في حديثه:

- لقد جرى كل شيء كما أخبرتَني، في خاتمة المطاف. كنتَ مُحقًّا، أما أنا فقد جانبني الصواب.

جعل هراقليس يتبرَّم. في حين كاد دياغوراس يضطرّ لأن يميل عليه كي يسمع ما يقوله، رغم بطء حديثه:

- تُرى، لِمَ أقدم ذلك الأحمق على فعلته؟ لقد استسلم للخوف أو الجنون، بالطبع...

ولكن...

الجثتان مُشوَّهتان!...

إنه ضرب من العبث!

فأجابه دياغوراس، في بهجة غريبة ضارية:

- يا عزيزي هراقليس الصالح، إنه هو الذي سيخبرنا بنفسه. فالتعذيب سيحلُّ عقدة لسانه!

سارا مطرقيْن عَبْر شارع تغمره الشمس. حكَّ هراقليس رأسه المخروطي.

- أُعرب لك عن أسفي، دياغوراس. لقد جانبني الصواب بشأن مينيكمو. كنتُ متأكِّدًا أنه سيحاول الهرب، فلم...

- ما عاد يهمّ...

راح دياغوراس يتحدَّث كمن بلغ وجهته بعد مسيرة طويلة بطيئة عَبْر طريق مقفرة، والآن ينال قسطًا من الراحة.

- ... أنا مَنْ جانبه الصواب، أما الآن فقد فهمت. لقد قدَّمتُ شرفَ الأكاديمية على حيوات أولئك الفتية المساكين. ما عاد يهمّ. سوف أتحدَّث، وأتَّهمه!...

وأتَّهم نفسي باعتباري مرشدًا، فلو أن...

حكَّ صدغيْه كالمستغرق في مسألة حسابية عويصة. ثم أردف قائلًا:

- ... فلو أن شيئًا قد جعلهم يلجأون إلى المجرم بصفته مرشدًا، إذًا، يجب عليَّ تحمُّل المساءلة.

أراد هراقليس أن يقاطعه، إلا أنه عدّل عن رأيه وآثر الانتظار. كرَّر دياغوراس قوله، وكأنما يرغب في حفظ الكلمات عن ظهر قلب:

- يجب عليَّ تحمُّل المساءلة...

يجب عليَّ تحمُّل المساءلة!...

ما ذلك المدعو مينيكمو بأكثر من ساخط مجنون، أما أنا...

ما أنا؟

ثم وقع شيء غريب، وإن لم يبدُ أن أحدهما قد انتبه إليه في بادئ الأمر، إذ شرعا يتكلَّمان في الوقت نفسه، وكأنهما يتجاذبان أطراف الحديث من دون الإنصات إلى أحدهما الآخر، ويجرِّران العبارات ببطء، الأول بنبرة مُتَّقدة، والآخر في برود:

- أنا المسؤول، أنا المسؤول الحقيقي...!

- مينيكمو يُباغت إؤماركو، يفزع، ثم...

- فماذا يعني أن يكون المرء مُعلِّمًا؟ خبِّرني...!

- ... يهدِّده إؤماركو. جيِّد جدًّا. وبعد ذلك...

- ... يعني أن يباشر التعليم، والتعليم واجب مُقدَّس...!

- ... يتصارعان، يهوي إوْماركو أرضًا، بالطبع...

- ... التعليم يعني تشكيل النفوس...!

- ... ربما أراد أنتيسو حماية إوْماركو...

- ...المرشد الصالح يعرف تلاميذه...!

- ...حسنًا، ولكن، لِمَ أقدم على تشويه جسدَيْهما كما فعل؟...

- ...وإن لم يكُن، فما جدوى التعليم إذًا؟...

- لقد جانبني الصواب.

- لقد جانبني الصواب!

توقَّفا. ولبرهة جعلا يتبادلان النظرات في ارتباك ولهفة، وكأن أكثر ما يحتاج إليه كلٌّ منهما في تلك اللحظة هو الآخر. بدا وجه هراقليس طاعنًا في السن. قال ببطء عصي على التصديق:

- دياغوراس...

أقرُّ بأنني قد عالجتُ المسألة برمّتها على نحو أخرق كما تفعل الأبقار. لم يحدث أن اعترى خواطري هذا القدر من التثاقل والخَرَق من قبل. إن أكثر ما يدعو إلى المفاجأة أن الحوادث تسير وفق منطق بعينه. كما أن تفسيري لما حدث مُرْضٍ بوجه عام...

ولكن...

ثمة تفاصيل...

على الرغم من ندرتها...

أودُّ أن أحظى ببعض الوقت للتأمُّل فيها. لن أتقاضى منك أجرًا نظير هذا الوقت الإضافي.

أطرق دياغوراس واضعًا يديْه على منكبي كاشف الألغاز الشديديْن. ثم رنا إلى عينيْه مباشرة وقال:

- هراقليس، لقد بلغنا خاتمة المطاف.

أطرق هنيهة ثم أعاد قوله ببطء وكأنه يتحدَّث إلى طفل صغير:

- لقد بلغنا خاتمة المطاف. كانت طريقًا وعرة طويلة. على كل حال، ها قد وصلنا إلى هنا. ائذنْ لعقلك بأن يستريح. ومن جانبي، سأحاول الحصول على قسط من راحة النفس أنا الآخر.

وفجأة ابتعد كاشف الألغاز عن دياغوراس بحدة، مضى في سبيله عَبْر المنحدر. ثم بدا أنه قد تذكَّر شيئًا، فالتفت إلى الفيلسوف وقال:

- سأعتكف في بيتي للتأمُّل. وسأحيطك علمًا في حال جدَّتْ أنباء.

وقبل أن يتسنَّى لدياغوراس أن يعترض سبيله، اندسَّ هراقليس وسط الجموع التي مضَتْ في تلك اللحظة متثاقلة، بطيئة، في طريقها نزولًا عَبْر الشارع، بتأثير من جاذبية التراچيديا.

قال البعض إن الأمر قد جرى بسرعة، وإن رأتِ الغالبية أن كل شيء قد حدث ببطء بالغ. ربما كان ذلك هو البطء السريع الذي يتحقَّق حين تعتري المرء رغبة مُتَّقدة في شيء، بَيْد أن أحدًا لم يقُل ذلك.

جرى الأمر قبل أن تتساقط ظلال المساء، قبل أن يغلق التجار الأجانب حوانيتهم، ويشهر كهنة المعابد سكاكينهم لتقديم القرابين الأخيرة. ورغم أن أحدًا لم يتحقَّق من التوقيت، فقد ذهب الرأي العام إلى أن الأمر قد وقع خلال ساعات ما بعد الظهيرة، حين تشرع الشمس في المغيب، مُثقلَةً بالضياء. تكفَّل الجُند بحراسة البوابات، إلا أن الأمر لم يقع عند البوابات. ولا عند الأكواخ، حيث غامر البعض بدخولها ظنًّا بأنهم واجدوه في أحد الأركان، منزويًا، ويرتجف، ويتضوَّر جوعًا كالجرذ. في واقع الأمر، جرى كل شيء بالترتيب في إحدى الشوارع العامرة، شارع الخزَّافين الجُدُد.

في تلك اللحظة سرى تساؤل واحد عَبْر الشارع، مضى في سبيله على نحو أخرق ولكن في عزم لا يلين، ببطء، راح يتنقَّل من فم إلى آخر:

- هل رأيتَ مينيكمو، النحَّات من سيراميكوس؟

اجتذب التساؤل إليه المريدين كما لو كان دينًا عابرًا. وإذا بالمُتحوِّلين إلى ذلك الدين وقد صاروا من حَمَلة اللواء الجُدُد. البعض تخلَّف عنهم في الطريق، وهم أولئك الذين ظنُّوا أنهم يعرفون أين قد تكون الإجابة...

«تمهَّلوا لحظةً، فإننا لم نفتِّش هذا البيت!»، «انتظروا، دعونا نسأل هذا الكهل!»، «لن أتأخَّر، سأتحقَّق من صحة نظريتي!»...

أما البعض الآخر، وهم من المُشكِّكين، فلم يعتنقوا الإيمان الجديد ظنًّا منهم بأن التساؤل يُمكن صياغته بعبارة أفضل على النحو التالي:

- هل رأيتَ ذلك الذي لم ترَه قط، ولن تراه أبدًا، لأنه قد رحل بعيدًا جدًّا في اللحظة التي نتحدَّث فيها؟...

ثم يهزُّون رؤوسهم ببطء ويفكِّرون باسمين:

- غبيٌّ أنت إن خِلْتَ مينيكمو باقيًا في مكانه، يترقَّب أن...

وعلى الرغم من ذلك، فقد مضى التساؤل في سبيله.

وفي تلك اللحظة، بلغ التساؤل حانوتًا متناهي الصغر يملكه خزَّاف أجنبي، بخطى ملتوية جارفة، حيث قال أحد الرجال الذين راحوا يتأمَّلون البضائع في شرود:

- بالطبع رأيتُ مينيكمو.

أما السائل فكان على وشك تجاوزه، وقد ألِف سماع الإجابة المعهودة دومًا، حين بدا وكأنه قد اصطدم بجدار خفي. دار على عقبيْه ليتفرَّس في وجهٍ تخلَّلته شقوق هادئة، ولحية مُهمَلة خفيفة، وخصلات شعر رمادية. سأله مُتلهِّفًا:

- تقول إنك قد رأيتَ مينيكمو؟ أين؟

فأجابه الرجل:

- أنا مينيكمو.

يُقال إنه كان باسمًا.

- كلا، لم يكُن باسمًا.

- بل كان باسمًا يا هاريالو، أقسم بعيني الربة أثينة اللتيْن تشبهان أعين البوم!

- وأنا أقسم بنهر ستيكس الأسود المقدَّس إنه ما كان باسمًا!

- هل كنتَ على مقربة منه؟

- بقدر ما أنا على مقربة منك الآن، ولم يكُن باسمًا، بل كان وجهه عابسًا وليس باسمًا!

- بل كان باسمًا، فقد رأيتُه أنا أيضًا. كان باسمًا حين كبَّلتُم ذراعيْه فيما بينكم، أقسم بـ...!

- بل كان وجهه عابسًا أيها الأبله. ماذا لو زممتُ شفتي هكذا، هل أبدو لك باسمًا؟

- بل تبدو لي غبيًّا. كيف وحق إله الحقيقة، كيف له أن يبتسم عارفًا بما ينتظره؟

- وإن كان عارفًا بما ينتظره، فلمَ سلَّم نفسه بدلًا من الرحيل عن المدينة هاربًا؟

أنجب التساؤل تساؤلات أخرى صغيرة، كلّها مُشوَّهة، مُحتضرة، قضَتْ مع حلول الليل...

جلس كاشف الألغاز أمام المكتب، مُسندًا وجنته المكتنزة إلى يده، مُتفكِّرًا[113].

دلفت ياسينترا إلى الحجرة من دون أن تُحدث صوتًا. رفع ناظريْه فوجدها واقفة عند عتبة الباب، مرسومةً بخطوط من ظلال. كانت ترتدي ثوب بيبلوس طويلًا، مشدودًا إلى كتفها اليمنى بمشبك. أما نهدها الأيسر، الذي أحاطت به حافة النسيج، فكاد يبدو عاريًا[114].

قالَتْ ياسينترا بصوت ذكوري:

- تابعْ عملك، لا أودُّ إزعاجك.

لم يبدُ هراقليس مُنزعجًا، فقال:

- ماذا جاء بك؟[115]

- لا تنقطع عن عملك. يبدو أنه في غاية الأهمية...

لم يعرف هراقليس إن كانت تهزأ به (الأمر الذي يشقُّ عليه أن يقف على حقيقته، نظرًا لاعتقاده بأن النساء جميعًا بمثابة أقنعة). رآها تسير صوبه ببطء، شاعرةً بالارتياح في العتمة. كرَّر سؤاله:

- ماذا جاء بك؟[116]

فهزَّتْ كتفيْها. وببطء دنَتْ منه، بنوع من الفتور. سألَتْه بفضول:

- كيف لك أن تقضي كل هذا الوقت جالسًا، في العتمة؟

فقال هراقليس:

- إنني أفكِّر. العتمة تساعدني على التفكير[117].

أما هي فهمسَتْ:

- هل تريدني أن أمسِّد جسمك؟

نظر إليها هراقليس من دون أن يحير جوابًا[118].

مدَّتْ يديْها نحوه، فقال هراقليس:

- هلَّا تركتني وشأني![119]

فهمسَتْ بنبرة لعوب:

- إنما أودُّ تمسيد جسمك فقط.

- كلا. هلَّا تركتني وشأني![120]

فتوقَّفَتْ ياسينترا وتمتمَتْ:

- أودُّ إمتاعك.

سأل هراقليس:

- ولمَ؟

قالَتْ هي:

- أنا مدينة لك بمعروف، وأودُّ أن أسديك إياه.

- لا حاجة لذلك[121].

- أنا وحيدة، بقدر ما أنت وحيد. يمكنني إسعادك، أؤكِّد لك.

جعل هراقليس يتفحَّصها. لم يبدُ على وجهها أي تعبير. قال:

- إن شئت إسعادي، فهلَّا تركتني وحدي لحظةً![122]

تنهَّدَتْ. عادت إلى هزِّ كتفيْها مرة أخرى. سألَتْ:

- هل تريد أن تأكل شيئًا؟ أو تشرب شيئًا؟

- لستُ أريد شيئًا[123].

دارَتْ ياسينترا على عقبيْها وتوقَّفَتْ عند عتبة الباب. قالَتْ:

- نادِني إن احتجتَ شيئًا.

- سأفعل. والآن، إلى الخارج[124].

- كل ما عليك فعله أن تناديني، وسوف أحضر.

- إلى الخارج، الآن! [125]

أُقفِل الباب.

ومرة أخرى، غرقَتِ الحجرة في العتمة[126].

الفصل التاسع

لمَّا كانت الجرائم التي اتُّهِم باقترافها مينيكمو بن لاكوس الكاريسي جرائم دم-أو جرائم «لحم» على نحو ما زعم البعض- فقد عُقِدَتِ المُحاكمة في آريوباجوس، المحكمة القائمة فوق تلِّ آريس، وإحدى المؤسَّسات الأوفر حظًّا من الإجلال في المدينة. على رخامها طُبِخَتْ قرارات الحكومة المصيرية في زمن غير الزمن، أما في أعقاب الإصلاحات التي أدخلها كلٌّ من سولون وكليسثنيس، فقد تضاءل نفوذها وغدَتْ مُجرَّد هيئة قضاء معنية بالحكم في جرائم القتل المُتعمَّدة، لا تُذيق مُتَّهَميها إلا أحكام الإعدام والنفي وإهدار الحقوق. ولذا فلم يكن هنالك أثيني واحد يُسرُّ لمرأى المُدَرَّج الأبيض والأعمدة الغليظة ومنصّة الأراكِنة العالية المُقامَة إزاء مبخرة مستديرة على هيئة صحفة تتصاعد منها أبخرة العشب على شرف الربة أثينة، ويفوح منها عبقٌ يستحضر إلى الذاكرة رائحة شواء لحوم البشر، على نحو مبهم، بحسب مزاعم المُطَّلِعين من الناس. ومع ذلك، أحيانًا كانت تُقام مأدبة صغيرة على نفقة أحد المُتَّهَمين من ذوي الجاه.

أثارت محاكمة مينيكمو بن لاكوس الكاريسي تطلُّعات كبرى. وما كان مبعث تلك التطلعات هوية المجرم بقدر ما كانه أصل الضحايا النبيل وبشاعة الجرائم المُقترَفة، ذلك أن مينيكمو لا يعدو كونه نحّاتًا، وهم كُثُرٌ...

واحدًا من أولئك الذين يكسبون قوتهم من بيع أعمالهم لرعاة الفنون الأرستقراطيين، كمن يبيع لحمًا.

ما كاد المنادي يجهر بإذاعة الخبر، حتى لم يتبقَّ موضعًا شاغرًا في المُدَرَّج التاريخي، فكانت الغالبية العظمى من الحشد المُتضوِّر جوعًا مُؤلَّفة من أجانب وأثينيين من رابطة النحّاتين والخزَّافين، وكذلك شعراء وعسكريين، وإن لم يخلُ الحضور من المواطنين البسطاء الفضوليين.

اتَّسعَتِ العيون كما الصحاف، بينما سرَتْ همهمة استحسان عندما أقبل الجند يسوقون المُتَّهَم الذي شُدَّ وثاق معصميْه وهزُل لحمُه برغم صلابة قوامه وشدَّته. وقف مينيكمو بن لاكوس الكاريسي مُنتصِب القامة، وقد رفع هامته عاليًا، وراح يملِّس تجاعيد شعره الرمادي، وكأنه مشرفٌ على نيل تكريم عسكري بدلًا من العقوبة. بهدوء راح يصغي إلى قائمة التهم الدسمة، وعندما ناداه الأركون الناطق باسم الهيئة سائلًا عن قوله في التهم المنسوبة إليه، لزم الصمت مُستخدمًا بذلك

حقّه المشروع. هل سينطق مينيكمو؟ أبدًا، ولا حتى بـ«أجل» أو بـ«كلا». ما زال فاتحًا صدره بخيلاء ديك برّي عنيد. هل يعترف بجرمه؟ أم يتبرّأ منه؟ هل كان يخفي سرًّا مُروِّعًا ينتوي البوح به في خاتمة المطاف؟

تقدَّم الشهود تباعًا، فمهَّد جيرانُه الطريقَ بشهادتهم حول الشباب الذين كانوا يقصدون مَنْحَته بذريعة الوقوف أمامه ليستلهم منهم أعماله، وهم في المجمل من الصعاليك أو العبيد. تطرَّق الحديث إلى هواياته الليلية: الصرخات الحرّيفة، والدمدمات الشرهة، وروائح الحفلات الماجنة، اللاذعة والحلوة في آن، وعدد الإفيبوس العراة الذين يأتونه، ذوي الأجساد البيض التي تشبه كعكات القشدة. تقلَّصَتْ معدات الكثيرين عند سماعهم تلك التصريحات. ثم ادَّعى عددٌ من الشعراء أن مينيكمو مواطن صالح، ومُؤلِّف بارع يسعى جاهدًا لإحياء المسرح الأثيني القديم. فما كان من الأراكِنة إلا أن قابلوا شهادتهم بالتجاهل، على اعتبارهم فنانين باعثين على الضجر، شأنهم في ذلك شأن الفنان الذي سعوا للإشادة به.

حان الوقت لسماع وقائع الجرائم التي بلغَتْ حدَّ المجزرة، فسُلِّط الضوء على النُّتَف الدامية، واللحم المُقطَّع إلى شرائح، والأحشاء المائعة، والأجساد النيِّئة الخالية من أي معنى. تحدَّث قائد حرس الحدود الذي عثر على تراماكو، وأدلى الأستينوموس الذين عثروا على إيونيو وأنتيسو بآرائهم. جاءت الأسئلة مُحاطَة بالأشلاء المُمزَّقة. وأخيرًا، عندما انتصف النهار، تحت سطوة خيول مركبة الشمس الحارقة، ارتقى دَرَجَ المنصة دياغوراس بن خاميساكو الميدونتي بخياله القاتم. كان الصمت صادقًا، والكل يترقَّب بنفاد صبر نهم ما يُفترَض بها أن تكون الشهادة الرئيسية في الدعوى المُقامة ضد مينيكمو. وبالفعل لم يُخِبْ دياغوراس بن خاميساكو الميدونتي آمالهم، فكان حازمًا في الرد على الأسئلة المُوجَّهة إليه، واضحًا في إلقاء عباراته بنطق واضحٍ لا غبار عليه، نزيهًا في استعراض الوقائع، رصينًا عند الحكم عليها، قاسيًا في بعض المواضع، وبرغم المذاق المرير الذي خلَّفَتْه شهادته في خاتمة المطاف، فقد جاءت مُرضيةً بوجه عام. عند حديثه، لم ينظر إلى المُدَرَّج حيث جلس أفلاطون وبعضٌ من رفاقه، بل إلى منصّة الأراكِنة، وإن لم يبدُ أن الأواخر يعيرون كلماته أدنى انتباه، وكأنهم على يقين من الحكم بالفعل، وكأن شهادته لا تعدو كونها فاتحة شهية.

بدأ الجوع يقرص البطون، فقرَّر كبير الأراكِنة أن المحكمة قد اكتفَتْ بما قُدِّم إليها من شهادات. التفتَتْ عيناه الرائقتان الزرقاوان إلى المُتَّهَم، في لا مبالاة مُهذَّبة تليق بفرس.

- مينيكمو بن لاكوس الكاريسي، المحكمة تخوِّل لك الحقّ في الدفاع عن نفسك، إن تكُن هذه رغبتك.

وبغتةً تمركزَتْ ساحة آريوباجوس المهيبة بما لها من أعمدة ومنصة ومبخرة فوَّاحة في نقطة واحدة التقَتْ عندها نظرات الحضور النهمة: وجه النحّات النيِّء، بلحمه الداكن الذي ترك عليه النضج آثاره، وعينيْه المزدانتيْن بالأهداب، وشعره الرمادي المتناثر فوق رأسه كما تُنثَر التوابل.

وفي صمت باعث على اللهفة، يشبه إراقة الخمر قُبَيْل المأدبة، فتح مينيكمو بن لاكوس الكاريسي فمه على مهل، مسح شفتيْه الجافّتيْن بطرف لسانه، وافترّ ثغره عن ابتسامة[127].

كان ذلك فم امرأة، بأسنانه وأنفاسه الساخنة...

أما هو فكان يعرف أن ذلك الفم قادر على العضِّ، أو الأكل، أو الالتهام، وإن لم يكُن ذلك أكثر ما استأثر باهتمامه لحظتها، بل القلب الخافق الذي تشبَّثَتْ به اليد المجهولة. لم يُقلقه انسياب شفتي تلك الأنثى على مهل (فهي أنثى أكثر من كونها امرأة)، ولا مرور أسنانها الدافئة فوق بشرته، فقد طابَتْ له تلك المداعبات بعض الشيء (لا أكثر من بعض الشيء). أما ذلك القلب...

ذلك اللحم الخافق الرطب الذي أحاطت به الأصابع القوية بإحكام...

تقتضي الضرورة أن يكشف عمَّ وراء القلب، وعن صاحب الظل الكثيف المُتربِّص على الحدود المُتاخِمة لمجال رؤيته. فتلك الذراع ليست طافية في الهواء، والآن يعرف ذلك. بل إنها امتداد لهيئة تتبدَّى حينًا وتتوارى حينًا، كما يتبدَّى القمر ويتوارى على مرِّ الليالي. والآن...

كاد يتبيَّن الكتف كلّها...

جندي، على مبعدة، يلقي بأمر، أو يقول شيئًا، أو يوضِّح شيئًا. جاء صوته مألوفًا، وإن لم يتسنَّ له أن يتبيَّن كلماته. وأي كلمات مهمّة! ثمّة تفصيلة أخرى أزعجته، فالطيران يبعث في الصدر شيئًا من الضيق...

والضرورة تقتضي منه أن يتذكَّر ما اكتشف تحسُّبًا لتحرّيات مستقبلية...

يبعث شيئًا من الضيق، أجل، ورواسب من اللذَّة في المناطق الأكثر حساسية. طاب له الطيران، برغم الفم، والعضِّ الواهن، وتراخي اللحم...

أفاق من سباته. رأى ظلًّا راكبًا فوق جسمه فأزاحه عنه بحدّة، بحركة محمومة من ذراعيْه. تذكَّر أن ثمة تقاليد بعينها تصوِّر الكوابيس على هيئة مسخ له رأس فَرَس وجسم امرأة يجثم على صدر النائم بردفيْه المكشوفيْن ويهمس إليه بكلمات مريرة قبل أن يلتهمه. تسلَّل الارتباك بين الأغطية، وتوتَّر اللحم، وتشابكَتِ السيقان، وتعالَتِ التأوُّهات. تلك العتمة! أوه، تلك العتمة!...

- كلا، كلا، هدِّئ من روعك.

- ماذا؟...

مَنْ؟...

- هدِّئ من روعك. كنتَ تحلم.

- آخيسيكورا؟

- كلّا، كلّا...

سرَتْ في بدنه رجفة. وجد نفسه مستلقيًا على ظهره، فوق فراشه وفي مخدعه، الذي ما زال مخدعه (الآن يمكنه التحقُّق من ذلك). كان كل شيء في محلّه، عدا ذلك اللحم الحارّ العاري، الذي جعل ينتفض إلى جواره، وكأنه مُهْرٌ مضطربٌ قويٌّ. أضاء عقلُه ذبالةَ شمعة في رأسه، وفيما هو يتثاءب، بدأ يومه الجديد، وإن لم تخلُ بداية اليوم من بعض الذعر. استنبط من تكون، فسألها:

- ياسينترا؟

- أجل.

استقام هراقليس على فراشه وقد توتَّرت عضلات بطنه، وكأنما قد فرغ من الأكل لتوه، ثم حكَّ عينيْه.

- ماذا أنتِ فاعلة هنا؟

لم يتلقَّ ردًّا. أحسَّ بها تتحرَّك إلى جواره، حارّةً، رطبةً، وكأن العصارات تنساب من لحمها. غاص الفراش عند غير موضع. انتبه إلى حركتها فجعل يتمايل. وعلى الفور سُمِعَتْ أصوات مكتومة ووقع قدميْن حافيتيْن فوق الأرض لا تخطئه أذن. سألها:

- إلى أين أنتِ ذاهبة؟

- ألا تريد مني أن أضيء المصباح؟

قدحَتْ بالزِّنْد فأحسَّ بالشرر المتطاير منه. دار في خلده: «إنها تعرف أين أُبقي المصباح كل ليلة، وفي أي موضع تجد الزِّنْد»، فدوَّن تلك الخاطرة بموضع في مكتبته الذهنية الرحيبة. بعد قليل تبدَّى جسمها أمام ناظريْه وقد غمر الضوء شقًّا من لحمها، فكأنما قد ضمّخه بالعسل. تردَّد هراقليس قبل توصيف حالتها بـ«العري». ففي واقع الأمر، لم يسبق له يومًا أن رأى امرأة على هذا القدر من العري، فلا زينة، ولا حليّ، ولا تصفيفة شعر تحميها، ولا حتى غِلالة الحشمة الرقيقة على الرغم من أثرها النافذ. تعرَّتْ من كل شيء. حتى دار في خلد هراقليس أنها صارت تشبه قطعة لحم نيِّئة، ملقاة أرضًا.

قالت ياسينترَا:

- اصفحْ عني، أتوسَّل إليك.

بَيْد أنه لم يحسّ في صوتها بأدنى بادرة قلق بشأن احتمال ألّا يصفح عنها.

ثم أردفَتْ:

- سمعتُك تئنّ وأنا في حجرتي. بدا لي أنك تتألَّم، فأردتُ إيقاظك.

فقال هراقليس:

- كان حلمًا، كابوسًا يداهمني منذ زمن يسير.

- من عادة الآلهة أن تحدِّثنا عَبْر الأحلام المُتكرِّرة.

- أنا لا أؤمن بذلك، لكونه يفتقر إلى المنطق. فما مِنْ تفسير للأحلام، بل إنها صور نختلقها كيفما اتَّفق.

أما هي فلم تُجِر جوابًا.

خطر لهراقليس أن ينادي يونسيكا، فتذكَّر أن جاريته قد استأذنَتْ ليلة أمس في حضور لقاء أخوي يضمُّ جمعًا من المؤمنين بالأسرار المُقدَّسة في إليوسيس. كان وبائعة الهوى وحدهما في

البيت.

قالت:

- أتودّ الاغتسال فأحضر لك الطاس؟

- كلا.

عند ذاك سألَتْ ياسينترا، وهي لا تكاد تبدِّل نبرة صوتها:

- مَنْ تكون آخيسيكورا؟

للوهلة الأولى رمقها هراقليس ولم يفهم. ثم سأل:

- هل ذكرتُ اسمها في أحلامي؟

- أجل. كذلك اسم إتيس. وظننتَ أني كلتيهما.

فقال هراقليس:

- آخيسيكورا كانت زوجتي. مرضَتْ وقضَتْ منذ زمن. ليس لنا أبناء.

أطرق هنيهةً ثم أردف بالنبرة التعليمية ذاتها، وكأنه يشرح للفتاة درسًا باعثًا على الضجر:

- أما إتيس فصديقة قديمة...

من الجدير بالفضول أنني ذكرتُ كلتيهما. وإن يكُن، قلتُ لكِ إن الأحلام لا تعني شيئًا وفق رأيي.

مضَتْ برهة صمت. بينما وارى المصباح عري الفتاة، وقد انساب ضياؤه آتيًا من الأسفل. ألقى المصباح بظلالٍ مرتعشة على نهديها وعانتها، فيما بدا وكأن سيورًا دقيقة تطوّق شفتيْها وحاجبيْها وأجفانها. ولبرهة تفحَّصها هراقليس مليًّا، راغبًا في الكشف عمَّ قد تخفيه تضاريس جسمها بخلاف العضلات والدماء. أي اختلاف بين زوجته المَبكيَّة آخيسيكورا وبين بائعة الهوى تلك!

قالت ياسينترا:

- أنا ذاهبة، ما لم ترغب في شيء آخر.

سألها:

- أما زال على الفجر الكثير؟

- كلّا. فقد اصطبغ الليل بالرمادي.

دار في خلد هراقليس: «اصطبغ الليل بالرمادي. ملاحظة تليق بذلك الكائن».

ثم أشار إليها قائلًا:

- دعي المصباح مُضاءً إذًا.

- حسنًا. فلتنعم عليك الآلهة بالراحة.

دار في خلده: «بالأمس قالت إنها مدينة لي بمعروف. ولكن، لِمَ تسعى لإرغامي على قبول هذا الثمن لقاء المعروف؟ هل أحسستُ فعلًا بفمها على...

أو ربما كان ذلك شطرًا من الحلم؟».

- ياسينترا.

- ماذا؟

آلمه ألا يلمح في ذلك الصوت أدنى أثر للّهفة أو الأمل، آهٍ من الكبرياء التي تأكل نفوس الرجال! بل وآلمه أن يتألّم لذلك. أما هي فما كان منها إلا أن توقَّفَت وأدارت عنقها مُلتفتةً إليه كيما تُبدي له نظراتها العارية المتسائلة بدورها: «ماذا؟».

- لقد أُلقِي القبض على مينيكمو بتهمة قتل إفيبوس آخر. واليوم تُعقَد محاكمته في آريوياجوس. ما عاد هنالك ما تخشينه.

وبعد برهة صمت أردف قائلًا:

- خلتُ أنكِ قد تودِّين معرفة ذلك.

فقالت:

- أجل.

وفيما هي خارجة، أرسل الباب صريرًا عند إقفاله، زاعقًا بالكلمة نفسها: «أجل».

لزم فراشه طوال النهار. وفي المساء قام، وارتدى ثيابه، والتهم صحفة كاملة من ثمار التين الحلوة ثم عقد العزم على الخروج في نزهة. لم يهتمّ حتى بمعرفة إن كانت ياسينترا ما زالت في حجرة المدعوين الصغيرة حيث أنزلها أو إنها، على العكس من ذلك، قد رحلَتْ من دون وداع. كان بابها مُقفلًا، وعلى كل حال، ما كان هراقليس يمانع في بقائها بالبيت وحيدةً، إذ لم تكُن تلك المرأة في نظره سارقة أو حتى شريرة.

بهدوء مضى صوب الأغورا. وحين بلغ الساحة وجد عدة رجال يعرفهم، وغيرهم الكثيرين ممن لا يعرفهم. فآثر سؤال الأواخر.

أجابه شخص ذو بشرة داكنة له أسنان تشبه أسنان الخيل[128]:

وله سحنة تليق بكائن ساتير يتلصَّص على الحوريات. قال:

- محاكمة النحَّات؟ وحق زيوس، ألا تعرف؟ ما للمدينة حديث إلَّا محاكمة النحَّات!

هزَّ هراقليس كتفيْه، وكأنما يعتذر عن جهله. فاستطرد الرجل مُبديًا أسنانه الهائلة:

- حُكِم عليه بالإعدام رميًا في هوَّة الباراترون السحيقة، فقد اعترف بجرمه.

ردَّد هراقليس قوله مُتسائلًا:

- اعترف بجرمه؟

- أجل.

- اعترف بأنه اقترف الجرائم كافة؟

- أجل. على نحو ما اتَّهمه دياغوراس النبيل تحديدًا: فاعترف بقتل الفتيان الثلاثة والمُربِّي الكهل. وجهر بذلك أمام الجميع بابتسامة قائلًا: «أجل، أنا الجاني!»، أو شيئًا من هذا القبيل. دهش الناس لما أبداه من استخفاف، ولم تكُن دهشتهم من فراغ!...

زاد وجهه دكنة أكثر فأكثر وهو يردف قائلًا:

- وحق أيولُّو، ما الإعدام رميًا في هوَّة الباراترون إلا ثمن بخس عن جرائم ذلك اللئيم! لأول مرة أتَّفق مع مطالب النساء!

- وما مطالب النساء؟

- لقد تقدَّم وفد من زوجات النوَّاب بنداءً للأركون، طالبْنَ فيه بخضوع مينيكمو للتعذيب قبل إعدامه... فقال الرجل الذي كان يتحدَّث إليه شبيه كائنات الفون قبل أن يقاطع هراقليس حديثهما:

- اللحم...

لا يبغين سوى اللحم!

كان رجلًا قوي البنية، عريض المنكبيْن، قصير القامة، تناثرَتْ شعيرات شقراء فوق رأسه ولحيته كما تُنثَر التوابل الخفيفة. أومأ شبيه كائنات الفون، ومرة أخرى أبدى أسنانًا تشبه أسنان الخيل.

- لو كان الأمر بيدي لنزلتُ عند رغباتهن، وإن تكُن هذه المرة فحسب!...

أولئك الإفيبوس الأبرياء!...

ألا توافقني أن...؟

التفت إلى هراقليس فلم يجد سوى حيِّز من الفراغ.

سار كاشف الألغاز مُبتعدًا، يتفادى أولئك الذين عكفوا على الثرثرة في الساحة على نحو أخرق. اعتراه الذهول، وكاد يأخذه الدوار، وكأنه أمضى ردحًا طويلًا يحلم حتى أفاق في مدينة مجهولة. بَيْد أنه ظلَّ مُتشبِّثًا بعنان عقله في سباق خواطره السريع. ماذا جرى؟ ثمة شيء لم يعُد منطقيًّا، أو لم يتَّسم بالمنطق يومًا، والآن بدأ يتجلَّى مكمن الخطأ...

فكَّر في مينيكمو. رآه يضرب تراماكو في الغابة حتى قضى الأخير نحبه أو غاب عن الوعي، ثم رآه يتركه للوحوش الضارية. رآه يردي إيونيو قتيلًا، ثم يمزِّق جثته ويُلبسه ثياب امرأة لإخفاء الجريمة، مدفوعًا إلى ذلك بالحرص أو بالخوف. رآه يشوِّه جسد أنتيسو بوحشية، إلا أنه لم يكتفِ بذلك، فطعن العبدَ إوْماركو الذي يُرجَّح أن مينيكمو قد ضبطه وهو يتلصَّص عليه. رآه في المحاكمة، باسمًا، يعترف باقترافه جرائم القتل كافة: «هأنذا، أنا الفاعل، أنا مينيكمو الكاريسي، ويجدر بي القول إني فعلتُ المستحيل لئلا توقعوا بي، والآن...

ما الجدوى! أنا الجاني! قتلتُ تراماكو، وإيونيو، وأنتيسو، وإوْماركو، وولَّيتُ هاربًا، ثم سلَّمتُ نفسي. أدينوني. فأنا الجاني».

لقد وجَّه كلٌّ من أنتيسو وياسينترا أصابع الاتهام إلى مينيكمو...

بل وحتى مينيكمو سلَّم نفسه للموت بنفسه! لا شك في أنه قد جُنَّ...

أما والحال كذلك، فلا بد أنه قد جُنَّ في الآونة الأخيرة. ذلك أنه لم يسلك مسلك المجانين حين ضرب لتراماكو موعدًا في الغابة، بعيدًا عن المدينة، من باب الاحتياط. لم يسلك مسلك المجانين حين ارتجل «انتحارًا» واضحًا لإيونيو. فقد تصرَّف في كلتا الحالتيْن بحذق فائق، على نحو ما يُتوقَّع من غريم أهْلٍ لذكاء كاشف الألغاز، أما الآن...

الآن يبدو أن شيئًا ما عاد يهمُّه! ولكن لِمَ؟ ثمة خلل في نظريته المُحكَمة. وقد طال ذلك الخلل كلَّ شيء: صَرْح الاستدلالات العقلية الإعجازي، وبناء الاستنباطات، وهيكل الأسباب والآثار المُتناغِم...

لقد جانبه الصواب منذ البداية، وأشد ما آلمه كان يقينه بأنه قد أحسن الاستنباط، وأنه لم يغفل تفصيلة واحدة مهمّة، وأنه قد تتبَّع خيوط اللغز كافة، خيطًا إثر خيط...

وذلك منبع الكدر الذي راح يأكله! ما دام قد أحسن إعمال العقل في الأمور، فلمَ جانَبَه الصواب؟ أتراه صحيحًا أن ثمة حقائق غير عقلانية، كما أكَّد مستخدمه دياغوراس؟ استأثرَتِ الخاطرة الأخيرة باهتمامه أكثر من سابقاتها بكثير. توقَّف رافعًا بصره إلى قمة الأكروبوليس، ذلك البناء الهندسي المُشرق الأبيض على ضوء المساء. انتبه إلى معبد بارثينون الإعجازي، إلى رخامه الأهيف الدقيق، إلى الاتقان البديع الذي يميِّز أشكاله، إلى ذلك التكريم المُهدَى من شعب بأسره لقوانين المنطق. ترى، أمن الجائز وجود حقائق مناقضة لذلك الجمال الوجيز القاطع؟ حقائق لها ضياؤها النابع منها؟ حقائق مُشوَّهة، عبثية، تفتقر إلى الانتظام؟ حقائق معتمة كما الكهوف، مُباغِتة كما الصواعق، حَرون كما الخيول البرية؟ حقائق تعجز العيون عن كشف طلاسمها، لا هي كلمات مكتوبة ولا صور، عصيَّة على الفهم، أو الترجمة، أو البوح، أو حتى الحدس، ما لم يكُن ذلك من خلال الحلم أو الجنون؟ أخذه دوار بارد. جعل يترنَّح وسط الساحة وقد داهمه إحساس عجيب بالغرابة، كمن اكتشف على حين غرة أنه ما عاد يفهم اللسان الدارج. وللحظة مُروِّعة خالجه إحساس بأنه محكوم بمنفى حميمي. ثم استعاد سيطرته على عنان نفسه، في حين جفَّ العرق على بشرته، وهدأ خفقان قلبه، وعاد إلى نفسه. وإذا هو مرة أخرى هراقليس اليونتوري، كاشف الألغاز.

استرعى انتباهه لغطٌ في الساحة. طفق عدة رجال يتصايحون في آن، غير أنهم أمسكوا عن ذلك حين رفع أحدهم صوته واقفًا فوق بضعة أحجار، وقال:

- إن لم يفعلها المجلس، فسيمدُّ الأركون يدَ العون للفلاحين! سأل هراقليس أقرب الوقوف إليه:

- ماذا يجري؟

كان كهلًا يرتدي ثيابًا رمادية مُرقَّعة بالجلد تفوح منه رائحة الخيل. وفضلًا عن مظهره الرثّ، كانت له عين مخلوعة وأسنان متساقطة على نحو عشوائي. اندفع الكهل قائلًا:

- تسألني عمَّا يجري؟ إن لم يذُد الأركون عن فلّاحي أتيكا، فلن يذود عنهم أحد!

تدخَّل آخرُ لا يختلف عنه كثيرًا من حيث المظهر، وإن كان يصغره سنًّا. قال:

- الشعب الأثيني لن يفعلها، بالتأكيد!

فأردف الأول وهو يحدّج هراقليس بنظرات عينه السليمة الوحيدة:

- يتساقط الفلاحون قتلى إثر هجمات الذئاب! بلغ عدد القتلى أربعة منذ مطلع القمر الجديد!...

والجُند لا يحرِّكون ساكنًا!...

فجئنا إلى المدينة للحديث إلى الأركون والاستجارة به! ثم قال ثالثٌ، نحيل القوام، يأكل الجَرَبُ جسمَه:

- كان أحدهم صديقًا لي...

كان يُدعى مويسيس. عثرتُ على جثته بنفسي!...

التهمَتِ الذئاب قلبه!

ظلَّ ثلاثتهم يصيحون به وكأنما يلقون على هراقليس بلائمة المصائب المحيقة بهم، بَيْد أنه ما عاد يصغي إليهم.

في دخيلة نفسه، بدأ يتكوَّن شيء على قدر كبير من الخفة...

فكرة.

وبدا أن الحقيقة قد تجلَّتْ له أخيرًا، على حين غرة. فاجتاحه الهلع[129]..

قُبَيْل المغيب، عزم دياغوراس على الذهاب إلى الأكاديمية. فعلى الرغم من تعليق الدروس، أحسَّ بضرورة الالتجاء إلى الهدوء المطبق الذي يغمر مدرسته الحبيبة بغية تهدئة نفسه، وعلمًا منه بأن المكوث في المدينة سوف يجعل منه هدفًا لقدرٍ كبير من الأسئلة، فضلًا عن قدرٍ غير هيِّن من التعليقات الفارغة، وليس أبغض من تلك الأمور إليه آنذاك. ما إن وضع قدمه على أول الطريق حتى سُرَّ بقراره، ذلك أن مُجرَّد خروجه من أثينا أشعره بتحسُّن على الفور. كانت أمسية رائعة، وقد لطَّف الغروب الشتوي من حرارة الجو، في حين راحَتِ الطيور تُهديه أغنياتها من دون مطالبته بالتوقُّف لسماعها. بلغ الغابةَ فراح يتنشَّق الهواء ملء صدره، واستطاع أن يبتسم...

برغم كل شيء.

ما كان بوسعه تنحية خواطره عن التجربة القاسية التي مرَّ بها لتوِّه. حتى وان أبدى الحضورُ رفقًا بما أدلى به من تصريحات، فما عسى أن يكون رأي أفلاطون ورفاقه؟ لم يسألهم. في واقع الأمر، ما كاد يبادلهم الحديث بعد انتهاء المحاكمة، ذلك أنه عجَّل بالانصراف، من دون أن يجرؤ حتى على استطلاع نظراتهم. ولمَ كان سيفعل، ما دام يعرف رأيهم في قرارة نفسه؟ لقد أساء تأدية عمله

بوصفه مُعلِّمًا، وسمح بفقدان السيطرة على قياد ثلاثة من الأمهار، ما أدى إلى كَبْوَتهم. والأدهى من ذلك أنه تعاقد مع كاشف ألغاز بصفة شخصية، وتوخَّى حجب النتائج التي أسفرَتْ عنها التحرّيات. بل وعمد إلى الكذب! لقد تجرَّأ على وصم أسرة بالعار دفاعًا عن الأكاديمية. أوه، وحقّ زيوس! كيف أمكن كل ذلك؟ ما دفعه إلى التأكيد بوقاحة على أن إيونيو المسكين هو من أقدم على تشويه نفسه بنفسه؟ إن ذكرى ذلك الافتراء البيِّن تنهش هدوء نفسه.

ما كاد يبلغ الرواق الأبيض ذا المقصورتيْن والوجهيْن المجهوليْن حتى توقَّف. «لا يدخلها إلا عالِم بالهندسة»، كما جاء في الأسطورة المنقوشة على الحجر. فدار في خلد دياغوراس المُعذَّب: «لا يدخلها إلا مُحبّ للحقيقة»، «لا يدخلها أولئك القادرون على الكذب بخِسَّة، وإلحاق الأذى بالآخرين من جرَّاء أكاذيبهم». تراه يجرؤ على الدخول أم يرجع على عقبيْه؟ تراه أهْلًا لاجتياز عتبة ذلك الباب؟ شرعَتْ قطراتٌ فاترة تنساب على جبينه الندي. أغمض عينيْه وصرَّ على أسنانه في سخط، كما تعضُّ الخيل على اللجام إذ يكبحه قائد المركبة. ثم دار في خلده: «كلا، لستُ أهْلًا لذلك».

وفجأةً سمع مَنْ يناديه:

- دياغوراس، مهلًا!

كان أفلاطون، مُقبلًا نحو الرواق. الظاهر أنه جاء يقتفي أثر دياغوراس طوال الطريق. مضى مُؤسِّس المدرسة في سبيله بخطًى واسعة، ثم أحاط كتفي دياغوراس بإحدى ذراعيه القويتيْن. اجتازا الرواق معًا ومرَّا إلى البستان. وهناك، وسط شجرات الزيتون، دار نزاعٌ على نُتَفٍ من اللحم المُقزِّز بين فَرَسٍ بلون الكهرمان الفاحم وما ينيف على عشرين ذبابة بلون الزمرد[130].

سأل أفلاطون من فوره:

- هل انتهَتِ المحاكمة؟

فظنَّه دياغوراس يهزأ به، وقال:

- كنتَ وسط الحضور، وتعلم أنها انتهَتْ.

ضحك أفلاطون خافضًا صوته، وإن ظلَّتِ القهقهة تتردَّد خارجة من جسمه الهائل بصوتٍ في المستوى الطبيعي.

- لم أعنِ محاكمة مينيكمو، بل محاكمة دياغوراس. تراها قد انتهَتْ؟

فطن دياغوراس إلى الصورة المجازية الحاذقة، وأبدى استحسانه لها. ثم أجاب محاولًا الابتسام:

- أعتقد ذلك، أفلاطون. وفي ظنِّي أن القضاة يميلون إلى إدانة المُتَّهَم.

- لا يجدر بالقضاة أن يكونوا على هذا القدر من القسوة. لقد فعلتَ ما رأيتَه صوابًا، وذلك أقصى ما يمكن لرجل حكيم أن يسعى إليه.

- ولكني أخفيتُ ما كنت أعرف لوقت أطول مما ينبغي...

فتحمَّل أنتيسو العواقب. أما أسرة إيونيو، فلن تغفر لي أبدًا ما اختلقتُ من افتراءات لوَّثَتْ سمعة ابنهم...

أغمض أفلاطون عينيْه الرماديتيْن الواسعتيْن نصف إغماضة وقال:

- دياغوراس، أحيانًا ما يجلب الشرُّ معه خيرًا نافعًا ناجعًا. أنا على قناعة بأنه لولا اقتراف مينيكمو جريمته البشعة الأخيرة لما افتضح أمره...

ومن جهة أخرى، فقد رُدَّ الاعتبار إلى سمعة إيونيو وأسرته، بل وعلا شأنهم في أنظار الناس، فالآن نعرف أن تلميذنا لم يكُن جانيًا، بل مُجرَّد ضحية.

أطرق برهةً وعبَّأ صدره بالهواء كما لو كان على وشك الصراخ. وفيما راح يتأمَّل سماء الغروب الذهبية الصافية، أردف قائلًا:

- وعلى الرغم من ذلك، لا بأس من الانصات إلى شكاوى نفسك، دياغوراس. فلقد عمدتَ إلى الكذب وإخفاء الحقائق برغم كل شيء. حتى وإن ترتَّبَتْ على كلتا الفعلتيْن عواقب نافعة، كما تبيَّن، فلا يجدر بنا أن ننسى كونهما شريرتيْن في حد ذاتهما، من حيث الجوهر.

- أعرف، أفلاطون. ولذا فأنا لا أعتبر نفسي أهْلًا لمواصلة البحث عن الفضيلة في هذا المكان المُقدَّس. - على العكس. الآن وقد عرفتَ طرائق جديدة لبلوغ الفضيلة، فقد صرتَ أقْدَر من أيٍّ منا على البحث عنها. دياغوراس، الخطأ ضرب من الحكمة. فكل قرار خاطئ بمثابة مُعلِّم رصين يُهذِّب ما لم نتَّخذ من القرارات بعد. والتحذير مما لا يليق فعله أهم من النصح بالصواب في عبارات مقتضبة، فمَنْ أعْلَم بما لا يليق من الفعل إن لم يكُن فاعله؟ إن لم يكُن مَنْ ذاق ثمرات عواقبه المريرة؟

توقَّف دياغوراس وتنشَّق هواء البستان العطِر ملء رئتيْه. شعر بأنه أكثر هدوءًا، وخفَّ إحساسه بالذنب، إذ كان لكلمات مُؤسِّس الأكاديمية فعل البلسم الذي داوى جروحه الأليمة. وعلى مبعدة خطوتيْن منه، بدَتِ الفَرَس وكأنها تبتسم له بأسنانها الداكنة بينما راحت تفتك باللحم في دموية.

ومن دون أن يعرف لذلك سببًا، تذكَّر فجأةً تلك الابتسامة الباعثة على القشعريرة التي التوَتْ بها شفتا مينيكمو حين اعترف بجرمه خلال المحاكمة[131].

ثم سأل مدفوعًا بمحض فضول، وكذلك برغبة في تبديل مجرى الحديث:

- أفلاطون، ما الذي قد يدفع البشر إلى الذهاب مذهب مينيكمو؟ ما الذي قد ينحدر بنا إلى منزلة الوحوش؟

حمحمَتِ الفَرَس وهي تنقضُّ على قطع اللحم الدامية الأخيرة.

تأمَّل أفلاطون لحظةً ثم قال:

- الشغف يخلب الألباب...

الفضيلة جهد باعث على اللذَّة ونافع على المدى البعيد، أما الشغف فرغبة آنية، تغشى أبصارنا، وتحول دون قدرتنا على إعمال العقل في الأمور...

وأولئك الذين ينجرفون وراء اللذات الآنية لا يدركون أن لذَّة الفضيلة أبقى وأنفع كثيرًا. أما الشرُّ فجهلٌ، لا أكثر من جهل صرف. لو عرفنا جميعًا منافع الفضيلة وعرفنا كيفية إعمال العقل في الأمور في الوقت الملائم، لما اختار أيُّنا الشرَّ طوْعًا.

عاودَتِ الفَرَس الحمحمة والدم يقطر من بين أسنانها. بدَتْ وكأنها تقهقه بشفتيْها الغليظتيْن الضاربتيْن إلى الحمرة.

وفيما هو مستغرق في التفكير، عقَّب دياغوراس بقوله:

- أفلاطون، أحيانًا ما يخطر لي أن الشرَّ يهزأ بنا. أحيانًا ما أفقد الأمل، فتنتهي بي الحال إلى الاعتقاد بأن الشرَّ منتصرٌ علينا، بأنه ضاحكٌ من حماستنا، بأنه منتظرنا في خاتمة المطاف، بأن له الكلمة الأخيرة...

سمعا صوتًا. كان صهيلًا. فسأل أفلاطون:

- ما هذا الصوت؟

أشار دياغوراس قائلًا:

- هناك، إنه الشحرور[132].

فسمعا الصوت مرة أخرى. كان تغريد الشحرور الذي انطلق مُحلِّقًا في الهواء.

تبادل دياغوراس وأفلاطون بضع كلمات أخرى. ثم ودَّع كلا الفيلسوفَيْن الآخر كما يفعل الأصدقاء. ولَّى أفلاطون وجهه شطر مسكنه المتواضع قرب الچيمنازيوم، أما دياغوراس فتوجَّه إلى بناء المدرسة. شعر بالرضا والاضطراب في آن، كدأبه كلما تحدَّث إلى أفلاطون. كان يتحرَّق شوقًا لتطبيق كل ما ظنَّ أنه قد تعلَّم، ويرى أن الحياة على وشك البدء من جديد في اليوم التالي. ستُعلِّمه تلك التجربة ألا يتهاون في تعليم تلميذ، وألا يلزم الصمت إن وجب الكلام، وأن يكون موضع سر تلاميذه ومُعلِّمًا وناصحًا في آن...

تراماكو، وإيونيو، وأنتيسو، ثلاثة أخطاء فادحة لن يعاود الوقوع فيها أبدًا!

دلف إلى عتمة الردهة الباردة فسمع صوتًا آتيًا من المكتبة. قطَّب جبينه.

كانت مكتبة الأكاديمية عبارة عن بهو ذي نوافذ فسيحة، يمكن بلوغه عَبْر ردهة قصيرة عن يمين المدخل الرئيسي. كان الباب مفتوحًا آنذاك، وذلك أمر غريب، إذ يُفترَض أن الدروس قد عُلِّقَتْ. كما لم تكُن من عادة الطلاب قضاء الإجازات في مراجعة النصوص. ورغم ذلك، فربما كان أحد المرشدين...

اقترب في ثقة، وأطلَّ برأسه من مكانه عند عتبة الباب.

تسلَّلَتْ عَبْر النوافذ بقايا ضياء آتيةً من مأدبة الغروب. كانت الطاولات الأولى شاغرة، وما تلاها أيضًا، أما في الخلفية...

في الخلفية وجد طاولة مُكتظَّة بالرقوق، إلا أنه وجد المقعد أمامها شاغرًا. لم يبدُ أن تغييرًا واحدًا قد طرأ على الأرفف حيث تُحفَظ النصوص الفلسفية بعناية (بما فيها غير نسخة من محاورات أفلاطون) فضلًا عن الأعمال الشعرية والدرامية. «مهلًا، هناك عند الركن الأيسر...».

رأى في ذلك الركن رجلًا يولِّيه ظهره، وقد انحنى يفتِّش في الأرفف السفلية. ولذا لم يكُن دياغوراس قد لمحه حتى تلك اللحظة. استقام الرجل بحدة ممسكًا برقٍّ من البردي بين يديْه، فتعرَّف عليه دياغوراس في غير حاجة لرؤية وجهه.

- هراقليس!

دار كاشف الألغاز على عقبيْه بسرعة غير معهودة فيه، كفَرَس تركض تحت وطأة لسعات السوط. - آه، دياغوراس، أنت!...

يومَ دعوتَني إلى الأكاديمية تعرَّفتُ على عبديْن يسَّرا لي أمر الدخول إلى المكتبة اليوم. لا تغضب منهما...

ولا مني، بالطبع...

للوهلة الأولى خاله الفيلسوف مريضًا، بالنظر إلى الشحوب المفرط الذي بدا على وجهه.

- ولكن، ماذا...؟

فقاطعه هراقليس مُرتجفًا:

- وحق ترس إيجيس المُقدَّس الذي يتدرَّع به زيوس، دياغوراس، إننا في مواجهة شرٍّ فاتك، عجيب، شرٍّ لا يبدو له قرار، كلما غصنا فيه ادلهمَّتْ ظلماته أكثر فأكثر، كالأغوار السحيقة. لقد خدعونا!

لم يمسك عمَّا هو فاعل، في حين جعل يتحدَّث بسرعة كبيرة، كما يتحدَّث قادة المركبات إلى خيولهم خلال السباق، بحسب القول الشائع. راح يفرد برديات، ويعاود طيِّها، ويردُّها إلى الخزانة مرة أخرى...

سرَتْ رجفة في يديْه الغليظتيْن وصوته معًا. تابع في نبرة حانقة:

- دياغوراس، لقد استغلُّونا، استغلُّوني وإيَّاك لنشارك في مهزلة مُروِّعة، في كوميديا ذات خاتمة تراچيدية!

- عمَّ تتحدَّث؟

- عن مينيكمو، عن مقتل تراماكو، عن ذئاب الليكابيتوس...

عن كل ذلك أتحدَّث!

- ماذا تعني؟ هل مينيكمو بريء؟

- أوه، كلا، كلا. بل إنه مُذنب، وذنبه عظيم! ولكن...

ولكن...

أطرق واضعًا قبضته على فمه. ثم أردف قائلًا:

- سوف أشرح لك كل شيء في أوانه. يجب عليَّ الذهاب إلى مكان بعينه الليلة...

أودُّ منك أن ترافقني. ولكني أحذِّرك، فما نحن بصدد رؤيته هناك لا يسرّ!

قال دياغوراس:

- أنا ذاهب معك، وإن تكُن مزمعًا على عبور نهر ستيكس، ما دُمتَ تعتقد بأننا بذهابنا سوف نكشف مصدر الخداع الذي تحدَّثتَ عنه. أخبرني بشيء واحد فحسب: الأمر يتعلَّق بمنيكيمو، أليس كذلك؟...

كان باسمًا حين اعترف بجرمه...

ما يعني أنه عقد النية على الفرار، لا شك في ذلك!

فأجابه هراقليس:

- كلا. بل كان باسمًا حين اعترف بجرمه لأنه لم يعقد النية على الفرار.

بدَتْ على دياغوراس أمارات الدهشة، فأردف هراقليس بقوله:

- ولذا تعرَّضنا للخداع[133].

الفصل العاشر[134]

- أتودُّ نزع قناعي؟

-كلا، لأني إن رأيتُ وجهك، أعرف أنني لن أخرج من هنا على قيد الحياة[135]...

كان المكان أشبه بفُوَّهة معتمة منحوتة في الصخر، إذ يحاكي الإفريزُ وعتبةُ الباب شفتي امرأة عملاقتيْن. وعلى الرغم من ذلك، فقد نقش النحَّات المجهول على الإفريز شاربًا مسترجلًا من الرخام، وزيَّنه بأخيلة على هيئة محاربين ذكور، عراة الأجساد. كان معبدًا صغيرًا مُكرَّسًا لعبادة أفروديت على المنحدر الشمالي لتلِّ نيكس. ومع ذلك، فما كان الداخل إلى جوف المعبد يملك أن يدفع إحساسه بالنزول إلى هاوية سحيقة، أو إلى كهف في مملكة هيفايستوس، إله النار والحدادة.

قبل بلوغهما الموضع المنشود، أوضح هراقليس لدياغوراس ما يلي:

- ثمة أبواب مخفيَّة في جوف المعبد، تُفضي إلى أروقة مُتشعِّبة ومُتوغِّلة في هذا الجانب من الجبل. تُفتَح الأبواب آنفة الذكر ليالي بعينها من كل قمر. ويُنَصَّب عند المدخل خفيرٌ يضع قناعًا ويرتدي رداءً قاتمًا. قد يكون الخفير رجلًا أو امرأة. من الأهمية بمكان أن يجيب الداخل على سؤاله إجابة صائبة، وإلا ما سمح له الخفير بالمرور. من حسن الحظ، أعرف كلمة سر الليلة...

كانت درجات السُّلَّم رحيبة. ومما يسَّر نزولنا كذلك ضياء المشاعل المنتشرة على مسافات منتظمة. تضوَّعَتْ رائحة عبقة، رائحة دخان وتوابل آخذة في الزيادة مع كل درجة ينزلانها. سُمِعَتْ آلة الأُبُوَا تتساءل في نعومة والصنوج تجيبها في خشونة، كلاهما مُقنَّعٌ برجع الأصداء، في حين جعل ينساب صوت مُنشِد، لا يُعرَف إن كان ذكرًا أم أنثى. ينعطف الدّرَجُ ثم يبلغ نهايته، وهناك تقوم حجرة صغيرة لها مَخرَجان ظاهران، نفق ضيِّق مظلم إلى اليسار وأستار مُثبَّتة في الصخر بمسامير إلى اليمين. كاد الهواء يكون خانقًا. وعلى مقربة من الأستار وقف شخص يضع قناعًا تبدو عليه أمارات الهلع، ويرتدي ثوب خيتون كاشفًا، يكاد يكون خليعًا، في حين اصطبغ معظمُ جسمه العاري بالظلال على نحو لا يُعرَف معه إن كان شابًا مفرط النحول أم فتاة صغيرة النهديْن. لمح المُقبلَيْن لتوهما، فالتفت والتقط شيئًا من رفٍّ بالجدار، وقدَّمه لهما كما لو كان قربانًا. قال بصوت تلوح فيه نبرة مراهَقَة مبهمة:

- قناعاكما. المجد لديونيسوس بروميوس. المجد لديونيسوس بروميوس.

لم يحظَ دياغوراس بوقت طويل ليتأمَّل القناع الذي ناوله إيَّاه. كان أشبه بأقنعة أفراد الجوقة المشاركين في الأعمال التراچيدية، إذ كان له مقبض من الأسفل مصنوع من الطين نفسه شأن بقية القناع، ويبدو عليه تعبير يحاكي البهجة أو الجنون. لم يدرِ إن كان القناع يصوِّر وجه رجل أم امرأة. كان ثقيلًا على نحو ملحوظ. أمسك بالمقبض رافعًا القناع، وجعل يراقب كل شيء من خلال تجويفي العينين اللذيْن غشيهما الغموض. حجبَتْ أنفاسُه الرؤية عن عينيْه.

أما ذلك (الكائن الذي أودعهما القناعيْن، والذي بدا لعيني دياغوراس وكأنه يتأرجح في حيرة بين الذكورة والأنوثة، مع كل لفتة من لفتاته وكل كلمة من كلماته، في ذبذبة جنسية باعثة على الاضطراب) فقد أزاح الأستار وسمح لهما بالمرور.

قال هراقليس:

- حذار. ثمة درجة أخرى.

كان قبوًا مسدودًا، مثله كمثل مأوى الطفل الأول في بطن أمه، من حيث تولد الحياة. راحت الجدران تنضح لآلئَ قانية، أما رائحة الدخان والتوابل النفاذة فقد أزكمَتِ الأنوف. أُقيمَتْ في الخلفية خشبة مسرح ليست بالغة الضخامة، يعتليها عازفو الموسيقى والمنشد. في حين جعل الحضور يتزاحمون في ذلك المَعقِل البائس، حيث الكلُّ يبدو ظلًّا مبهمًا يتمايل برأسه، ويمسُّ كتفَ رفيقه بيده الحرة (وليس بيده الممسكة بمقبض القناع). في المنتصف، استقرَّتْ قِدْرٌ ذهبية فوق حامل. جلس هراقليس ودياغوراس في الصف الأخير وجعلا يترقَّبان. افترض الفيلسوف أن ذبالات المشاعل وأرمدة المباخر المُتدلِّية من السقف تحوي أعشابًا ملونة، بالنظر إلى ألسنة اللهب الفريدة التي راحت تندلع منها، بلونها القاني المُستعِر. سأل الفيلسوف:

- ما هذا؟ مسرح سرّي آخر؟

فأجابه هراقليس من خلف القناع:

- كلا. بل إنها طقوس. ولكنها ليست طقوس الأسرار المُقدَّسة، بل سواها. أثينا حافلة بها.

وفي الرقعة الظاهرة من خلال تجويفي العينين، ظهرَتْ يدٌ أمام ناظري دياغوراس على حين غرّة، فقدَّمَتْ له قدحًا صغيرًا مُترعًا بسائل داكن. تلفَّت والقناع لا يزال على وجهه، إلى أن عثر على قناع آخر أمامه. حالَتْ حمرة الهواء دون تحديد لونه، غير أن مظهره كان بشعًا، وله أنف بالغ الطول خليق بساحرة عجوز، ويحفُّ به شعرٌ باهر. أما صاحب القناع، رجلًا كان أو امرأة، فقد التفع بتونيك بالغ الطول كذلك الذي ترتديه فتيات الليل لإثارة المدعوين خلال الولائم الماجنة، وقد توارى جنسُه ببراعة مذهلة بين طيات جسده هو الآخر. أحسَّ دياغوراس بأن هراقليس يلكزه في مرفقه:

- اقبلْ ما يُقدَّم إليك.

تناول دياغوراس القدح من صاحب القناع الذي تسلَّل عَبْر المدخل ليتوارى عن الأنظار بعد أن أبدى لمحةً من طبيعته، عابرةً كوميض البرق، ذلك أن التونيك كان مفتوحًا على الجانبيْن. بَيْد أن الضياء المُشرَّب بحمرة دامية لم يسمح بالإجابة عن السؤال إجابة وافية، فما تلك الانحناءات في جسمه؟ تراهما نهديْن؟ تناول كاشف الألغاز قدحًا هو الآخر. ثم أوضح لدياغوراس قائلًا:

- عندما تحين اللحظة، تظاهر بأنك تحتسي محتويات القدح، ولكن إيَّاك وأن تفعل حقًّا.

وبحدَّة بلغَتْ الموسيقى ختامها، فانقسم الحضور إلى مجموعتيْن، تصطفُّ كلٌّ منهما بحذاء أحد الجداريْن المتقابليْن ويفصل بينهما ممرٌّ شاغر. سُمعَتْ قهقهات خشنة، وسعال، ونُتَف كلمات بصوت خفيض. لم يبقَ على خشبة المسرح سوى خيال المنشد الضارب إلى الحمرة، ذلك أن عازفي الموسيقى قد انصرفوا. وفي الوقت نفسه، انتشرَتْ في المكان دفقة من النَتَن وكأنها رائحة جثة أُقيمَتْ بفعل السحر من بين الأموات، واضطرّ دياغوراس لكبح رغبته المفاجئة في الهرب من ذلك القبو لتنشُّق جرعات من الهواء النقي خارجًا. بارتباك حَدْس بأن تلك الرائحة الكريهة مبعثها القِدْر، أو المادة المُتكتِّلة بداخلها على وجه التحديد. ما مِن شك في أن رائحة العفن قد انتشرَتْ بلا عوائق بمُجرَّد أن ابتعد المحيطون بها.

عند ذاك مرَّ عَبْر الأستار جمعٌ من الأخيلة المستحيلة.

فوقعَتِ الأبصار أوَّل ما وقعَتْ على عريها التام. بدَتِ الأخيلة أشبه بالنساء. رحن يزحفن على أربعٍ وقد حجبن رؤوسهن بأقنعة عجيبة. أخذَتْ نهود البعض تتراقص بحرية أكثر من نهود البعض الآخر. في حين كانت أجسام البعض أقرب إلى أجسام الإفيبوس. كانت بينهنّ الماهرة والنشيطة والرشيقة، وكذلك البدينة والخرقاء. أما الخواصر والأرداف، ونظرًا لأنها المواضع الأكثر وضوحًا للعيان، فقد كشفَتْ عن تفاوتات طفيفة في الجمال والعمر والنضارة. بَيْد أنهن جميعًا مَضَيْنَ عاريات، زحفًا على أربعٍ، يزمجرن وكأنهن تاراسكات[136] مفعمات بالشبق. طفق الحضور يحثُّهن بصيحات فظَّة. تَساءل دياغوراس: «من أين أتين؟». عندئذ تذكَّر النفق المُمتَدَّ إلى يسار الحجرة الصغيرة.

مضى التشكيل بترتيب تصاعدي: واحدة في المُقدِّمة، تتبعها اثنتان، فثلاث، فأربع، وهو أقصى عدد من الأجسام المُصطفَّة يسمح به الممرّ، فبدا مُقدِّم السرب غير المألوف كسنِّ رمحٍ حيٍّ. بلغن حامل القِدْر فخفَّف السيل العاري من شدة اندفاعه كي تتحلَّق الأخيلة حول القِدْر.

اعتلَتْ الأوَّلَيات خشبة المسرح، مُندفعات صوب المنشد على نحو يبعث على الدوار. بقينَ يخترقن المكان عَبْر المدخل، إلى أن اضطرَّتِ الأخيرات للتوقُّف. وفيما هنّ يترقَّبن، راحت كلٌّ منهن تغوي الأخرى التي تتقدَّمها وتداعب عجيزتها وفخذيْها بالقناع. ما إن بلغن الهدف المنشود، حتى تفرَّقن في فوضى مطلقة وسط لهاث مسعور ليتكدَّسن في كومة رخوة من اللحم والأجساد المضطربة.

صُعِق دياغوراس، وبلغ منه الذهول والنفور مبلغهما. أحسَّ بلكزة هراقليس مرّة أخرى في مرفقه:

- تظاهر بأنك تحتسي القدح!

راقب المحيطين به. مالت الرؤوس إلى الخلف في حين تلطَّخَتِ الثياب بالسائل الداكن. أزاح قناعه ورفع قدحه. ما كانت رائحة السائل تشبه شيئًا عرفه دياغوراس من قبل، بل كانت مزيجًا كثيفًا من روائح المداد والتوابل.

ومرّة أخرى بدأ الممرُّ يخلو من شاغليه، وإن جعلَتْ خشبة المسرح تطقطق تحت وطأة الأجسام التي اعتلَتْها. ماذا يجري هناك؟ ماذا هنَّ فاعلات؟ بَيْد أن الجبل الصاخب المُتموِّج المُؤلَّف من الأجسام العارية قد حال دون معرفة ذلك.

عندئذ طار شيء آتيًا من عند خشبة المسرح ثم هوى أرضًا على مقربة من القِدْر. كانت الذراع اليمنى للمنشد، وقد أمكن التعرُّف عليها في يسر بالنظر إلى المزقة السوداء المُتبقِّية من التونيك، والتي ما زالت ملتصقة بالكتف. قوبل ظهور الذراع بصيحات البهجة. وتكرَّر الأمر نفسه مع الذراع اليسرى، التي ارتدَّتْ عن الأرض لتحدث قرقعة وكأنها غصن يابس، ثم استقرَّتْ عند قدمي دياغوراس، مفتوحة اليد وكأنها زهرة بخمس بتلات بيض. ندَّتْ عن الفيلسوف صرخة لم يسمعها أحد، من حسن الحظ. هرع الحضور صوب القِدْر القائمة وسط المكان، في حبور يليق بفتيات يثبن جذلًا تحت الشمس[137]، وكأن الطرف المبتور هو الإشارة المُتَّفق عليها.

وأمام مظاهر الشلل والهلع البادية على رفيقه، قال هراقليس:

- إنها دمية.

ارتطمَتْ ساقٌ بأحد المشاهدين قبل أن تستقرَّ على الأرض. في حين أُلقِي بالساق الأخرى بقوة أكبر مما ينبغي، لترتدَّ عن الجدار المقابل. والآن تكالبَتِ النساء على رأس الدمية المُشوَّهة، كلٌّ تبتغي انتزاعها. فأخذ كل فريق يشدُّ في اتجاه، البعض بالأيدي، والبعض بالأسنان. وقفَتِ الفائزة وسط خشبة المسرح شاهرةً جائزتها، رافعة نهديْها في تباهٍ، فيما راحت تعوي وتباعد ما بين ساقيْها بوقاحة، لتبرز عضلاتها الخليقة ببدن رجل رياضي، وليس بعذراء أثينية. وَشَم الضياءُ أضلاعها بوشم أحمر. شرعَتْ تضرب الأرض الخشبية بقدميْها الحافيتيْن، مثيرةً بذلك أشباحًا من غبار. أما رفيقاتها اللاهثات فرحن يتأمَّلنها بإجلال، وبقدر أكبر من الهدوء.

عمّتِ الفوضى بين الحضور. ماذا جرى؟ تزاحموا حول القِدْر. اقترب دياغوراس ذاهلًا مصدومًا من جرَّاء الهرج والمرج. وأمام ناظريْه جعل كهلٌ يهزُّ شعره الأشيب الكثيف، كمن استحوذَتْ

عليه نشوى الرقص بعيدًا عن الأعين، بينما أطبق على شيء بأسنانه. بدا الكهل وكأنما قد صُفِع حتى تمزَّقَتْ شفتاه، غير أن اللحم المُتدلِّي من بين شدقيْه لم يكُن لحمه.

تأوَّه دياغوراس:

- عليَّ أن أخرج!

كانت النساء قد شرعن في الصراخ حتى بُحَّ صوتهن:

- لالا، لالا، بروميوس، مجدًا، مجدًا.

- هراقليس، وحقّ آلهة الصداقة، ما كان ذاك؟ هذه ليست أثينا، قطعًا!

كانا في شارع منعزل يغمره البرد والسكون، وقد افترشا الأرض مُستندَيْن إلى جدار أحد البيوت، يلهثان. شعر دياغوراس بتحسُّنٍ في معدته، بعد نوبة القيء العنيفة التي أصابته. أجابه هراقليس عابسًا:

- دياغوراس، أخشى أن هذا المكان أكثر أثينيَّةً من أكاديميتك بكثير. إنها طقوس ديونيسيَّة. وتُقام عشرات مثلها في المدينة وعلى مشارفها كلَّ قمر، تتباين جميعها في بعض التفاصيل، وإن تشابهَتْ في المجمل. بالطبع، كنتُ أعرف بإقامة طقوس من هذا القبيل، وإن لم يسبق لي حضور أيٍّ منها حتى الآن. كنتُ أودُّ ذلك.

- ولِمَ؟

وللحظة حكَّ كاشف الألغاز لحيته المُفضَّضة الدقيقة. - تقول الأسطورة إن التيتان الجبابرة[138] قد مزَّقوا جسد الإله ديونيسوس-كما مزَّقَتِ النساء التراقيات جسدَ أورفيوس- غير أن زيوس بعث فيه الحياة مجدَّدًا عَبْر قلبه. ولذا يُعدُّ انتزاع القلب والتهامه من أهم ما في الطقوس الديونيسيَّة...

همهم دياغوراس:

- القِذْر...

أومأ هراقليس وقال:

- الأرجح أن بها نتفًا مُتعفِّنة من قلوب الحيوانات...

- وأولئك النساء...

- نساء ورجال، أحرار وعبيد، أجانب وأثينيون...

فالطقوس لا تفرِّق بينهم. لأن الجنون والمجون يؤاخيان بين الناسِ وبعضهم. ربما كانت إحدى النساء العرايا اللواتي رأيتَهن يزحفن على أربعٍ ابنةَ أركون. وإلى جوارها، ربما كانت تزحف جارية من كورنثوس أو بائعة هوى من آرجوس. إنه الجنون دياغوراس، ولسنا نملك من الحُجَج ما يفسِّره.

هزَّ دياغوراس رأسه، ذاهلًا.

- ولكن، ما علاقة كل ذلك بـ...

وبغتةً فتح عينيْه عن آخرهما صائحًا:

- القلب المُنتزَع!...

تراماكو!

أومأ هراقليس ثانيةً.

- إن الطائفة التي رأيناها الليلة مشروعة بالقياس إلى غيرها، كما أنها معروفة لدى الأراكِنة وتلقى قبولهم. بَيْد أن هنالك طوائف أخرى تُجري تحرُّكاتها سرًّا، نظرًا لطبيعة الطقوس التي تقيمها...

سبق لك أن طرحتَ المشكلة في بيتي كما يليق، أتذكر؟ لم يكُن بوسعنا أن نبلغ الحقيقة من خلال العقل. لم أصدِّقك حينها، والآن ينبغي لي الاعتراف بأنك كنتَ مُحقًّا، ذلك أن الشعور الذي خالجني ظهيرة اليوم في الأغورا، عند سماع حديث قرويين من أتيكا ينعون مصرع رفاقهم إثر هجمات الذئاب، لم يكُن نتيجة منطقية مُترتِّبة على...

دعنا نقول، مُترتِّبة على خطاب عقلاني...

بل شيء...

أعجز حتى عن تعريفه...

ربما كانت صاعقة رماني بها شيطاني السقراطي، أو الحدس الخليق بالنساء، بحسب القول الشائع. كان ذلك حين ذكر أحدُهم قلبَ صديقه الذي التهمَتْه الذئاب. عند ذاك خطر لي ببساطة أنها «طقوس، إلا أننا لم نرتِّب في الأمر». ونظرًا لأن غالب ضحايا تلك الطقوس من القرويين، فقد مرَّ مصرعهم مرور الكرام حتى الآن. ولكني على يقين من أنهم نشطون في أتيكا منذ أعوام مضَتْ...

هبَّ كاشف الألغاز واقفًا على قدميْه، مُنهكًا، ثم حذا دياغوراس حذوه وهو يهمهم بنبرة لجوج تشي بلهفته:

- مهلًا، فما هكذا لقي إيونيو وأنتيسو حتفهما! فقلباهما...

قلباهما لم يُنتزَعا!

- ألم تفهم بعد؟ لقد قتلوا إيونيو وأنتيسو بقصد خداعنا. فلم يهتمّوا سوى بإخفاء حقيقة مصرع تراماكو. وما إن علموا بتعاقدك مع كاشف ألغاز لتحرِّي مصرع تراماكو حتى فزعوا بشدة وأعدُّوا تلك الكوميديا المُروِّعة...

مسح دياغوراس بيده على وجهه، وكأنما ينتزع عنه أمارات عدم التصديق البادية.

- محال...

التهموا قلب...

تراماكو؟...

متى؟...

قبل أن تنقضَّ عليه الذئاب أم عقب...؟

قطع حديثه وجعل يتأمَّل كاشف الألغاز الذي نظر إليه بحزم لا يشوبه التأثُّر. ثم قال هراقليس:

- دياغوراس، لم تكُن ثمة ذئاب قط. وذلك ما سعوا لإخفائه عنا بكل السبل. تلك المِزَق وآثار النهش...

لم تكُن من فعل الذئاب...

فثمة طوائف...

وفي اللحظة نفسها انساب الظلُّ والصوتُ معًا. فكان الظلُّ مُجرَّد هيئةٍ ناشزةٍ مُطوَّلة يبرزها نور القمر، انسلَّتْ عن أقرب الأركان إليهما وسارت مُبتعدةً على عجل. أما الصوت، ففي البدء كان لهاثًا، ثم وقع خطًى حثيثة.

سأل دياغوراس:

- مَنْ...؟

وكان هراقليس أول من أتى بردِّ فعلٍ. فصاح قائلًا:

- أحدهم كان يراقبنا!

مال بجسمه البدين إلى الأمام، وانطلق يعدو متحاملًا على نفسه. تجاوزه دياغوراس مُسرعًا. أما الخيال-سواء أكان خيالَ رجل أو امرأة- فقد بدا وكأنه يتدحرج نزولًا عَبْر الشارع حتى غاب عن ناظرَيْهما في العتمة. توقَّف كاشف الألغاز لاهثًا، مُتهدِّج الأنفاس. - أوه، لا طائل يُرجى من ذلك!

مرة أخرى وقفا جنبًا إلى جنب. فيما تضرَّجَتْ وجنتا دياغوراس بحمرة مُستعِرة، فبدا وكأنما قد طلا شفتيْه كالفتيات. وبحركة مرهفة مسح على شعره، رافعًا صدره البارز ليأخذ نفسًا من الهواء. ثم قال بصوت عذب خليق بحورية[139]:

- لقد ولَّى هاربًا. من عساه يكون؟

فأجابه هراقليس برصانة:

- لو أنه واحد منهم، كما يحدِّثني ظنِّي، فحياتي وحياتك لن تساويا قطعة أوبول واحدة اعتبارًا من فجر الغد. إن أتباع هذه الطائفة مُجرَّدون من الضمير، كما أنهم من أدهى ما يكون. قلتُ لك إنهم لم يتورَّعوا عن استغلال أنتيسو وإيونيو بغرض التمويه علينا...

كلّي يقين أنهما كانا من أتباع الطائفة، وكذلك تراماكو. الآن صار كل شيء مفهومًا. فما لمحتُه في عيني أنتيسو لم يكُن خوفًا من مينيكمو، بل منا. لا شك أن رؤساءه في الطائفة قد نصحوه بطلب نقله خارج أثينا للحيلولة دوننا ودون استجوابه. ولكن نظرًا لاستمرارنا في التحريات، فقد اتَّخذَتِ الطائفةُ قرارها بالتضحية به أيضًا، بغرض صرف انتباهنا إلى مينيكمو...

ما زلتُ أذكر نظرة أنتيسو ليلتها، عاريًا في مخزن المؤن الصغير...

كم خدعني ذلك الفتى اللعين!...

أما في ما يتعلَّق بإوْماركو، فلستُ أظنُّه واحدًا منهم. ربما شهد مصرع أنتيسو فأراد الدفاع عنه، عند ذاك أردوه قتيلًا هو الآخر.

- ولكن مينيكمو...

- ...واحد من أتباع الطائفة، على قدر من الأهمية. وقد أتقن تأدية دور الجاني المبهم خلال زيارتنا له...

ثم أردف هراقليس منقبض الوجه:

- وأغلب الظن أن مينيكمو هو من ضمَّ تلاميذك إلى الطائفة...

- ولكنه محكوم بالإعدام! ولسوف يُلقَى به في هوَّة الباراترون!

فأومأ هراقليس في تجهُّم وقال:

- أعرف، وذلك ما تهفو إليه نفسه. أوه، لا تسألني أن أفهم ما يجري، دياغوراس! عليك أن تقرأ النصوص التي عثرتُ عليها في مكتبتك...

ثمة طوائف ديونيسيَّة بعينها، يتلهَّف أتباعها على الخضوع للتعذيب، ويتوقون إلى تمزيق أجسادهم إربًا حتى الموت. ويعجِّلون بالتضحية بأنفسهم كما تلقي عذراء بنفسها بين ذراعي زوجها ليلة الزفاف...

أتذكر ما أخبرتُك بشأن تراماكو؟ كانت ذراعاه سليمتيْن! ولم يدافع عن نفسه! غالب الظنّ أن ذاك ما لاح في نظراته مساء ذلك اليوم. فما خلتَه أنت هلعًا، لم يكُن سوى محض لذَّة! أما الهلع فلم يكُن له وجود سوى في عينيْك، دياغوراس! صاح دياغوراس:

- كلا! فما هكذا تبدو اللذَّة!

- يُحتمَل أن يكون ذلك ما يبدو عليه ذلك الصنف من اللذَّة بعينه. وما أدراك! هل سبق لك أن خبرتَها يومًا؟...

لا تنظر إليَّ هكذا، فأنا عاجز عن الفهم أيضًا! لمَ يأكل المشاركون في طقوس الليلة نتفًا من الأحشاء المُتعفِّنة؟ لستُ أدري، دياغوراس، ولا تسألني أن أفهم! ربما جُنَّ جنون المدينة بأسرها ونحن لا ندري! كاد هراقليس يفزع من التعبير المفاجئ البادي على رفيقه، وكأنها محاولة غروتسكية جاهدة من عضلات وجهه لمزج الهلع والغضب والخزي في آن. لم يسبق لكاشف الألغاز أن رآه على تلك الحال قط. تحدَّث فجاء صوته ملائمًا جدًّا لذلك القناع. - هراقليس اليونتوري، تتحدَّث عن تلميذ من تلاميذ الأكاديمية! تتحدَّث عن تلاميذي أنا! كنتُ أعرف جوهر أرواحهم...! أنا...! أما هراقليس، الذي عادةً ما يتمكَّن من المحافظة على هدوئه، فقد شعر بالغضب يتملَّك منه بغتةً. قال:

- وفيمَ تهمُّ أكاديميتك اللعينة! فيمَ كانت تهمُّ في أي وقت مضى!...

لمح النظرات المريرة التي جعل يرمقه بها الفيلسوف، فألان صوته وتابع بهدوئه المعهود:

- دياغوراس، لا بد من الإقرار بأن الناس تعتبر أكاديميتك مكانًا مضجرا للغاية. فيقصدونها، وينصتون إلى دروسكم، ثم...

ثم يتكالبون على أكل بعضهم بعضًا. وذلك كل شيء.

وعلى نور القمر لمح هراقليس انقباض وجه المرشد المهزول، فتأثَّر وخطر له: «سوف يسلِّم بالأمر في خاتمة المطاف». مضَتْ برهة صمت ثقيل، ثم قال دياغوراس:

- لا بد من وجود تفسير...

مفتاح. لو أن ما تقوله صحيح، فلا بد من وجود مفتاح نهائي لم نعثر عليه بعد...

وافقه هراقليس بقوله:

- يُحتمَل وجود مفتاح في هذا النص الغريب، غير أني لستُ المترجم الملائم...

ربما وجب علينا رؤية الأمور عن بعد لتفهُّمها على نحو أمثل[140].

على كل حال، دعنا نعمل بحذر. لو أنهم يراقبوننا، كما يحدِّثني ظنّي، فهم يعرفون أننا قد كشفنا أمرهم. وذلك أبغض الأمور إليهم على الإطلاق. علينا أن نعجِّل بالتحرُّك...

- كيف؟

- نحن في حاجة إلى دليل. إن سائر أتباع الطائفة المعروفين لدينا إما لقوا حتفهم، أو أنهم على شفا حفرة من الموت: تراماكو، وإيونيو، وأنتيسو، ومينيكمو...

كان مُخطَّط الطائفة غاية في البراعة. ولكن ربما تبقَّتْ أمامنا فرصة...

لو تمكَّنا من حمل مينيكمو على الاعتراف!...

تطوَّع دياغوراس لتلك المهمّة:

- بوسعي أن أحاول التحدُّث إليه.

فتفكَّر هراقليس هنيهة.

- حسنًا، غدًا تتحدَّث إلى مينيكمو. أما أنا فلسوف أجرِّب حظي مع شخص آخر...

- من؟

- شخص ربما كان هو الخطأ الوحيد الذي وقعوا فيه! أراك غدًا، دياغوراس الصالح. كُنْ حذرًا!

كان القمرُ صدرَ امرأة، والغيمةُ إصبعًا تدنو من حلمتها. كان القمرُ فَرْجًا، والغيمةُ المُدبَّبةُ تتوق إلى الإيلاج فيه[141].

أما هراقليس اليونتوري فقد تجاوز بستان بيته المُمدَّد، تراقبه عينا سيليني ربة القمر، ثم فتح باب المدخل وهو بعيد كل البعد عن مثل هذه التحرُّكات السماوية التي لم يحاول أن يراقبها. كانت فُوَّهة الردهة المعتمة الغارقة في الصمت تشبه عينًا رقيبة. أجال هراقليس عينيْه الرقيبتيْن في

المكان ظنًّا منه بأن جاريته يونسيكا ربما أضاءت مصباح المراقبة على الرفِّ الأقرب إلى عتبة الباب، ترقُّبًا لعودته، ولكن الواضح أن يونسيكا لم تفعل[142].

ولذا فقد دلف إلى ظلمات البيت كما تنفذ طعنةُ السكين إلى اللحم، ثم أوصد الباب من خلفه. نادى:

- ياسينترا؟

فلم يتلقَّ جوابًا.

عبثًا راح يطعن العتمة بناظريْه، ولكن سدًى. سار صوب الحجرات الداخلية بخطًى وئيدة، وكأنه يخطو بقدميْه فوق أنصال السكاكين. وتحت جنح الظلام، اخترقَتْ برودةُ البيتِ رداءه كما السكين.

نادى مُجدَّدًا:

- ياسينترا؟

فسمع:

- هنا...

فطعنَتِ الكلمةُ الصمت[143].

اقترب من المخدع. كانت تولِّيه ظهرها تحت جنح الظلام، ثم التفتَتْ إليه.

سأل هراقليس:

- ماذا أنتِ فاعلة هنا في العتمة؟

- أترقَّب عودتك.

عجَّلَتْ ياسينترا بإضاءة المصباح على الطاولة، بينما جعل هراقليس يراقب ظهرها في تلك الأثناء. انبثق بريقُ المصباح أمامها حائرًا، وغمر سماء الحجرة. استغرقَتْ ياسينترا لحظات قبل أن تلتفت، في حين ظلَّ هراقليس يراقب خطوط ظهرها القوي. كانت ترتدي ثوب يبيلوس طويلًا ناعمًا، مشدودًا إلى كتفيْها بمشبكيْن، ويصل حتى قدميْها. كان الثوب مُجعَّدًا عند الظهر.

- وماذا عن جاريتي؟

فأجابته وهي ما زالت تولِّيه ظهرها[144]:

- لم تعُد من إليوسيس بعد.

عند ذاك التفتَتْ إليه. كانت زينتها بديعة، فأهدابها الطويلة مُزيَّنة بالأصباغ، ووجنتاها الناصعتان مطليَّتان بالمساحيق البيض، وعلى شفتيْها طلاء أحمر قانٍ، ونهداها يرتعشان بحرية تحت اليبيلوس الضارب إلى الزرقة، وحزامها المصنوع من سلاسل ذهبية يشدُّ خصرها النحيل، وأظفار

قدميْها الحافيتيْن مُلوَّنة بلونيْن مختلفيْن، كما هو دأب النساء المصريات. ولمَّا التفتَتْ إليه نشرَتْ ندى عبيرها بالغ الخفَّة في الهواء.

سأل هراقليس:

- لمَ ترتدين هذه الثياب؟

فقالت وهي تراقبه بنظراتها، وقد تدلَّى من شحمة أذنها قرط معدني حاد كالسكين، على هيئة امرأة عارية تولِّي ظهرها لناظرها[145].

لم ينبس كاشف الألغاز. في حين ظلَّتْ ياسينترا جامدة بلا حراك، تحيط بها هالة من ضياء المصباح الآتي من وراء ظهرها. تساقطَتِ الظلال على جسمها راسمةً عمودًا ملتويًا يمتدُّ من جبينها وحتى ثنايا الثوب عند عانتها، لتشطر بذلك قامتها إلى شطريْن متساويْن. قالت:

- أعددتُ لك الطعام.

- لا أبغي طعامًا.

- هل ستأوي إلى الفراش؟

حكَّ هراقليس عينيْه قائلًا:

- أجل، فأنا منهك.

ولَّتْ وجهها شطر الباب، فجعل رنين أساورها الكثيرة يتردَّد مع كل حركة. أما هراقليس الذي راح يراقبها، فقال:

- ياسينترا...

توقَّفَتْ والتفتَتْ إليه. فتابع قائلًا:

- أريد التحدُّث إليكِ.

فأومأت مُطرقةً وعادت أدراجها حتى وقفَتْ أمامه، جامدةً بلا حراك.

- قُلتِ لي إن عبدَيْن مبعوثيْن من قبل مينيكمو، بحسب قولهما، قد توعَّداكِ بالقتل.

فأومأتْ مرة أخرى، بسرعة أكبر.

- هل عدتِ لرؤيتهما؟

- كلا.

- ما أوصافهما؟

تردَّدَتْ ياسينترا هنيهةً.

- طويلا القامة للغاية. ولكنتهما أثينية.

- ماذا طلبا منكِ تحديدًا؟

- طلبا ما أخبرتُك به.

- ذكِّريني به.

رمشَتْ ياسينترا، بينما جعلَتْ تتملَّص من نظرات هراقليس بعينيْها اللامعتيْن كالماء، الشفافتيْن تقريبًا. وببطء مسحَتْ شفتيْها الحمراويْن بطرف لسانها المُتورِّد.

- طلبا مني ألَّا أفشي سرَّ العلاقة التي جمعَتْي بتراماكو لأحد أيًّا كان، وإلا ندمت على ذلك. وأقسَما بالآلهة وبنهر ستيكس المُقدَّس.

- فهمت...

راح هراقليس يمسح على لحيته المُفضَّضة، ويذرع المكان جيئةً وذهابًا أمام ياسينترا. جهة اليسار تارة، وجهة اليمين تارة، جهة اليسار، جهة اليمين[146]...

ثم أخذ يهمهم ويفكِّر بصوت مسموع:

- لا شك أنهما أيضًا من أتباع الـ...

ثم دار على عقبيْه فجأةً، مولِّيًا ظهره للفتاة[147].

أما ظلُّ ياسينترا المُتساقط على الجدار أمامه، فقد بدا أنه يتضخَّم. خطرَتْ لهراقليس فكرة مفاجئة، فالتفت إلى بائعة الهوى ثانيةً. تراءى له أنها قد دنَتْ منه بضع خطوات، وإن لم يعِر الأمر أهمية. - مهلًا، هل تذكرين إن كانت لهما أي علامة يسهل التعرُّف عليها؟ أعني وشمًا أو سوارًا...

قطَّبَتْ ياسينترا جبينها وأشاحت عنه بعينيْها مُجدَّدًا.

- كلا.

- ولكنهما ليسا صبيَّيْن، قطعًا، بل رجليْن. أنتِ على يقين من هذا...

فأومأتْ وقالت:

- هراقليس، ماذا يجري؟ لقد أكَّدتَ لي أن مينيكمو لم يعُد قادرًا على إيذائي...

فهدَّأ من روعها قائلًا:

- ولقد عنيتُ ما قلت. غير أني أودُّ الإيقاع بهذيْن الرجليْن. إن عدتِ لرؤيتهما، فهل تتعرَّفين عليهما؟

- أعتقد.

- حسنًا.

أحسَّ هراقليس بالإعياء فجأةً. أخذ يتأمَّل منظر فراشه المغري، ثم أطلق تنهيدة وقال:

- سأخلد الآن إلى الراحة. كان يومًا بالغ التعقيد. نبِّهيني عند مطلع الفجر، إن استطعتِ.

- سأفعل.

صرفها بلفتة تشي بعدم الاكتراث واستلقى على ظهره الضخم فوق الفراش. وشيئًا فشيئًا، أغمض عقلُه عينيْه الرقيبتيْن. وشقَّ السبات طريقه إلى وعيه كما ينفذ السكين[148].

مضى القلب يخفق مُحاطًا بالأصابع. والظلال تحوم حوله، والصوت يتردَّد. حوَّل هراقليس بصره إلى الجندي الذي طفق يتكلَّم لحظتها. ماذا يقول؟ من الأهمية بمكان أن يعرف ماذا يقول! جعل الجندي يحرِّك شفتيْه اللتيْن غشيهما ضبابٌ رمادي مرتجف، فحال خفقان القلب دون أن يسمع هراقليس كلماته. وعلى الرغم من ذلك، استطاع أن يتبيَّن زيَّ الجندي بكل وضوح: درع الصدر والساقيْن، والتنورة، والخوذة التي تنتهي بريش زاهٍ. تعرَّف على رتبته. ظنَّ أنه قد فهم شيئًا مما يقول. وبغتةً، اشتدَّ الخفقان، فبدا وكأنه وقع خطوات تدنو. وبطبيعة الحال، وقف مينيكمو يبتسم من موضعه في آخر النفق، من حيث جعلَتْ تنبثق نساء عاريات، زحفًا على أربع. ولكن أهم ما في الأمر أن يتذكَّر هو ما قد نسيه لتوِّه. عند ذاك فحسب...

تأوَّه:

- كلا!

سأل الظلُّ الذي مال عليه:

- تراه الحلم نفسه؟

ما زال المخدع خافت الإضاءة. استلقَتْ ياسينترا بجوار هراقليس بزينتها وثيابها، تراقبه بتعبير ينمُّ عن التوتُّر.

قال هراقليس:

- أجل.

ومسح جبينه النَّدِيّ بيده ثم أردف:

- ماذا أنتِ فاعلة هنا؟

- سمعتُ صوتك كما في المرة السابقة. إذ رحتَ تتكلَّم بصوت عالٍ، وتئنّ...

لم أقوَ على تحمُّل المزيد فجئت لإيقاظك. ذلك حلمٌ مبعوث من عند الآلهة، وأنا على يقين مما أقول.

مسح هراقليس شفتيْه الجافّتيْن بلسانه وقال:

- لستُ أدري...

أعتقد أنها رسالة.

- نبوءة.

- كلا، بل رسالة من الماضي. شيء حريٌّ بي أن أذكره.

فأجابت وقد رقّقتْ صوتها الرجولي فجأةً:

- إنك لم تدرك السلام، هراقليس. فأنت تجهد نفسك كثيرًا بالتفكير، ولا تستسلم للأحاسيس. حدَّثَتْني أمي وهي تعلِّمني الرقص، قالت: «ياسينترا، لا تفكِّري. ولا تستخدمي جسمكِ، بل دعيه يستخدمكِ. فجسمك ليس لكِ، بل للآلهة التي تتجلَّى من خلال حركاتك. دعي جسمك يُمْلي عليكِ أوامره، فإن صوته رغبات ولسانه لفتات. لا داعي للترجمة عن لسانه. بل حريٌّ بك الإنصات إليه. لا داعي للترجمة. لا داعي للترجمة. لا داعي للترجمة...»[149].

فأقرَّ هراقليس قائلًا:

- ربما كانت أمُّكِ على حقّ. ولكني أشعر بعدم القدرة على الكفِّ عن التفكير.

ثم أردف في زهو:

- أنا كاشف ألغاز صرف. - ربما استطعتُ مساعدتك.

ومن دون مُقدِّمات، أزاحَتِ الملاءات ومالت برأسها في وداعة، ثم ألصقَتْ شفتيْها بالتونيك، في الموضع الذي استلقى تحته قضيب هراقليس المُرتخي.

أخرسَتْه المفاجأة. استقام على فراشه بحدَّة. بالكاد رفعَتْ ياسينترا شفتيْها المكتنزتيْن، وقالت:

- دعني...

جعلَتْ تقبِّل وتمسِّد ذلك النتوء الليِّن الطويل الذي لم يكَد هراقليس يعيره انتباهًا منذ وفاة آخيسيكورا، ذلك الشيء الطيِّع المرن أسفل التونيك. راحت تمسح ذلك الموضع بعناية، ثم باغتَتْه بثغرها. سرى إليه الإحساس وكأنه صرخة، كإدراك حسِّي صارخ ومفاجئ باللحم. تأوَّه من فرط اللذَّة، تاركًا نفسه يهوي فوق الفراش، وأغمض عينيْه.

استشرى الإحساس في جسمه حتى غدا كتلةً أسفل بطنه. اكتسبَتِ الكتلة عرضًا، وحجمًا، وقوةً. لم تعُد مُجرَّد كتلة، بل صارت تمرُّدًا لم يفلح هراقليس في تحديد موقعه. والآن غدا التمرُّد عصيانًا صامتًا، مُستقلًّا بذاته، له شكل وإرادة يخصَّانه وحده. كل ذلك ولم تكُن قد استعانت سوى بثغرها! تأوَّه ثانيةً.

وعلى حين غرة، تلاشى ذلك الإحساس بحدَّة مُخلِّفًا على جسده وخزًا خاويًا يشبه ذلك الذي قد تُسفر عنه صفعة. أدرك أن الفتاة أمسكَتْ عن مداعبته. فتح عينيْه فرآها ترفع حافة ثوب البيبلوس وتعتلي ساقيْه. أما بطنها الممشوق الذي يليق براقصة، فقد مسَّ ذلك التمثال الصلب الذي ساهمَتْ في نحته بنفسها، حتى انتصب الآن في لجاجة. مضى يسائلها بتأوُّهاته. في حين شرعَتْ هي تتمايل...

كلا، فهي لم تكُن تتمايل على وجه التحديد، بل شرعَتْ تتراقص، رقصة تقتصر حركاتُها على الجذع وحسب. فأحكمَتْ ضمَّ ساقي هراقليس المكتنزتيْن بفخذيْها، واتَّكأت بيديْها على الفراش، إلا أن جذعها راح يتحرَّك برشاقة على وقع موسيقى الجسد.

وببطء محسوب شرعَتْ تكشف الثوب عن إحدى كتفيْها، لينساب على ذراعها. ثم حوَّلَتْ رأسها جهةَ الكتف الأخرى وفعلَتْ بالمثل. وفي اللحظة الحاسمة تمنَّع الشريط المشدود إلى تلك الكتف أكثر قليلًا، وإن لم يكُن ذلك أكثر من تمنُّع طوعي بحسب اعتقاد هراقليس. ثم سحبَتْ بائعة الهوى ذراعيْها بحركة مباغتة، لا يشوبها أدنى قدر من الخَرَق، وأطلقَتْ سراحهما من قيود الشرائط. انزلق الثوب حتى تعلَّق بنهديْها الكاعبيْن.

دار في خلد هراقليس أن تعرِّيها من ثيابها بغير الاستعانة بيديْها أمرٌ شاق، وفي تلك المشقَّة الوئيدة تكمن إحدى اللذَّات التي أذاقته إيَّاها، بينما تكمن لذَّة أخرى-أصعب منالًا، وأشد بطئًا- في ذلك الاحتكاك المتواصل الآخذ في الزيادة بين عانتها وبين عوده المُشرَّب حمرة.

وبحركة محسوبة مالَتْ ياسينترا بجذعها حتى انحسر الثوب عن أحد نهديْها البارزيْن كما تنساب قطرة زيت، متجاوزًا العقبة المُتمثِّلة في الحلمة الناتئة، ثم انساب خفيفًا كالريشة حتى بطنها. راقب هراقليس نهدها الذي تعرَّى لتوِّه. رأى ذلك اللحم الأسمر المستدير في متناول يده. أحسَّ برغبة في اعتصار تلك الحِلْيَة الداكنة التي صلُبَتْ وجعلت ترتعش فوق النهد المُتكوِّر، وإن كبح جماح نفسه. بدأ ثوب البيبلوس ينحسر وينساب من فوق النهد الآخر.

توتَّر جسم هراقليس النحيل وتفصَّد العرق من جبينه وصدغيْه، حيث ينحسر شعره على نحو جلي. طرفَتْ عيناه السوداوان. ندَّ أنينٌ عن فمه الذي تحفُّ به لحية سوداء. تضرَّج وجهه تمامًا. وحتى الندبة الصغيرة، تلك الذكرى التي طبعَتْها على وجنته اليسرى الضامرة إصابةٌ من عهد الطفولة، فقد بدَتْ أشد دكنة[150].

علق المشبكان المعدنيان عند خصرها، فأبى الثوب أن يسترسل في انسيابه النشوان. عند ذاك استعانَتْ ياسينترا بأناملها لأول مرة، فانفتح الحزام مُحدثًا فرقعة ناعمة. شقَّ جسمها طريقه نحو العري التام. أما وقد تحرَّر جسمها من العوائق أخيرًا، فقد بدا لعيني هراقليس مشدودًا على نحو بديع. وأظهر كلُّ موضع من بشرتها ذكرى حركة من حركاتها. كان جسمها مفعمًا بالنيات. وفيما راح يدمدم، استوى هراقليس على الفراش بمشقة، فلاقت مبادرتُه قبولًا لديها، بل وسمحَتْ له ياسينترا بأن يدفعها حتى هوَتْ مُمدَّدة على جانبها. لم يرغب في النظر إلى وجهها، غير أنه استدار وألقى بجسمه فوقها. شعر بقدرته على أن يؤذيها. باعد ما بين ساقيْها وغاص داخلها بقسوة ناعمة. أراد الاعتقاد بأنه جعلها تتأوَّه. تحسَّس وجهها بيسراه، فندَّ عنها أنين إذ وخزها الخاتم الذي يضعه في إصبعه الوسطى. باتت حركاتهما تساؤلات وأجوبة، أوامر وامتثالات، طقوسًا غريزية[151].

داعبَتْ ياسينترا ظهره الضخم بأظفار حادة كما السكاكين، فأغمض عينيْه الرقيبتيْن[152].

ظلَّ يلثم المنحنيات الناعمة في عنقها وكتفيْها ويعضُّها برفق، فيما يطلق صرخة خافتة هنا وأخرى هناك، حتى أحسّ بلذَّة غريبة جارفة[153].

صرخ صرخةً أخيرة، ليدرك أن صدى صوته يتردَّد بداخلها، كثيفًا جيَّاشًا.

وفي الوقت نفسه، نحَّتْ بائعة الهوى يمناها ببطء من شأنه تفنيد النشوى البادية عليها، ثم رفعَتْ شيئًا كانت قد التقطَتْه مُسبقًا. رآها فلم يحرِّك ساكنًا، وفي تلك اللحظة تحديدًا عجز عن الحركة. عند ذاك وخزَتْ ظهر هراقليس بذلك الشيء[154].

أحسَّ بوخزة في عموده الفقري.

بعد لحظة، انتحى عنها واثبًا. ثم رفع يده وهوى بها على فكِّ ياسينترا وكأنما ينهال عليها بمقبض سيف. رآها تلتفت، لاحظ أن ثقل جسمه يحول دون سقوطها من فوق الفراش. عند ذاك استوى في جلسته ودفعها. تدحرجَت الفتاة كما ينسلخ الحيوان من جلده، حتى ارتطمَتْ بالأرض مُحدثةً صوتًا غريبًا، ناعمًا على نحو غامض. في حين ارتدَّ سكينها الطويل الحاد مُحدثًا رنينًا معدنيًّا خافتًا حتى بدا عبثيًّا وسط كل هذه الأصوات الناعمة. وبحركات خرقاء نزل هراقليس عن الفراش مُنهكًا، فجذب ياسينترا من شعرها، ثم جرَّها ليضرب رأسها بالحائط الأقرب إليهما.

عند ذاك تسنَّى له أن يفكِّر، فدار في خلده أوَّل ما دار: «لَمْ تؤذِني. كان بوسعها أن تطعن ظهري بالخنجر، بَيْد أنها لم تفعل». وعلى الرغم من ذلك فلم تخمد ثورته. جذب رأسها مرة أخرى ممسكًا بخصلات شعرها المُجعَّدة، ثم تردَّد الصدى الناجم عن ارتطام رأسها بالجدار المصنوع من الطوب.

سألها بصوت أجشّ:

- ماذا يتعيَّن عليكِ فعله إلى جانب قتلي؟

تكلَّمَتْ فانساب خيطان حمراوان من أنفها، إلا أنهما حادا عن سبيل شفتيْها المكتنزتيْن.

- لم يأمروني بقتلك. لو شئت لتحقَّق لي ذلك. لم يأمروني سوى بوخزك بنصل الخنجر فلا أؤذيك، على أن يكون ذلك لحظة بلوغك النشوى، لا قبلها ولا بعدها.

تشبَّث هراقليس بشعرها. جعل كلاهما يلتقط أنفاسه لاهثًا، التصق نهداها العاريان بثوبه. وفيما راح يرتجف من فرط الغضب، بدَّل كاشف الألغاز يده الممسكة بشعرها، ليجذبها بيسراه. ثم رفع يمناه وهوى بها على وجهها مرتيْن، بقسوة مفرطة. فرغ من صفعها، فما كان من الفتاة إلا أن مسحَتْ شفتيْها المُمزَّقتيْن بلسانها، ورنَتْ إليه من دون أن تبدو عليها أمارات الألم أو الرعدة. قال هراقليس:

- لم يكُن ثمة وجود قط لهذيْن «الرجليْن ذاتي القامة الطويلة واللكنة الأثينية»، أليس كذلك؟

- بلى. هما اللذان أمراني بأن أفعل ما فعلت. غير أنهما كانا مُقنَّعيْن. تهدَّداني لأول مرة إثر مصرع تراماكو. ثم عادا بعد حديثكما إليَّ. كانت تهديداتهما مُروِّعة. أخبراني بكل ما يتعيَّن عليَّ فعله: الزعم بأن مينيكمو هو من تهدَّدني، والحضور إلى بيتك، واللجوء إليك، ومحاولة إثارتك وإمتاعك...

رفع هراقليس يمينه مُجدَّدًا، فقالت:

- لكَ أن تقتلني صفعًا إن شئت. فأنا لستُ أخشى الموت، يا كاشف الألغاز.

همهم هراقليس ولم يصفعها:

- ولكنكِ تخشينهما.

افترَّتْ شفتا ياسينترا المُتشقِّقتان عن ابتسامة:

- إن بطشهما عظيم. ليس لك أن تتخيَّل ما توعَّداني به إن لم أمتثل للأوامر. فمِنْ القتل ما أراح، أما هما فلا يتوعَّدان بالقتل، بل بألمٍ لا ينتهي، فلا يلبثان أن يقنعا مَنْ شاءَا. ليس أمامكما أدنى فرصة في مواجهتهما، لا أنت ولا صديقك.

- أتقولينها امتثالًا لأوامرهما أيضًا؟

- كلا، فأنا أعرف ما أقول.

- كيف تتواصلين معهما؟ أين لي أن أجدهما؟

- هما يتواصلان معي.

- هل حضرَا إلى هنا؟

وعندما أجابته بقولها: «أجل»، لاحظ هراقليس أنها مُتردِّدة، فأغمد مرفقه الأيسر في كتفها كما لو كان سكينًا، ليرغمها بذلك على الاستناد بظهرها إلى الجدار أكثر فأكثر، بينما أخذ يراقبها تحسُّبًا لأية حركة قد تأتي بها[155].

أردفَتْ ياسينترا:

- في واقع الأمر، إنهما هنا. - هنا؟ ماذا تعنين[156]؟

أطرقَتْ ياسينترا هنيهةً، في حين أجالت بصرها في المكان من أقصاه إلى أقصاه، وكأنما تمسح بعينيْها الحجرة بأسرها. ثم قالت ببطء غريب:

- لقد أمراني كذلك بأن أحاول التحدُّث إليك...

بعد إمتاعك...

وأن أشتِّت انتباهك...

راقب هراقليس حركة عيني الفتاة السريعة[157].

وفجأةً خُيِّل إليه أنه قد سمع ما يشبه الصوت الداخلي، يناديه صارخًا: «انظر خلفك!». فنظر خلفه في اللحظة المناسبة.

كان الخيالُ المُقنَّع يتلفّع برداء ثقيل أسود. ثنى ذراعه اليمنى ليسدِّد طعنةً صامتةً مُميتة، بَيْد أن هراقليس صدَّ الطعنة بساعده على نحوٍ غير مُتوقَّع ليبدِّل مسار النصل الذي استقرَّ في الهواء من دون أن يتأذَّى به أحد. استطاع كاشف الألغاز أن يدور على عقبيْه قبل أن يعاود المعتدي تسديد طعنة أخرى إليه، فمدَّ يده وقبض على المعصم الأيمن للمعتدي. تصارعا. تأمَّل هراقليس الوجه المُقنَّع، وعند ذاك أحسَّ بقواه تخور، إذ تعرَّف من فوره على ذلك القناع الخالي من الملامح ذي

القسمات المرسومة الزائفة، وتعرَّف على الاضطراب المعتم البادي عَبْر تجويفي العينيْن المتناسقتيْن اللتيْن جعلتا تشعَّان كراهية في هذه اللحظة. استغلَّتْ يونسيكا الارتباك الذي اعتراه لحظتها لتقرِّب حدَّ الخنجر من لحم عنقه الرخو. تعثَّر هراقليس وتراجع إلى الخلف حتى ارتطم بالجدار. أرغم نفسه على التفكير (بطرف ذهنه، كالناظر بطرف عينه)، فخطر له أن ياسينترا لا تبدو كمن يهاجمه، وإن لم يدرِ ما هي فاعلة بخلاف ذلك. ولذا فهو يتصدَّى لعدوٍّ واحد، لامرأة واحدة (إلا أنها امرأة شديدة البأس، كما تأكَّد من فوره). قرَّر أن يخاطر بالسماح للنصل الحاد بالاقتراب من هدفه أكثر قليلًا، مقابل أن يستجمع قوة يده اليمنى. ثم رفع قبضته وانهال بها على القناع. سمع أنينًا بالغ العمق حتى وكأنه آتٍ من جوف بئر. سدَّد إليها ضربة أخرى، فسمع أنَّة أخرى وحسب. أسوأ ما في الأمر أن تركيزه في ذراعه اليمنى جعله ينسى أمر الخنجر الذي مضى يطوي المسافة الضئيلة الفاصلة بينه وبين العنق النابض، مُتَّجهًا صوب أفرع الأوردة الواهية والعضلات المرتعشة الوديعة. عندئذ أمسك عن ضربها وأقدم على شيء بوغتَتْ به غريمته الثائرة من دون شك، ذلك أنه بسط أصابعه، وفي حُنُوٍّ شرع يتحسَّس قناعها، ونتوء الأنف، ومنحنيات الوجنتيْن...

كأعمًى يبغي التعرُّف على وجه صديق قديم بأطراف أنامله.

أدركَتْ يونسيكا نياته بعد فوات الأوان.

فمن دون سابق إنذار، اخترق تجويفي العينيْن مِدقَّان ضخمان، مكبسان هائلان، فغاصا لا يعترض سبيلهما شيء، في لزوجة جديرة بالفضول تكسوها أغشية رقيقة من الأديم. وعلى الفور ابتعد نصل الخنجر عن عنق هراقليس، في حين طفق شيءٌ يئنُّ ويصرخ من خلف تعبير القناع غير المكترث. انتزع كاشف الألغاز إصبعيْه الرطبتيْن اللتيْن غاصتا حتى المفصل الثاني، ثم ابتعد عنها. انطلقَتْ يونسيكا تعوي، في حين ظلَّ قناعها مُحتفظًا بالصبر والحياد. تراجعَتْ. فقدَتْ توازنها.

وحين هوَتْ أرضًا، انقضَّ عليها هراقليس.

بالكاد تسنَّى له أن يكبح رغبة لا تُقاوَم في استخدام خنجرها. فبدلًا من ذلك جرَّدها من سلاحها أولًا ثم انهال عليها بقدميْه الحافيتيْن وراح يركلها في عدة مواطن ضعف بعد أن تركها العمى بلا حماية. استعان بكاحله، فخُيِّل إليه كأنه يدهس حشرة عملاقة.

وحين انتهى كل شيء لاحظ هراقليس، بين حيرة ولهاث، أن ياسينترا ما زالت كما تركها، عاريةً، بلا حراك، قبالة الجدار. ما كان منها إلا أن مسحَتِ الدماء عن وجهها قليلًا. كاد هراقليس يستاء لكونها لم تهاجمه هي الأخرى. كان يودُّ لو جمع بين حنقه من هذه وتلك، لو وَصَل بين صراعه مع هذه وتلك، لو توالت ضرباته المتواصلة بلا انقطاع. أما الآن فلم يعُد أمامه سوى الهواء والأشياء المحيطة به كي يقتلعها، ويهشِّمها، ويفتك بها. وحين استعاد صوته، سأل:

- في أي لحظة استطاعوا تجنيدها؟

- لستُ أدري. فحين أرسلوني إلى هنا، أمروني بالانصياع لتعليماتهم. ورغم أنها خرساء، يسهُل فهم إشاراتها. كما أنني كنتُ مُطَّلعة على الأوامر بالفعل.

همهم هراقليس بازدراء:

- الأسرار المُقدَّسة! رنَتْ إليه ياسينترا وهي لا تفهم شيئًا. فأردف قائلًا:

- أخبرَتْني يونسيكا بأنها مؤمنة بالأسرار المُقدَّسة، شأنها شأن مينيكمو. كلاهما كاذب.

ابتسمَتِ الراقصة:

- ربما لم يكذبا، فهما لم يخبراك بأي ضرب من الأسرار المُقدَّسة يدينان.

رفع هراقليس حاجبًا وجعل يتأمَّلها. قال:

- ارحلي. اغربي عن هذا المكان.

لملمَتْ ثوبها وحزامها من على الأرض، وقطعَتِ الحجرة في وداعة. ولمَّا بلغَتْ الباب التفتَتْ إليه.

- كانت جاريتك هي المُكلَّفة بقتلك، ولستُ أنا. إن لهم طريقتهم في إنجاز الأمور، يا كاشف الألغاز. فلا أنت ولا أحد قادر على فهمهم. وهنا تكمن خطورتهم البالغة.

فأعاد هراقليس قوله لاهثًا، يكاد يختنق:

- ارحلي.

إلا أنها أردفَتْ:

- هراقليس، اهربْ من المدينة، وإلا فلن تعيش لما بعد الفجر.

رحلَتْ ياسينترا، فتمكَّن هراقليس أخيرًا من إظهار كل ما يشعر به من إعياء. استند إلى الجدار وحكَّ عينيْه. كانت به حاجة إلى استعادة سلام الفكر وصقل أدواته الذهنية التي يستعين بها على العمل، ومن ثم العود على بدء في هدوء...

تردَّد صوتٌ فزع له هراقليس. كانت يونسيكا تحاول النهوض من مكانها على الأرض. حانت منه التفاته إليها، فيما ترقرق خيطان من الدماء عَبْر تجويفي قناعها. تشعَّب الخيطان بلونهما القاني على ذلك الوجه الأبيض، فكان منظرًا مُروِّعًا. دار في خلد هراقليس: «محال! لقد هشَّمتُ عددًا من أضلاعها. لا بد أنها تعاني سكرات الموت. فهي عاجزة عن الحركة». تذكَّر خرافة التماثيل المُتحرِّكة عديمة الرحمة التي صمَّمها دايدالوس المعماري والنحَّات الأسطوري، ذلك أن حركات يونسيكا قد استحضرَتْ إلى ذهنه آلة ميكانيكية مُحطَّمة. مضَتْ تستند بيدها، ثم تنهض على قدميْها، ثم تسقط أرضًا، ثم تعاود الاستناد بيدها مرة أخرى، بحركات إيمائية مُبتسَرة. ربما أدركَتْ أخيرًا أن لا طائل يُرتجَى من محاولاتها، فالتقطَتِ الخنجر وشرعَتْ تزحف صوب هراقليس بإصرار لا يلين، وعيناها تلفظان خيطيْن من الأخلاط.

سأل هراقليس:

- فيمَ كل هذه الكراهية التي تضمرينها لي، يونسيكا؟

رآها عند قدميْه وهي تشهر الخنجر بأنفاس تغلي، رآها ترتجف وتتوعَّده بلفتة تشي بالهزيمة. بَيْد أن قواها قد خانتها، فسقط السكين أرضًا ليحدث دويًّا. عند ذاك أطلقَتْ تنهيدة عميقة بدا وكأنها تنتهي بدمدمة غاضبة، ثم مكثَتْ مكانها بلا حراك، غير أن أنفاسها تلاحقَتْ فيما يشبه

السخط، وكأنها تأبى الاستسلام إلا أن تنجز مهمّتها. مضى هراقليس يتأمَّلها في ذهول. وأخيرًا دنا منها بحذر صيَّاد ينظر بعين الارتياب إلى مظاهر الاحتضار البادية على طريدة قنصها لتوِّه. أراد فهم مسلكها قبل أن يرديها قتيلة. مال عليها وانتزع قناعها. جعل يتأمَّل ذلك الوجه المجدول بالندوب، وتجويفي العينيْن اللتيْن اقتلعهما منذ قليل. رآها تفغر فاها وتطبقه كما الأسماك.

- متى، يونسيكا؟ متى دبَّتْ في قلبكِ الكراهية نحوي؟

فكأنه يسألها متى قرَّرَتْ أن تغدو إنسانًا، أو امرأةً حرّة، إذ خُيِّل إليه فجأةً أن الكراهيةَ قد أعتقَتْها على نحو ما، كما لو كانت الكراهية ملكًا ذا سطوة. تذكَّر يومَ رآها في السوق، مُنعزلةً، وقد رغب الزبائن عنها. تذكَّر أعوام الخدمة الدؤوب، وإشاراتها الصموت، ومسلكها الوديع، وانصياعها لطلبه (أو لأمره؟) بأن تضع قناعًا...

لم يستطِع الاهتداء إلى ثغرة واحدة تتخلَّل ذلك الزمن، ولا إلى لحظة واحدة من لحظات الارتياب، ولا إلى تفسير لما جرى.

همس إليها في سمعها:

- يونسيكا، أخبريني بالسبب. ما زلتِ قادرة على تحريك يديْك...

التقطَتْ أنفاسها بمشقة. كان منظر وجهها المُمزَّق بشعًا، وكذلك تجويفا عينيْها. بَيْد أن هراقليس لم يأبه لمظهرها بقدر ما كان مُهتمًّا بجوابها، وأقلقه احتمال موتها من دون أن تجيبه. راقب يسراها التي أخذَتْ تخدش الأرض، ثم حوَّل بصره إلى يمناها التي ما عادت ممسكة بالخنجر، فلم يجد للكلمات أثرًا.

وإزاء ذلك الصمت المُروِّع، تساءل: «متى كان ذلك؟ متى منحوكِ حريتك؟ أو متى عثرتِ عليها بنفسكِ؟ ربما كنتِ تتردَّدين على إليوسيس فعلًا، شأن الكثيرين، وهناك التقيتِ بهم...».

مال أكثر قليلًا وانتبه إلى رائحتها. كانت الرائحة نفسها التي فاحت من جثتي إوْماركو وأنتيسو. إلا أنه لم يلاحظها في جثة إيونيو. ثم قال لنفسه: «بالطبع، إذ كان يفوح من جثة إيونيو عبق النبيذ».

وبغتةً سمع خفقات قلب. تراه قلبه؟ قلبها؟ ربما كان قلبها، فهي تلفظ أنفاسها الأخيرة. «ترزح تحت وطأة آلام رهيبة، ولكن لا يبدو أنها تأبه لذلك». ابتعد عن تلك الخفقات، بينما عاودَتْ مداهمته ذكرى الكابوس الذي استحوذ عليه، ولكنه تشبَّث بوعيه المُثقَل بالهموم هذه المرة، وكأن يقظته هي الضياء الذي يعوزه كي يُبدِّد تلك الظلمات الكثيفة. رأى القلب الذي انتُزِع لتوِّه، واليد المُتشبِّثة به. استطاع أن يميِّز الجندي، وأخيرًا سمع كلماته بصفاء.

عندئذ تذكَّر ما قد طواه النسيان، تذكَّر تلك التفصيلة الدقيقة التي ضجَّتْ بها أحلامه في صراخ ضارٍ منذ البدء.

عانت يونسيكا سكرات الموت ردحًا طويلًا، وعلى الرغم من ذلك فقد مكث هراقليس جامدًا بلا حراك، واقفًا قرب جسدها، زائغ النظرات. وحين قضَتْ نحبها، كان يومٌ جديد قد وُلِد في الخارج، وعبرَتْ أشعة الشمس إلى المخدع خافت الإضاءة.

في حين ظلَّ هراقليس جامدًا بلا حراك[158].

الفصل الحادي عشر[159]

نزل الرجل درجات السُّلَّم الحجري المنحدر حتى بلغ الموضع الذي يقبع فيه الموتُ مُترقِّبًا. كان قبوًا تحت الأرض تضيئه مصابيح زيت، له ردهة صغيرة وفي وسطه رواق تتخلَّله الزنازين. بَيْد أن الرائحة التي نضح بها المكان لم تكُن رائحة الموت، بل اللحظة السابقة عليه: الاحتضار. دار في خلد الرجل أن الفارق بينهما قد يكون بالغ الرهافة، ولكن أي كلب يستطيع إدراكه. علاوةً على ذلك، فقد بدا له منطقيًّا أن يعبق المكان بتلك الرائحة الكريهة، علمًا أنه السجن حيث يترقَّب المحكومون بالإعدام تنفيذ الحكم.

لم يطرأ على السجن تغيير واحد منذ عهد سولون، وكأن الحكومات التالية خافت الاقتراب منه لتجديده على نحو أو آخر. كانت من عادة حراس البوابة أن يلعبوا النرد في الردهة خلال ورديات الليل، وأن يُقسموا بأغلظ الأيمان عند الرميات الأكثر أهمية: «إوْموليو، إنها رمية الكلب! لا بد أن تدفع الثمن، وحقّ زيوس![160]»

أما فيما وراء ذلك، فثمة درجات صغيرة تفضي إلى ظلمات الزنازين الكثيفة حيث يذوي السجناء وهم يحسبون الزمن المُتبقِّي لهم قبل أن تداهمهم ظلماتُ الآخِرة. ورغم افتقار تلك الجحور إلى أبسط وسائل الراحة، بحكم المنطق، فلم يخلُ الأمر من استثناءات ملحوظة في بعض الحالات. فعلى سبيل المثال، نجد أن سقراط الذي أُودع في الزنزانة قبل الأخيرة إلى اليمين-أو الزنزانة الأخيرة إلى اليسار بحسب ما أكَّد بعض حراس البوابة- قد حظي بفراش صغير ومصباح وطاولة صغيرة وعدد من المقاعد التي كان يشغلها زواره الكثيرون طوال الوقت. يفسِّر حراس البوابة تلك الاستثناءات بقولهم: «يُعزَى الأمر إلى الزمن المديد الذي قضاه يترقَّب تنفيذ الحكم الصادر في حقّه، إذ تصادف انتهاء محاكمته مع الأيام المُقدَّسة، حين تبحر السفينة مُحمَّلة بالحجيج إلى جزيرة ديلوس، ويُحرَّم تنفيذ أحكام الإعدام، كما يُعرَف بالفعل... بَيْد أنه لم يشْكُ الإبطاء، مُطلقًا... كم كان صبورًا، المسكين...!».

مهما يكُن من شيء، فلم تكُن تلك الحالات شائعة. وبالطبع لم تشمل تلك الاستثناءات السجينَ الوحيد الذي راح يترقَّب ساعة القَدَر لحظتها، إذ كان من المزمع إعدامه يومئذ.

أما حارس البوابة المنوط بالخدمة آنذاك، فكان عبدًا شابًّا من جزيرة ميلوس ويُدعَى أنفيو. لم تكُن تلك هي المرة الأولى التي يدور فيها بخلد الرجل أن أنفيو كان من الممكن أن يصبح وسيمًا، بالأخذ في الاعتبار قامته الممشوقة ومسلكه الأكثر تهذيبًا بالقياس إلى آخرين لا يختلفون عنه

حالًا، لولا أن إلهًا خبيثًا قد جذب حبال عينه اليسرى عند مولده ليجعل من وجهه لغزًا باعثًا على القلق (أو ربما كان ذلك من فعل إلهة خبيثة)، وجهه الذي تحفُّ به لحية مُتفرِّقة نظرًا لإصابته بثعلبة تدعو إلى الفضول. بأية عين كان ينظر أنفيو في واقع الأمر؟ باليمنى؟ أم باليسرى؟ كان الرجل يضيق بذلك التساؤل الذي يتبادر إليه كلما تأمَّل الحارس.

تبادلا التحية. قال الرجل:

- كيف حاله؟

فأجابه أنفيو:

- لا يشتكي. أعتقد أنه يتبادل الأحاديث مع الآلهة، فأحيانًا أسمعه يتكلَّم وحيدًا.

أما الرجل الذي كان يُدعَى تريبتيميس، معاون الأحد عشر قاضيًا أعضاء السلطة القضائية العليا المعنية بالشؤون الجنائية، فقال:

- أنا ذاهب لرؤيته.

سأل أنفيو:

- تريبتيميس، ما ذاك الذي بحوزتك؟

فأطلعه الرجل على القدح الصغير المختوم وقال:

- عند احتجازه طلب منا أن نحمل إليه قليلًا من نبيذ لِسبوس.

فقال أنفيو:

- مهلًا، تريبتيميس. كما تعلم، يُحظَر تلقِّي السجناء أي شيء من الخارج.

فتنهَّد الرجل وأجاب:

- أنفيو، هيَّا، انصرفْ إلى عملك ودعني أنصرف إلى عملي. ماذا تخشى؟ أن يثمل يومَ موته؟

ضحكا. وتابع الرجل حديثه:

- وإن ثمل، فذلك خير له. فلسوف يمضي إذن صوب هوَّة الباراترون وهو يترنَّح يمنةً ويسرةً، ثم يسقط عن الحافة فيظنُّ أنه قد تعثَّر في الشارع وهو عائد من جلسة في في بيت صديق له...

ولسان حاله يقول: «أوه، وحق أثينة ذات العينيْن الزرقاويْن، ما أردأ شوارع هذه المدينة!».

علا ضحكهما أكثر من ذي قبل. تضرَّج وجه أنفيو وكأنه يشعر بالخزي لكونه قد أبدى ارتيابه بالآخر.

- تفضَّل، تريبتيميس. قدِّمْ له النبيذ. ولكن، عسى ألّا يعرف السادة.

- لن يعرفوا.

ثم دار في خلد تريتيميس وهو يلتقط أحد المشاعل ويتأهَّب للنزول إلى عتمة الزنازين: «إنه ينظر بعينه اليمنى، والآن تأكَّدتُ من ذلك»[161].

ننزل من السماء المفعمة بالصواعق المُدوِّية، وعلى جناحي دفقة من الريح نبتعد عن عمارة المعابد ونمضي في سبيلنا إلى حي إسكامبونيداي الراقي. نتبيَّن بالأسفل خطًّا رماديًّا مُتعرِّجًا يتخلَّل مشارف المدينة من أقصاها إلى أقصاها. إنه الشارع الرئيسي، أجل. أما اللطخة التي تتنقَّل الآن عَبْر الشارع في سرعة محاذرة صوب أحد البساتين الخاصة، فهو رجل. يبدو متناهي الصغر من هذا الارتفاع. كان عبدًا بالنظر إلى ردائه، وشابًّا بالنظر إلى خطواته الرشيقة. وقف رجل آخر يترقَّبه تحت الأشجار. ورغم أنه قد احتمى بالأغصان، فقد انعكس على ردائه لمعان الثياب المُخضلَّة بالمياه. يشتدُّ هطول الأمطار. ننعم النظر. يقع بصرنا على وجه الرجل الذي يترقَّب. وهو رجل ضخم، دهني البشرة، له لحية مُفضَّضة مُهذَّبة بعناية وعينان رماديتان وحدقتان جاحظتان كدبوسيْن من العاج. يبدو نفاد صبره جليًّا، فهو يتلفَّت يمنةً ويسرةً. ينتبه أخيرًا إلى العبد المقبل نحوه، فتزيد اللهفة البادية عليه. ترى، أي خواطر تتبادر إليه في تلك اللحظة؟...

آه، ليس بمقدورنا أن ننزل إلى داخل رأسه!...

نتساقط على شعره الرمادي المتشابك، وهنا ينتهي كل شيء بالنسبة إلينا، وما نحن إلا قطرات مطر مسكينة[162].

صاح العبد الشاب:

- سيدي! سيدي! لقد قصدتُ بيت دياغوراس امتثالًا لأوامرك، فلم أجد أحدًا!

- هل أنت مُتأكِّد؟

- أجل يا سيدي! طرقتُ بابه عدة مرات!

- حسنًا، دعني أخبرك بما ينبغي لك فعله الآن. ادخلْ بيتي وترقَّب عودتي حتى ينتصف النهار. ما لم أعُد بحلول ذلك الوقت، اذهبْ وأخبرْ معاونيّ الأحد عشر. قُلْ لهم إن جاريتي حاولت أن ترديني قتيلًا ليلة أمس، ما اضطرَّني للدفاع عن نفسي. لو عرفوا بوجود جثة فلسوف يعجِّلون بالتحرُّك. سلِّمهم هذه البردية أيضًا، وازجُرهم أن يُطلِعوا رؤساءهم على فحواها، وأقسمْ لهم بشرف سيدك إن خطرًا فادحًا يحيق بسلام المدينة. ليس هذا صحيحًا تمام الصحة، بحسب اعتقادي. ومع ذلك، فإن استطعتَ أن تشيع فيهم شيئًا من الخوف، فلسوف ينفِّذون تعليماتك بحذافيرها. أفهمت؟ أومأ العبد مفزوعًا.

- أجل، سيدي. سأفعل كما أمرتَني! ولكن، إلى أين أنت ذاهب؟ يقشعرُّ بدني لمُجرَّد سماع حديثك!

فرفع هراقليس صوته، إذ اشتدَّ هطول الأمطار أكثر فأكثر:

- سأعود عند منتصف النهار، إن سار كل شيء على ما يرام.

- أوه، سيدي! انتبه لنفسك! فهذه العاصفة تبدو مُحمَّلة بنذر الشر!

- إن امتثلتَ لأوامري بدقّة، فلن يكون ثمة ما نخشاه.

ابتعد هراقليس، وسار نزولًا عَبْر الشارع المُنحدِر، مولِّيًا وجهه شطر هاوية الهلاك، شطر المدينة[163].

استيقظ دياغوراس في وقت مُبكِّر للغاية على وقع قطرات المطر الميِّتة، إذ راحت تنقر الجدران وتخدش كوَّات مخدعه وتقرع بابه في غير كلل. نهض من فراشه وارتدى ثيابه على عجل. اعتمر رداءه على رأسه كالقلنسوة ثم خرج.

كان الموت يغشى حي كوليتوس الذي يقطن فيه دياغوراس. حتى إن بعض الحوانيت أوصدَتْ أبوابها كما لو كانت عطلة. أما الدروب الأكثر طرقًا فلم يسلكها سوى شخص أو شخصان على غير هدى. في حين هيمنَتِ الأمطار على الأزقة المعتمة بلا منازع. دار في خلد دياغوراس أنه يجدر به الإسراع إن شاء رؤية مينيكمو صبيحة ذلك اليوم. في الواقع، تكوَّن لديه انطباع بأن الاستعجال لا غنى عنه إن شاء رؤية أي شخص كان، حيثما كان، ذلك أن أثينا بأسرها بدَتْ لعينيْه كالمقبرة المطيرة.

نزل عَبْر شارع مُنحدِر مُتعرِّج حتى بلغ ساحة صغيرة يتفرَّع منها شارع آخر مُنحدِر بدوره. عند ذاك انتبه إلى ظلِّ كهل يتَّخذ لنفسه ملاذًا تحت إفريز، لا شك أنه راح يترقَّب هدوء العاصفة. فوجئ دياغوراس بوجهه الشاحب، في تناقض صارخ مع أجفانه التي أحاط بها السواد. ثم لمح عبدًا يحمل أمفورتيْن، فبدَتْ لدياغوراس وجنتاه أكثر شحوبًا مما ينبغي. ثم ابتسمَتْ له بائعة هوى من مكانها في أحد الأركان، فكأنها كلب يتضوَّر جوعًا. أما المساحيق البيض الذائبة على وجهها، فقد ذكَّرَته بالأكفان المتآكلة. دار بخلده: «وحق آلهة الخير، لم أرَ سوى وجوه الموتى منذ خرجتُ من بيتي! ربما يكون المطر ضربًا من الهواجس. أو ربما يذوب لون الحياة على الوجنتيْن إذ تغمرهما المياه»[164].

وفيما هو مستغرق في تأمُّلاته، انتبه إلى طيفيْن كلاهما يعتمر قلنسوة، خرجا من شارع جانبي وأقبلا نحوه. «بحقّ زيوس، ها زوجٌ آخر من الأشباح».

توقَّف الطيفان أمامه، وقال أحدهما بصوت ودود:

- أوه، دياغوراس الميدونتي، تعالَ معنا فورًا. ثمة أمر مُروِّع موشك على الوقوع.

اعترضا سبيله. ومن خلال الظلمة التي غشيَتْ قلنسوتيْهما، تسنَّى لدياغوراس أن يلمح بياض وجهيْهما المتشابهيْن على نحو غامض.

سألهما:

- كيف تعرفاني؟ ومن أنتما؟

أما صاحبا القلنسوتيْن، فقد تبادلا النظرات في ما بينهما. ثم قال ثانيهما:

- إننا...

إننا الأمر المُروِّع الموشك على الوقوع، إلّا أن تأتي معنا.

ثم أدرك دياغوراس فجأةً أن عينيْه قد خدعتاه هذه المرة. فما كان بياض وجهيْهما حقيقيًّا. بل كان الرجلان مُقنَّعيْن.

دار في خلد هراقليس: «ربما اتَّسع نفوذهم حتى بلغ الأركون الملك. فبرغم كل شيء، يُحتمَل أن يكون أيُّ شخص واحدًا منهم...».

ولكنه بعد لحظة أخذ يعقل الأمر بقدر أكبر من الهدوء: «لو كانوا قد بلغوا هذا المبلغ من النفوذ، لأمّنوا على أنفسهم، بحكم المنطق. ولكن، على العكس من ذلك، فإن فكرة افتضاح أمرهم تشيع الرعب في نفوسهم». ثم خلص إلى النتيجة الآتية: «ربما كانت لهم سطوة الآلهة، ولكنهم يرتعدون أمام عدالة البشر». عاود طرق الباب في إصرار. ظهر العبد الصغير في العتمة التي غشيَتْ عتبة الباب. ابتسم قائلًا:

- أنت، مرّة أخرى. شيء رائع أن تزورنا مرّات كثيرة إلى هذا الحدِّ. فزياراتك تعني مكافآت.

كان هراقليس قد أعدَّ قطعتي الأوبول مُسبقًا. أما الطفل فقال وهو يقود هراقليس عَبْر الأروقة المعتمة:

- هذا البيت مظلم، وربما ضللتَ سبيلك ما لم تسترشد بدليل مثلي. أتعرف ماذا يقول إفيماكو، صديقي العبد الكهل؟

- ماذا يقول؟

توقَّف الدليل الصغير وخفض صوته:

- يقول إن أحدهم قد ضلَّ سبيله في هذا البيت منذ أمد بعيد، فقضى نحبه من دون أن يعثر على طريق الخروج. أحيانًا تلقاه في الليل سائرًا عَبْر الأروقة، أشد برودةً وبياضًا من الرخام، فيسألك بأدب جمٍّ عن السبيل إلى الخروج.

- ماذا عنك، هل رأيتَه ذات مرّة؟

- كلا، ولكن إفيماكو يزعم أنه قد رآه.

استأنفا المسير في حين قال هراقليس:

- لا تصدِّق حتى ترى بعينيْك، فكل ما لا يُرَى مسألة رأي.

فأجابه الطفل في بهجة:

- الحقُّ أنني أتظاهر بالفزع حين يقصُّ عليَّ ذلك، إذ يطيب له أن يشيع الفزع في نفسي. ولكن الأمر لا يخيفني في الواقع. وإن لقيتُ الميِّت يومًا، لقلت له: «طريق الخروج؟ ثاني رواق إلى اليمين!».

ضحك هراقليس عن طيب خاطر.

- إن لم تخَف، أحسنت صنعًا. فأنت على وشك أن تبلغ طور الإفيبوس.

فأقرَّ الطفل في زهو:

- لقد بلغتُ طور الإفيبوس.

مرَّ بهما رجل ينخره الدود، أقبل سائرًا في الاتجاه المقابل. فمضى من دون أن ينظر إليهما، إذ كان تجويفا عينيْه خاويَيْن. تابع المسير مُطرقًا، مُحمَّلًا بنَتَن ألف يوم من أيام القبر[165].

بلغا الحجرة فقال الطفل:

- حسنًا، انتظرْ هنا ريثما أبلغ سيدتي.

- سأكون مُمتنًّا.

افترقا بإيماءة تشي بتواطؤ مرح بينهما. وفجأةً خطر لهراقليس أنه لم يودِّع الطفل وحده بتلك الإيماءة، بل ودَّع كذلك هذا البيت القاتم بجميع ساكنيه، ودَّع ذكرياته الخاصّة، إلى الأبد. وكأنما العالَم قد هلك، وليس هناك من يعلم بهلاكه سواه. وعلى الرغم من ذلك، فلم يحزنه شيء بقدر ما أحزنه هجران ذلك الطفل، لسبب غريب، فحتى ذكرياته، الرقيق منها والمُعمِّر، العزيز منها والتافه- لم تبدُ له أهم من ذلك الكائن الألمعي البديع، ذلك الرجل الصغير الذي لم يعرف اسمه بعد (من يدري لأي سبب عارض يلفُّه الغموض، أو أي مصادفة طريفة!).

كشف صوتُ إتيس عن حضورها، على جري العادة.

- هراقليس اليونتوري، تكرَّرَتْ زياراتك في زمن قصير حتى تجاوزَتْ ما يقتضيه مُجرَّد المجاملة.

أما هراقليس الذي لم يلمحها حين أقبلَتْ، فقد انحنى مُحيِّيًا ثم أجاب:

- ليست مجاملة. وعدتُكِ بالعودة لأطلعكِ على نتائج تحرّياتي بشأن ما جرى لابنك.

مضَتْ برهة صمت بالغة القصر، ثم أشارت إتيس لجاريتَيْها اللتيْن غادرتا الحجرة مُطرقتيْن. وبوقارها المعتاد الذي به تفصح عن كل شيء، أشارت لهراقليس بالجلوس على إحدى الأريكتيْن ثم جلسَتْ على الأخرى. كانت...

أنيقة؟ بديعة الجمال؟ لم يعرف هراقليس بما يصفها. تراءى له أن شطرًا كبيرًا من ذلك الجمال الناضج يكمن في لمسة المساحيق الطفيفة التي بيَّضَتْ بها وجنَتَيْها، وأصباغ أجفانها، ولمعان الحليّ والأساور، وتناغم الپيپلوس الداكن. حتى وإن تجرَّدَتْ من تلك الزينة لاحتفظَتْ قسمات وجهها الواجم ومنحنيات قوامها بكل ما لها من سطوة...

أو ربما اكتسبَتْ سطوةً جديدة.

قالت:

- ألم يقدِّم لك العبيد ولا حتى رداءً جافًا؟ سآمر بجلدهم.

- ليس أمرًا ذا بال. وددتُ لقياكِ في أقرب وقت ممكن.

- أنت مهتمٌّ للغاية بإطلاعي على ما تعرف.

- ذلك حقٌّ.

حوَّل عينيْه عن نظرة إتيس القاتمة. سمعها تقول:

- هات ما عندك إذًا.

وفيما هو يتأمَّل يديْه المكتنزتيْن المتشابكتيْن فوق الأريكة، قال:

- خلال تواجدي هنا في المرّة الأخيرة، ذكرتُ لكِ أن تراماكو كان يعاني من مشكلة. ولم أكُن مخطئًا في ما ذهبتُ إليه. بطبيعة الحال، قد يغدو أي شيء مشكلة في مثل عمره. إن نفوس الشباب من طين، نشكِّلها كما يحلو لنا. بَيْد أن الأمر لا يخلو من التناقضات والشكوك قط...

فهم في حاجة لتعليم حيوي...

- وقد تحقَّق ذلك لتراماكو.

- ليس لديَّ أدنى شك في ما تقولين، إلا أنه كان أصغر سنًّا مما ينبغي.

- كان رجلًا.

- كلا، إتيس. كان على وشك أن يبلغ طور الرجولة، فلم تمهله ربَّات القَدَر. بل إنه كان طفلًا لا يزال حين قضى.

مضَتْ برهة صمت. مسح هراقليس على لحيته المُفضَّضة ببطء. ثم قال:

- وربما كانت تلك هي المشكلة، أن أحدًا لم يسمح له ببلوغ طور الرجولة.

أطلقَتْ إتيس تنهيدة مقتضبة.

- أتفهَّم ما تقول. تقصد ذلك النحَّات...

مينيكمو. أنا على علم بكل ما دار بينهما، مع أني لم أُرغَم على حضور المحاكمة، من حسن حظي. حسنًا. لقد أتيح لتراماكو الخيار، فآثر أن يختار مينيكمو. إنها مسألة مسؤولية، أليس كذلك؟

فأقرَّ هراقليس بقوله:

- ربما.

- كما أنني مُتأكِّدة من كونه لم يعرف الخوف قط.

فرفع هراقليس حاجبيْه:

- هل تعتقدين ذلك؟ لستُ أدري. ربما كان يخفي فزعه أمامك، لئلا تتألَّمي من أجله...

- ماذا تعني؟

فلم يُجِر جوابًا. بل استرسل في حديثه وكأنه شارد وحده، من دون أن ينظر إلى إتيس.

- ولكن...

من يدري؟ فربما لم تكوني غافلة تمام الغفلة عن الفزع الذي تملَّكه. فقد اضطررتِ لمكابدة عزلة شديدة حين أُعدِم ميراجرو، أليس كذلك؟ ونهضتِ بالحمل الثقيل لابنيْن لم يتلقَّيا تعليمهما بعد،

في مدينة أوصدَتْ أبوابها في وجوهكم، في هذا البيت المعتم...

إتيس، إن بيتك غارق في عتمة حالكة. يقول العبيد إن الأشباح تسكنه...

وأسائل نفسي كم شبحًا رأيتِ وابناكِ طيلة الأعوام المنصرمة؟...

كم يلزم من العزلة، وكم يلزم من العتمة، حتى يتغيَّر البشر...

قديمًا كان كل شيء مختلفًا...

قاطعَتْه إتيس بنعومة غير مُتوقَّعة:

- هراقليس، أنت لا تذكر الماضي.

- أعترف بأنني لا أذكره طوعًا، بَيْد أنكِ مخطئة إذ تخالين الماضي لم يعنِ لي شيئًا...

خفض صوته واسترسل في حديثه بالبرود نفسه، كما لو كان يعقل أمرًا بينه وبين ذاته:

- كان الماضي يشبهكِ. الآن أعرف ذلك وأستطيع البوح به إليكِ. كان الماضي يبسم لي من خلال ثغركِ وأنتِ في عمر الفتوَّة. ولزمن طويل، كان ماضيَّ بسمتكِ...

وإن لم يكُن ذلك طوعًا بدوره، فالأمور تجري كما تجري، وربما حانت اللحظة للإقرار والاعتراف بها...

أعني الاعتراف بها لنفسي، وإن لم يكُن في وسعنا حيال ذلك شيء، لا أنا ولا أنتِ...

جعل يتحدَّث بهمهمات سريعة، خافضًا عينيه، بلا انقطاع.

- أما الآن...

الآن أتأمَّلكِ فلا أعرف ماذا تبقَّى من ذلك الماضي على قسمات وجهكِ...

لا تحسبي أن ذلك أمرًا يهمُّني. قلتُ لكِ إن الأمور تجري وفقَ مشيئة الآلهة، والندم لا يجدي نفعًا. لستُ بالرجل سريع التأثُّر، كما تعلمين...

ولكني اكتشفتُ فجأةً أنني لستُ بمأمن من ذلك، حتى وإن لم أتأثَّر إلا في ما ندَر، وعلى نحو مقتضب...

وهذا كل شيء.

أطرق وابتلع ريقه. أما وجنتاه المكتنزتان لحمًا فقد اصطبغتا بشبح حمرة بالغة الخفّة. دار في خلده: «لعلّها تتساءل عن الدافع الكامن وراء ما بحتُ به». ثم استأنف حديثه في غير تكلُّف، رافعًا صوته أكثر قليلًا:

- وعلى الرغم من ذلك، أودُّ أن أعرف أمرًا قبل رحيلي...

أمرًا على قدر كبير من الأهمية عندي، إتيس. لا يمتُّ بصلة لعملي باعتباري كاشف ألغاز، أؤكِّد لكِ. إن هي إلا مسألة شخصية بحتة...

- وماذا تودُّ أن تعرف؟

وضع هراقليس يده على شفتيْه وكأنما قد انتبه بغتةً إلى ألم مبرح في فمه. مضَتْ برهة صمت، ثم قال وهو ما زال مشيحًا بعينيْه عن إتيس:

- أولًا، عليَّ أن أوضح لكَ أمرًا. منذ شرعتُ أتحرَّى مصرع تراماكو، يراودني حلمٌ مُروِّع يقضُّ مضجعي. أرى فيه يدًا مُتشبِّثة بقلب انتُزِع لتوِّه، وجنديًّا يقف على مبعدة، يقول شيئًا لا أتبيَّنه. لم أولِّ الأحلام أهمية كبيرة قط، ذلك أنها ما دائمًا ما بدَتْ لي عبثية وغير عقلانية ومناقضة لقوانين المنطق. أما ذلك الحلم على وجه التحديد فقد جعلني أفكِّر أن...

ينبغي لي الاعتراف بأن الحقيقة تختار سبلًا غريبة للتجلِّي أحيانًا. لأن ذلك الحلم كان يلفت نظري إلى تفصيلة قد نسيتُها، جزئية دقيقة أبى ذهني أن يتذكَّرها طيلة الوقت المنصرم، لا شك في ذلك...

مسح شفتيْه الجافّتيْن بلسانه وأردف:

- ليلةَ أحضروا جثة تراماكو، اكتفى قائد حرس الحدود بإبلاغكِ بمصرع ابنك، فلم يطلعكِ على أي تفاصيل بحسب ما أكَّد بنفسه...

وتلك هي الكلمات التي راح يتلوها جندي أحلامي مرة إثر أخرى: «تعرف أن ابنها قد قضى نحبه، لا أكثر». وعلى الرغم من ذلك، فحين زرتُكِ لاحقًا لتقديم آيات العزاء، قلتِ لي شيئًا من قبيل: «لقد كشَّرَتِ الآلهة عن ابتسامة وهي تنتزع قلب ابني وتلتهمه». وبالفعل، كان قلب تراماكو قد انتُزِع من صدره، كما أكَّد الطبيب أسخيلوس قبلها بلحظات...

أما أنتِ، إتيس، فكيف عرفتِ؟ ولأول مرة رفع هراقليس ناظريْه إلى وجه المرأة الخالي من التعبير. ثم استطرد في حديث بلا روح، وكأنه مشرفٌ على الموت:

- مُجرَّد قول واحد، لا أكثر...

كلمات وحسب. من المعقول ألا يكون ثمة دافع واحد للتفكير بأنها أكثر من مُجرَّد عبارة تفيد التحسُّر أو صورة مجازية أو مبالغة لغوية...

ولكنه ليس العقل، بل الحلم...

فالحلم يخبرني بأن قولك هو الخطأ الذي ارتكبتِه، أليس كذلك؟...

أردتِ خداعي بصيحات الألم الزائفة، باللعنات التي رحتِ تصبِّينها على الآلهة، فارتكبتِ هذا الخطأ. وانغرس قولُك البسيط بداخلي كالبذرة التي أينعَتْ بعد حلمٍ مُروِّعٍ...

كان الحلم يخبرني بالحقيقة، ولكني لم أفلح في معرفة صاحب اليد المُتشبِّثة بالقلب، تلك اليد التي جعلَتْني أرتعد وأتأوَّه كل ليلة، تلك اليد بالغة النحول، إتيس...

وللحظة تهدَّج صوته. ثم أطرق برهةً. عاود خفض عينيْه ثم قال بهدوء:

- أما في ما خلا ذلك، فكان الأمر يسيرًا. كنتِ تؤكِّدين أنكِ من المؤمنين بالأسرار المُقدَّسة، مثلكِ كمثل ابنكِ وأنتيسو وإيونيو ومينيكمو...

والجارية التي حاولَتْ أن ترديني قتيلًا ليلةَ أمس...

إلا أن تلك الأسرار المُقدَّسة ليست أسرار إليوسيس، أليس كذلك؟ ثم رفع يده بسرعة وكأنه يخشى أن تقاطعه، ثم أردف:

- أوه، لا فارق عندي، أقسم لكِ! فليست بي رغبة للتدخُّل في معتقداتك الدينية...

كما قلتُ لكِ، فقد جئتُ لأعرف أمرًا واحدًا ليس إلا، ثم أرحل...

جعل يتفرَّس في وجه المرأة. وفي نعومة، فيما يشبه الحُنُوّ، أردف قائلًا:

- إتيس...

خبِّريني، فقد اغتمَّتْ نفسي بذلك السؤال...

خبِّريني إن كنتِ واحدة منهم حقًّا، كما يحدِّثني ظنِّي...

خبِّريني...

أتكتفين بالنظر إليَّ أم أنكِ...؟

عاود رفع يده بسرعة للحيلولة دونها ودون الإجابة، رغم أنها لم تأتِ بأدنى إشارة، ولم تحرِّك شفتيْها، ولم يطرف لها جفن، ولم تُبدِ نيتها على الحديث بطريقة أو بأخرى. أردف هراقليس بنبرة متوسِّلة:

- إتيس، وحق الآلهة، قولي إنك لم تؤذِ ابنكِ...

اكذبيني القول إن دعَتِ الحاجة، أرجوكِ. قولي: «كلا، هراقليس، لم تكُن لي يدٌ في ما جرى». لا أكثر. فليس الكذب بالكلمات عسيرًا. إتيس، أحتاج منكِ إلى قولٍ آخر يخفِّف وطأة الأول. ولستُ آبه لمعرفة أي القوليْن حقيقي، أقسم لكِ بحقّ زيوس. خبِّريني أنه لم تكُن لكِ يدٌ في ما جرى، وأتعهَّد إليكِ بالخروج من هذا الباب على ألّا أعود لمضايقتكِ أبدًا...

مضَتْ برهة صمت وجيزة.

ثم قالت إتيس في تأثُّر:

- هراقليس، لم تكُن لي يدٌ في ما جرى، أؤكِّد لك...

فما كان بوسعي إلحاق الأذى بابني.

همَّ هراقليس بالرد، فعَجِبَ لكون الكلمات لا تطفو على شفتيْه، رغم أنه قد أحسن صياغتها في ذهنه. رفَّتْ عيناه، وظلَّ هو شاعرًا بالحيرة والمفاجأة[166]...

- إتيس، أحتاج منكِ إلى قولٍ آخر يخفِّف وطأة الأول. ولستُ آبه بمعرفة أي القوليْن حقيقي، أقسم لكِ بحق زيوس. خبِّريني أنه لم تكُن لكِ يدٌ في ما جرى، وأتعهَّد إليكِ بالخروج من هذا الباب على ألا أعود لمضايقتكِ أبدًا...

مضَتْ برهة صمت قصيرة.

ثم قالت إتيس بصوت خالٍ من الإيقاع:

- كنتُ أنا أوّل من أنشب أظفاره في صدر ابني. همَّ هراقليس بالردّ، فعَجِبَ لكون الكلمات لا تطفو على شفتيْه، رغم أنه قد أحسن صياغتها في ذهنه. رقَّتْ عيناه، وظلَّ هو شاعرًا بالحيرة والمفاجأة حيال ضياع صوته على غير المُتوقَّع. بلغه صوتها رقيقًا فظيعًا كما الذكرى الأليمة. لستُ أحفل بأن تعجز عن الفهم. وكيف لك أن تفهم أنت، هراقليس اليونتوري؟ لقد انصعتَ للشرائع منذ مولدك. ماذا تعرف عن الحرّية، عن الغرائز، عن الـ...

عن الغضب؟ ماذا قلتَ لي من قبل؟ «اضطررتِ لمكابدة عزلة شديدة»؟ ماذا تعرف أنت عن عزلتي؟...

ما «العزلة» عندك بأكثر من كلمة كغيرها من الكلمات. أما عندي فهي ضيق في الصدر، وغياب النوم والراحة...

فماذا تعرف أنت؟

دار في خلد هراقليس: «لا يحقُّ لها فوق ذلك أن تسيء معاملتي».

أما إتيس فاستطردَتْ في حديثها:

- كنا متحابَّيْن، أنا وأنت، فارتضيتَ لنفسك الهوان حين أمرك أبوك -أو نصحك إن كنتَ تؤثر هذه الكلمة- بالزواج من آخيسيكورا، التي كانت أكثر...

كيف أقولها؟ أكثر ملاءمةً؟ كانت سليلة أسرة أرستقراطية نبيلة. وإن كانت تلك رغبة أبيك، فهل كنتَ تعصاه؟ وإن فعلت لانتفَتْ صفة الشرعية والفضيلة عن زواجك...

الشرائع، الفضيلة...

إليك أسماء رؤوس الكلب حارس مملكة الموتى المسماة أثينا: الشريعة، والفضيلة، والعقل، والعدل...!

هل فوجئتَ بأن البعض منا يأبى الاحتضار في هذا القبر البديع؟...

وفيما استرسلَتْ في حديثها، بدَتْ نظراتها القاتمة غائبةً في أحد أرجاء الحجرة.

- أما زوجي الذي كان صديقك في عهد الشباب، فقد أراد تغيير أسلوب حياتنا العبثي من خلال السياسة. كان رأيه أن الإسبرطيين ليسوا مرائين، إذ لا يزعجهم الاعتراف بالحروب التي يخوضونها، بل يتباهون بها. بالفعل تعاون مع الطغاة الثلاثين، وإن لم يكُن ذلك أفدح أخطائه، بل إنه أخطأ لمَّا وثق بالآخرين أكثر مما وثق بنفسه...

حتى أدانَتْه غالبية «الآخرين» وحكمَتْ عليه بالإعدام في المجلس...

زمَّتْ شفتيْها وانقبض وجهها الجامد.

- ولكن ربما ارتكب زوجي خطأ أشدّ فداحة، ألا وهو اعتقاده بأن كل هذا، كل ما في مملكة الموتى العقلاء، حيث تفكِّر الجثث وتتحاور، قد يتبدَّل من خلال تغيير سياسي بسيط!

جاءت ضحكتها جوفاء، خاوية. ثم أردفَتْ:

- وهذا الساذج أفلاطون يعتقد بالأمر نفسه!...

ولكنَّ الكثيرين منا قد تعلَّموا أن شيئًا لن يتغيَّر حتى يغيِّروا أنفسهم أولًا!...

أجل، هراقليس اليونتوري، أفتخر بالإيمان الذي أعتنقه! إن الديانة التي تكرِّم الآلهة الأقدمين بطقوس تُمزَّق خلالها أجساد المريدين إربًا قد تبدو لأذهان مثل ذهنك ديانة عبثية، أعرف حقّ المعرفة، ولن أحاول إقناعك بالعدول عن رأيك...

ولكن، هل مِنْ ديانة إلا وكانت عبثية؟...

سقراط، نصير العقلانية العظيم، طالما ندَّد بها جميعًا، ولذا فقد أدنتموه!...

وإن يكُن، فلسوف يأتي زمنٌ يُعَدُّ فيه التهام مَنْ تحبّ عملًا مِنْ أعمال البرّ!...

وماذا في ذلك!...

ورغم أننا لن نشهد ذلك الزمن، لا أنا ولا أنت، فكهنتنا يؤكِّدون أن ديانات جديدة ستقوم في المستقبل، آلهتُها مُعذَّبة ومُنكَّل بها!...

من يدري؟...

بل وربما صار تناول الآلهة من أقدس آيات العبادة[167]!...

دار في خلد هراقليس أن مسلك إتيس الجديد من شأنه أن يساعده. إذ كان لجمودها السابق وعدم اكتراثها الظاهر أثر الرصاص المنصهر على نفسه. أما تلك اليقظة الساخطة، فتتيح له مواجهة المشكلة من على مسافة. قال بهدوء:

- إتيس، تعنين تناول الآلهة كما تناولتِ أنتِ قلبَ ابنك، أليس كذلك؟ أهذا ما تعنين، إتيس؟ أما هي فلم تُجب.

وبغتةً أحسَّ كاشف الألغاز بدفعة قيء تبلغ حلقه بحدَّة، على نحو أبعد ما يكون عن المُتوقَّع. وبالحدَّة نفسها عرف بعد مضي لحظة أنها لم تكُن سوى كلمات. بَيْد أنه لفظها كمن يتقيَّأ، فاقدًا رباطة جأشه لحظةً:

- هل دفعكِ كلُّ ما أخبرتِني به للنبش عن قلب ابنكِ، فيما راح هو يرنو إليكِ ويلفظ أنفاسه الأخيرة؟؟...

إتيس، بمَ شعرتِ وأنتِ تمزِّقين جسد ابنكِ إربًا؟؟...

فأجابَتْ:

- بلذَّة!

ولسبب ما، لم يشعر هراقليس اليونتوري بالضيق من تلك الإجابة البسيطة. وبقدر أكبر من الهدوء، فكَّر بينه وبين نفسه: «لقد اعترفَتْ بذلك. آه، حسنًا...

إنها قادرة على الاعتراف بذلك!». بل وسمح لنفسه بالهدوء قليلًا، رغم أن الاضطراب المتزايد قد أرغمه على القيام عن الأريكة. بالمثل فعلَتْ إتيس، وإن يكُن برهافة، وكأنها تعلن انتهاء الزيارة. والآن كانت إلِيَا حاضرة في الحجرة ومعها عدد من العبيد (لا يدري هراقليس متى دلفوا إلى المكان). بدا الأمر برمّته وكأنه ضرب من اجتماع أسريّ مُغلَق. دنَتْ إلِيَا من أمّها وعانقَتْها عناقًا حانيًا، وكأنما تودُّ إعلان مساندتها لها حتى النهاية بتلك اللفتة. ثم قالت إتيس مخاطبةً هراقليس طوال الوقت:

- يصعُب فهم ما أقدمنا عليه، أعرف حق المعرفة. ولكن ربما تسنَّى لي أن أفسِّره كما يلي: كنتُ وإلِيَا نحبُّ تراماكو بأكثر مما أحببنا الحياة نفسها، فلم يكُن لنا رجل سواه. ولهذا تحديدًا، بسبب الحب الذي شعرنا به نحوه، سُرِرْنا أيما سرور حين وقع عليه الاختيار ليُضحَّى به خلال الطقوس الدينية، ذلك أنها كانت أقصى أمانيه...

وما عسى أن ترجو أرملة مسكينة مثلي من المباهج إن لم يكُن تحقيق أقصى ما تمنَّى ابنها الذكر الوحيد؟

أطرقَتْ برهةً فيما التمعَتْ عيناها طربًا. ثم استطردَتْ في حديثها بصوت خفيض للغاية، رقيق، يكاد يكون موسيقيًّا، وكأنها تحاول هدهدة طفل وليد:

- وحانَتِ الساعة، فأحببناه أكثر من أي وقت مضى...

هراقليس، أقسم لك أنني لم أشعر بأمومتي قط بقدر ما فعلتُ لحظتها، حين...

حين أنشبتُ أصابعي في ابني...

فكأنه سرٌّ بديع يشبه الولادة.

ثم أردفَتْ وكأنها قد أفشَتْ سرًّا بالغ الحميمية من فورها، ثم قرَّرَتِ العودة إلى الحديث المعتاد:

- أعرف أنك عاجز عن الفهم، فذلك أمر يعجز العقل عن فهمه...

يجب عليك أن تحسَّه، هراقليس...

كما نفعل نحن أيضًا...

عليك أن تبذل جهدًا كي تحسَّه...

وفجأةً غدَتْ نبرتها مُتوسِّلة:

- كُفّ عن التفكير لحظةً واستسلم للإحساس! ردَّ هراقليس سائلًا:

- أي إحساس؟ تراه ذلك الذي يبعثه فيكم الشراب السحري الذي تتجرَّعون؟

ابتسمَتْ إتيس.

- أجل، شراب الكيون. أرى أنك مُطَّلع على الأمر برمته. في الواقع، لم أشكّ في قدراتك يومًا، بل كنتُ موقنة من اكتشافك أمرنا في خاتمة المطاف. بالفعل نحتسي الكيون، بَيْد أنه ليس من

السحر في شيء. كل ما هنالك أنه يردُّنا إلى أنفسنا. فنترك العقل ونغدو أجسامًا تحسُّ وتتلذَّذ، أجسامًا لا تأبه للموت أو التشوُّهات، تستسلم للتضحية في بهجة طفل يتلقَّى لعبة...

كان يتهاوى، وهو شبه واعٍ بأنه يتهاوى.

ما كان طريق النزول ليصبح أشدّ وعورةً. ظلَّ جسمه ينزل في خط رأسي في ما يشبه الهوس. أما الجرف المنحدِر الذي انتشرَتْ عليه الأحجار، هوَّة الباراترون القريبة من الأكروبوليس حيث يُلقى بالمحكومين بالموت، فكان أشبه بجوف قدح مائل. لن يلبث أن يلتقي جسمه بتلك الأحجار، وهو لا يزال يفكِّر في ما سيجري. سيرتطم جسمه ويتدحرج، من دون شك، ثم يعاود الارتطام. لم يكُن بوسعه الاستعانة بيديْه، فقد شُدَّ وثاقهما خلف ظهره. ربما ارتطم مرات كثيرة قبل أن يصل إلى القاع المُكتظِّ بالأحجار الشاحبة كالجثامين. ولكن، فيمَ يهمُّ كل ذلك إن كان يختبر الإحساس بالتضحية لحظتها؟ كان صديقه الصالح تريبتيميس، معاون الأحد عشر وأحد أتباع الطائفة مثله، قد حمل إليه قليلًا من الكيون في سجنه، بحسب المُتَّفَق عليه منذ أمد مضى، فبثَّ الشراب المُقدَّس في نفسه الطمأنينة. كان هو الأضحية، ولسوف يموت من أجل إخوانه. صار هو ذبيحة المحرقة، وعجل القربان. تمكَّن من رؤية ما يجري: فحياته تنسكب على الأرض، أما الأخويَّة التي كان ينتمي إليها، تلك الرابطة السريَّة بأتباعها من الرجال والنساء الأحرار، فتنتشر عَبْر بلاد اليونان وتجتذب أتباعًا جددًا...

فافترَّتْ شفتاه عن ابتسامة سعادة! انكسرَتْ ذراعه اليمنى إثر الصدمة الأولى، كما تنكسّر ساق زهرة زنبق، وتهشَّم نصف وجهه. ظلَّ يتهاوى. بلغ القاع فارتطم نهداه الصغيران بالأحجار وبدأت ابتسامته الجميلة تتجمَّد على وجهه الخليق بفتاة، أما تصفيفة شعره الأشقر الجذَّاب فقد تناثرَتْ كما يتناثر كنز، وبدا قوامه الأهيف البديع بمظهر دمية مُحطَّمة[168].

- لماذا لا تنضمُّ إلينا، هراقليس؟

لاحت في صوت إتيس لهفةٌ بالكاد استطاعت كبحها.

- أنت لا تعرف السعادة الجارفة التي يبعث عليها تحرُّر الغرائز! حين تغدو إلهًا...

فلا خوف، ولا قلق، ولا شقاء.

أطرقَتْ برهةً ثم رقّقتْ نبرة صوتها لتردف:

- بل وربما تسنَّى لنا العود على بدء...

أنا وأنت...

فمن يدري؟...

لم ينبس هراقليس. بل جعل يراقب. ما كان يراقب إتيس وحدها، بل الجميع، واحدًا واحدًا. كانوا ستة أشخاص، عبدان كهلان (ربما كان أحدهما إفيماكو)، وجاريتان في مقتبل العمر، وإتيس وإلِيَا. تأكَّد أن الطفل لم يكن وسطهم، فداخله شعور بالطمأنينة. توقَّف عند وجه ابنة إتيس الشاحب ثم قال لها:

- أما أنتِ فقد تألَّمتِ حقًّا يا إلِيَا، أليس كذلك؟ لم تكُن صرخاتكِ مُفتعَلة، على عكس الألم الذي أظهرَتْه أمُّكِ...

لم تنبس الشابة. جعلَتْ ترمق هراقليس بوجه جامد، مثلها كمثل إتيس. وفي تلك اللحظة أدرك وجه الشبه الكبير بينهما. تابع حديثه في رباطة جأش:

- كلا، لم تفتعلي الألم، بل كان ألمكِ واقعًا. زال أثر المُخدِّر فتذكَّرتِ، أليس كذلك؟...

لم تقوِ على تحمُّل ما كان.

بدا أن الفتاة تهمُّ بالردّ، فعجَّلَتْ إتيس بالتدخُّل.

- إلِيَا ما زالت شابة ويشقُّ عليها فهم أمور بعينها. ولكنها الآن سعيدة.

جعل يتأمَّلهما، الأم والابنة. بدا وجهاهما جدارَيْن بيضاويْن، مُجرَّديْن من العقل والانفعالات. تلفَّت حوله، فلاحظ الأمر ذاته على العبيد. أعمل عقله في الموقف وخلص إلى أنه لا طائل يُرجَى من محاولة فتح ثغرة في ذلك الجدار من العيون الجامدة التي لا يرفُّ لها جفن. قال في نفسه: «ذلك هو الإيمان بالأديان. يطمس عن الوجه آثار القلق التي يرسمها الشك، وإذا هي كوجوه الحمقى».

تنحنح وسأل:

- ولمَ قُضِي أن يكون تراماكو هو الضحية؟

فأجابَتْ إتيس:

- حان دوره. كما سيحين دوري، ودور إلِيَا...

ثم قال هراقليس:

- ودور القرويين في أتيكا...

للحظة بدا على إتيس تعبير خليق بأمٍّ تستجمع صبرها كي توضِّح لابنها الصغير أمرًا بالغ اليسر.

- هراقليس، دائمًا يكون ضحايانا مُتطوِّعين. أما القرويون فنتيح لهم فرصة احتساء الكيون، ولهم أن يقابلوا العرض إما بالرفض أو القبول.

ثم أردفَتْ بابتسامة واهنة:

- بَيْد أن الغالبية تقبل. فليس هنالك من يسعد في حياته ما دام خاضعًا لحكم خواطره وحسب...

فقال هراقليس:

- إتيس، لا تنسي أنني كدتُ أروح ضحيةً رغمًا عني...

- لقد كشفتَ أمرنا، وذلك ما لا نملك السماح به. يجب على الأخويَّة أن تظلَّ سريَّة. ثم ماذا عنكم؟ ألم تفعلوا الشيء نفسه بزوجي إذ خلتم أن شخصًا مثله يشكِّل خطورة على استقرار ديمقراطيتكم الرائعة؟...

أمّا من جهتنا، فنودُّ أن نتيح لك هذه الفرصة الأخيرة. هراقليس، انضمّ إلى جماعتنا...

ثم أردفَتْ بغتةً، كالمُتوسِّلة:

- كُن سعيدًا لمرة واحدة في حياتك!

تنفَّس كاشف الألغاز عميقًا، وافترض أن كل شيء قد قيل بالفعل، وأنهم يترقَّبون الآن ردًّا من جانبه. فشرع في الحديث بصوت حازم هادئ:

- لستُ أريد أن يُمزَّق جسدي إربًا. فما ذاك سبيلي إلى السعادة. ولكني سأخبركِ بما أنا فاعل، إتيس، ولكم أن تبلغوا قائدكم، أيًّا كان. لسوف أجعلكم تمثلون أمام الأركون. جميعًا. سأحقِّق العدالة. أنتم طائفة غير مشروعة. قتلتم عدة مواطنين أثينيين، وقتلتم قرويين كُثْرًا من أتيكا برغم أنهم لا يمتُّون لمعتقداتكم العبثية بصلة...

ولسوف تقع عليكم الإدانة وتخضعون للتعذيب حتى الموت. وذاك سبيلي إلى السعادة.

ومرة أخرى أجال بصره في الوجوه الحجرية التي جعلَتْ تتأمَّله، واحدًا إثر الآخر. توقَّف عند عيني إتيس القاتمتيْن وأردف:

- في خاتمة المطاف، هي مسألة مسؤولية كما قلتِ لي بنفسكِ، أليس كذلك؟

مضَتْ هنيهة صمت ثم قالت:

- تراك تحسب أننا نخشى الموت أو التعذيب؟ أنت لم تفهم شيئًا، هراقليس. لقد اكتشفنا سعادةً تتجاوز العقل إلى ما وراءه...

فيمَ يهمُّنا وعيدك؟ إن دعَتِ الحاجة، فلسوف نموت باسمين...

أما أنت فلن تفهم الدافع أبدًا.

كان هراقليس يولِّي ظهره إلى مَخرَج الحجرة. وبغتةً تردَّد في أرجاء الحجرة كافة صوتٌ آتٍ من المَخرَج نفسه، صوت جديد، كثيف، ذو سطوة، وإن شابه شيء من الاستهزاء، وكأن صاحبه لا يأخذ قوله على محمل الجدّ:

- لقد افتضح أمرنا! تلقَّينا بردية من الأركون جاء فيها ذكرنا. كما ورد فيها اسمكِ أنتِ أيضًا، إتيس. لقد اتَّخذ صديقُنا الصالح التدابير اللازمة قبل حضوره للقياكِ...

التفت هراقليس ليتأمَّل وجه كلب مُشوَّه، بين ذراعي رجل هائل الضخامة.

ثم قالت إتيس:

- هراقليس، منذ لحظات سألتَ عن قائدنا، أليس كذلك؟

وفي تلك اللحظة أحسَّ هراقليس بضربة قوية تنهال على رأسه[169].

الفصل الثّاني عشر

في البدء كان الكهفُ وميضًا ذهبيًّا يتدلَّى في العتمة. ثم استحال ألمًا صرفًا. ومرة أخرى غدا وميضًا ذهبيًّا يتدلَّى. مضَتْ الذبذبة لا تتوقَّف. ثم تبدَّتْ أشكالٌ. فظهر موقدُ جمر، ولكن ما يدعو للفضول أنه كان يتموَّج كالماء، في حين بدَتْ أسياخ الحديد فوقه كالأفاعي المذعورة. كذلك ظهرَتْ بقعة صفراء، وخيالُ رجل مُتمدِّد من ناحية ومنكمش من ناحية أخرى، وكأنه يتدلَّى بحبال خفيَّة. وجاءت أصوات، أجل، صدى معدني خافت، ونباح حاد ملتاع يتردَّد من آن إلى آخر. كما انتشرَتْ روائح رطوبة شتّى. ومرة أخرى انطوى كل شيء كالبردية، ثم عاد الألم. تمَّتْ القصّة.

لم يعرف كم مرة أفاق وغاب عن الوعي قبل أن يبدأ ذهنه في إدراك ما يحدث. وكالجسم الذي يتدلَّى من طرفه إذ يتلقَّى ضربةً مفاجئةً فيتأرجح من جانب إلى آخر -بعنف شديد واختلال توازن أوّلًا، ثم بحركات متساوية، وأخيرًا ببطء مائت، فيعود إلى هدوئه السابق رويدًا رويدًا- هكذا كانت دوامة الإغماء الجارفة حين سكنَتِ الذبذبة. أما وعيه الذي طفق يحلِّق فوق نقطة بعينها، فقد سعى للبقاء في سكون وتناغم مع الواقع المحيط به (وذلك ما تحقَّق له بالفعل). عند ذاك استطاع أن يميِّز الألم والصور والأصوات والروائح. فراح يتساءل عمَّا يؤلمه -رأسه وذراعاه- وعن السبب في ألمه. ولمَّا كان ضربًا من المحال أن يعرف السبب بغير استرجاع ذكرى ما جرى، فقد عاد بذاكرته إلى الوراء. «آه، كنتُ في بيت إتيس حين تكلَّمَتْ عن «اللذَّة»...

ولكن كلا، فبعد ذلك...».

وفي الوقت نفسه، ندَّ عن فمه أنين وتلوَّثْ يداه.

- أوه، خشيتُ أن نكون قد آذيناك أشدّ مما ينبغي.

فسأل هراقليس:

- أين أنا؟

غير أن ما كان يودُّ سؤاله فعلًا: «مَنْ أنتَ؟». على كل حال، فقد أجاب الرجل عن السؤالَيْن بقوله:

- دعنا نقُل إنه مُلتقَى جماعتنا.

قالها وهو يحرِّك ذراعه اليمنى مفتولة العضلات بحركة واسعة، مُبديًا رسغًا تتخلَّله الندوب.

وكما يتلهَّى الأطفال بهزِّ جذوع الأشجار المُخضَّلة بمياه المطر المتساقط حديثًا فتنوء الأوراقُ بالقطرات الثقيلة التي تتدلَّى منها وتصبُّها على رؤوس الأطفال، هكذا أدرك هراقليس ما جرى فانهمرَتْ فوق رأسه الحوادثُ مُثلَّجَةً.

بالفعل كان كهفًا فسيح الأبعاد. أما الوميض الذهبي فكان آتيًا من مشعل يتدلَّى من حلقة مُثبَّتة في صخرة. وعلى أشعة المشعل تبدَّى ممرٌّ مركزيٌّ مُتعرِّج، تدلَّى المشعل من أحد جداريه، في حين ظلَّتْ ذراعا هراقليس مرفوعتَيْن فوق رأسه وقد شُدَّ وثاقهما بحبال سميكة أفعوانية مُثبَّتة بمسامير ذهبية في الجدار المقابل. كان الممرُّ ينعطف جهة اليسار، فبدا أن ذلك المنعطف يشعُّ

ببريقٍ نابع منه، وإن كان أكثر خفوتًا بكثير من ذهب المشعل، فاستنبط كاشف الألغاز أن تكون تلك هي الطريق المُؤدِّية إلى الخروج، كما رجَّح أن يكون الشطر الأكبر من النهار قد ولَّى. وعن يمينه، غاب الممرُّ وسط صخور حادّة وظلمة بالغة الكثافة. في المنتصف وُضِع موقدٌ منصوب فوق حامل. استعرَتِ الجمراتُ القانية في الموقد الذي تدلَّى منه مِسعارٌ يُحرَّك به الجمر واستقرَّتْ فوقه قِدْرٌ تهدر بسائل ذهبي. جعل كيربيروس يحوم في المكان، مُوزِّعًا نباحه بالتساوي بين القِدْر وبين جسد هراقليس الجامد بلا حراك. أما صاحب كيربيروس الذي التفع برداء رمادي رثّ، فقد استعان بعود لتحريك السائل في القِدْر، بينما بدَتْ عليه أمارات الزهو التي تليق بطاهٍ يتأمَّل كعكة تفاح ذهبية تغلي[170].

استلقَتْ أغراض أخرى قرب الجدار المثبَّت فيه المشعل، ربما كانت أغراضًا جديرة بالاهتمام، غير أن هراقليس لم يتمكَّن من تمييزها بدقة.

وفيما هو يدندن بأغنية، أمسك كرانتور عن تحريك السائل لحظةً والتقط مغرفة ذهبية تتدلَّى من الحامل، اغترف بها بعضًا من السائل وقرَّبها من أنفه. بدا عمود الدخان الملتوي الذي غشي وجهه وكأنه منبثق من فمه.

- ممم...

حارٌّ قليلًا، ولكن...

إليك...

سيشعرك بتحسُّن.

أدنى المغرفة من شفتي هراقليس، ليثير بذلك حنق كيربيروس الذي وجدها فعلةً مخزية أن يقدِّم صاحبُه ذلك الشخصَ البدين عليه، وفق ما تراءى له. دار في خلد هراقليس أنه عطِشٌ وليس أمامه مُتَّسع من الخيار، فتذوَّق القليل. كان له مذاق الحَبِّ المُحلَّى، وإن شابَتْه نكهة حريفة. أمال كرانتور المغرفة فانسكب الكثير من محتوياتها على تونيك هراقليس ولحيته.

- اشربْ، هيَّا.

فشرب هراقليس[171].

ثم سأل لاهثًا:

- إنه كيون، أليس كذلك؟ فأومأ كرانتور، وعاود الانصراف إلى الموقد.

- لن يلبث أن يؤتي أثره. ولك أن تتحقَّق من ذلك بنفسك...

فقال هراقليس معترضًا:

- ذراعاي باردتان كالأفاعي. لمَ لا تحلُّ وثاقي؟

- ما إن يسري أثر الكيون حتى تتمكَّن من حلِّ وثاقك بنفسك. عجيبة هي القوة الخفية التي نملكها ولا يسمح لنا التعقُّل باستخدامها...

- ماذا جرى لي؟

- أخشى أننا قد ضربناك وجئنا بك إلى هنا على متن عربة. بالمناسبة، لقد شَقَّ على بعضنا الخروج من المدينة أيما مشقَّة، فالأركون قد حذَّر الجند...

رفع عينيْه السوداويْن عن القِدْر وحوَّلهما إلى هراقليس.

- لقد آذيتَنا بما فيه الكفاية...

فأجاب كاشف الألغاز في ازدراء:

- الأذى يطيب لكم.

ثم أردف سائلًا:

- هل أفهم من ذلك أنكم قد لذتم بالهرب؟

- أوه، أجل، لذنا جميعًا بالهرب. أما أنا فقد تخلَّفتُ لدعوتك إلى لقاء نحتسي فيه الكيون ونتجاذب أطراف الحديث قليلًا...

في حين يبحث الباقون لأنفسهم عن أجواء جديدة. - هل كنتَ قائدًا لهم على الدوام؟

فقرع كرانتور القِدْر بطرف العود في رفق، وكأن القِدْر هي التي طرحَتِ السؤال وليس هراقليس:

- لستُ من القيادة في شيء. أنا عضو على درجة من الأهمية، وهذا كل ما في الأمر. عرضتُ خدماتي حين عرفنا أن مصرع تراماكو يخضع للتحريات، الأمر الذي فوجئنا به، إذ لم نتوقَّع أن يثير مصرعه ارتيابًا من أي نوع. وكونك أنت رجل التحرِّي الرئيسي لم يسهِّل عليَّ مهمتي، وإن جعلها أكثر مدعاةً للسرور. في الواقع، قبلتُ بتولِّي المسألة تحديدًا لأني أعرفك. كانت مهمتي تتطلَّب محاولة خداعك...

الأمر الذي شقَّ عليَّ إلى حد كبير، وأشهد لك بذلك...

دنا من هراقليس وقد تدلَّى العود من بين أصابعه كما يؤرجح المُعلِّمُ الخيزرانةَ على مرأى من الطلاب لإشاعة الرهبة في نفوسهم. ثم استطرد في حديثه:

- كانت مشكلتي كما يلي: كيف أخدع شخصًا لا يمرُّ به شيء مرور الكرام؟ كيف أستهين بعيني كاشف ألغاز على شاكلتك، لا تمثِّل له التعقيدات سرًّا بأية حال؟ ولكني خلصتُ إلى نتيجة مفادها أن أفدح عيوبك هو في الوقت نفسه أعظم مزاياك...

فأنت تعمل عقلك في كل شيء، يا صديقي، ولذا فقد خطر لي استخدام تلك السمة الشخصية الغريبة بغرض تشتيت انتباهك. قلتُ لنفسي: «لو أن عقل هراقليس قادر على حلِّ المشكلات، حتى الأكثر تعقيدًا منها، فلمَ لا نتخمه بالمشكلات المُعقَّدة؟»...

وأعتذر عن سوقيَّة اللفظ.

بدا أن كرانتور يتسلَّى بكلماته. عاود الانصراف إلى القِدْر ثم تابع تحريك السائل. وبين الفينة والأخرى، كان يميل ويطقطق بلسانه في اتجاه كيربيروس، لا سيما حين يزعجه الأخير بنباحه

الحادّ أكثر من المألوف. جعل البريق الآتي من منعطف الكهف يخفت شيئًا فشيئًا.

- وعليه، فقد قرَّرتُ ببساطة أن أحملك على الاستمرار في إعمال العقل في الأمور. من اليسير جدًّا أن تخدع العقل إن غذَّيتَه بالحُجَج. وذلك ما تفعلون كل يوم في المحاكم والمجلس والأكاديمية... الحقُّ يُقال إنك قد أتحتَ لي فرصةً للاستمتاع...

- أرى أنك استمتعتَ بتشويه إيونيو وأنتيسو.

تردَّدَتْ في المكان أصداء ضحكة كرانتور المقتضبة الصاخبة، حتى بدا وكأنها تتدلَّى من جدران الكهف وتسطع ببريق ذهبي في الأركان.

- ولكن، ألم تفهم بعد؟ لقد صنعتُ مشكلات زائفة من أجلك! فلا إيونيو قُتِل ولا أنتيسو. كل ما في الأمر أن كليهما قد ضحَّى بنفسه قبل الأوان. ففي خاتمة المطاف، كان دورهما سوف يحين، عاجلًا أم آجلًا. أما تحرياتك فلم تنجح سوى في التعجيل بقرارهما...

- متى جنَّدتم أولئك الفتيان المساكين؟

هزَّ كرانتور رأسه نافيًا، باسمًا.

- هراقليس، نحن لا «نجنِّد» أحدًا قط! بل يسمع الناس أحاديث تدور سرًّا عن ديانتنا، فتهفو أنفسهم إلى التعرُّف عليها...

أما في ما يتعلَّق بإتيس والدة تراماكو على وجه التحديد، فقد عرفَتْ بوجودنا في إليوسيس بُعَيْد تنفيذ حكم الإعدام بحق زوجها...

فحضرَتِ اجتماعات سرية كنا نعقدها في الكهف والغابات وشاركَتْ في أولى الطقوس التي أُقيمَت في أتيكا على أيدي رفاقي. وحين كبُر ابناها، حملَتْهما على الانضمام إلى طائفتنا. إلا أن إتيس-وهي المرأة الذكيّة دائمًا- لم تُرِد أن يعاتبها تراماكو في ما بعد كونها لم تُتِح له الفرصة حتى يختار بنفسه، ولذا فلم تهمل أمر تعليمه. بل أشارت عليه بأن يلتحق بمدرسة الفيلسوف أفلاطون وأن يتلقَّى كل ما يمكن للعقل أن يعلِّمنا إيَّاه، حتى يعرف كيف يختار بين طريق وأخرى عند بلوغ سن التجنيد...

فما كان من تراماكو إلا أن اختارنا نحن. ليس هذا وحسب، بل إنه أقنع صديقيْه في الأكاديمية، أنتيسو وإيونيو، بالمشاركة في الطقوس. كان كلاهما سليل أسرة أثينية عريقة، فلم يلزمهما الكثير من الكلام للاقتناع...

فضلًا عن ذلك، كان أنتيسو على معرفة بمينيكمو الذي شاءت الصدف السعيدة أن يكون من أتباع الأخويَّة. وعليه فقد وجدوا «مدرسة» مينيكمو أعظم نفعًا بكثير من مدرسة أفلاطون. فهناك تعلَّموا متعة الجسد، وسرَّ الفن، ولذَّة النشوى، وحماسة الآلهة...

مضى كرانتور يتحدَّث من دون أن ينظر إلى هراقليس، مُحدِّقًا في نقطة غير مُحدَّدة في العتمة المتزايدة. ثم التفت لحظتها إلى كاشف الألغاز فجأةً ليردف باسمًا، كعهده أبدًا:

- لم يكُن للغيرة بينهم مكان! بل إنك أنت من تفتَّق ذهنه عن تلك الفكرة التي سُررنا باستخدامها لصرف انتباهك إلى مينيكمو بغرض خداعك، علمًا بأن الأخير كان يرغب في التضحية بنفسه على وجه السرعة، شأنه في ذلك شأن أنتيسو وإيونيو. لم يصعُب علينا ارتجال مخطط يشارك فيه ثلاثتهم...

ووسط طقوس بديعة، طعن إيونيو جسده بنفسه في مَنْحَت مينيكمو. ثم ألبسناه ثوب امرأة، حيث الرُّقَع المُمزَّقة لا تتطابق ومواضع الجروح، حتى تفكِّر أنت بما فكَّرتَ فيه تحديدًا، أن أحدهم قد أرداه قتيلًا. ثم حان دور أنتيسو فقام باللازم هو الآخر. وحاولتُ حملك على الاستمرار في الظن بأنها جرائم قتل، بكل الطرق الممكنة-أفهمت؟- فلم أجد خيرًا من تلفيق واقعة انتحار زائفة. ثم، تكفَّلتَ أنت باختراع الجريمة والكشف عن المجرم...

أردف كرانتور رافعًا صوته، فاتحًا ذراعيْه:

- وإليك موطن الضعف في عقلك «القادر على كل شيء» يا هراقليس اليونتوري: أنه وبكل سلاسة يتخيَّل المشكلات التي يظنُّ أنه يحلُّها!...

- وماذا عن إوْماركو؟ هل شرب الكيون هو الآخر؟ - بطبيعة الحال. فلطالما هفَتْ نفس ذلك العبد المُربِّي المسكين إلى إطلاق سراح نزواته القديمة...

مزَّق إوْماركو جسده بيديْه. بالمناسبة، حدَّثك ظنُّك بأننا نستعين بصنف من صنوف المُخدِّرات...

فلمَ؟

- شممتُ رائحته تفوح من أنفاس أنتيسو وإوْماركو، ثم يونسيكا لاحقًا...

وبالمناسبة، هلا أوضحتَ لي أمرًا، كرانتور؟ هل كانت جاريتي واحدة منكم بالفعل قبل أن يبدأ الأمر برمته؟

وعلى الرغم من الغبش الذي خيَّم على الكهف، فلا بد أن التعبير المرتسم على وجه هراقليس كان باديًا بوضوح، ذلك أن كرانتور قطَّب حاجبيْه بغتةً، وقال ناظرًا في عينيْه:

- لا تقُل لي إنك فوجئتَ بذلك!...

أوه، هراقليس، وحقّ زيوس وأفروديت! أتظنُّها كانت في حاجة لكثير من الإلحاح من جانبنا؟

لاح في نبرته شيء من الشفقة. ودنا من سجينه الواهن ثم أردف:

- أوه، يا صديقي، حاولْ لمرة واحدة أن ترى الأمور كما هي، وليس كما يُبديها لك عقلك!...

تلك الفتاة المسكينة، التي تشوَّهَتْ طفلةً، ثم أُرغِمَتْ على تجشُّم مهانة القناع الدائم وهي تحت إمرتك...

هل كانت في حاجة لأن يقنعها أحدهم بإطلاق سراح غضبها؟ هراقليس، هراقليس!...

كم مضى من الوقت وأنت تحيط نفسك بالأقنعة لئلا تتأمَّل عري البشر؟...

أطرق برهةً وهزَّ منكبيه الهائلين.

- في الواقع، لقد تعرَّفَتْ علينا يونسيكا بعد أن ابتعتَها أنت بزمن قصير.

قطَّب جبينه بتعبير ينمُّ عن الاستياء ثم خلص إلى ما يلي:

- كان يجب عليها أن ترديك قتيلًا حين أمرتُها بذلك. كنا سنوفِّر على أنفسنا من المضايقات الكثير...

- أفترض أن ما جرى بيني وبين ياسينترا فكرة من أفكارك أيضًا.

- بالفعل. خطر لي ذلك حين علمنا بأنك قد تحدَّثتَ إليها. ياسينترا ليست على ديانتنا، إلا أننا أخضعناها للمراقبة والوعيد منذ عرفنا أن تراماكو قد كشف لها عن بعض أسرارنا، رغبةً منه في هدايتها إلى عقيدتنا...

وقد أفدتُ من دخول ياسينترا إلى بيتك فائدةً مضاعفة. فمن جهة ساعدَتْ على تشتيت انتباهك والتمويه عليك، ومن جهة أخرى...

دعنا نقُل إنها قد أنجزَتْ مهمة تعليمية، فأثبتَتْ لك بالمثال العملي أن لذَّة الجسد-التي تخال نفسك زاهدًا فيها كلَّ الزهد- تسمو على الرغبة في الحياة...

فقال هراقليس ساخرًا:

- درس عظيم ذلك الذي لقنتَني إيَّاه، وحقّ الربة أثينة. ولكن خبِّرني، حتى تضحكني على الأقل، أفي ذلك أمضيتَ وقتك خارج أثينا؟ في ابتكار حيل لحماية تلك الطائفة من المجانين؟

فأجاب كرانتور بهدوء:

- أمضيتُ عدة أعوام مسافرًا، كما قلتُ لك. ولكني عدتُ إلى بلاد الإغريق قبل ما تحسبه أنت بزمن طويل، وسافرتُ إلى تراقيا ومقدونيا. عندئذ كان التواصل بيني وبين الطائفة...

التي يُشار إليها بعدة مسميات، وإن كان أكثرها شيوعًا مُسمًّى ليكايون. لقد فوجئتُ بالعثور على أفكار وحشية كتلك على الأراضي الإغريقية، وكانت مفاجأتي من القوة حتى صرت من الأتباع الصالحين في الحال...

كيربيروس...

كيربيروس، حسبك، كفّ عن النباح...

هراقليس، أؤكِّد لك أننا لسنا طائفة من المجانين. فنحن لا نؤذي أحدًا، إلا أن تكون سلامتنا في خطر. بل نقيم الطقوس في الغابات ونحتسي الكيون، فنستسلم كليًّا لقوة موغلة في القدم تُعرَف حاليًا باسم الإله ديونيسوس، بَيْد أنها ليست إلهًا، ولا سبيل إلى تمثيلها بالصور أو التعبير عنها بالكلمات...

تسألني ما هي؟...

حتى نحن نجهل كنهها!...

لا نعرف سوى أنها كامنة في أعمق أعماق الإنسان، فتثير الغضب، والرغبة، والألم، والمتعة. وتلك هي القوة التي نتعبَّد لها ومن أجلها نضحِّي بأنفسنا، هراقليس. هل فوجئت؟...

الحروب أيضًا تقتضي من التضحيات الكثير، غير أن أحدًا لا يُفاجأ بذلك. الفارق بيننا وبين الحروب أننا نختار متى نضحِّي بأنفسنا، وكيف، ومن أجل ماذا! طفق يحرِّك السائل في القِدْر مُحتدًّا ثم تابع قائلًا:

- نشأتْ أخويَّتُنا في تراقيا، ولكنها تنشط الآن في مقدونيا على الأخص...

هل تعلم أن يوريبيديس، الشاعر ذائع الصيت، قد انضمَّ إلينا في أواخر أعوامه؟

قطَّب حاجبيْه مولِّيًا وجهه شطر هراقليس. لا شك أنه قد توقَّع أن يفاجأ الأخير بذلك الكشف على نحو ما، بَيْد أن كاشف الألغاز جعل يطالعه غير آبه. - أجل، يوريبيديس بنفسه!...

تعرَّف على ديانتنا فالتجأ إليها. شرب الكيون وتمزَّق جسده إربًا على أيدي إخوانه من أتباع الطائفة...

كما تعرف، فالأسطورة تقول إن الكلاب قد مزَّقَتْ جسده حتى الموت...

غير أنه أسلوب رمزي لوصف التضحية عند طائفة ليكايون...

وكذلك انضمَّ إلى جماعتنا هرقليطس، فيلسوف أفسس الذي رأى أن العنف والتضاد ليسا ضروريْن للبشر وحسب، بل مُستحبَّيْن أيضًا، والذي قيل عنه إن قطيعًا من الكلاب قد نهش جسده هو الآخر! أومأ هراقليس:

- تطرَّق مينيكمو إليهما في حديثه.

- في واقع الأمر، كانا من كبار الإخوان في طائفة ليكايون.

ثم أردف كرانتور وكأنما قد خطرَتْ له فكرة مفاجئة أو أمر مُتعلِّق بموضوع الحديث:

- يوريبيديس يمثِّل حالة جديرة بالفضول...

إذ قضى حياته وهو ينأى بنفسه، فنِّيًّا وفكريًّا، عن طبيعة البشر الغريزية من خلال مسرحه العقلاني الباعث على الضجر. ثم تواصل مع طائفة ليكايون حين طعن في السن، خلال منفاه الطوعي في بلاط الملك أرخيلاوس المقدوني، وبعد أن خاب ظنُّه في موطنه الأثيني المرائي...

في تلك الحقبة، لم تكُن أخويَّتُنا قد بلغَتْ أتيكا بعد، وإن شهدَتْ ازدهارًا في مناطق الشمال. وبينما هو في بلاط أرخيلاوس، تأمَّل يوريبيديس طقوس ليكايون الرئيسية، مما كان سببًا في تحوُّله. عندئذ كتب مسرحية مختلفة عن سابقاتها كافة، تراچيديا أراد بها إبراء ذمّته من الدَّيْن الذي في عنقه تجاه الفن المسرحي البدائي المنسوب إلى الإله ديونيسوس باخوس: فكانت باخوسيات بمثابة تمجيد للسخط، والرقص، ولذَّة الحفلات الماجنة...

ما زال الشعراء يتساءلون كيف يُعقَل أن يبتدع المُعلِّمُ القديم عملًا على تلك الشاكلة في أواخر أيامه...

وهم يجهلون أنه أصدق أعماله[172]!

فقال هراقليس بصوت منهك:

- إن المُخدِّر يقودكم إلى الجنون. فليس هنالك عاقل يرغب في أن يمزِّق الآخرون جسده...

- أوه، أحقًّا تظنُّ الكيون هو الدافع الوحيد؟ تصاعدَتِ الأبخرة من السائل الذهبي المُتموِّج، فيما جعل كرانتور يتأمَّله في القِدْر التي تدلَّتْ من حوافها قطرات متناهية الصغر. ثم أردف:

- أعتقد أنه شيء كامن في سرائرنا، وبذلك أعني البشر قاطبةً. أما الكيون فيتيح لنا الإحساس به، أجل، ولكنه...

ثم ضرب صدره برقَّة وأردف:

- ولكنه هنا، هراقليس. وفي صدرك أيضًا. إنه عصيٌّ على الترجمة إلى كلمات. ويتعذَّر التفلسف بشأنه. ذلك أنه شيء عبثي، إن شئت القول، بل وغير عقلاني، ويبعث على الجنون...

ولكنه واقعي. إليك السرّ الذي سوف نلقِّنه للبشر! دنا من هراقليس، وارتسم على ظلِّ وجهه الهائل ابتسامة واسعة.

- مهما يكُن من شيء، فأنت تعلم أن الجدال لا يروقني...

وسواء أكان الدافع هو شراب الكيون أو لم يكُن، فلن نلبث أن نتحقَّق من الأمر...

أليس كذلك؟ جذب هراقليس الحبال التي تتدلَّى من المسامير الذهبية. شعر بوهن وخدر. وعلى الرغم من ذلك، فلم يعتقد أن المُخدِّر قد أحدث فيه أدنى أثر. رفع عينيْه إلى وجه كرانتور الصخري وقال:

- أنت مخطئ، كرانتور. فما ذاك بالسرِّ الذي ترغب البشرية في الاطلاع عليه. لستُ أؤمن بالنبوءات ولا بالأوراكل، ومع ذلك فإن وجب عليَّ التنبؤ بشيء، لقلتُ لك إن أثينا ستكون مهد الإنسان الجديد...

الإنسان الذي يكافح بعينيْه وذكائه، وليس بيديْه، الإنسان الذي يتعلَّم من نصوص أسلافه إذ يترجمها...

جعل كرانتور ينصت إليه فاتحًا عينيْه عن آخرهما، وكأنه على وشك أن يغرق في القهقهة.

استرسل هراقليس في حديثه:

- لستُ أتنبَّأ سوى بلون واحد من العنف، عنف المخيلة. فلسوف يتقن الناسُ القراءة والكتابة، رجالًا ونساءً، ولسوف يقيمون روابط تضمُّ المترجمين الحكماء، مُحقِّقي أعمال معاصرينا وكاشفي طلاسمها. وهم إذ يترجمون الكتابات التي سطّرها آخرون، سيعرفون كيف كان العالَم في زمن لم يسُد خلاله العقل...

بَيْد أننا لن نشهد ذلك اليوم، كرانتور، لا أنا ولا أنت. وعلى الرغم من ذلك، فالإنسان ماضٍ في سبيله صوب العقل، وليس الغريزة[173]...

فقال كرانتور باسمًا:

- كلا، بل إنك أنت المخطئ...

في حين لم تبدُ نظراته بالغة الغرابة مُصوَّبة إلى هراقليس بل إلى ما وراءه، وكأنه ينظر إلى شخص منحوت في صخر الكهف، أو ربما أسفل قدمَي هراقليس، في موضع خفيّ سحيق، وإن لم يكُن هراقليس مُتأكِّدًا من ذلك بسبب شبه العتمة المتزايدة التي غشيَتِ المكان.

في واقع الأمر، كان كرانتور يرنو إليك أنت[174].

ثم أردف:

- أولئك المترجمون اللذين تنبَّأتَ بهم لن يكتشفوا شيئًا، إذ لن يكون لهم وجود، هراقليس. لن تنتصر الفلسفة على الغريزة أبدًا.

ثم تابع رافعًا صوته:

- في ظاهر الأمر يبدو أن هرقل ينتصر على المسوخ، أما في طيّات النص، وفي الخطاب البديع، وفي الاستدلال المنطقي، وفي خواطر البشر، يرفع الأفعوان هيدرا رؤوسه المُتعدِّدة، ويزمجر الأسد المُروِّع، أما الأفراس آكلات لحوم البشر فتقرع الأرض بحوافرها البرونزية[175].

هراقليس، ليست طبيعتنا نصًّا يمكن للمترجم أن يعثر فيه على مفتاح نهائي، ولا حتى على جملة أفكار خفيَّة. وعليه، فلا نفع يُرجَى من الانتصار على المسوخ، ذلك أنها رابضة بداخلك. ولن يلبث أن يوقظها الكيون من سباتها. ألا تحسُّ به يموج في أمعائك؟ همَّ هراقليس بالردِّ في سخرية، إلا أنه سمع أنينًا يتردَّد في العتمة فجأةً، آتيًا من وراء الموقد، مصدره جسم قريب من الجدار الذي عُلِّق عليه المشعل. لم يتبيَّن ما رأى، إلا أنه تعرَّف على صوت الرجل الذي راح يئنّ.

- دياغوراس!...

ماذا فعلتم به؟

فأجاب كرانتور:

- ليس به إلا ما فعل بنفسه. فلقد شرب الكيون...

وأؤكِّد لك أننا فوجئنا جميعًا بالسرعة التي سرى بها أثر الشراب فيه! ثم أردف رافعًا صوته، بلهجة هازئة:

- أوه، الفيلسوف الأفلاطوني النبيل! أوه، المثالي العظيم! أي سخط كان يضمر لذاته، وحقّ زيوس!...

أما كيربيروس-اللطخة البيضاء التي جعلت تتنقَّل على الأرض في خطوط مُتعرِّجة- فراح يردِّد صياح صاحبه في حنق، حتى دوَّى صدى النباح كالجدائل المُضفَّرة. انحنى كرانتور وربت عليه بلفتة حانية.

- كلا، كلا...

هدِّئ من روعك، كيربيروس...

ما مِنْ خطب...

استغلَّ هراقليس الفرصة وجذب الحبل الذي يتدلّى من المسمار الأيمن جذبةً قوية، فتخلخل من مكانه قليلًا. تشجَّع وأعاد الكَرَّة، فانتزع المسمار تمامًا من دون أن يحدث صوتًا. ظلَّ انتباه كرانتور منصرفًا إلى الكلب. والآن أصبحَتْ مسألة سرعة. أراد هراقليس تحريك يده الحرة لحلِّ وثاق الأخرى، فوجد أصابعه تأبى الامتثال لأوامره، إذ كانت مُثلَّجة، يزحف عبرها جيشٌ من الأفاعي الدقيقة التي تكاثرَتْ تحت بشرته. عند ذاك جذب الحبلَ الذي ينتهي بالمسمار الأيسر بكل ما أوتي من قوة.

وفي اللحظة نفسها حين انخلع المسمار، التفت إليه كرانتور.

كان هراقليس اليونتوري رجلًا مكتنزًا، قصير القامة. علاوةً على ذلك، ففي تلك اللحظة تدلَّتْ ذراعاه المُتألِّمتان على جانبيْه في عجز كالأدوات المُحطَّمة. عرف هراقليس من فوره أن فرصته معدومة، ما لم يتمكَّن من التسلُّح بشيء. كانت عيناه قد اختارتا المسعار الذي استقرَّ طرفه وسط الجمرات، غير أنه كان أبعد مما ينبغي، ولسوف يعترض سبيله كرانتور الذي يقترب الآن مندفعًا. عند ذاك، وفي تلك الغمضة، أو تلك النبضة، حين يُشلُّ الفكر ويكفُّ الزمن عن الجريان، حَدَس كاشف الألغاز بأن المسماريْن الذهبييْن ما زالا عالقيْن بطرفي الحبليْن اللذيْن شُدَّ بهما وثاق معصميْه (من دون أن يراهما حتى بعينيْه). تضخَّم ظلُّ كرانتور حتى ابتلع جسد هراقليس كاملًا، فعجَّل الأخير برفع ذراعه اليمنى وحرَّكها حركة نصف دائرية بسرعة وعنف.

ربما توقَّع كرانتور أن يعاجله هراقليس بلكمة، ذلك أنه حين رأى قبضة الأخير تتحرَّك من دون أن تصيبه، لم تبدر منه بادرة تراجع. فتلقى صدمة المسمار كاملةً في وجهه. لم يدرِ هراقليس في أي موضع ضربه تحديدًا، غير أنه سمع أنَّات الألم. اندفع إلى الأمام واضعًا نصب عينيْه المسعار ولا شيء سواه، ولكن ركلة شديدة هوَتْ على صدره فتركَتْه منقطع الأنفاس وطرحَتْه على جانبه ليتدحرج كالثمار الناضجة المتساقطة من الأشجار.

تلا ذلك ألمٌ مبرح، في حين سعى هراقليس إلى استحضار أيام شبابه، أيامَ كان مصارع يانكراتيون. بل وتذكَّر أسماء بعض من غرمائه. فحضرَتْ إلى ذاكرته مشاهد وصور هزائم وانتصارات...

بَيْد أن خواطره تقاطعَتْ في ما بينها...

وفقدَتِ العبارات تماسكها...

فغدَتْ كلمات مُتفرِّقة...

تكوَّر على نفسه يصدُّ الضربَ عن رأسه، ويتجشَّم العقاب النازل به. وحين تعبَتْ قدما كرانتور الصخريتيْن من ركله، التقط أنفاسه وتشمَّم رائحة الدماء. كانت ركلات كرانتور قد جرفَتْ هراقليس نحو الجدار وكأنه كومه مُترهِّلة من القمامة. قال كرانتور شيئًا، فلم يتمكَّن من سماعه. والأدهى من ذلك أن الكلب الصغير المُتوحِّش راح ينبح في سمعه ويسكب على وجهه ريقًا مريرًا سقيمًا. تعرَّف على نباح كيربيروس بالقرب منه. أدار رأسه وفتح عينيْه نصف فتحة. أما الكلب

فكان بمثابة قناع مُتغضِّن، كثير الجلبة، خاوي العينيْن، على مبعدة شبر من وجه هراقليس. بدا وكأنه شبحُ ذاته. وفي ما وراء ذلك، في ما وراء الألم اللامتناهي، رأى كاشفُ الألغاز كرانتور وقد أولاه ظهره. ماذا هو فاعل؟ ربما كان يتكلَّم. ما كان بوسع هراقليس أن يتأكَّد من ذلك، إذ طغى الجبل الصاخب المُتمثِّل في كيربيروس على باقي الأصوات. لمَ لا يستمرُّ كرانتور في ضربه؟ لمَ لا يفرغ من مهمته؟...

خطر له أمرٌ. الأرجح أنها لم تكُن بالخطة الجيدة، ولكنَّ شيئًا لم يعُد جيدًا في تلك اللحظة. أحاط جسدَ الكلب القبيح بيديْه. جعل الكلب يتملَّص بين يديْه وكأنه طفلٌ لم يألف مداعبة الغرباء، أضخم ما في جسده أسنانه الحادة، غير أن هراقليس أبعدها عنه وهو يحمل فريسته المحمومة. لا شك أن كرانتور قد أدرك التغيير الذي طرأ على صوت نباح كيربيروس، إذ التفت إلى هراقليس وصاح قائلًا شيئًا ما.

للحظة تذكَّر هراقليس أن أداءه في رياضة رمي القرص لم يكُن سيئًا.

رمى هراقليس الكلب وكأنه حجر رخو ألقى به طفل لعوب. ارتطم كيربيروس بالحامل ليُسقِط القِدْر والموقد معًا. ما كادت الجمرات المنسكبة كالحمم البركانية الثخينة تمسُّ شعره، حتى تغيَّر صوت نباحه من جديد. تلطَّخ بالنيران وظلَّ يتدحرج على الأرض. لم تكُن قوة الرمية بالغة الشدة، غير أن الحيوان ساهم في الاندفاع بعضلاته أيضًا. واذا هو زوبعة من الجمر. تردَّد عواؤه في الكهف مُغلَّفًا بالأصداء، ليخترق سمع هراقليس وكأنه مِخْيَطٌ من ذهب. وكما افترض الأخير، فلم يتردَّد كرانتور في الاختيار بينه وبين الكلب لأكثر من لحظة، إذ اختار أن يخفَّ لنجدة الكلب من فوره.

قِدْر. حامل. موقد. مسعار. أربعة أشياء مُحدَّدة، يشغل كلٌّ منها رقعة على الأرض، حيثما ألقَتْ به يد الصدفة. أما هراقليس فقد ترك بدانة جسده المُتألِّم تتهاوى صوب المسعار. لم تكُن ربات الحظِّ العصيَّات على التوقُّع قد ألقين به أبعد مما ينبغي.

جعل كرانتور يصرخ وقد انحنى على الكلب:

- كيربيروس!...

أخذ يربّت على الجسد الضئيل، ويمسح عنه الرماد.

- كيربيروس، هدِّئ من روعك يا بنيّ، دعني...!

ظنَّ هراقليس أن ضربة واحدة بالمسعار الذي قبض عليه بكلتا يديْه ستكون كافية. إلا أنه استهان بقدرة كرانتور على التحمُّل. وضع الأخير يده على رأسه وحاول أن يدور على عقبيْه. فسدَّد إليه هراقليس ضربة ثانية. هذه المرة سقط كرانتور على ظهره أرضًا. فهوى هراقليس فوقه هو الآخر، وقد نال منه الإعياء.

سمع كرانتور يقول لاهثًا:

- ...بدينٌ أنت يا هراقليس. عليك أن...

تريَّض.

وببطء أليم، استقام هراقليس على الأرض مُجدَّدًا. أحسَّ بذراعيْه كما لو أنهما درعان ثقيلان من البرونز. اتَّكأ على المسعار. ابتسم كرانتور من مكانه على الأرض.

- بدين وضعيف.

استطاع كاشف الألغاز أن يجثم فوق كرانتور. راحا يلهثان وكأنهما قد أنهيا لتوِّهما سباقًا أوليمبيًّا. ثم انبثقَتْ أفعى رطبة سوداء من رأس كرانتور، وجعلَتْ تتضخَّم. تحوَّلَتْ من فَرْخٍ إلى حيَّة ثم إلى أصَلَة، على التوالي، وهي لا تكفُّ عن الزحف على الأرض. عاود كرانتور الابتسام. سأل:

- هل لاحظتَ...

أثر الكيون؟ فأجاب هراقليس:

- كلا.

ثم دار في خلده: «لهذا لم يرِد أن يرديني قتيلًا. إذ كان يترقَّب أن يؤتي المُخدِّر أثره».

همهم كرانتور:

- اضربني.

فكرَّر هراقليس قوله:

- كلا.

ثم جاهد لكي ينهض.

صارت الأفعى أضخم من الرأس الذي انبثقَتْ منه. في حين لم يعُد لها الشكل الأولي ذاته، ذلك أنها بدَتِ الآن وكأنها ظلّ شجرة[176].

قال كرانتور:

- سأفشي لك...

سرًّا...

لا يعلمه...

أحد...

ما خلا...

بعض الإخوان...

ليس الكيون سوى...

ماء، وعسل و...

أطرق برهةً، ومسح شفتيْه بلسانه، ثم أردف:

- ...وحسوة من النبيذ العطري.

اتَّسعَتِ ابتسامته. نزف الجرح الذي تركه المسمار على وجنته قليلًا. ثم أردف:

- ما رأيك، هراقليس؟...

الكيون لا شيء...

مطلقًا...

استند هراقليس على الجدار القريب. لم ينبس، وإن ظلَّ ينصت إلى همسات كرانتور اللاهثة.

- الكلّ يظنُّه مُخدِّرًا...

ويحتسونه، فيتحوَّلون...

يجتاحهم السخط...

يُجنُّ جنونهم...

ويأتون بما نتوقَّع منهم...

وكأنهم قد احتسوا مُخدِّرًا...

حقًّا...

كلّهم، ما عداك...

فلمَ؟

دار في خلد هراقليس: «لأنني لا أؤمن بغير ما أرى». ولكنه لم يقوَ على الكلام، فلم ينبس.

قال كرانتور:

- اقتلني.

- كلا.

- إذًا، فاقتل كيربيروس...

أرجوك...

لا أريده أن يتجشَّم الألم.

فأعاد هراقليس قوله:

- كلا.

زحف إلى الجدار المقابل، حيث تمدَّد دياغوراس. كان وجه الفيلسوف مُغطًّى بالكدمات، وفي جبينه جرح يبدو غائرًا، إلا أنه ما زال على قيد الحياة. كانت عيناه مفتوحتيْن، ومظهره يشي بالتحفُّز.

قال هراقليس:

- هيا بنا.

لم يبدُ على دياغوراس أنه قد تعرَّف عليه، ولكنه سمح له باقتياده. وحين غادرا الكهف يتعثَّران في سيرهما، وخرجا إلى الليل الذي أرخى سدوله منذ برهة يسيرة، بقي النباحُ الأليم مطمورًا، نباحُ كلب كرانتور، أخيرًا.

كان القمر قد طلع ذهبيًّا مستديرًا وتدلَّى من قبَّة السماء السوداء حين عثَرَتْ عليهما الدورية. وقبل ذلك بقليل، شرع دياغوراس يتكلَّم فيما سار مستندًا إلى هراقليس.

- أرغموني على احتساء شرابهم...

لست أذكر الكثير ابتداءً من تلك اللحظة، ولكني أعتقد بأنهم قد تكهَّنوا بما سيجري لي قبل وقوعه. لقد...

كيف لي أن أصف ما كان؟...

لقد فقدتُ السيطرة على نفسي يا هراقليس...

أحسستُ بمسخٍ يتلوَّى بداخلي، أفعى هائلة غاضبة...

ثم تابع لاهثًا، فيما احمرَّتْ عيناه وهو يتذكَّر جنونه:

- شرعتُ أصرخ وأضحك...

رحتُ أسبُّ الآلهة...

بل أعتقد بأنني قد أهنتُ المُعلِّم أفلاطون!...

- ماذا قلتَ له؟

مضَتْ برهة صمت، ثم أجاب دياغوراس بمشقّة جليَّة:

- قلتُ له: «اتركني وشأني أيها الساتير».

ثم التفت إلى هراقليس وأمارات الحزن الدفين بادية عليه. تساءل:

- لمَ نعتُّه بـ«الساتير»؟...

أي هول!...

وفي نبرة مُعزِّية، قال كاشف الألغاز إن الأمر برمته يُعزى إلى أثر المُخدِّر. أبدى دياغوراس موافقته، وأردف:

- ثم شرعتُ أضرب رأسي في الجدار حتى غبت عن الوعي.

مضى هراقليس يفكِّر في ما أخبره كرانتور عن الكيون. تراه كاذبًا؟ لم يكُن احتمالًا مُستبعدًا. ولكن لو كذب كرانتور، فلماذا لم يترك الشراب المزعوم أدنى أثر في هراقليس؟ ومن ناحية أخرى، فلو أن الكيون لا يعدو كونه مزيجًا من الماء والعسل وقليل من النبيذ، فلمَ كان يثير تلك النوبات المفاجئة من الجنون؟ لمَ دفع إوْماركو إلى تمزيق جسده بنفسه؟ لمَ كان له ذلك الأثر على

دياغوراس؟ كما شقي هراقليس بسؤال آخر: هل يجب أن يعرف دياغوراس بما كشف له كرانتور من أمر الكيون؟ قرَّر أن يلزم الصمت. تعثَّرَتْ فيهما دورية الجند وهما سائران على الدرب المُقدَّس. لمح هراقليس المشاعل فجهر بصوته ليخبر الجند بهويتهما. أما القائد، المُطَّلع على الوضع بفضل البردية التي أرسلها هراقليس إلى الأركون، فقد أبدى اهتمامه بمعرفة مقرِّ الطائفة، ذلك أن المكان الوحيد المعروفة صلته بأتباع الطائفة-بيت الأرملة إتيس- قد هجره سكانه باستعجال يدعو إلى الارتياب. ادَّخر هراقليس كلماته التي بدَتْ له ذهبية آنذاك، فقد أثقله الإعياء كما تثقل على المرء الأغلال المُتدلّية من عنقه، وطلب من بعض الجند أن يحملوا دياغوراس إلى المدينة حتى يفحصه الطبيب. ثم عرض على القائد وباقي الرجال أن يرشدهم إلى الكهف بنفسه. احتجَّ دياغوراس بكلمات واهنة، ثم رضخ للأمر في خاتمة المطاف، نظرًا لما اعتراه حينها من حيرة وإعياء. ما لبث كاشف الألغاز أن عثر على طريق العودة، مستعينًا بالمشاعل.

وفي محيط الكهف الواقع في منطقة كثيفة الغابات، لا تبعُد عن الليكابيتوس كثيرًا، عثر جندي على عدد من الخيول شُدَّ وثاقها إلى الأشجار وعربة ضخمة مُحمَّلة بالزَّاد والأغطية. مما حمل على الظنِّ بأن أتباع الطائفة لا يبعدون كثيرًا، فأمر القائد رجاله بأن يستلّوا السيوف من أغمادها ويتقدَّموا نحو المدخل بحذرٍ ويقظة. كان هراقليس قد أوضح لهم ما جرى وما يتوقَّع العثور عليه، فلم يُفاجأ أحد بجثة كرانتور الغارقة في بركة من الدماء، بلا صوت ولا حراك، وهي لا تزال مُمدَّدة في الوضع نفسه على نحو ما ذكر كاشف الألغاز. أما كيربيروس فقد استحال كائنًا مُتغضِّنًا مسالمًا، يئنُّ في وهن عند قدمي صاحبه.

لم يرِد هراقليس أن يعرف ما إذا كان كرانتور لا يزال على قيد الحياة، فلم يدنُ منه حين فعل الآخرون. تهدَّدهم الكلب بزمجرة خشنة، فما كان من الجند إلا أن استغرقوا في الضحك، بل وشعروا بالامتنان للاستقبال غير المُتوقَّع الذي لقيهم به كيربيروس، ذلك أن الشائعات التي بلغَتْهم بشأن تلك الطائفة، ممزوجة بأمور من نسج الخيال، قد بثَّتِ الرهبة في نفوسهم. فما كان من الحضور الهزلي لذلك الكائن المُشوَّه إلا أن ساهم في تخفيف حدَّة التوتُّر قليلًا. طفقوا يلهون بالكلب حينًا، ويهزأون منه متظاهرين بأنهم على وشك ضربه، حتى زجرهم أمرٌ حازم من القائد. ومن دون أن يزيدوا كلمة واحدة، نحروا عنقه كما سبق لهم أن نحروا عنق كرانتور. وبالمناسبة، فقد جرَتْ مع الأخير واقعة أخرى طريفة، كثيرًا ما سوف يتندَّر بها الجند في مقرِّ الفوج لاحقًا. فبينما تكفَّل البعض بأمر الكلب، دنا جندي من كرانتور واضعًا نصل السيف على عنقه القوي. فسأله جندي آخر:

- أهو على قيد الحياة؟

وفيما هو ينحر عنق كرانتور، أجاب الأول:

- كلا.

أما باقي الجند فقد توغَّلوا إلى أعماق الكهف في إثر قائدهم، وبرفقة هراقليس. أخذ الممرُّ يتَّسع حتى أفضى إلى حيِّز فسيح الأبعاد. اضطرَّ كاشف الألغاز إلى الاعتراف بأنه مكان مثالي لإقامة طقوس محظورة، نظرًا للضيق النسبي الذي يتَّسم به المدخل الخارجي. كان جليًّا أن المكان قد استُخدِم في الآونة الأخيرة، إذ عُثِر على أقنعة فخارية وأردية سود متناثرة في أرجاء المكان كافة،

وكذا أسلحة ومخزون ضخم من المشاعل. ومما يدعو إلى الفضول أنهم لم يعثروا على تماثيل تجسِّد الآلهة ولا أضرحة حجرية ولا رموز دينية على الإطلاق. وعلى الرغم من ذلك، فالأمر لم يسترعِ الانتباه حينها، إذ تحوَّلَتْ أنظار الجميع إلى أمر آخر أكثر مدعاةً للدهشة وأوضح للعيان بكثير. أول من رآه جنديٌّ من الرعيل الأول. صاح ينبِّه القائد، فانتهى الباقون عمَّ هم فاعلون.

بدَتْ وكأنها لحوم تتدلَّى من سقف حانوت في الأغورا، مُعدَّة لإقامة وليمة لكرويسوس ملك ليديا الذي لا يشبع. كانت غارقة في ذهب خالص على بريق المشاعل. كان هنالك ما لا يقلُّ عن اثنتي عشرة جثة، لرجال ونساء عراة مُعلَّقين رأسًا على عقب من كواحلهم، بخطاطيف مُثبَّتة في الجدران الحجرية. كانت بطونهم جميعًا مبقورة بلا استثناء، تتدلَّى منها الأحشاء وكأنها ألسنة هازئة أو جدائل من أفاعٍ ميتة. وأسفل كل جثة، عُثِر على كوم من ثياب مَضرَّجة بدماء مُتخثِّرة وسيف ماضٍ قصير[177].

صاح جندي شاب:

- لقد انتُزِعَت أحشاؤهم!

ردَّد الصدى المهيبُ كلماته، فزادها هولًا.

ثم قال أحدهم بنبرة رصينة من موضعه في الخلف:

- بل إنهم فعلوا ذلك بأنفسهم. فالجروح عرضية وليست طولية، مما يدلُّ على أنهم قد بقروا بطونهم بأنفسهم وهم مُعلَّقون...

أما الجندي الذي لم يكُن مُتأكِّدًا من هوية المُتحدِّث، فقد التفت ليتأمَّل على ضياء مشعله المتذبذب هيئةَ الرجل البدين المنهك الذي أرشدهم إلى هناك (لم يكُن يعرف جيِّدًا من هو. تراه أحد الفلاسفة؟). قال هراقليس قوله، ومن دون أن يعير الاستدلال العقلي الذي ساقه أدنى اهتمام، ابتعد مولِّيًا وجهه شطر الجثث المُشوَّهة.

همهم آخرُ متسائلًا:

- ولكن، كيف تمكَّنوا من...؟

فأجاب القائد بلهجة قاطعة:

- إنهم ثلَّة من المجانين!

ومرة أخرى سُمِع صوت الرجل البدين (تراه أحد الفلاسفة؟). وعلى الرغم من الوهن الذي اعترى صوته، فقد تبيَّن الجميع كلامه بوضوح:

- لماذا؟

وقف أسفل إحدى الجثث. كانت جثة امرأة ناضجة وإن لم تزَل بديعة الجمال، مُرسَلة الشعر سوداؤه، تتدلَّى أحشاؤها على صدرها كما تتدلَّى حوافّ ثوب البيبلوس. كانت رأس هراقليس ورأسها على الارتفاع نفسه (كان بوسعه أن يلثم شفتيْها، لو خطرَتْ في ذهنه فكرة غاية في الشذوذ من هذا القبيل). بدا الرجل في منتهى التأثُّر، فلم يرِد أن يزعجه أحد. وفيما هم منصرفون إلى

مهمتهم المُنفِّرة التي تقتضي منهم إنزال الجثث المُعلَّقة، سمع بعض الجند صوته، فيما ظلَّ هو يغمغم، على مقربة من الجثة نفسها طيلة الوقت، وبنبرة أكثر فأكثر لجاجةً:

- لماذا؟...

لماذا؟...

لماذا؟...

ثم قال المترجم[178]:

تعريف بالمؤلف

خوسيه كارلوس سوموثا:

كاتب إسباني وُلِد في هافانا عام 1959.

درس الطب والطب النفسي ثم تفرَّغ للأدب والكتابة.

حصل على عدد من الجوائز الأدبية المهمة مثل جائزة كافيه خيخون، وفرناندا لارا، وهاميت، وتورِّيبييخا، كما وصل إلى القائمة القصيرة لجائزة نادال عام 2000.

وحصل على جائزة غولد داغر البريطانية عام 2002 عن رواية كهف الأفكار التي شهدَت نجاحًا كبيرًا في عدة بلدان وتُرجِمَت إلى أكثر من عشرين لغة.

تعريف بالمترجم

مارك جمال:

مترجم مصري، عمل مترجمًا لدى سفارة البرازيل بالقاهرة لسنوات قبل أن يتفرَّغ لترجمة الأعمال الأدبية عن الإسبانية والبرتغالية، ومنها «خريف البطريرك» لغابرييل غارسيا ماركيز و«خلية النحل» لكاميلو خوسيه ثيلا و«النسيان» لإكتور آباد فاسيولينسي و«اعترافات شرسة» لميا كوتو و«العرافة» لماشادو دي أسيس.

Contents

مكتبة Telegram Network 2020

توطئة

مآثر هرقل الاثنتي عشرة

كهف الافكار

الفصل الأوّل[]

الفصل الثاني[]

الفصل الثّالث[]

الفصل الرّابع[]

الفصل الخامس

الفصل السّادس[]

الفصل السابع

الفصل الثامن

الفصل التاسع

الفصل العاشر[]

الفصل الحادي عشر[]

الفصل الثّاني عشر

تعريف بالمؤلف

تعريف بالمترجم

Notes

[←1]

سقطت الأسطر الخمسة الأولى. يؤكِّد مونتالو في النسخة التي حقَّقها من النص الأصلي أن البرديَّة مُمزَّقة عند هذا الموضع. أستهلُّ ترجمة كهف الأفكار بالعبارة الأولى في نسخة مونتالو، وهي النسخة الوحيدة المتاحة لدينا. (المترجم)

[←2]

كلاميد: رداء خفيف من الكتان على شكل مستطيل كان جنود الإغريق يرتدونه قديمًا.

[←3]

ساتير: كائن أسطوري له ذنب العنزات وأظلافها وقرونها.

[←4]

ليكابيتوس: جبل يقع في مدينة أثينا ويبلغ ارتفاعه نحو 300 متر فوق مستوى سطح البحر.

[←5]

من اللافت للانتباه إسراف الكاتب في استخدام الصور المجازية المُتعلِّقة بـ«اللِّبْدَة» المتناثرة هنا وهناك ابتداءً من أول النصّ. من الجائز أن تكون إشارة إلى وجود آيديسيس، وإن لم أتثبَّت من ذلك بعد. لا يبدو أن مونتالو قد انتبه إلى ذلك، إذ لم يُشِر إليه في حواشيه من بعيد أو من قريب. (المترجم)

[←6]

تونيك: رداء طويل فضفاض يُغطِّي الجسد من العنق وحتى الساقيْن.

[←7]

أوبول: عملة فضية كانت مُستخدَمة في بلاد الأغريق.

[←8]

أمفورة (ج.) أمفورات: جرَّة من الخزف طويلة العنق، شاع استخدامها قديمًا في بلاد الإغريق وغيرها لتخزين الزيوت والنبيذ وكذلك لأغراض الزينة.

[←9]

أغورا: ساحة عامة كانت تلعب دورًا جوهريًّا في الحياة السياسية والفنية والدينية والرياضية في المدن الإغريقية القديمة.

[←10]

أبوا: آلة نفخ مزدوجة عادةً ما تُصنَع من الخشب.

[←11]

بيبلوس: رداء تقليدي بطول الجسد كانت ترتديه النساء في بلاد الإغريق.

[←12]

المرض المُقدَّس: يُقصَد به الصرع.

[←13]

الصور المجازية والتشبيهات المُتعلِّقة بـ«الفم» أو «الأفواه» من جهة، و«الصراخ» أو «الزئير» من جهة أخرى، تحتلُّ الشطر الثاني من هذا الفصل بالكامل (كما يمكن للقارئ اليَقِظ أن يكون قد لاحظ بالفعل). يبدو لي جليًّا أننا إزاء نص آيديسي. (المترجم)

[←14]

ستينتور: بطل من أبطال القوات الإغريقية في حرب طروادة، جاء ذكره في إلياذة هوميروس.

[←15]

مما يدعو للمفاجأة ألّا يورد مونتالو، في نسخته المستفيضة من النصّ الأصلي، مُجرَّد إشارة إلى الآيديسيس الحاضرة بقوة، والتي يكشف عنها النصّ خلال الفصل الأول على الأقل. ومع ذلك، فمن الجائز أيضًا ألا يكون مونتالو على دراية بتلك التقنية الأدبية الجديرة بالفضول. وكي أضرب للقارئ الفضولي مثلًا، وأذكر تفصيلًا وبأمانة كيف خلصتُ إلى اكتشاف الصور المحجوبة في هذا الفصل (ينبغي للمترجم أن يكون أمينًا في حواشيه، أما الكذب فامتياز يختصُّ به الكاتب وحده)، سوف أورد الحديث الوجيز الذي دار أمس بيني وبين صديقتي هيلانة، تلك التي أكنُّ لها كل تقدير بوصفها زميلة مُتبحِّرة واسعة الخبرة.

جاء ذكر المسألة، فأخبرتُها في حماسة أن كهف الأفكار، ذلك العمل الذي شرعتُ في ترجمته، يعدُّ بمثابة نص آيديسي. فتسمَّرَتْ في مكانها تتفحَّصني، ويسراها ممسكة بساق حبة كرز تناولَتْها من صحن قريب. ثم سألَتْ:

- نص ماذا؟

فأجبتُها شارحًا:

- الآيديسيس تقنية أدبية ابتكرها الكُتَّاب الإغريق القدامى في سبيل إيصال مفاتيح ورسائل سرّية تشتمل عليها أعمالهم. ويكون ذلك عَبْر تكرار صورٍ مجازية أو كلمات توحي بفكرة أو صورة مُستقِلّة عن النصِّ الأصلي، في حال تناولها القارئ الأريْب على حدة. على سبيل المثال، من خلال الآيديسيس استطاع أرخينوسو الكورنثي أن يخفي وصفًا بالغ الكمال للشابة التي كان يعشقها في قصيدة مُطوَّلة، مُكرَّسة لأزهار الحقل في ظاهر الأمر. أما إيافو المقدوني...

فابتسمَتْ هيلانة في ضجر:

- أي أمر جدير بالاهتمام! وهل لي أن أعرف ماذا يُخفي نصّ كهف الأفكار، لصاحبه المُؤلِّف المجهول؟ - سأعرف حين أنتهي من ترجمته كاملًا.

الكلمات الأكثر تكرارًا في الفصل الأول هي: «لِبْدَة» و«فَم» فضلًا عن «أفواه» «تصرخ» أو «تزأر»، ولكن...

فقاطعَتْني ببساطة:

- «لِبْدَة» و«أفواه تزأر»؟ ربما يدور الحديث عن أسد، أليس كذلك؟

ثم أكلَتْ حبة الكرز.

لطالما كرهتُ قدرة النساء على بلوغ الحقيقة في غير جهد يُذكر، عَبْر أقصر الطرق المختصرة. وعندئذ، كنتُ أنا الذي تسمَّرتُ في مكاني، أتفحَّصها فاتحًا عينيَّ عن آخرهما.

همستُ قائلًا:

- أسد، بالطبع...

فتابعَتْ هيلانة من دون أن تولِّي المسألة أهمية:

- ولكني لا أفهم السبب الذي جعل المُؤلِّف يعتبر فكرة الأسد من السرّية بحيث أخفاها عَبْر الـ... ما اسمها؟

- الآيديسيس. سوف نعرف حين أفرغ من الترجمة، فلا سبيل إلى فهم نص آيديسي إلا بعد قراءته من الدفة إلى الدفة.

وفيما أقول ذلك دار بخلدي: «أسد، بالطبع... كيف لم يخطر لي ذلك من قبل؟».

- حسنًا.

اعتبرَتْ هيلانة الحديث منتهيًا، فثنَتْ ساقيْها الطويلتيْن المُمدَّدتيْن فوق أحد المقاعد، ثم وضعَتْ صحن الكرز على الطاولة، واستوت في جلستها.

- تابعْ الترجمة إذًا، وأخبرني كيف تسير الأمور.

قلتُ:

- إن ما يدعو للمفاجأة ألا يكون مونتالو قد انتبه إلى شيء في المخطوط الأصلي...

فاقترحَتْ هي:

- اكتبْ له رسالة إذًا. وبذلك تعطيه انطباعًا طيّبًا عن نفسك وتفوز بتقديره.

ورغم أني تظاهرتُ بعدم الموافقة في حينه (لئلا تلاحظ هيلانة أنها قد حلَّتْ كل مشكلاتي بجرة قلم)، فقد امتثلتُ لقولها. (المترجم)

[←16]

«الملمس لزج. تنساب الأصابع على السطح وكأنها مُضمَّخة بالزيت. ومن المُلاحظ أن القسم الأوسط يتَّسم بقدر من الهشاشة، على غرار الحَراشِف»، هكذا يؤكِّد مونتالو واصفًا رُقَع برديَّة المخطوط في مطلع الفصل الثاني. تُرى، هل استُخدمَتْ أوراق مصنوعة من نباتات مختلفة في إعداد البرديَّة؟ (المترجم)

[←17]

خارون: المنوط بنقل الأرواح من عالم الأحياء إلى عالم الموتى على متن قاربه. وجرت العادة على وضع عملة نقدية تحت لسان الميت نظير خدمات خارون.

[←18]

ديموس: أي مقاطعة.

[←19]

ياناتينياس: مهرجان ديني كان يُقام في أثينا كل عام على شرف الربة أثينة حامية المدينة.

[←20]

كانت الميدوسا مسخًا على هيئة امرأة تغطِّي رأسها الثعابين. ثم بتر بيرسيوس رأس الميدوسا واتَّخذ منه سلاحًا لأنه ظلَّ محتفظًا بالقدرة على تحويل الناظر إليه حجرًا.

[←21]

يبدو أن كلمتي «برد» و«رطب»، فضلًا عن الحركات «المُتموِّجة» و«الملتوية» بأشكالها كافة، تهيمن على الآيديسيس الواردة في هذا الفصل. من الممكن جدًّا أن تكون أمامنا إشارة إلى صورة البحر (كان ذلك يليق جدًّا بالإغريق). ولكن، ماذا عن «لزج»، تلك الصفة التي جاء ذكرها مرارًا وتكرارًا؟ دعونا نتابع. (المترجم)

[←22]

عمدتُ إلى ترجمة «رأس ثمرة التين» ترجمةً حَرفية، وإن كنتُ لا أعرف جيِّدًا ماذا يعني المُؤلِّف المجهول بذلك. فمن الجائز أن يكون المقصود هنا الجزء الأكثر اكتنازًا والأغنى باللحم من الثمرة، ومن الجائز أيضًا أن يكون الجزء الأقرب إلى الساق. وعلى الرغم من ذلك، فربما كانت العبارة مُجرَّد تقنية أدبية ترمي إلى التشديد على لفظ «رأس»، الذي يبدو أنه يشقُّ طريقه شيئًا فشيئًا بوصفه كلمة آيديسيَّة جديدة. (المترجم)

[←23]

بمعزل عن الغرض المنشود من وراء العبارتيْن الأخيرتيْن في الحوار الروائي-«ثمة أفكار في ما وراء الكلمات»، و«وحدها الأفكار مهمّة»- يُهيَّأ لي أنهما تمثِّلان رسالة من المُؤلِّف لإبراز وجود الآيديسيس. أما مونتالو، فلا يبدو أنه قد انتبه إلى شيء، كدأبه دائمًا. (المترجم)

[←24]

سفنكس: في الميثولوچيا الإغريقية، كائن أسطوري له رأس امرأة وجسد أسد وجناحا نسر.

[←25]

خيتون: رداء يشبه التونيك ويُعلَّق من الكتفيْن، يرتديه الرجال والنساء.

[←26]

غرغول: حيوان أسطوري يُصوَّر في الكثير من المنحوتات ولا سيما على شكل مزراب ناتئ يُستخدَم لتصريف المياه.

[←27]

إن هذه الفقرة الجديرة بالفضول، والتي يظهر أنها تصف اغتسال الفتيان في الچيمنازيوم بعبارات شاعرية، تكاد تشتمل على جميع العناصر الآيديسيَّة الواردة في الفصل الثاني، في مُلخَّص مُقتضَب وإن كان مُتقنًا. ومن بين تلك العناصر: «الرطوبة» و«الرأس» و«التموُّج». كما يُلاحَظ تكرار كلمتي «مُتعدِّد» و«حراشف»، اللتين ظهرتا مؤخرًا. أما في ما يتعلَّق بـ«زهرة اللحم»، فيبدو لي أنها مُجرَّد مجاز غير آيديسي. (المترجم)

[←28]

أوراكل: كانت الأوراكل وسيطة روحانية تنقل إلى البشر إرادة الآلهة.

[←29]

من المؤكَّد أن القارئ قد فوجئ بالسطور الأخيرة بقدر ما فوجئتُ بها شخصيًّا! بالطبع، يجب أن نستثني احتمال كونها مجازًا مُعقَّدًا، كما لا يمكننا أن نسقط في فخ التفسير الحرفي. فمن الشطط التفكير بأن «الأفاعي المُتعدِّدة المُلتفَّة حول ذاتها» قد اتَّخذَتْ لنفسها عشًّا على أرضية حجرة هراقليس، مما يعني أن الحديث السابق بين دياغوراس وكاشف الألغاز قد دار من أوله إلى آخره في «مكان مُكتظّ بحيَّات تزحف ببطء بارد على أذرع وأرجل الشخصيتيْن الرئيسيتيْن في العمل، فيما تابعا حديثهما وهما في غفلة عن الحيات» كما يرى مونتالو. (إن الشرح الذي ساقه خبير الآداب الإغريقية اللامع لا يعدو أن يكون شرحًا عبثيًّا. إذ يقول جازمًا: «ما الذي يحول دون وجود أفاعٍ في الحجرة ما دامت تلك هي رغبة المُؤلِّف؟ إن المُؤلِّف هو صاحب الكلمة الأخيرة في ما يتعلَّق بكل ما يجري في عالم كتابه، ولسنا نحن»).

ولكن ليس هنالك ما يدعو القارئ إلى القلق. فالعبارة الأخيرة بشأن الأفاعي محض خيال. وبطبيعة الحال، فإن كل العبارات السابقة محض خيال بدورها، نظرًا لأننا بصدد عمل روائي (عسى أن يكون كلامي واضحًا)، ولكن تلك العبارة تُعدُّ ضربًا من الخيال لا يجدر بالقارئ تصديقه، على اعتبار أنه سوف يصدِّق ما عداها من العبارات، رغم كونها من نسج الخيال هي الأخرى، على الأقل طوال الوقت الذي تستغرقه القراءة، حتى تكتسب القصة معنى بعينه. في واقع الأمر، إن الغرض الوحيد من وراء تلك الواقعة العبثية الأخيرة هو تعزيز الآيديسيس، وفق ما أرى، إذ يسعى المُؤلِّف لتعريفنا بالصورة المحجوبة في هذا الفصل. وعلى الرغم من ذلك، فإن تلك التقنية الأدبية خَدَّاعة. عسى ألَّا يقع القارئ في خطأ التفكير بأيسر الأمور!

صبيحةَ اليوم، قبل أن أبلغ الموضع الذي توقَّفتُ عنده في الترجمة، اكتشفتُ وهيلانة على نحو مفاجئ مفتاحَ الكتاب كاملًا-بحسب اعتقادي- وليس مُجرَّد الصورة الآيديسيَّة الصحيحة في الفصل الحالي. وعلى الفور بادرنا بإطلاع إلْيُو، رئيسنا في العمل، على ما خلصنا إليه.

فقال إلْيُو مُقترحًا:

- «رطوبة باردة»، «لزوجة»، حركات «ملتوية» و«زاحفة»...

ربما يدور الحديث بشأن أفعى، أليس كذلك؟ في الفصل الأول، أسد. وفي الفصل الثاني، أفعى.

قلتُ معترضًا:

- ولكن، ماذا عن «الرأس»؟ فيمَ كل هذه «الرؤوس المُتعدِّدة»؟

هزَّ إلْيُو كتفيْه، ولسان حاله يطرح عليَّ السؤال نفسه. عند ذاك أطلعتُه على التمثال الصغير الذي جئت به من البيت.

- أعتقدُ وهيلانة أننا قد وقفنا على حقيقة الأمر. أترى؟ هذا التمثال يجسِّد هيدرا، المسخ الأسطوري مُتعدِّد الرؤوس، ذلك الذي تشبه رؤوسه الأفاعي، تُقطَع فتنبت من جديد...

مما يفسِّر إلحاح المُؤلِّف في وصف «قَطْع رؤوس» التين...

فتدخَّلَتْ هيلانة في الحديث:

- ولكن الأدهى من ذلك أن هزيمة هيدرا، أفعوان مستنقع ليرنا، تُعدُّ ثانية مآثر هرقل، البطل الذي استأثر بقسم كبير من الأساطير الإغريقية...

سأل إلْيُو مستفهمًا:

- وماذا في ذلك؟

فتولَّيتُ دفّة الحديث مُتحمِّسًا:

- يضمُّ كهف الأفكار اثني عشر فصلًا، ووفقًا للأعراف فإن مجموع مآثر هرقل اثنتا عشرة. علاوةً على ذلك، فإن هراقليس هو الاسم الإغريقي لهرقل، وهو اسم الشخصية الرئيسية في العمل أيضًا. كما أن القضاء على أسد

نيميا يُعدُّ أولى مآثر هرقل، أو هراقليس...

والأسد هو الفكرة المحجوبة في الفصل الأول.

فاستنتج إلْيُو بسرعة:

- وفي الفصل الثاني، الأفعوان هيدرا. بالفعل، كل شيء متوافق...

حتى الآن، على الأقل.

انزعجتُ قليلًا من تلك الزيادة في قوله.

- حتى الآن؟ ماذا تقصد؟

فابتسم إلْيُو بهدوء، ثم قال شارحًا:

- أتَّفقُ مع ما خلصتما إليه من استنتاجات، بَيْد أن الكتب الآيديسيَّة خَدَّاعة. ضعا في اعتباركما أننا بصدد التعامل مع أمور خيالية تمامًا، إنها ليست حتى كلمات، بل... أفكار...

صور مُقطَّرة. كيف لنا أن نتأكَّد من المفتاح النهائي الذي كان في ذهن المُؤلِّف؟

فأجبتُ: - الأمر غاية في البساطة. كل ما علينا فعله أن نبرهن على صحة النظرية التي اهتدينا إليها. فقد استقرَّت الغالبية العظمى من الأعراف على أن ثالثة مآثر هرقل هي أَسْر خنزير أرومانثوس البري. إذا كانت الصورة المحجوبة في الفصل الثالث تُمثِّل خنزيرًا بريًّا، لأصبح ذلك برهانًا جديدًا على صحة نظريتنا...

ثم قالت هيلانة بكل هدوء:

- وهكذا حتى الختام.

حكَّ إلْيُو رأسه الأصلع وقال:

- عندي اعتراض آخر. في الحقبة التي كُتِب خلالها هذا العمل لم تكُن مآثر هرقل سرًّا بأية حال. فما الدافع وراء استخدام الآيديسيس بقصد إخفائها؟

خيَّم علينا الصمت.

ثم أقرَّتْ هيلانة:

- اعتراض وجيه. ولكن دعنا نفترض أن المُؤلِّف قد صنع آيديسيس من الآيديسيس، وأن مآثر هرقل تُخفي صورة أخرى بدورها...

فقاطعها إلْيُو:

- وهكذا إلى ما لا نهاية؟ في تلك الحالة، ما كنا نستطيع التعرُّف على الفكرة الأصلية. ينبغي لنا أن نتوقَّف عند نقطة ما. هيلانة، وفقًا لوجهة النظر التي سُقتِها، فإن أيَّ نصٍّ مكتوبٍ قد يحيل القارئ إلى صورة، وتلك الصورة بدورها قد تحيله إلى أخرى، ثم أخرى...

وبذلك تستحيل قراءته!

طالعني كلاهما يترقَّبان مني الإدلاء برأيي. صارحتُ نفسي بأنني لم أفهم أنا الآخر. قلت:

- النص الأصلي من تحقيق مونتالو. ومع ذلك، لا يبدو أنه قد انتبه إلى أي شيء، الأمر الذي لا يمكن تصوُّره. كتبتُ إليه رسالة. ربما كان رأيه نافعًا...

قطَّب إلْيُو حاجبيْه.

- هل قلتَ مونتالو؟ أخشى أنك قد أهدرتَ وقتك...

أما كنتَ تعرفَ؟ لقد ذاع الخبر في الأنحاء كافة...

مونتالو قضى نحبه في العام الماضي...

هيلانة، أما كنتِ تعرفين أنتِ أيضًا؟

فأقرَّتْ هيلانة:

- ما كنتُ أعرف.

ثم رمقَتْني بنظرة مشفقةً.

- أيّ صدفة!

صدَّق إلْيُو على كلامها:

- حقًّا.

ثم التفت إليَّ قائلًا:

- ونظرًا لأن النسخة الوحيدة المُحقَّقة بالاستناد إلى النص الأصلي هي نسخة مونتالو، والترجمة الوحيدة حتى هذه اللحظة هي ترجمتك، يبدو أن كشف المفتاح النهائي لـكهف الأفكار رهن بك وحدك.

فقالت هيلانة مازحة:

- أيّ مسؤولية!

لم أدرِ ماذا أقول. وما زلتُ أقلِّب المسألة في رأسي. (المترجم).

[←30]

يُعقِّب مونتالو على النص بقوله: «سرعة، تهاون. نُسِخَت الكلمات بخطِّ يدٍ يفتقر إلى الانتظام، عصيّ على الفهم أحيانًا، وكأنما الناسخ لم يحظَ بالوقت الكافي حتى يفرغ من هذا الفصل». أما من جانبي، فكُلِّي عيون يقِظة حتى «أقتنص» الخنزير البرّي القابع وسط العبارات. وبذا أستهلُّ ترجمة الفصل الثالث. (المترجم)

[←31]

يؤكِّد مونتالو قائلًا: «في ما يلي خمسة أسطر يتعذَّر كشف طلاسمها». يبدو خط اليد كارثيًّا في هذا الموضع. بالكاد يمكن التكهُّن بأربع كلمات في الفقرة من أوّلها إلى آخرها (وفقًا لمونتالو كالعادة دومًا)، ألا وهي: «ألغاز»، و«عاش»، و«زوجة»، و«بدين». ثم يستطرد مُحقِّق النصِّ الأصلي، على نحو لا يخلو من بعض السخرية: «على القارئ أن يحاول إعادة بناء السيرة الذاتية لهراقليس انطلاقًا من تلك الكلمات الأربع، الأمر الذي يبدو بالغ الصعوبة واليسر في آن». (المترجم)

[←32]

وبالمثل تتعذَّر قراءة الأسطر الثلاثة التي خصَّ بها المُؤلِّفُ المجهول شخصيةَ دياغوراس. بمشقَّة، استطاع مونتالو أن يستخلص منها الكلمات الثلاث التالية وحسب: «عاش؟» (متبوعة بعلامة استفهام)، و«روح» و«شغف». (المترجم)

[←33]

أستينوموس: أي مفتشي الأحياء.

[←34]

طبقًا لما جاء في الأساطير فلقد صنع بجماليون تمثالًا يصوِّر امرأة جميلة، ثم دعا إلهة الحب فينوس أن تحيي التمثال، فكانت غالاتيا.

[←35]

تتخلَّل النص بعض الفجوات (الأمر الذي يعزوه مونتالو إلى كلمات «عصية على الفهم» كونها قد نُسخَت «على عجل»)، مما تترتَّب عليه صعوبة في فهم هذه الفقرة الغامضة. يبدو أن «السرعة» هي الآيديسيس الضمنية في هذا الموضع، إذ ترِد على نحو مُتكرّر منذ بداية الفصل الحالي، كما تُضاف إليها صور أيائل، وليس خنزيرًا بريًّا. فنرى: «عيني أيلة»، و«قرون الأغصان»...

مما ينطوي على إشارة إلى رابعة مآثر هرقل، وليست ثالثتها، أي مطاردة أيلة كيرونيا فائقة السرعة. ولا أعتبر هذا التغيير الغريب الذي أدخله الكاتب على ترتيب مآثر هرقل مدعاةً للمفاجأة، نظرًا لشيوع ذلك بين كُتَّاب العصور القديمة. ومع ذلك، فمن اللافت للانتباه وجود آيديسيس جديدة يتجلَّى حضورها في النص: فتاة ممسكة بزهرة زنبق. ما شأن ذلك بمطاردة الأيلة؟ هل ترمز إلى نقاء الربّة أرتميس التي كانت تقدِّس ذلك الحيوان الأسطوري؟ وعلى عكس ما يؤكِّده مونتالو، في اعتقادي أنه لا يمكن اعتبارها مُجرَّد «ضرورة شعرية مُجرَّدة من أي مغزى واقعي». (المترجم)

[←36]

بالطبع كان ذلك شيئًا! تعجز الشخصيتان عن رؤيته، قطعًا، ولكن ها قد عادت «فتاة زهرة الزنبق» مُجدَّدًا. ماذا يعني ذلك؟ أقرُّ بأن ذلك الظهور المُباغِت قد وتَّر أعصابي قليلًا. حتى إني صفعت النصَّ بكلتا يدي، كما صفع بريكليس تمثال الربة أثينة المصنوع من الذهب والعاج لصانعه النحَّات فيدياس، طالبًا منها أن تتحدَّث إليه (بحسب ما يُقال): ماذا يعني ذلك؟ ماذا تقصد؟

وبطبيعة الحال، ظلَّتِ البرديَّة مُستغلِقة. ولكني أشعر بقدر أكبر من الهدوء الآن. (المترجم)

[←37]

ديونيسوس: إله النبيذ والبهجة. ويعرف بأسماء أخرى من بينها باخوس، الذي يرد ذكره في مواضع أخرى.

[←38]

أفروديت: ربة الحب والمتعة والجمال.

[←39]

لينايا: مهرجان سنوي كان يُقام في أثينا على شرف الإله ديونيسوس.

[←40]

ما زالت آيديسيس «فتاة زهرة الزنبق» حاضرة بقوة. والآن يبدو أن فكرة «المُساعَدة» قد زيدَتْ عليها، إذ تكرَّرَتْ أربع مرات في الفقرة الحالية! (المترجم)

[←41]

تؤكِّد رؤيا دياغوراس الجديدة الصورَ الآيديسيَّة الآنفة الذكر: «السرعة»، و«الأيلة»، و«فتاة زهرة الزنبق»، و«طلب المُساعَدة». والآن يُزاد عليها «التحذير من الخطر». ماذا قد يعني كل ذلك؟ (المترجم)

[←42]

لينسيوس: في الميثولوجيا الإغريقية، كان لينسيوس ذا بصر ثاقب بلغ من الحدة درجة جعلته قادرًا على الرؤية من خلال الأشياء.

[←43]

حكومة ديكتاتورية مُؤلَّفة من ثلاثين مواطنًا، بلغت سدة الحكم في أثينا تحت إشراف الإسيرطيين في أعقاب حرب بيلويونيسوس. وقد لقي الكثير من الأثينيين مصرعهم بأمر من تلك الحكومة عديمة الرحمة، إلى أن سمحَتْ موجة تمرُّد جديدة بالعودة إلى الديمقراطية. (المترجم)

[←44]

مساء اليوم تمكَّنتُ من الحديث مع هيلانة خلال فاصل بين دروسها (فهي تُدرِّس اللسان الإغريقي لمجموعة مُؤلَّفة من ثلاثين طالبًا). كنتُ من الانفعال حتى إنني أطلعتها على ما خلصتُ إليه من استنتاجات مباشرةً، بلا مُقدِّمات:

- في الفصل الثالث صورة جديدة فضلًا عن الأيلة: ألا وهي صورة فتاة ممسكة بزهرة زنبق. فتحَتْ عينيها الواسعتيْن السماويتيْن.

- ماذا؟

ثم أطلعتُها على ترجمتي وأردفتُ قائلًا:

- ويتَّضح ظهورها على وجه الأخص في ثلاث رؤى تجلَّتْ لأحد شخوص العمل، فيلسوف أفلاطوني يُدعى دياغوراس. بَيْد أن ذكرها يرِدُ على لسان الشخصية الرئيسية الأخرى أيضًا، أعني هراقليس. إننا إزاء صورة آيديسيَّة حاضرة بقوة، هيلانة. فتاة ممسكة بزهرة زنبق، تطلب المُساعدة وتحذِّر من وجود خطر. مونتالو يعتقد أنه مجاز شعري، ولكن الآيديسيس جليَّة. بل ويبلغ الأمر بالمُؤلِّف إلى حدِّ وصفها: شَعْر من ذهب، وعينان في زُرقة البحر، وجسم ممشوق، وثياب بيضاء...

صورتها مُقسَّمة إلى شذرات مُتفرِّقة عَبْر الفصل الثالث من أوله إلى آخره...

أترين؟ هنا يدور الحديث عن شعرها...

وهنا ترِدُ إشارة إلى «فتاة ممشوقة القوام في ثياب بيضاء»...

- انتظرْ لحظة...

قاطعَتْني هيلانة، ثم تابعَتْ:

- ...القوام الممشوق في الثياب البيضاء، المُشار إليه بهذه الفقرة، تُقصد به الحكمة. إنه مجاز شعري طبقًا للأسلوب الـ...

- كلا!

أعترف بأن صوتي قد ارتفع إلى درجة أعلى مما كنت أودُّ بعدة طبقات. تطلَّعَتْ إليَّ هيلانة في دهشة (كم أشعر بالأسف الآن وأنا أذكر ما جرى).

- ليس مُجرَّد مجاز، بل إنها صورة آيديسيَّة!

- وكيف لك أن تكون على هذا القدر من اليقين؟

أدرتُ الأمر في ذهني لحظةً. كانت نظريتي تبدو لي من الصحة حد أني نسيتُ جمع الحجج التي تدعمها! قلتُ:

- تتكرَّر كلمة «زنبق» على نحو مسرف، أما وجه الفتاة...

- أي وجه؟ قلتَ لتوِّك إن المُؤلِّف لا يذكر سوى عينيْها وشَعْرها. هل تخيَّلتَ البقية؟

فتحتُ فمي كي أجيبها، وفجأةً لم أعرف ماذا أقول. فتابعَتْ هيلانة:

- ألا تظنُّ أنك قد ذهبت إلى أبعد مما ينبغي في مسألة الآيديسيس؟ حذَّرنا إلْيُو من ذلك، أتذكر؟ قال لنا إن الكتب الآيديسيَّة خدَّاعة، وكان مُحِقًّا. لقد بدأتَ فجأةً في الاعتقاد بأن الصور كافة ذات مغزى لمُجرَّد أنها تتكرَّر غير مرة، ولكن ذلك ضرب من العبث. فهوميروس يسهب في وصف ثياب الكثير من الأبطال في إلياذته، الأمر الذي لا يعني أن ذلك العمل، بعبارة آيديسيَّة، ينطوي على رسالة في الثياب...

فأشرتُ إلى ترجمتي:

- هيلانة، ثمة صورة لفتاة تطلب المساعدة هنا، وتتحدَّث عن خطر...

اِقرَئِي بنفسك.

وقد كان. رحتُ أعضُّ أظفاري مترقِّبًا. وحين فرغَتْ من القراءة، عادت تحدجني بنظرتها المُشفقة القاسية.

- حسنًا، لستُ أفقه في الأدب الآيديسي بالقدر نفسه، كما تعلم، إلا أن الصورة المحجوبة الوحيدة التي أفلحتُ في رؤيتها بهذا الفصل هي «السرعة»، والتي يلمِّح بها المُؤلِّف إلى رابعة مآثر هرقل، أي مُطاردة أيلة كيرونيا، الحيوان بالغ الرشاقة. أما «الفتاة» و«الزنبق»، فمن الواضح أن كليهما مجاز شعري و...

- هيلانة...

- دعني أتحدَّث. كلاهما مجاز شعري يقتصر على «رؤى» دياغوراس...

- يرِد ذكرها على لسان هراقليس هو الآخر.

- ولكنه يذكرها في إشارة إلى دياغوراس! انظر...

هراقليس يقول له...

في هذا الموضع...

يقول له إنه حين يفكر فيه، يتخيَّله وكأنه «فتاة شابة لها شَعْر من ذهب وروح كالزنابق البيض، بديعة الجمال على الرغم من سذاجتها البالغة...» إنه يقصد دياغوراس! المُؤلِّف يلجأ إلى تلك الصور المجازية ليصف روح الفيلسوف البسيط الرقيق.

لم أقتنع، فاعترضتُ قائلًا:

- ولمَ «زهرة زنبق» من دون سواها؟

فابتسمَتْ هيلانة:

- إنك تخلط ما بين الآيديسيس والإطناب. أحيانًا ما يعمدُ الكُتَّاب إلى تكرار الكلمات في الفقرة نفسها. في هذه الحالة كانت «زهرة الزنبق» حاضرة في ذهن مُؤلِّفنا، ولذا راح يكتب الكلمة نفسها كلما فكَّر في زهرة ما...

ما هذا التعبير المرتسم على وجهك؟

- هيلانة، أنا متأكِّد من كون فتاة زهرة الزنبق صورة آيديسيَّة، ولكني لا أستطيع أن أثبت لكِ صحة ما أقول...

إنه لأمر بغيض...

- ما هو الأمر البغيض؟

- أن يكون رأيكِ مناقضًا لرأيي بعد أن قرأتِ النص ذاته. إنه لأمر بغيض أن تكون الصور والأفكار التي تؤلِّفها الكلماتُ في الكتب على هذا القدر من الهشاشة...

لقد رأيتُ أيلة وأنا أقرأ، كما رأيتُ فتاة ممسكة بزهرة زنبق، تصرخ طالبة المساعدة...

أما أنتِ فترين الأيلة ولكنكِ لا ترين الفتاة. لو قرأ إلْيُو النص، فلربما لفتَتْ نظره زهرة الزنبق وحسب...

أي شيء قد يرى قارئ آخر؟ وماذا عن مونتالو؟ ماذا رأى مونتالو؟ لم يرَ شيئًا سوى أن هذا الفصل قد نُسخ بتهاون. ولكن...

ثم صفعتُ الأوراق في لحظة فقدتُ خلالها التحكُّم في ذاتي على نحو لا يُصدَّق. وتابعتُ:

- ...ولكن، لا بد من وجود فكرة نهائية ليست رهنًا بآرائنا، ألا تعتقدين؟ في النهاية...

لا بد أن تؤلِّف الكلمات فكرة واقعية، مُحدَّدة...

- تُجادِلُ كما لو كنتَ عاشقًا.

- ماذا؟

- هل عشقتَ فتاة زهرة الزنبق؟

انطلقَتْ من عيني هيلانة شرارة السخرية.

- تذكَّرْ أنها ليست حتى واحدة من شخوص العمل، بل إنها فكرة أعدتَ خلقها بترجمتك...

ثم انصرفَتْ إلى الدرس قانعةً بكونها قد تمكَّنت من إسكاتي. غير أنها التفتَتْ إليَّ مرة أخرى لتردف: - نصيحة مني، لا تجعل الهوس يستحوذ عليك.

الآن وقد أرخى الليل سدوله، وأنا في مكتبي الذي تغلِّفه الراحة والهدوء، أرى أن هيلانة مُحِقَّة، فأنا مُجرَّد مترجم. وبكل تأكيد، كان مترجم غيري سينجز ترجمة مختلفة، بألفاظ مغايرة، وعليه كان ذلك المترجم سيستحضر صورًا أخرى. ولمَ لا؟ ربما كانت لهفتي على اقتفاء أثر «فتاة زهرة الزنبق» قد حملَتْني على خلقها بكلماتي، فالمترجم مُؤلِّف هو الآخر، على نحو ما...

أو بالأحرى صورة آيديسيَّة للمُؤلِّف (يبدو لي من الطريف أن أفكِّر على هذا النحو): فالمترجم حاضر على الدوام، خفيٌّ على الدوام.

أجل، ربما. ولكن، ما الذي يجعلني متأكِّدًا إلى هذا الحد من كون فتاة زهرة الزنبق هي الرسالة الحقيقية المحجوبة في هذا الفصل، وأن صراخها طلبًا للمساعدة وتحذيرها من الخطر على قدر عظيم من الأهمية؟

لن أعرف الحقيقة إلا بمتابعة الترجمة.

اليوم أمتثل لنصيحة هراقليس اليونتوري، كاشف الألغاز: «استرخِ...عسى ألا يسرق القلقُ من عينيْك النومَ الهانئ». (المترجم).

[←45]

من الرائع أن يرتاح المرء ليلةً. صحوتُ، وإذا بي أتفهَّم هيلانة على نحو أفضل. الآن، وبعد قراءة الفصل الثالث مُجدَّدًا، لا يبدو لي كون «فتاة زهرة الزنبق» صورة آيديسيَّة جليًّا إلى هذا الحد. ربما خانتني مخيلة القارئ. بذا أستهلُّ ترجمة الفصل الرابع. يؤكِّد مونتالو أن برديَّة هذا الفصل: «مهترئة، ومجعَّدة للغاية في بعض المواضع. (تُرى، أيكون قد دهسها حيوان ما؟) إن وصول النص إلينا كاملًا إعجاز في حد ذاته». ونظرًا لجهلي بمأثرة هرقل المحجوبة في هذا الفصل-ذلك أن المُؤلِّف قد بدَّل الترتيب الشائع- يتعيَّن عليَّ أن أكون حذرًا للغاية في نسختي من الترجمة. (المترجم)

[←46]

أركون (ج.) أراكنة: حاكم المدينة.

[←47]

الأكرويوليس، حيث تقع أكبر معابد ربة المدينة العظمى أثينة، المُخصَّصة لاحتفالات الياناتينياس، وإن كنتُ أظنُّ القارئ الحليم مُطَّلعًا على تلك المعلومة بالفعل. تبدو أفكار «الهياج» و«الخرق» لافتة للانتباه. ربما كانت تُمثِّل أولى الصور الآيديسيَّة في الفصل الحالي. (المترجم)

[←48]

مينوتور: كائن خرافي نصفه رجل ونصفه الآخر ثور. أما ثيسيوس فهو ابن ملك أثينا الذي غلب المينوتور.

[←49]

هويليت: جنود المشاة المُدجَّجون بالأسلحة الثقيلة.

[←50]

يانكراتيون: مزيج من المصارعة والملاكمة.

[←51]

إيرينيس: الانتقام مُجسَّدًا في نساء يلاحقن مقترفي جرائم بعينها.

[←52]

ستيكس: في الميثولوجيا الإغريقية، هو النهر الفاصل بين الأرض والعالم السفلي.

[←53]

أسرار إليوسيس: طقوس الدخول إلى طائفة ديميتر (إلهة الطبيعة والنبات والفلاحة). وعُرِفَت بهذا الاسم نسبة إلى مدينة إليوسيس حيث كانت تُقام.

[←54]

ماذا يجري؟ المُؤلِّف يتمادى إلى أقصى حدّ في الصورة الآيديسيَّة! إن الضجيج العبثي الآتي من معركة المتصارعيْن ينطوي على إشارة إلى هجوم حيوان هائج، هائل الحجم (الأمر الذي يتوافق وجميع الصور المُتعلِّقة بالنطحات «الهائجة» أو «المندفعة» الواردة في الفصل الحالي، فضلًا عن الإشارات المُتعلِّقة بـ«القرون»). في رأيي أننا إزاء سابعة مآثر هرقل: أسْر الثور الكريتي الوحشي الهائج. (المترجم)

[←55]

أعجِّلُ بشرح ما يجري للقارئ. لقد دبَّتْ الحياة في الآيديسيس، فصارت لها حياة تخصُّها، وإذا بها قد تحوَّلت إلى الصورة التي تمثِّلها-في هذه الحالة، تحوَّلت إلى ثور هائج- والآن تنطح باب حجرة تبديل الثياب التي يدور فيها الحوار. ولكن يجدر الانتباه إلى أن نشاط ذلك «الحيوان» يقتصر على الآيديسيس فحسب، ولذا تعجز الشخصيات عن إدراكها، كما تعجز عن إدراك الصفات التي يلجأ إليها المُؤلِّف لوصف الچيمنازيوم، على سبيل المثال. لسنا إزاء حدث خارق بأية حال، بل إنها مُجرَّد تقنية أدبية مُستخدَمة لغرض واحد، ألا وهو لفت انتباه القارئ إلى الصورة المحجوبة في الفصل الحالي (فلنذكر «الحيَّات» المذكورة في ختام الفصل الثاني). وبناء على ما تقدَّم، أرجو من القارئ ألا يُفاجأ أكثر مما ينبغي في حال استمرَّ الحوار بين دياغوراس وتلميذيْه وكأن شيئًا لم يكُن، في غير اكتراث بالهجمات الشديدة التي تتعرَّض لها الحجرة. (المترجم)

[←56]

كما ذكرنا آنفًا، فالأحداث الآيديسيَّة -الباب المُهشَّم، والنطحات الوحشية- تقتصر على الجانب الأدبي فحسب، ولذا لا يدركها سوى القارئ. أما المُحقِّق مونتالو فيتفاعل مع النص كما يفعل شخوص العمل، ذلك أنه لا يدرك شيئًا. هذا ويؤكِّد مونتالو بقوله: «إن المجاز المفاجئ المُتمثِّل في الحيوان ذي الخوار، الذي يبدو أنه قد هدم واقعية المشهد حرفيًّا واقتحم الحوار الرصين بين دياغوراس وتلميذيْه غير مرة (...)، ليس من ورائه غرض سوى الساتيرية، أي النقد اللاذع. ولا شك أن ذلك النقد اللاذع مُوجَّه للمعارك الوحشية التي كان يخوضها مصارعو اليانكراتيون في تلك الأزمنة». أما من جانبي فلا تعليق! (المترجم)

[←57]

إن لشدَّة الآيديسيس تأثيرًا كليًّا على المكان حيث تدور المشاهد. فقد تهدَّمت حلبة المصارعة و«غرقَتْ تحت الأنقاض» تحت وطأة خطوات ذلك «الحيوان» الأدبي، كما يبدو أن المشاهدين المحتشدين في المكان قد تلاشوا. لم أرَ كارثة آيديسيَّة من هذا القبيل مدى حياتي التي عشتُها مترجمًا. من الجليّ أن مُؤلِّف كهف الأفكار المجهول حريص على أن يجعل الصور المحجوبة تطفو في وعي قُرَّائه، وليس يأبه لحظة واحدة بأن تتضرَّر واقعية الحبكة من جرَّاء ذلك. (المترجم)

[←58]

يروق للمُؤلِّف أن يلعب مع قُرَّائه. وإليكم الدليل على صحَّة كلامي، يُمكن تمييزه حتى وإن كان متواريًا: إن «فتاة زهرة الزنبق» تمثِّل صورة آيديسيَّة أخرى بالغة الأهمية في هذا العمل! لستُ أدري ماذا تعني، إلا أنها هنا (ولها حضور لا لبس فيه. لاحظْ قُرب كلمة «زنابق» من الوصف المسهب لحركة تلك «الفتاة» المنقوشة على إحدى شظايا جرَّة مطمورة). لقد طفرَتْ أدمعي من فرط التأثُّر بهذا الكشف، عليَّ أن أقرَّ بذلك. ثم أمسكتُ عن الترجمة وتوجَّهتُ إلى بيت إلْيُو، حيث تطرَّقتُ إلى إمكانية مطالعة مخطوط كهف الأفكار الأصلي، فنصحني بأن أتحدَّث إلى هِكتور، مدير النشر. لعلَّه لمح شيئًا في عينيّ، فقد سألني عمَّا بي. قلتُ له:

- ثمة فتاة تطلب المساعدة في النص.

فجاء ردُّه ساخرًا:

- وأنت الذي ستخلِّصها؟ (المترجم)

[←59]

سُررتُ بترجمة هذا المقطع، إذ يبدو لي أنني أشاطر كلا الشخصيتيْن بعض السمات. وأتساءل، هل يتسنَّى لشخص مثلي أن يكشف الحقيقة؟ شخص مثلي يهمُّه الجمال، ويفتنه الشغف، من آن إلى آخر، وفي الوقت نفسه يسعى لأن يفطن لكل ما يدور من حوله؟ (المترجم)

[←60]

لا أستطيع العثور على أدنى أثر لتلك الديانة المزعومة مهما فتَّشتُ كتبي. لا شك في أنها من نسج خيال المُؤلِّف. (المترجم)

[←61]

الترجمة حرفية، ولكني لم أفهم جيِّدًا إلى من يشير المُؤلِّف بذلك الالفتات غير المُتوقَّع إلى ضمير المخاطب. (المترجم)

[←62]

في واقع الأمر، لستُ أدري سببًا لانفعالي إلى هذا الحد. فالقارئ يجد أمثلة عديدة على التفاتات غير متوقَّعة إلى ضمير المخاطب في أعمال هوميروس، على سبيل المثال. لا بد أن ما ورد هنا شيء من هذا القبيل. ومع ذلك، فالأكيد أنني شعرتُ بشيء من التوتُّر وأنا أترجم نداءات كرانتور. بل وذهبتُ إلى التفكير بأن «المترجم» قد تكون كلمة آيديسيَّة جديدة. في تلك الحالة، ستكون الصورة النهاية لهذا الفصل أكثر تعقيدًا مما ظننت: النطحات الهائجة التي يسدِّدها «حيوان خفي»-وتشير إلى الثور الكريتي- ثم «فتاة زهرة الزنبق»، ثم «المترجم». هيلانة مُحقَّة، فقد استحوذ عليَّ الهوس بهذا العمل. غدًا أتحدَّث إلى هِكتور. (المترجم)

[←63]

قلقي في ازدياد مُستمرّ. لستُ أدري لذلك سببًا، فأنا لم أحسّ بهذا الشعور قط حيال عملي. ربما كان الأمر برمته من وحي خيالي. سوف أسرد المحادثة المقتضبة التي دارت بيني وبين هِكتور صبيحة اليوم، وليحكم القارئ بنفسه.

ما إن ذكرتُ العمل حتى أومأ قائلًا:

- كهف الأفكار. أجل، إنه نصٌّ إغريقي كلاسيكي لمُؤلِّف مجهول، يعود إلى أثينا إبان حقبة ما بعد حرب بيلوبونيسوس. أنا الذي قلتُ لإلْيُو أن يدرجها ضمن مُختاراتنا من الأعمال المترجمة...

فقلتُ:

- أعرف. وأنا مترجمها.

- وكيف لي أن أساعدك؟

أطلعتُه على ما كان، فقطَّب جبينه وطرح عليَّ السؤال نفسه الذي طرحه إلْيُو: فيمَ يهمُّني الاطلاع على المخطوط الأصلي. أوضحتُ له أنه عمل آيديسي، وأن مونتالو لم يدرك الأمر، على ما يبدو.

فعاود تقطيب جبينه ثم قال:

- لو أن مونتالو لم يدرك الأمر، فذلك لأنه ليس عملًا آيديسيًّا. أستميحك عذرًا. لم أقصد أن أكون فظًّا، ولكن مونتالو كان خبيرًا بحق في تلك المسألة...

استجمعتُ صبري كيما أقول له:

- هِكتور، الآيديسيس حاضرة بقوة، وتؤثِّر في واقعية المشاهد، بل وفي المحاورات وآراء شخوص العمل... لا بد أن الأمر برمته يعني شيئًا، أليس كذلك؟ أريد كشف المفتاح الذي أخفاه المؤلِّف في نصِّه، وأحتاج إلى المخطوط الأصلي للتأكُّد من صحة الترجمة...

إلْيُو يوافقني الرأي، وقد نصحني بالحديث إليك.

وأخيرًا استجاب لتوسلاتي (هِكتور صعب المراس للغاية)، غير أنه لم يمنحني من الأمل سوى القليل. فالنص الأصلي كان في حوزة مونتالو، ثم انتقلَتْ ملكية مخطوطاته كافة إلى مكتبات أخرى إثر وفاته. كلا، لم يكُن له أقرباء ولا أصدقاء مُقرَّبون، فقد عاش حياة ناسكٍ في بيت منعزل في الأرياف. ثم أردف هِكتور:

- كانت رغبته في النأي عن الحضارة ما أودى بحياته...

ألا ترى ذلك؟

- ماذا؟

- أوه، خلتُك تعرف. ألم يخبرك إلْيُو بشيء؟

عندئذ تذكَّرتُ كلمات إلْيُو:

- لم يخبرني سوى بأنه قضى نحبه، وبأن «الخبر قد ذاع في الأنحاء كافة». ولكني لا أفهم لذلك سببًا.

فأجابني هِكتور:

- لأنه لقي ميتة مُروِّعة.

ازدردتُ ريقي، فاستطرد هِكتور:

- عُثِر على جثته في الغابة القريبة من البيت حيث كان يسكن. كانت مُشوَّهة. وفقًا لما أدلت به السلطات، فأغلب الظن أنه قد تعرَّض لهجوم قطيع من الذئاب... (المترجم)

[←64]

بالأمس، قبل الشروع في ترجمة هذا المقطع، ساورني حلمٌ، وإن لم أرَ فيه أية قلوب منزوعة، بل حلمتُ بالشخصية الرئيسية، هراقليس اليونتوري. حلمتُ بأنني أراقبه وهو مُستلقٍ على فراشه، يحلم. وبغتةً أفاق صارخًا، وكأنما انتابه كابوس. عند ذاك أفقتُ أنا الآخر صارخًا. والآن، ما إن شرعتُ في ترجمة الفصل الخامس، حتى أرسلَتْ تلك المصادفة قشعريرة في بدني. يصف مونتالو البردية بقوله: «إنها ناعمة الملمس، بالغة الرقة، وكأنما تنقصها بضع طبقات من سيقان البردي لم تُضَف إليها في الطور النهائي من التصنيع، أو كأن الخامة التي صُنِعَتْ منها البردية قد صارت بمضي الزمن مرهفة، مسامية، رقيقة، كجناحَي فراشة أو طائر صغير». (المترجم)

[←65]

أما أنا فلا أشعر بوخز الضمير مطلقًا، فقد أطلعتُ هيلانة على المصادفة الأدعَى للقلق عندي.

إلا أنها قالت معترضة:

- ولكن، كيف يكون لك خيال جامح إلى هذا الحد؟ وأي علاقة قد تجمع بين موت المُحقِّق مونتالو وموت شخصية في نَصٍّ عمره آلاف الأعوام. أوه، أرجوك! هل جننت؟ إن موت مونتالو أمر واقع، حادث. أما موت الشخصية المذكورة في الكتاب الذي تترجمه فمحض خيال. ربما كانت تقنية آيديسية أخرى، أو رمزًا سرّيًّا، وما أدراني!

هيلانة مُحقَّة، كعهدي بها دومًا. من شأن رؤيتها العملية الطاغية أن تبدِّد أذكى تحريات هراقليس اليونتوري كالدخان-مهما بلغَتْ شخصية هراقليس من الخيالية، فمكانته تترسَّخ يومًا بعد يوم بوصفه بطلي الأثير والصوت الوحيد الذي يضفي معنًى على كل هذه الفوضى- وعلى الرغم من ذلك، فما عساي أن أقول لك، أيها القارئ المندهش! لقد بدا لي فجأةً أن اكتشاف المزيد من الأمور بشأن مونتالو وحياته المنعزلة أمر بالغ الأهمية. فكتبتُ رسالة إلى أريستيديس، واحد من أوسع الأكاديميين معرفةً بمونتالو. لم يتأخَّر في الرد، وسوف يستقبلني في بيته. أحيانًا أتساءل، تراني أسعى لتقليد هراقليس اليونتوري بتحرياتي الخاصة؟ (المترجم)

[←66]

إن اجتياح الفراشات البيضاء (العبثي، نظرًا لعدم وجود أدلة تاريخية تثبت أنها كانت تُقدَّم قربانًا للربة أثينة المُظفَّرة) يُعدُّ بالأحرى اجتياحًا آيديسيًّا، ذلك أن فكرتي «التحليق» و«الأجنحة»-الحاضرتيْن ابتداءً من مطلع الفصل- من شأنهما تغيير واقعيّة القصّة. ويبدو لي أن الصّورة النهائية في الفصل الحالي تتمثَّل في مأثرة طرد طيور ستومفالوس، حيث يتلقَّى هرقل أمرًا بطرد أعداد لا تُحصَى من الطيور التي اجتاحت بحيرة ستومفالوس، المهمة التي نجح فيها عَبْر إحداث صخب عارم مستخدمًا في ذلك صنوجًا برونزية. على كل حال، هل لاحظ القارئ حضور «فتاة زهرة الزنبق» (ذلك الحضور المتواري بإتقان)؟ أرجوك، أيها القارئ، قُلْ لي إنك قد لاحظتَه! أمْ تراك تفكِّر أن الأمر من نسج خيالي؟ ها هي «الأزهار الدقيقة البيضاء» و«الفتيات» (تماثيل عذراوات معبد أرخثيون)، زِدْ على ذلك الكلمتيْن الجوهريتيْن: «مساعدة» («في غير حاجة إلى مساعدة») و«خطر» («فمن دون أن تُمثِّل بذلك خطرًا، راحت تطارد الأجسام»). إذ تقترن الكلمتان اقترانًا وثيقًا بتلك الصورة! (المترجم)

[←67]

الطيور في الفصل الحالي آيديسيَّة هي الأخرى، شأنها في ذلك شأن الفراشات، ولذا نراها الآن وقد استحالت أشعة شمس. فلينتبه القارئ إلى أن الواقعة ليست إعجازية ولا سحرية، بل إنها أدبية مثل تغيير العروض في قصيدة. (المترجم)

[←68]

في هذا الموضع، تجري عملية تحوُّل الطير إلى ضياء معكوسة. قد تتسبَّب تلك العبارات في قدر من الارتباك للقارئ الذي يطالع نصًّا آيديسيًّا لأول مرة. وعلى الرغم من ذلك، أكرِّر، فلسنا إزاء معجزة بأية حال، بل مُجرَّد مسألة لغوية. (المترجم)

[←69]

لوقيون: اسم مدرسة الفلسفة التي أسَّسها أرسطو.

[←70]

ليس وجود هذا الطائر اعتباطيًّا بأية حال (ولعلَّ القارئ يفترض ذلك بالفعل). على العكس من ذلك، فالطائر يعزِّز صورة طيور ستومفالوس المحجوبة، شأنه شأن الفراشات والطيور الآيديسيَّة في البستان. الأمر الذي يُعزَى إليه تكرار كلمات «مُدبَّب» و«معقوف» و«حاد» على نحو واضح، وكلها كلمات تصف بإيجاز ومهارة مناقير تلك الكائنات. (المترجم)

[←71]

لعبة جديدة يلعبها المُؤلِّف الحاذق مع قُرَّائه! كلاهما يجهل الحقيقة-وأعني بذلك أنهما مُجرَّد شخصيتيْن في نص يحجب مفتاحًا سرّيًّا- ويهزآن بوجود الطائر الآيديسي. (المترجم)

[←72]

شعرتُ للتوِ بدوار طفيف يأخذني، فاضطررتُ للتوقُّف عن العمل. لم يكُن ذلك شيئًا ذا بال، مُجرَّد مصادفة حمقاء، ذلك أن والدي المتوفَّى كان كاتبًا. لا أملك وصف الإحساس الذي راودني وأنا أترجم كلمات كرانتور التي كتبها مُؤلِّف مجهول على بردية عتيقة منذ آلاف الأعوام. للحظة باعثة على الجنون، دار في خلدي: «إنه يتحدَّث عني!». بلغتُ عبارة «كانت عيناه تنظران إليك أنت»-التفات جديد إلى ضمير المخاطب كما في الفصل السابق- فابتعدتُ عن الورقة وكأنها سوف تحرقني، واضطررتُ للتوقُّف عن الترجمة. بعد ذلك عاودتُ قراءة ما كتبت. قرأته عدة مرات، حتى لاحظت أن مخاوفي العبثية قد بدأت تتلاشى أخيرًا. والآن أستطيع مواصلة الترجمة. (المترجم)

[←73]

كما جرى لمونتالو؟؟ (المترجم)

[←74]

هراقليس لا يدرك أن كرانتور قد فقأ عينَي الطائر. ما يُستدَلُّ به على أن ذلك التعذيب الغاشم لم يجرِ سوى على المستوى الآيديسي، شأن هجمات «الثور» في الفصل السابق أو الأفاعي المُلتفَّة حول ذاتها في خاتمة الفصل الثاني. وعلى الرغم مما تقدَّم، فتلك هي المرة الأولى التي يُقْدِم فيها أحد شخوص العمل على فعل بتلك المواصفات، أي فعل أدبي محض. الأمر الذي لم يكفّ عن الاستئثار باهتمامي. ذلك أنه بموجب القاعدة المعمول بها، وحده المُؤلِّف يأتي بالأفعال الأدبية. أما شخوص العمل فيجب عليهم السعي دومًا لمحاكاة الواقع بقدر المستطاع. وعلى الرغم من ذلك، يبدو أن المؤلِّف المجهول مُبتكِر كرانتور لا يكترث بأن تفتقر تلك الشخصية إلى المصداقية. (المترجم)

[←75]

رغم أن وجود الطائر آيديسي أيضًا (دعونا لا ننسَ ذلك)، ولكن فيمَ تلك الوحشية الآيديسيَّة التي تعرَّض لها؟ ما الذي يحاول المُؤلِّف إيصاله؟ يقول كرانتور إنه «تحذير». ولكن، لمن التحذير؟ وممن؟ لو أن الحُجَّة لكرانتور، فلا بأس. ولكن، لو أن كرانتور مُجرَّد ناطق باسم المُؤلِّف، فالتحذير يصطبغ بصبغة لعنة رهيبة: «توخَّ الحذر، أيها المترجم أو القارئ، لا تكشف السرَّ الكامن في هذه الصفحات... لأن مكروهًا قد يلحق بك». ربما تمكَّن مونتالو من كشفه ثم...؟

أي عبث! هذا عمل عمره آلاف الأعوام. أي صنف من صنوف الوعيد قد يدوم كل هذا الزمن؟ رأسي مزدحم بطيور (آيديسيَّة). لا بد أن الإجابة أبسط من ذلك. فكرانتور مُجرَّد شخصية، كل ما هنالك أن المُؤلِّف لم يحسن كتابتها. كرانتور مُجرَّد خطأ وقع فيه المُؤلِّف. وربما كان لا يمتُّ للموضوع الرئيسي بأدنى صلة. (المترجم)

[←76]

سايكلوب: مسخ من العمالقة له عين واحدة.

[←77]

حقًّا، أي شقاء! ترانا إزاء رسالة مُوجَّهة من المُؤلِّف إلى قُرَّائه المحتملين؟ تُرى، أيجوز التفكير بأن طبيعة السر الذي ينطوي عليه كهف الأفكار قد حدَثْ بكاتبه المجهول أن يثبِّط عزيمة كل من يحاول كشف طلاسمه، درءًا لما قد يترتَّب على ذلك؟ (المترجم)

[←78]

قد يبدو ذلك طريفًا-ولا شك أنه كذلك- ولكني من موضعي هذا، وأنا في بيتي، مُكبًّا على أوراقي، ما كدتُ أبلغ تلك الكلمات حتى أمسكت عن الترجمة ونظرت إلى الخلف في توجُّس. بالطبع لم أجد سوى العتمة (من عادتي العمل على ضوء مصباح المكتب وحسب). عليَّ أن أعزو مسلكي إلى سحر الأدب الغامض الذي يبلغ مبلغًا ترتبك معه الأذهان في مثل هذه الساعة من ساعات الليل، على حد قول هوميروس. (المترجم)

[←79]

غروتسكي: صفة مقترنة بالفن الخيالى الغريب المتنافر الذي قد يصل إلى حد البشاعة.

[←80]

يقول مونتالو مُعقِّبًا على هذا المقطع المنقوص: «لقد سقط الشطر الأكبر من هذا المقطع (الذي لا شك أنه يصف حفل مينيكمو والفتيان كما راقبه إوْماركو). الكلمات مكتوبة بمداد أكثر قابلية للذوبان، وعليه فقد تبخَّر الكثير منها بمضي الزمن. تبدو المساحات الخاوية كأغصان عارية كانت مَحَطًّا لطيور الألفاظ في ما مضى». ثم يتساءل: «كيف سيعيد كل قارئ بناء نسخته من الحفل الماجن بما تبقَّى من الكلمات؟». (المترجم)

[←81]

تتكرَّر كلمتا «عيون» و«مراقبة» مِرارًا في الجزء الأخير، ما يتطابق مع أبيات الشعر التي أوردها المُؤلِّف على لسان الجوقة: «إنهم يراقبونك». وعليه فإن الآيديسيس في هذا الفصل مزدوجة. فمن ناحية، ما زالت مآثر هرقل متواجدة من خلال صورة طيور ستومفالوس، ومن ناحية أخرى، يتطرَّق الحديث إلى «مترجم» و«عيون تراقب». ماذا قد يعني ذلك؟ هل يجب على «المترجم» «مراقبة» شيء ما؟ هل «يراقب» أحدهم «المترجم»؟ غدًا يستقبلني في بيته أريستيديس العلَّامة، صديق مونتالو. (المترجم)

[←82]

هنا يبلغ الفصل الخامس خاتمته. فرغتُ من ترجمته بعد المحادثة التي دارت بيني وبين الأستاذ أريستيديس. وهو رجل دمث، ودود، مقتضب الابتسامة، كثير الإشارات. مثله كمثل شخصية يونسيكا في الكتاب، يبدو أنه يتحدَّث بيديْه أكثر مما يفعل بوجهه الذي يتحكَّم في تعابيره بانضباط صارم. ربما كانت عيناه الـ...

كِدتُ أقول «الرقيبتان»...

(لقد تسلَّلَتِ الآيديسيس إلى خواطري أيضًا)...

أعني، ربما كانت عيناه الشيء الوحيد المُتحرِّك البشري في قفار قسماته الريَّانة ولحيته المُدبَّبة السوداء على الطريقة الشرقية. استقبلني في بهو بيته الرحيب. بعد ابتسامة مقتضبة، قال «أهلًا بك»، ثم أشار إلى أحد المقاعد أمام الطاولة. شرعتُ في الحديث عن الكتاب. لم يكُن أريستيديس يعرف بوجود كهف الأفكار، لمُؤلِّفه المجهول، العمل الذي كُتِب في أواخر حرب بيلوبونيسوس. استرعى الموضوع انتباهه أيضًا. إلا أنه صرف المسألة بإيماءة مبهمة، وأفهمني أن اهتمام مونتالو بالعمل يعني أنه «يستحقُّ العناء». وحين ذكرتُ له الآيديسيس، ارتسم على وجهه تعبير يشي بقدر أكبر من التركيز. قال:

- شيء جدير بالفضول، فقد كرَّس مونتالو الأعوام الأواخر من حياته لدراسة النصوص الآيديسيَّة، كما ترجم عددًا كبيرًا منها، وحقَّق عدة مخطوطات أصلية. أودُّ القول بأنه قد بلغ مبلغ الهوس بالآيديسيس. ولا غرو في ذلك، فأنا أعرف رفاقًا سخَّروا حياتهم كاملةً لكشف المفاتيح النهائية في أعمال آيديسيَّة. أؤكِّد لك أن الأمر قد يتحوَّل إلى واحد من أفتك السموم التي يقدِّمها الأدب.

حكَّ أذنه، ثم أردف:

- لا تحسبْ أنني أبالغ في ما أقول، فأنا عن نفسي لم أستطِع تلافي الحلم بالصور التي كنتُ أكشف عنها في بعض الأعمال خلال الترجمة. أحيانًا تحتال تلك الصور على المرء حيلًا ماكرة. أذكر رسالة في الفلك لمُؤلِّفها ألسيو الكيريدوني، حيث تكرَّرَتْ كلمة «أحمر» بمرادفاتها كافة، مصحوبة بكلمتيْن أخريَيْن في أغلب الأحوال: «رأس» و«امرأة». وعليه، بدأت تراودني أحلام بامرأة رائعة الجمال، ذات شعر أحمر...

لها وجه...

بلغتُ حدَّ رؤيته...

كان يعذِّبني...

انقبض وجهه، ثم أردف:

- في خاتمة المطاف عرفتُ من خلال نص آخر، وقع بين يديَّ بالصدفة، أن عشيقة قديمة للمُؤلِّف قد حُكم عليها بالإعدام في محاكمة غير عادلة. فلجأ الرجل المسكين إلى الآيديسيس لإخفاء صورة عنقها المبتور. لك أن تتخيَّل كم كانت مفاجأتي مُروِّعة...

ذلك الشبح رائع الجمال ذو الشعر الأحمر...

وقد تحوَّل فجأة إلى رأس مبتور تنهمر منه الدماء...

قطَّب حاجبيْه ونظر إليَّ وكأنه يدعوني لأشاطره خيبة الأمل.

- الكتابة غريبة يا صديقي. في رأيي أنها تتصدَّر قائمة أغرب وأفظع الأنشطة التي يمكن للبشر مزاولتها...

ثم أردف عائدًا إلى ابتسامته الاقتصادية:

- ... تليها القراءة.

- ولكن، بالحديث عن مونتالو...

- أجل، أجل. لقد تمادى مونتالو في هوَسه بالآيديسيس أكثر من ذلك بكثير. كان في رأيه أن النصوص الآيديسيَّة يمكنها أن تمثِّل برهانًا دامغًا على نظرية الأفكار لأفلاطون. أفترض أنك مُطَّلعٌ عليها...

فأجبتُه:

- بالطبع. الكل مُطَّلعٌ عليها. كان أفلاطون يؤكِّد على وجود الأفكار بمعزل عن خواطرنا، ويقول إنها كيانات واقعية، بل وأكثر واقعية بكثير من الكائنات والأشياء.

لم يَبْدُ راضيًا كل الرضا عن المُلخَّص الذي سقتُه للعمل الأفلاطوني المُشار إليه، ومع ذلك أومأ برأسه الصغير الريَّان مُبديًا موافقته. ثم قال في تردُّد:

- أجل...

وفقًا لمونتالو، إنْ تحقَّق لأي نص آيديسي استحضار وتوصيل الفكرة المحجوبة نفسها للقُرَّاء قاطبةً، أو بعبارة أخرى، إنْ تحقَّق لنا جميعًا العثور على المفتاح النهائي نفسه في النص، لكان ذلك برهانًا على الوجود المستقل للأفكار. ومهما بدا لنا استدلاله العقلي من الصبيانية، فإنه لم يحِدْ عن الطريق: إنْ تسنَّى للناس جميعًا أن يجدوا في هذه الحجرة طاولةً، الطاولة نفسها، فذلك يعني أن للطاولة المذكورة وجودًا. فضلًا عن ذلك-وتلك أكثر النقاط استئثارًا باهتمام مونتالو- فإنَّ التوصُّل إلى إجماع من هذا القبيل بين القُرَّاء سوف يبرهن على أن العالَم عقلاني، وبناء عليه يكون عالَمًا خيِّرًا، بديعًا، عادلًا.

فقلتُ:

- لم أفهم النقطة الأخيرة.

- إنها نتيجة مُترتِّبة على ما سبقها، بما أننا قد عثرنا جميعًا على الفكرة نفسها في عمل آيديسي، إذن فالأفكار لها وجود. وبما أن الأفكار لها وجود، إذن فالعالم عقلاني، كما تصوَّره أفلاطون ومعظم فلاسفة الإغريق القدامى. وماذا يكون عالَمٌ عقلاني، صُنِع ليناسب خواطرنا ومُثُلنا، إن لم يكُن عالَمًا خيِّرًا، بديعًا، عادلًا؟

فهمهمتُ مندهشًا:

- إذًا، فالنص الآيديسي يكاد يكون...

مفتاح الوجود عند مونتالو.

أطلق أريستيديس تنهيدة مقتضبة وجعل يتأمَّل أظفار أصابعه النظيفة.

- شيء من هذا القبيل. غنيٌّ عن القول إنه لم يعثر على البرهان الذي كان يبحث عنه قط. وربما كان ذلك الإحباط الدافع الرئيسي وراء مرضه...

- مرضه؟

رفع حاجبه بحذق مثير للفضول.

- لقد جُنَّ جنون مونتالو. قضى أعوامه الأخيرة حبيس بيته. كنا نعرف جميعًا بمرضه وبرفضه استقبال الزيارات، فتركناه يذوي في سلام. وذات يوم، ظهرَتْ جثته وقد تعرَّضت لنهش الضواري...

في غابة مجاورة...

الأرجح أنه قد هام على غير هدى، خلال إحدى نوبات جنونه، حتى سقط مغشيًّا عليه في خاتمة المطاف، ثم...

راح صوته يخبو رويدًا رويدًا، وكأنما أراد تمثيل النهاية الحزينة التي لقيها صديقه (على نحو آيديسي؟). وأخيرًا، ختم حديثه بعبارة واحدة، بصوت يشارف تخوم الحد الأدنى للأصوات المسموعة لدى البشر:

- أيّ ميتة بشعة...

فسألتُه، بغباء:

- هل كانت ذراعاه سليمتيْن؟ (المترجم)

[←83]

يؤكِّد مونتالو في الوصف الذي ساقه لبرديَّة الفصل السادس أنها: «وَسِخة، تغصُّ بتصحيحات ولُطَخ وعبارات فاسدة أو عصيَّة على القراءة». (المترجم)

[←84]

يؤكِّد مونتالو أن: «العبارات تبدو سوقية على نحو مُتعمَّد. فلم يعُد النثرُ يتميَّز بالأسلوب الشعري نفسه كما في الفصول السابقة. إذ بدأت تظهر الساتيرية، والاستهزاء الفارغ الذي تتَّسم به الأعمال الكوميدية، والنبرة اللاذعة المُنفِّرة. يبدو الأسلوب في هذا الموضع وكأنه من فضلات الأسلوب الأصلي، فضلات أُلقي بها على الفصل الحالي». أما من جانبي فأنا أوافقه الرأي تمامًا. زِدْ على ذلك أن صورتَيّ «الوَسَخ» و«الفضلات» تُنبئان بأن المأثرة المحجوبة في هذا الفصل هي مأثرة تنظيف حظائر أوجياس، حيث ينبغي للبطل هرقل تنظيف حظائر ملك إيليس من الروث. الأمر نفسه الذي اضطرَّ مونتالو لعمله تقريبًا: «لقد نظَّفتُ النصَّ من عبارات فاسدة، وهذَّبتُ بعض المصطلحات. حتى وإن لم تكُن النتيجة النهائية مشرقة، فإنها أكثر نظافةً على أقل تقدير». (المترجم)

[←85]

تتخلَّل النصَّ فجوةٌ اعتبارًا من هذا الموضع. طبقًا لقول مونتالو، فإن: «ثمة لطخة هائلة بلون بنّي داكن، غير مُتوقَّعة، أسفرَتْ عن طمس ثلاثين سطرًا بالكامل. أي خسارة! فقدَتِ الأجيال القادمة خطاب تريسييو!...».

أعود إلى مكتبي إثر واقعة جديرة بالفضول. كنتُ أكتب هذه الحاشية لمَّا أحسستُ بحركة غريبة في بستان بيتي. كان الجو لطيفًا، فتركتُ النافذة مفتوحة. يطيب لي أن أطالع صفَّ أشجار التفاح الصغيرة المُؤلّفة منها تخوم ملكيتي المتواضعة، حتى وإن كان الوقت ليلًا. ونظرًا لأن أقرب بيوت جيراني يقع على مرمى حجر من تلك الأشجار، فلم أعتَد أن يزعجني الناس، لا سيما في تلك الساعة من ساعات الفجر. كنتُ منهمكًا في كلمات مونتالو حين لمحتُ بطرف عيني ظلًّا، هيئةً مُحيّرة تتنقَّل وسط أشجار التفاح، كمن يفتّش عن أفضل زاوية بحيث يمكنه التجسُّس عليّ. غنيٌّ عن القول إني قمتُ مُتَّجهًا صوب النافذة. في تلك اللحظة رأيتُ أحدهم ينطلق راكضًا من مكانه عند الأشجار القائمة على اليمين. صحتُ به أن يتوقَّف، فضاع صياحي سدًى. لا أعرف من كان، إذ لم أرَ منه سوى خياله. عدتُ إلى عملي بشيء من التوجُّس، علمًا أنني أُعَدُّ لقمة سائغة تفتح شهية اللصوص لأني أعيش وحدي. النافذة موصدة الآن. على كلٍّ، أغلب غالب الظن أن الأمر غير ذي بال. أتابع الترجمة ابتداءً من أول سطر قابل للقراءة: «فرغ تريسييو من خطابه ثم قال»... (المترجم)

[←86]

هراقليس، كان بوسعي مساعدتك، ولكن كيف أُطلعكَ على كل ما أعرف؟ كيف ستعرف، مهما بلغتَ من المهارة، أنكَ لستَ المعنيَّ بهذه الإشارة، بل أنا، وأنا قارئ عمل آيديسي حيث لا تعدو أن تكون مُجرَّد إشارة، على اعتبار أنك أنت نفسك واحدًا من شخوص العمل؟ الآن أعرف أن وجودك أنت أيضًا آيديسي! أنت هناك لأن المُؤلِّف قرَّر وضعك-شأن زهرة الزنبق التي أودعها القاتلُ الغامض في يد ضحيته- لتوصيل فكرة مآثر هرقل للقارئ بقدر أكبر من الوضوح، الفكرة التي تمثِّل أحد الخيوط المحورية في الكتاب. وعليه، فكل من مآثر هرقل و«فتاة زهرة الزنبق» (المقترنة بطلب «المساعدة» والتحذير من «الخطر») و«المترجم»-الصور الوارد ذكرها في الفقرات الأخيرة- تمثِّل الصور الآيديسيَّة الرئيسية حتى هذه اللحظة. ماذا قد تعني؟ (المترجم)

[←87]

أنقطعُ عن الترجمة، ولكني أتابع الكتابة. وبذا أسجِّل موقفي مهما حدث. بكلمات قلائل، لقد اقتحم أحدهم بيتي. الآن أباشر سرد الحوادث السابقة (أكتب في سرعة بالغة، وربما في غير نظام). كان الوقت ليلًا، وكنت أتهيَّأ للشروع في ترجمة الشطر الأخير من الفصل الحالي حين تناهت إلى سمعي أصوات خافتة على غرابتها في عزلة بيتي. لم أُعِر الأمر قدرًا كبيرًا من الأهمية، وشرعتُ أترجم. كتبتُ عبارتيْن، وعند ذاك تناهت إلى سمعي أصوات آتية على وتيرة منتظمة، كوقع الخطى.

في البداية شعرتُ باندفاعة لتفقُّد البهو والمطبخ، حيث مصدر الصوت، ثم دار بخلدي تدوين كل ما يجري، لأن...

صوت آخر!

تفقَّدتُ المكان ثم عدتُ لتوِّي. لم يكُن هنالك أحد، ولم ألاحظ شيئًا خارجًا عن المألوف. لا أظنُّ أنني تعرَّضتُ للسرقة. فالباب الرئيسي لم يُفتَح عنوة. في الحقيقة، كان باب المطبخ المفضي إلى الباحة الخارجية مفتوحًا. ولكن ربما تركتُه مفتوحًا بنفسي، لستُ أذكر. تفقَّدتُ أرجاء المكان كافة. ميَّزتُ هيئة قطع الأثاث المألوفة في العتمة (لم أرِد منح زائري الفرصة للتعرُّف على مكاني، فلم أضئ أية مصابيح). قصدتُ البهو والمطبخ والمكتبة والمخدع. سألتُ عدَّة مرات:

- هل مِنْ أحد هنا؟

هدأت نفسي فأضأتُ بضعة مصابيح وتحقَّقتُ مما أشرتُ إليه من فوري. يبدو أن الأمر برمته إنذار كاذب. والآن يهدأ قلبي رويدًا رويدًا، وأنا جالس إلى مكتبي مرة أخرى. فكَّرتُ أنها قد تكون مُجرَّد مصادفة. وإن فكَّرتُ أيضًا أن أحدهم كان يتجسَّس عليَّ ليلة أمس من مكانه عند أشجار البستان، واليوم...

تُراه لصًّا؟ لا أظنّ، رغم أن كل شيء ممكن. على كل حال، فاللصُّ لا يراقب ضحاياه، بل يسرقهم من باب أولى. ربما كان يعدّ ضربة محكمة. لكنه سيجد مفاجأة في انتظاره (مُجرَّد التفكير في الأمر يضحكني). فباستثناء بعض المخطوطات العتيقة، لا أملك في بيتي شيئًا ذا قيمة. بحسب اعتقادي، أنا أشبه مونتالو في هذا الجانب...

ودونها من الجوانب الكثيرة...

أفكِّر الآن في مونتالو. أجريتُ المزيد من التحريات عنه خلال الأيام الأخيرة. باختصار، يمكن القول بأن عزلته المفرطة لم تكُن غريبة إلى هذا الحد، ذلك أنني أفكِّر في الأمر ذاته. كلانا اختار سُكنَى الريف، في بيت فسيح، تحدُّه باحات داخلية وخارجية كالبيوت الإغريقية العتيقة الرحيبة. كلانا نذر نفسه لشغف ترجمة النصوص التراثية اليونانية. لم يحظَ أيٌّ منا بحب امرأة، أو يَشْقَ به. لم ينجب أيٌّ منا أبناءً، وأصدقاؤنا هم زملاء في المهنة قبل كل شيء (من أمثال أريستيديس صديق مونتالو وهيلانة صديقتي، برغم الفوارق الجليَّة بينهما). ما يترتَّب عليه بضعة أسئلة: ماذا جرى لمونتالو في الأعوام الأخيرة من حياته؟ أخبرني أريستيديس أنه كان مهووسًا بالبرهنة على نظرية الأفكار لأفلاطون من خلال نص آيديسي...

ربما كان كهف الأفكار يحوي البرهان الذي بحث عنه، ما دفعه إلى الجنون؟ ولماذا لم ينتبه إلى كون كهف الأفكار نصًّا آيديسيًّا خلال التحقيق، وهو الخبير في الأعمال الآيديسيَّة؟

رغم أنني لا أعرف الدافع جيِّدًا، أزداد يقينًا أن الإجابة على تلك التساؤلات محجوبة في النص. يجب عليَّ متابعة الترجمة.

أستميح القارئ عذرًا على مقاطعته. أعاود الشروع في الترجمة. (المترجم)

[←88]

لا أقوى على متابعة الترجمة. يداي ترتجفان.

أعود إلى العمل عقب يومَيْن من الكدَر. ما زلتُ لا أعرف إن كنت سأتابع الترجمة أم لا، قد لا أمتلك الشجاعة اللازمة. على الأقل، أفلحتُ في العودة إلى مكتبي والجلوس وتأمُّل أوراقي. لم أظنّ ذلك ممكنًا صبيحةَ الأمس، وأنا أتجاذب أطراف الحديث مع هيلانة. أقرُّ بأن ما جرى بيني وبين هيلانة يُعدُّ نزوة. فقد طلبتُ منها في اليوم السابق أن ترافقني، إذ شعرت بأني لا أقوى على تحمُّل عزلة بيتي الليلية. ورغم أني لم أبغِ إطْلاعها على الدوافع الخفية وراء مطلبي في تلك اللحظة، فلا بد أنها قد أحسَّتْ بشيء في كلماتي، فأبدَتْ قبولها على الفور. حاولتُ ألا أتطرَّق للعمل. كنتُ معها ودودًا، لطيفًا، حَيِيًّا، وهو المسلك الذي استمرَّ حتى ونحن نتطارح الغرام. أتيتُها وبي رغبة دفينة أن تطارحني هي الغرام. تحسَّستُ جسدها أسفل الملاءات، تنشَّقتُ عبير المتعة اللاذع، سمعتُ تأوُّهاتها التي راحت تعلو شيئًا فشيئًا، فلم يساعدني ذلك في شيء. حاولتُ أن أحسَّ نحوها بما تحسُّ هي نحوي (أظنُّ أنني حاولتُ). وبلهفة أردتُ أن تستكشفني يداها، أن تدركاني، أن تلكزاني، أن تسبغا عليَّ هيئةً في العتمة...

ولكن كلا، لم أعْنِ هيئة وحسب. أردتُ الإحساس بأنني مادة بسيطة، بقايا صلبة تخلَّفَتْ عن شيء كان هناك، تشغل حيّزًا، وليست مُجرَّد خيال، بل هيئة ذات هوية وملامح. لم أُرِدها أن تتحدَّث إليَّ، لم تكُن بي رغبة لسماع كلمات، لا سيما اسمي، ولا عبارات جوفاء قد أكون أنا المعني بها. الآن أتفهَّم ما جرى لي، وإن بصورة جزئية. ربما كان الضيق الذي أحدثَتْه الترجمة في نفسي مردّه ذلك الإحساس المُروِّع بالهشاشة، وكأني قد تبيَّنتُ فجأةً أن وجودي شيء أكثر هشاشة بكثير من النص الذي أترجمه، النص الذي يتجلَّى من خلالي في الجزء العلوي من هذه الصفحات. وعليه فقد خطر لي أنني في حاجة لتعزيز هذه الحواشي الهامشية، والموازنة (بطريقة ما) بينها وبين ثِقل النص العلوي، ذلك الثِّقل الذي كان أطلس العملاق ينوء بحمله. دار بخلدي: «آهٍ لو كان لي أن أكتب، لو كان لي أن أبتدع شيئًا يخصُّني أنا...».

لم تكُن المرة الأولى التي راودتني فيها تلك الخاطرة، وإن عادت إليَّ الآن بلهفة أكبر من أي وقت مضى. أما الذي كان بيني وبين هيلانة-جسدها، ونهداها النافران، وعضلاتها الناعمة، ورونقها- فلم يساعدني إلا قليلًا. ربما ساعدني في التعرُّف على ذاتي وحسب (كنتُ في حاجة مُلِحَّة إلى جسدها، وكأنه مرآة أرى فيها نفسي من دون النظر إلى نفسي). بَيْد أن اللقاء الوجيز، أو لحظة التجلّي التي حظيتُ بها مع ذاتي، لم تساعدني على شيء غير الاستغراق في السبات، ثم التلاشي مُجدَّدًا. وفي اليوم التالي، بينما وقفتُ عاريًا أمام نافذة مخدعي، والفجر يبزغ وسط التلال، أدركتُ حركة الملاءات في المضجع بعد سكون، وجاءني صوت رفيقتي الناعس، فيما استلقَتْ هي عارية. قرَّرتُ إطْلاعها على الأمر برمته. تحدَّثتُ إليها بهدوء، وأنا لا أحوِّل ناظريَّ عن لهب الأفق المتصاعد:
- هيلانة، أنا في النصّ. لا أعرف كيف، أو لماذا، ولكني أنا هو. يصفني المُؤلِّف على أنني تمثال نحته أحد شخوص العمل، تمثال يُدعَى «المترجم»، يجلس إلى مكتب ويترجم النصّ نفسه الذي أترجمه. كل شيء متوافق: الشعر المنحسر على نحو جلي عند الصدغيْن، مواضع الصلع، الأذنان الرقيقتان، وشحمتا الأذن الغليظتان، اليدان الضامرتان المعروقتان...

أنا هو. لم أجرؤ على متابعة الترجمة، لا أحتمل قراءة وصف وجهي...

فأبدَتْ هيلانة اعتراضها. استقامَتْ في جلستها على الفراش، طرحَتْ عليَّ أسئلة كثيرة، وغضبَتْ. غادرتُ الحجرة وأنا لا أزال عاريًا، مُتَّجهًا إلى البهو، ثم عدُت حاملًا الأوراق التي تحوي ترجمتي المنقوصة وناولتُها لهيلانة. كان ذلك طريفًا، فكلانا عارٍ (هي جالسة وأنا واقف)، وقد عُدنا زميليْن مرة أخرى. قطَّبَتْ هي جبينها الخليق بمُعلِّمة، في الوقت الذي جعل خلاله نهداها يعلوان مُرتعشيْن، مُتورّديْن، مع كل نفَس من أنفاسها. أما أنا، فرُحْتُ أترقَّب مطرقًا أمام النافذة، وقد انكمش عضوي السخيف مُتأثِّرًا بالبرد والكدر.

فرغَتْ من القراءة فقالت:

- شيء هزليّ...

هزليّ تمامًا...

أبدَتْ اعتراضها مُجدَّدًا. انتهرَتْني. قالت إن الهوس قد استحوذ عليَّ، وإن الوصف بالغ الإبهام، وقد ينطبق على أي شخص سواي.

وأردفَتْ:

- ثم إن خاتم التمثال يتوسَّطه خَتْمٌ على هيئة دائرة. دائرة! وليس إوَزَّة كالتي تتوسَّط خاتمك!...

كانت تلك التفصيلة هي الأفظع! وقد أدركَتْ هيلانة ذلك بالفعل.

فأجبتُها بهدوء:

- كما تعلمين، باللسان الإغريقي «دائرة» تعني كوكلوس، أما «إوَزَّة» فتعني كوكنوس. لا فارق بينهما سوى حرف واحد. وعليه، فلو استبدلنا بتلك اللام نونًا، لما عاد ثمة مجال للشك: أنا هو. جعلتُ أتأمَّل الخاتم الذي يتوسَّطه شكل إوَزَّة في الإصبع الوسطى من يدي اليسرى، الخاتم الذي أهدانيه أبي ولا أخلعه قط.

- غير أن ما ورد في النص كوكلوس وليس...

- يحذِّر مونتالو في حواشيه من صعوبة الكلمة على القراءة. يأخذها على أنها كوكلوس، في حين يشير إلى التباس الحرف الرابع. هيلانة، أتفهمين؟ الحرف الرابع...

جاءت نبرتي حيادية، تكاد تشي بعدم الاكتراث.

- الأمر رهنٌ بالرأي اللغوي لمونتالو بشأن حرف واحد فحسب حتى أعرف إن كان حريًّا بي الجنون...

فقالت تتميَّز غيظًا:

- ولكن ذلك ضرب من العبث! ماذا تفعل...

هنا؟

ثم ضربَتِ الأوراق وأردفَتْ:

- كُتِب هذا العمل منذ آلاف السنين!...

فكيف...؟

أزاحت الملاءات التي غطَّتْ ساقيْها الممشوقتيْن. ملَّسَتْ شعرها الضارب إلى الحمرة. سارَتْ صوب الباب حافيةً، عاريةً.

- تعالَ. أريد قراءة النصّ الأصلي.

تبدَّلَتْ نبرتها، والآن راحت تتحدَّث بحزم، وبتصميم.

مُرتاعًا، توسَّلتُ إليها كي لا تفعل. فقاطعَتْني وهي واقفة عند الباب:

- دعنا نقرأ نصَّ مونتالو معًا. وبعد ذلك لا فارق عندي إن قرَّرتَ مواصلة الترجمة أم لا. إنما أريد انتزاع هذا الجنون من رأسك.

سرنا صوب البهو حافييْن، عارييْن. أذكر أن قد دار بخلدي أمر عبثي وأنا أتبعها: «كلانا يريد التأكُّد من كونه إنسانًا، جسمًا ماديًّا، لحمًا، أعضاء، وليس مُجرَّد قارئ أو واحد من شخوص عمل...

ولسوف نعرف. نريد أن نعرف». كان البهو باردًا، وإن لم نأبه لذلك في حينه. سبقَتْني هيلانة إلى المكتب حيث أكَبَّتْ على الأوراق. أما أنا فعجزتُ عن الدنو منها. رحتُ أترقَّب خلفها، أراقب ظهرها اللامع المنحني، فقراتها الملساء، عجيزتها اللينة. مضَتْ برهة صمت. أذكر أنه قد دار بخلدي «إنها تقرأ وجهي». سمعتُها تتأوَّه. أغمضتُ عيني. قالَتْ:

- أوه!

أحسستُ بها تدنو وتطوِّقني بذراعيْها. روَّعني حُنُوّها. قالَتْ:

- أوه! أوه!

لم أبغِ سؤالها. لم أبغِ معرفة ما كان. تشبَّثْتُ بجسمها الدافئ بقوة. ثم انتبهتُ إلى ضحكتها، ناعمة، تعلو شيئًا فشيئًا، تولد مِن بطنها كما تَولد حياة جديدة باعثة على البهجة. قالَتْ وهي لا تكفّ عن الضحك:

- أوه! أوه! أوه!

لاحقًا، بعد مضيّ وقت طويل، قرأتُ ما قرأَتْ، وفهمتُ سبب ضحكها. قرَّرتُ متابعة الترجمة. (المترجم)

[←89]

تتخلَّل النص فجوة اعتبارًا من هذا الموضع. يؤكِّد مونتالو أن الأسطر الخمسة التالية عصية على القراءة. (المترجم)

[←90]

توصَّلتُ لتوِّي إلى كشف مذهل! ما لم أكُن مخطئًا-ولستُ أخالني مخطئًا- فلسوف تكتسب الألغاز الغريبة المقترنة بهذا العمل معنًى...

وإن لن يكون هذا المعنى أقل منها غرابة، قطعًا، بل سيكون أكثر مدعاةً للاضطراب بكثير في الشقِّ المُتعلِّق بي. وكما يجري في أحيان بالغة الكثرة، فقد اهتديتُ إلى هذا الاستنتاج بمحض الصدفة، ذلك أنني كنت أراجع ليلتها الجزء الأخير من الفصل السادس في نسخة مونتالو، الفصل الذي لم أفرغ من ترجمته بعد. عند ذاك لاحظتُ أن حواف الأوراق قد التصقَتْ ببعضها بشدّة على نحو مزعج (سبق أن لاحظتُ ذلك، ولكني تغاضيتُ عن الأمر ببساطة). تفحَّصتُها عن كثب. بدَتِ الأوراق عادية، إلا أن المادة السائلة التي أُلصِقَتْ بها الأوراق كانت حديثة لم تزَل. قطَّبتُ جبيني واضطرابي في ازدياد. فحصتُ الفصل السادس ورقة تلو الأخرى، فاقتنعتُ أن الأوراق الأخيرة قد زيدَتْ على الكتاب في الآونة الأخيرة، بما لا يدع مجالًا للشك. وإذا بعقلي زوبعة من الافتراضات. عدتُ إلى النص وتحقَّقتُ من أن المقاطع «الجديدة» متوافقة مع الوصف المسهب الذي يتناول تمثال مينيكمو. شرع قلبي يخفق بقوة. ماذا يعني ذلك الجنون؟ أرجأتُ ما ذهبتُ إليه من استنباطات وفرغتُ من ترجمة الفصل. وفجأةً، بينما رحتُ أتطلَّع من خلال النافذة بعد أن أسدل الليل ستائره، وأتأمَّل صفَّ أشجار التفاح الذي يحدُّ بستاني الغارق في شبه العتمة، تذكَّرتُ الرجل الذي بدا أنه كان يتجسَّس عليَّ ثم ولَّى هاربًا حين انتبهتُ إلى حضوره...

كما تذكَّرتُ ظنِّي بأن أحدهم قد اقتحم بيتي في الليلة التالية. هببتُ واقفًا، مُندَّى الجبين، وطرقات تدوِّي في صدغي على فترات أقصر فأقصر.

يبدو لي الاستنباط جليًّا: أحدهم بدَّل الأوراق التي تحوي نصَّ مونتالو ووضع أوراقًا أخرى مطابقة، وقد فعلها في مكتبي منذ زمن يسير. تُراه شخصًا يعرفني، أو يعرف كيف أبدو على الأقل، ما أتاح له إضافة تفاصيل مدهشة إلى وصف التمثال؟ ولكن، من ينزع أوراقًا من عمل أصلي ويستبدل بها نصًّا من تأليفه لمُجرَّد تعذيب مترجم؟

مهما يكُن من شيء، فمن الجلي أنني لن أقدر على النوم هادئًا من الآن فصاعدًا، ولا على العمل هادئًا، فكيف لي أن أعرف مَنْ صاحب العمل الذي أترجمه؟ والأسوأ من ذلك ما يلي: تُراني أفلح في الانتقال من عبارة إلى أخرى من دون التوقُّف للتفكير في احتمال أن يكون بعضها-أو كلّها- رسائل مباشرة مُوجَّهة إليَّ من ذلك المجهول الغامض؟ الآن وقد اتَّخذ الشك لنفسه عشًّا في دخيلة نفسي، كيف أتأكَّد أن فقرات أخرى في فصول سابقة لا تمتُّ لي بصلة؟ إن خيال الأدب من الإبهام بحيث لا تقتضي الحاجة خرق قواعد اللعبة كي يتغيَّر كل شيء وتتحوَّل مجريات كل شيء على نحو رهيب، فمُجرَّد الارتياب في احتمال أن يكون أحدهم قد خرق قواعد اللعبة كفيل بذلك. فلنكُن صادقين، أيها القارئ. ألا يساورك من آن إلى آخر ذلك الإحساس الباعث على الجنون بأن النصَّ مُوجَّه إليك بصفة شخصية؟ (خُذ النصَّ الذي تقرأه في هذه اللحظة على سبيل المثال). وحين يستحوذ عليك ذلك الإحساس، ألا تهزُّ رأسك، فيما ترفُّ عيناك، وتفكِّر: «أي ترهات! خيرٌ لي نسيان الأمر برمته ومتابعة القراءة»؟ إذًا، فلكَ أن تحكم على مدى الهلع الذي ينتابني وأنا أعلم علم اليقين أن شقًّا من هذا الكتاب يعنيني، بما لا يدع مجالًا للشك!...

أقول: «الهلع»، وأنا أعني ما أقول. كم دَرَجْتُ على النظر إلى النصوص من على مبعدة دومًا...

وفجأةً أجد نفسي في واحد منها!

وعليه، ينبغي لي عمل شيء.

قبل كل شيء، سأنقطع عن العمل حتى أتوصَّل لحل هذه المسألة. كما سأحاول الإيقاع بزائري المجهول... (المترجم)

[←91]

هيماتيون: صنف من صنوف العباءات المُستخدَمة قديمًا في بلاد الإغريق.

[←92]

استعدتُ السيطرة على أعصابي خلال الساعات الأواخر، ومردُّ ذلك-فوق كل شيء- أني عمدتُ إلى توزيع فترات الراحة بين المقاطع التي أترجمها على نحو عقلاني. فرُحتُ أفرد ساقي وأتمشّى قليلًا في أرجاء زنزانتي. وبفضل هذا التمرين، أفلحتُ في التعرُّف بصورة أفضل على العالَم المُصغَّر حيث أتواجد. إنه مستطيل تبلغ مساحته أربع أقدام طولًا وثلاث أقدام عرضًا، في أحد أركانه فراش صغير غير وثير، ولِصْق الجدار المقابل مكتب ومقعد. فوق المكتب أوراقي ونَصُّ كهف الأفكار من تحقيق مونتالو. علاوةً على ذلك، فثمة فجوة صغيرة في الأرض حيث أقضي حاجتي (أية رفاهية باذخة!)، وبابٌ خشبيٌّ مُصمَت مُصفَّح بأسياخ من الحديد يحول دون الحرية ودوني. الفراش والباب في حالة رثَّة (ناهيك عن الفجوة). أما المقعد والمكتب فعبارة عن قطعتي أساس ثمينتيْن، بحسب ما يبدو. بالإضافة إلى ما سبق، لديَّ وفرة من أدوات الكتابة. يمثِّل كل ذلك طُعمًا جيِّدًا لإبقائي مُنشغلًا. الضوء الوحيد الذي يسمح لي سجَّاني به مبعثه ذلك المصباح التعِس هوائي المزاج فوق المكتب، المصباح الذي أتأمَّله في هذه اللحظة. ولذا فمهما سعيتُ للمقاومة، دائمًا ما ينتهي بي المطاف وأنا جالس أتابع الترجمة لئلا يذهب عقلي، من بين أسباب أخرى. أعرف أن ذلك تحديدًا ما يبتغيه «أيًّا كان». فقد أمَرَني قائلًا عَبْر الباب:

- ترجِمْ!

كان ذلك منذ...

كم مضى من ذلك الحين؟...

ولكن...

آه، أسمع صوتًا. لا بد أنه الطعام. أخيرًا. (المترجم)

[←93]

أنا أيضًا أرى خيالات داخل «الزنزانة-الكهف» التي زُجَّ بي فيها، حيث تتراقص الكلمات الإغريقية أمام عيني- كم مضى من الوقت منذ رأيت ضياء الشمس لآخر مرة، ضياء الخير، الذي منه ينبثق كل شيء؟ يومان؟ ثلاثة أيام؟- وعلى الرغم من ذلك، فقد تبيَّنتُ وراء رقصة الحروف المحمومة كلًّا من «الأنياب» والشَّعْر «الشائك» «الخشن»، كلها أشياء دالّة على فكرة الخنزير البرّي، المقترنة بثالثة مآثر هرقل، ألا وهي أسْر خنزير أرومانثوس البرّي. حتى وإن لم يرد ذكر «الخنزير البرّي» في موضع واحد، فإنني أراه. بل وأعتقد أنني أسمع صوته، أسمع نخيره المبحوح، ودبيبه الذي يُثير الغبار في الهواء، والصوت المزعج الناجم عن خدش الأغصان تحت وطأة أظلافه. وعليه فإن فكرة الخنزير البرّي موجودة، وواقعية بمقدار ما أنا واقعي. هل كان مونتالو مُهتمًّا بهذا العمل باعتباره برهانًا دامغًا على صحة نظرية الأفكار الأفلاطونية؟ وماذا عن «أيًّا كان»؟ ما الدافع الذي حدا به إلى العبث معي أولًا، وإضافة أجزاء زائفة إلى النص الأصلي، ثم اختطافي؟ تعتريني رغبة في الصراخ، وإن كنتُ أعتقد أن فكرة الصراخ هي أكثر ما قد يخفِّف عني. (المترجم)

[←94]

أجل، كرانتور، فأنا أتضوَّر جوعًا. أترجمك بينما أتذوَّق القاذورات التي وجدها «أيًّا كان» ملائمةً كي يتركها لي في الوعاء اليوم. أترغب في تذوُّق القليل؟ (المترجم)

[←95]

الكلمتان الآيديسيتان في الفصل الحالي. أجل، لاحظت. على كل حال، شكرًا لك يا كرانتور. (المترجم)

[←96]

أجل، أصبتَ مرة أخرى. كرانتور، إنك تتكهَّن بكل شيء. فالإمساك من المشكلات الأساسية التي تواجهني منذ احتُجزتُ هنا. (المترجم)

[←97]

أرسطوفاني: نسبة إلى أرسطوفانيس كاتب المسرح الساخر الإغريقي (446 ق.م.- 386 ق.م.).

[←98]

لا بد أنني قد جُننت. ها أنا أحاور أحد شخوص العمل! بدا لي فجأةً أنه يخاطبني، فأجبتُه من خلال الحواشي. ربما كان الأمر برمته يُعزَى إلى الوقت الذي أمضيتُه رهين زنزانتي، وأنا لا أتحدَّث إلى أحد. وعلى الرغم من ذلك، صحيح أن كرانتور طالما وقف دومًا على الخط الفاصل بين الواقع والخيال...

أو بالأحرى، على الخط الفاصل بين الأدب واللاأدب. كرانتور لا يهمُّه أن يكون جديرًا بالتصديق، بل يسرُّه أن يكشف الصنعة الكلامية المحيطة به، كما فعل حين شدَّد على الكلمات الآيديسية. (المترجم)

[←99]

لقد لاحظتُ أنني لم أسرد بعد كيف انتهَى بي الحال إلى زنزانتي هذه. لو أن هذه الحواشي سوف تعصمني من الجنون حقًّا، ربما كان خليقًا بي أن أحكي كل ما أذكره من الوقائع، وكأني أخاطب قارئًا مستقبليًّا بعيد الاحتمال. أيها القارئ، إئذنْ لي بمقاطعة سير الحوادث مُجدَّدًا. أعرف أن متابعة العمل عندك أهم بكثير من الإنصات إلى بلواي. ولكن تذكَّر، مهما بدوتُ لك من الهامشية في موضعي بالأسفل، فأنت مدين لي بقليل من الانتباه على سبيل الامتنان لعملي المُثمِر، الذي لولاه لما تهيَّأ لك الاستمتاع بهذا العمل الذي يروقك إلى هذا الحد. وعليه، فكُنْ حليمًا واقرأني.

لعلَّك تذكر أنني، ليلةَ فرغتُ من ترجمة الفصل السابق قرَّرتُ الإيقاع بزائري المجهول، ذلك الشخص الغامض مُزوِّر النصّ. ولهذا الغرض أطفأتُ أضواء البيت وتظاهرتُ بالنوم، إلا أنني في الواقع مكثتُ مُتربِّصًا في بهو البيت، متواريًا خلف أحد الأبواب، أترقَّب «زيارته». كدتُ أتأكَّد أنه لن يحضر ليلتها، حين سمعتُ صوتًا. حانَتْ مني إطلالة من خلف الباب الموارَب، فلم أتبيَّن سوى خيال ينقضُّ عليّ. استيقظتُ شاعرًا بألم شديد في رأسي، وألفيتُ نفسي حبيسًا بين هذه الجدران الأربعة. أما زنزانتي فقد وصفتُها بالفعل، وأحيل القارئ المُهتمَّ إلى حاشية أوردتُها مسبقًا. وجدتُ فوق المكتب نصَّ كهف الأفكار، نسخة مونتالو، فضلًا عن ترجمتي التي توقَّفَتْ عند الفصل السادس. وفوق الترجمة تحذير مكتوب في ورقة منفصلة، جاء فيها بخطٍّ رشيق: «ليس يهمُّك أن تعرف مَنْ أنا. ادْعُني «أيًّا كان». ولكن، إن كان يهمُّك الخروج من هنا حقًّا، تابِعْ الترجمة. وحين تفرغ منها، ستنال حريتك». وحتى هذه اللحظة اقتصر التواصل بيني وبين مُختطِفي المجهول على ذلك التحذير، فضلًا عن صوته الذي لا جنس له، والذي يصلني بين الفينة والأخرى، آمرًا: «ترجِمْ!». وهذا ما أنا فاعل. (المترجم)

[←100]

قاومتُ خاطرةً مُستبدَّة راحَتْ تغويني بتمزيق هذه النسخة الزائفة من الفصل الثامن، التي لا شك أن مُختطفي قد دسَّها بين صفحات العمل. لم يُصِبْ ابن العاهرة في شيء باستثناء النحيب، فقد أصبحتُ كثير البكاء في الآونة الأخيرة. وتلك واحدة من الوسائل التي أتبعها لقياس الزمن. لو ظنَّ «أيًّا كان» أنه سيدفعني إلى الجنون بتلك الأوراق المدسوسة، فهو مخطئ تمامًا. الآن أعرف ما الدافع من وراء استخدامها. إنها رسائل، تعليمات، أوامر، تهديدات...

فهو لم يعُد يهتمُّ حتى بإخفاء أصل أوراقه المنحولة. قرأتُ نفسي بضمير المُتكلِّم، فراودني إحساس مثير للغثيان. حاولت دفعه عني بالتفكير في ما كنتُ سأقوله بالفعل. لا أعتقد أنني كنت «سأتأوَّه»، على عكس ما يؤكِّده النصّ. بل أظنُّ أنني كنتُ سأطرح أسئلة أكثر بكثير مما جاء في ذلك النص الجديد بالشفقة، حيث يحاول تقليدي. وعلى الرغم من ذلك، فقد أصاب عين الحقيقة في ما يتعلَّق بالنحيب. أستهلُّ ترجمة ما أتصوَّر أنه النسخة الحقيقية من الفصل الثامن. (المترجم)

[←101]

أعمل ببطء شديد! ببطء شديد! ببطء شديد! إن أردت الخروج من هنا، فعليَّ أن أترجم بسرعة أكبر. (المترجم)

[←102]

إنها الآيديسيس، أيها الأحمق، الآيديسيس، الآيديسيس! الآيديسيس تغيِّر كل شيء، تتدخَّل في كل شيء، لها تأثير على كل شيء، وهي الآن متمثِّلة في فكرة «البطء»، التي تحجب فكرة أخرى بدورها… (المترجم)

[←103]

آسف، ما عدتُ أحتمل. لقد تسرَّبَت الآيديسيس إلى الأوصاف أيضًا، فجاء سرد اللقاء بين هراقليس وياسينترا بطيئًا حتى إنه يبعث على السخط. سأغتنم المزايا التي أحظى بها بوصفي مترجمًا، وأحاول تكثيف الوصف سعيًا للإنجاز بسرعة أكبر. ولذا أكتفي بسرد الشقّ الجوهري وحسب. (المترجم)

[←104]

هنا أتوقَّف. إذ تشتمل بقية الفقرة بالغة الإسهاب على وصف مُضْنٍ يتناول كل خطوة من خطوات هراقليس وهو يدنو من ياسينترا. وللمفارقة، فإن كاشف الألغاز لا يصل إليها قطٌ، ما يستحضر إلى الذاكرة مفارقة «أخيل الذي لا يلحق بالسلحفاة قط»، لصاحبها الفيلسوف زينون الإيليّ (ومن هنا جاء مصطلح «خطوة إيليَّة»). كل ذلك، بالإضافة إلى كثرة تكرار ألفاظ مثل «بطيء» أو «متثاقل» أو «أخرق»، وكذلك المجاز المُتعلِّق بالحرث، يشير إلى مأثرة قطيع جريون، القطيع البطيء الذي يتعيَّن على هرقل أن يسرقه من المسخ المدعو جريون. وتُعدُّ «الخُطى المُتعرِّجة» التي يرد ذكرها أحيانًا بمثابة وصف هوميريّ، إذ يصف صاحبُ الإلياذة القطيعَ بأنه ذو «خُطى مُتعرِّجة»...

وبالحديث عن التثاقل والبطء، تجدر بي الإشارة إلى أنني تمكَّنتُ من قضاء حاجتي بسلاسة أخيرًا، ولذا فقد صفا مزاجي بعد كدر. ربما كان شفائي من الإمساك بُشرى بالسرعة وتحقيق الأهداف المنشودة. (المترجم)

[←105]

إن تفسير اللغز الثقيل الذي يسوقه هراقليس اليونتوري يرمي إلى تعزيز الآيديسيس مرة أخرى، ذلك أن كاشف الألغاز، برغم تقتيره البالغ في الكلام عادةً، يسترسل هنا في استطرادات مسهبة سخيَّة، تمضي في بطء شأن قطيع جريون. ولذا فقد قرَّرتُ إعداد نسخة موجزة، مع ذكر بعض التعليقات الواردة في الأصل كلما بدا لي ذلك ملائمًا. (المترجم)

[←106]

يقول هراقليس: «لنا أن نتخيَّل ضحكاتهم الليلية، اختيالهم المرهف أمام ضربات إزميل مينيكمو البطيئة، شقاوات العشق الرحيبة، أجسامهم البالغة التي أسبغَتْ عليها المشاعل حمرةً...». (المترجم)

[←107]

يقول هراقليس: «وبعد رشفة نبيذ اللذَّة التي تخلب الألباب، تجيء رواسب الجدال اللاذعة». (المترجم)

[←108]

يلفت هراقليس انتباه دياغوراس قائلًا: «لاحظ حذق مينيكمو! لم يصبح فنانًا من فراغ، فهو يعرف أن المظهر والهيئة بمثابة شراب مُسكِر قوي المفعول. رأينا إيونيو في ثياب امرأة، يفوح منه عبق نبيذ، فطاف أوَّل ما طاف بخاطرنا أن شابًا مخمورًا ومُتنكِّرًا على هذا النحو قادر على فعل أي شيء. وهاك الشَّرَك الذي نُصِب لنا، لأن عادات حُكمنا الأخلاقي تأبى تمام الإباء أدلة حُكمنا العقلاني!» (المترجم)

[←109]

عندئذ يسأل دياغوراس مُعترضًا: «وماذا عن زهرة الزنبق؟». فينزعج هراقليس بسبب مقاطعته، ويجزم قائلًا: «لا تعدو كونها تفصيلة شاعرية، علمًا بأن مينيكمو فنان». أما ما لا يعرفه هراقليس أن زهرة الزنبق ليست مُجرَّد تفصيلة «شاعرية»، بل آيديسيَّة، ولذا فهي عصية على استدلاله العقلي لكونه واحدًا من شخوص العمل. إن زهرة الزنبق إشارة مُوجَّهة إلى القارئ، وليس إلى هراقليس. اعتبارًا من الآن أستأنف الحوار كما جاء في الأصل. (المترجم)

[←110]

إشارة يُراد بها تعزيز الآيديسيس، كما جرى في فصول سابقة، تأكيدًا على صورة قطيع جريون. (المترجم)

[←111]

بطبيعة الحال، يقتصر حضور «بقرة البستان» على الآيديسيس فحسب-مثلها كمثل «ثور» الفصل الرابع و«أفاعي» الفصل الثاني- وعليه فإنها خافية عن أنظار شخوص العمل. بَيْد أن المُؤلِّف يلجأ إلى استخدامها بوصفها حجّة لدعم شكوك دياغوراس. ولذا فإن التصريح حقيقي عند القارئ بالفعل. يداي ترتجفان. ربما كان ذلك بسبب من الإعياء. (المترجم)

[←112]

بمُجرَّد أن انتهت مهمتها الآيديسيَّة، توارت صورة البقرة حتى عن أنظار القارئ، وأضحى البستان «خاليًا». ليس ذلك من السحر في شيء، بل إنه الأدب ببساطة. (المترجم)

[←113]

إنها وضعيتي الأثيرة. بدَّلتُها من فوري كي أستأنف الترجمة. أعتقد بأن هذا التوازي ملائم، ذلك أن كل شيء في الفصل الحالي يجري بصورة مزدوجة، لشخصيْن في آنٍ. ما مِنْ شك في أننا إزاء محاولة مرهفة لتعزيز الآيديسيس التي تمثِّل القطيع: كما يمضي عجلان معًا وقد شُدًّا إلى بعضهما بنير واحد. (المترجم)

[←114]

الآن عرفتُ أن الشخص الذي حبسني هنا مجنون كليًّا. كنتُ أتأهَّب لترجمة هذه الفقرة حين رفعت ناظري ورأيتُه ماثلًا أمامي، كما رأى هراقليس ياسينترا ماثلةً أمامه. دلف إلى زنزانتي من دون أن يُحدث صوتًا. كان مظهره سخيفًا، إذ تلفّع برداء أسود طويل، ووضع قناعًا وشعرًا مستعارًا مبهرجًا. كان القناع على هيئة وجه امرأة، في حين دلَّ صوته ويداه على رجلٍ كهل. كانت كلماته وإيماءاته مطابقة لكلمات ياسينترا وإيماءاتها في هذا الحوار (عرفتُ ذلك الآن، حين شرعتُ أتابع الترجمة). تكلَّم بلساني، ولكن ما أدلى به ترجمة دقيقة لما ورد في النص. وعليه، فلن أورد في الحواشي سوى ردودي بعد أقوال هراقليس وحسب. (المترجم)

[←115]

فسألتُ:

- من أنت؟ (المترجم)

[←116]

أعتقد أنني لم أقُل شيئًا هنا. (المترجم)

[←117]

فصِحتُ:

- في العتمة؟ لستُ أريد الجلوس في العتمة. أنا حبيس هنا بسببك! (المترجم)

[←118]

- ماذا؟ هل جُننت؟؟ (المترجم)

[←119]

قلتُ زاعقًا:

- إليك عني!

ثم هببتُ واقفًا. (المترجم)

[←120]

لستُ متأكِّدًا، ولكن أعتقد بأنني قلتُ عندئذ:

- إياك والمساس بي!! (المترجم)

[←121]

- أي معروف؟...

أيّ معروف؟...

ترجمة العمل؟... (المترجم)

[←122]

- سأكون سعيدًا إن أذنت لي بالخروج من هنا! (المترجم)

[←123]

- أجل!! أنا جائع! وعطِش!... (المترجم)

[←124]

شعرتُ بالضيق بغتةً.

- مهلًا، أرجوك، هلا بقيت معي!... (المترجم)

[←125]

هلا بقيت معي!!... (المترجم)

[←126]

صرختُ:

- كلا!!

ثم أجهشتُ بالبكاء.

الآن وقد استعدتُ الهدوء، أتساءل إلامَ يرمي مختطفي باستعراض الحركات الإيمائية العبثي الذي قدَّمه؟ إبداء معرفته التامة بالعمل؟ إفهامي أنه يعرف إلى أين وصلتُ في الترجمة، في كل لحظة؟...

أما الأمر الذي أنا على يقين منه أنني وقعت بين يدي كهل مجنون! يا آلهة الإغريق، بكِ أستعيذ! (المترجم)

[←127]

«ثم الْتَهَمَه الحضور...».

يتَّخذ وصفُ محاكمة مينيكمو واجهةً آيديسيَّة تتمثَّل في مأدبة حيث يُقدَّم النحَّات على أنه الطبق الرئيسي. لستُ أدري بعد أية مآثر هرقل هي المعنية بالإشارة، وإن كانت لدي ظنوني. المُؤكَّد أن ريقي قد جرى لتلك الآيديسيس. (المترجم)

[←128]

إن الصور المجازية المُقترِنة بالطعام و«الخيول» التي يكثر ذكرها في هذا الفصل، تصف من خلال الآيديسيس مأثرةَ ترويض أفراس ديوميديس. وتُعرَف الأفراس المُشار إليها بأنها كانت من آكلات لحوم البشر، حتى انتهى بها المطاف وقد التهمَتْ مالكها نفسه. (المترجم)

[←129]

الحقيقة؟ وما الحقيقة؟ أوه، هراقليس اليونتوري، يا كاشف الألغاز، قُلْ لي ما الحقيقة! أشرفتُ على العمى في سعيي لكشف طلاسم خواطرك، ومحاولة العثور على حقيقةٍ ما، مهما تكُن تلك الحقيقة من الضآلة...

لا أجِد سوى صور آيديسيَّة، وأفراس تلتهم لحوم البشر، وقطعان تمضي بخطًى متثاقلة، وفتاة مسكينة مُمسِكةً بزهرة زنبق تلاشى أثرها قبل صفحات، ومترجم يروح ويغدو، عصيّ على الفهم، ملغز، مثله كمثل المجنون الذي احتجزني هنا. هراقليس، لقد اهتديتَ إلى كشف أمر ما، على الأقل، أما أنا...

فإلى أي كشف اهتديتُ أنا؟ لمَ لقي مونتالو حتفه؟ لمَ اختُطفتُ؟ أي سرّ يخفي هذا العمل؟ لَمْ أقف على حقيقة أي شيء! فبخلاف الترجمة، لا أفعل شيئًا سوى النحيب، والاشتياق إلى الحرية، والتفكير في الطعام...

وقضاء حاجتي. أما من ناحية قضاء الحاجة، فأقضيها بسلاسة... ما يُبقيني مُتفائلًا. (المترجم)

[←130]

صورة عبثية ترمي إلى تعزيز الآيديسيس. فَرَس تأكل لحمًا عفنًا، وفي بستان الأكاديمية! دهمَتْني نوبة ضحك شديدة إلى حدٍّ ذعرتُ له في خاتمة المطاف، ثم أغرقتُ في الضحك مرة أخرى، يحدوني إلى ذلك خوفي. طرحتُ الأوراق أرضًا، وأمسكتُ بطني بكلتا يدي، وشرعتُ أقهقه بقوة أكبر فأكبر، بينما انعكسَتْ على مرآتي الذهنية صورةُ رجل ناضج مُنحسِر الشعر عند الصدغيْن، أسوده، مستغرق في الضحك، داخل حجرة تغشاها العزلة، موصدة بالضبّة والمفتاح، تكاد تكون غارقة في عتمة مطبقة. فلَمْ تُضحكني تلك الصورة، بل أبكَتْني، فثمة نقطة قصوى جديرة بالفضول تذوب عندها الحدود بين الضحك والبكاء. فَرَسٌ من آكلات اللحوم في أكاديمية أفلاطون! أليس طريفًا؟ وبالطبع، يعجز كلٌّ من أفلاطون ودياغوراس عن رؤيتها! تنطوي هذه الآيديسيس على قدر من الانتهاك المُضلِّل...

يقول مونتالو: «إن حضور حيوان كهذا يفضي إلى اختلاط الأمور علينا. هذا ولم تُشِر المصادر التاريخية للأكاديمية إلى وجود أفراس من آكلات اللحوم في البساتين. تراه خطأً، على غرار الأخطاء الكثيرة التي وقع فيها المؤرِّخ هيرودوت؟». هيرودوت!...

فعلًا؟...

عليَّ بالإمساك عن الضحك. يُقال إن القهقهة أول الجنون. (المترجم)

[←131]

«من دون أن يعرف لذلك سببًا»؟ أشعر برغبة في الضحك مرة أخرى! من الواضح أن الصور الآيديسيَّة كثيرًا ما تتسلَّل إلى وعي دياغوراس، في حين أنها لا تتسلَّل إلى وعي هراقليس قط، فالأخير لا يرى سوى ما تراه عيناه، على نحو يدعو إلى الفضول. لقد تحوَّلَت «ابتسامة الفَرَس» إلى ذكرى ابتسامة مينيكمو. (المترجم)

[←132]

إن تحوُّل الفَرَس الآيديسيَّة إلى شحرور واقعي (أي ينتمي إلى الواقع الروائي) يبرز الرسالة الغامضة التي ينطوي عليها هذا المشهد. هل يهزأ الشرُّ بالفيلسوفيْن؟ دعونا نتذكَّر أن لون الشحرور أسود... (المترجم)

[←133]

أتى وعلى وجهه قناع آخر (يمثِّل وجه رجل باسم هذه المرة). قمتُ عن المكتب. جاء صوته مكتومًا من خلف أمارات الاستهزاء:

- هل اكتشفتَ المفتاح النهائي؟

- من أنت؟

فأجاب سجَّاني:

- أنا السؤال.

ثم أعاد سؤاله:

- هل اكتشفتَ المفتاح النهائي؟

- دعني أخرج من هنا...

- حينما تكتشفه. هل اكتشفتَ المفتاح النهائي؟

فصحتُ به وقد فقدتُ السيطرة على الركاب، وأفلَتَ مني زمام هدوئي الآيديسي:

- كلا! فمن خلال الآيديسيس، يشير العمل إلى مآثر هرقل...

وفتاة ممسكة بزهرة زنبق، ومترجم...

غير أني لستُ أدري ما قد يعنيه كل ذلك! فأنا...!

قاطعني بجدية هازئة:

- ربما كانت الصور الآيديسيَّة بعضًا من المفتاح وحسب. ما موضوع العمل؟

فتلعثمتُ قائلًا:

- تحريات في جرائم قتل...

كان يبدو أن الشخصية الرئيسية قد عثرَتْ على الجاني، أما الآن...

الآن برزَتْ مشكلات جديدة...

ما زلتُ لا أدري كنهها.

بدا أن مُختطِفي قد أطلق ضحكة مقتضَبة. وأقول «بدا» لأن قناعه كان سرابًا تنعكس عليه انفعالاته. عندئذ قال:

- من الجائز أيضًا ألّا يكون هنالك مفتاح نهائي، أليس كذلك؟

فأجبتُه من فوري:

- لستُ أظنّ.

- ولمَ؟

- لو لم يكُن هنالك مفتاح نهائي، لما كنتُ أنا حبيسًا هنا.

بدا مُتفكِّهًا:

- أوه، عظيم. ولذا فأنا عندك بمثابة دليل على وجود مفتاح نهائي!...

أو بمعنى أصح، الدليل الأكثر أهمية!

ضربتُ المكتب بيدي. صرخت:

- حسبك! فأنت تعرف العمل! بل وعمدتَ إلى تغييره، فأعددتَ صفحات زائفة ودسستَها بين الصفحات الأصلية! كما أنك تتقن كلًّا من أسلوب العمل واللسان الذي كُتِب به! فما حاجتك إليَّ؟

ظلَّ القناع يضحك، وإن بدا صاحبه مُستغرِقًا في التفكير لبرهة. ثم قال:

- لم أغيّر شيئًا في العمل على الإطلاق. ما مِنْ صفحات زائفة. كل ما هنالك أنك ابتلعتَ طعمًا آيديسيًّا.

- ماذا تعني؟

- عندما يشتمل نصٌّ على آيديسيس بالغة القوة، كما في هذه الحالة، يستحوذ على القارئ هوسٌ بالصور حتى تزجَّ به في العمل على نحو ما. فليس ممكنًا أن يستحوذ علينا هوسٌ بشيء ما لم نشعر، في الوقت نفسه، بأننا بعضٌ منه. في عيني الحبيب تخال أنك ناظِر حبَّه، وفي كلمات الكتاب الآيديسي تخال أنك كاشِف حضورَك...

فتَّشتُ أوراقي، في ضيق. أشرتُ إلى إحداها:

- وكذلك هنا؟ كذلك حين تحدَّث هراقليس اليونتوري إلى مترجم مزعوم رهن الاختطاف، في الفصل الثامن الزائف؟ كذلك هنا ابتلعتُ «طعمًا آيديسيًّا»؟

فأجاب بهدوء:

- هذا ما كان. على مدار العمل يرِد ذكر مترجم يخاطبه كرانتور بضمير المخاطب أحيانًا، ويتحدَّث إليه هراقليس في ذلك الفصل «الزائف»...

ما لا يعني أنك أنت هذا المترجم!...

لم أدرِ بما أردّ، إذ كان منطقه دامغًا. وفجأةً سمعتُ ضحكته المقتضبة عَبْر القناع. قال:

- آهٍ، الأدب! القراءة لا تعني التفكير وحيدًا يا صديقي، بل تعني المحاورة! ولكنها محاورة أفلاطونية، حيث تحاورك فكرة! وعلى الرغم من ذلك، فهي ليست فكرة ثابتة، ذلك أنك تغيّرها من خلال محاورتها، وتجعلها فكرتك، حتى تصل إلى الاعتقاد بوجودها المستقل...

والكتب الآيديسيَّة تستغلُّ تلك السمة لتنصب شراكها بدهاء...

شراكها التي قد تفضي بك...

إلى الجنون.

وبعد صمت، أردف قائلًا:

- الأمر نفسه جرى لمونتالو، سلفك...

شعرتُ ببرد يسري في حشاي:

- مونتالو؟ مونتالو كان هنا؟

مضَتْ برهة صمت أخرى. ثم انفجر القناع ضاحكًا في صخب، وقال:

- بالطبع كان هنا...

لوقت أطول مما تظنّ! في واقع الأمر، الفضل يرجع إلى نسخته في معرفتي بهذا العمل، مثلي كمثلك. ولكني كنت أعرف أن كهف الأفكار يحجب مفتاحًا، ولذا احتجزتُ مونتالو هنا وأرغمتُه على البحث عنه. فأخفق في العثور عليه.

قال قوله الأخير وكأن «الإخفاق» تحديدًا ما يتوقَّعه من ضحاياه. أطرق برهةً في حين بدَتْ الابتسامة المرتسمة على قناعه وكأنها تتَّسع. تابع قائلًا:

- سئمتُ، وعندئذ فتكَتْ به كلابي لتُشبع نهمها...

ثم ألقيتُ بجثته في الغابة. ظنَّتِ السلطات أن الذئاب قد نهشَتْه.

وبعد برهة صمت جديدة، أردف قائلًا:

- ولكن لا تقلق، فلن أسأم منك قبل مضي وقت طويل.

فاستحال خوفي غضبًا.

- أنت...

أنت رجل فظيع عديم الرحمة...

أطرقتُ محاولًا العثور على الكلمة الملائمة: «قاتل»؟ «مجرم»؟ «جلَّاد»؟ وفي خاتمة المطاف، صحتُ به يائسًا، مُدركًا أن نفوري منه عصيٌّ على الترجمة:

- ...لغو فارغ!

ثم تابعتُ في تحدٍّ:

- أتظنّ أنك تخيفني؟...

إنك أنت الذي تخشاني، ولذا تواري وجهك!

فقاطعني:

- أتودُّ نزع قناعي؟

ساد صمت عميق. قلتُ:

- كلا.

- ولمَ؟

- لأني إن رأيتُ وجهك، أعرف أنني لن أخرج من هنا على قيد الحياة...

سمعتُ ضحكته المقتضبة المقيتة مُجدَّدًا.

- وعليه، فأنت في حاجة إلى قناعي لضمان سلامتك، وأنا في حاجة إلى حضورك لضمان سلامتي! ما يعني أن ليس في وسعنا الافتراق!

ولَّى وجهه شطر الباب، ثم أوصده من خلفه قبل أن أتمكَّن من بلوغه. بلغني صوته من خلال شقوق الباب الخشبي:

- تابِع الترجمة. وضعْ في اعتبارك ما يلي: إن كان هنالك مفتاح وتمكَّنتَ من اكتشافه، فلسوف تخرج من هنا. أما إن لم يكُن له وجود، فلن تخرج أبدًا. لذا فأنت المُنتفِع الأكبر بوجود مفتاح لهذا العمل، أليس كذلك؟ (المترجم)

[←134]

«لها عبير امرأة نفَّاذ. أما الملمس... أوه، أي صلابة غضّة! شيء يشبه نعومة نهد فتاة وخشونة ذراع رياضي في آن». هكذا جاء الوصف العبثي الذي خصَّ به مونتالو بردية الفصل العاشر. (المترجم)

[←135]

تُعدُّ كلمة السِّر المُشار إليها هنا (سرعان ما نعرف أننا إزاء كلمة سر) بمثابة نسخة طبق الأصل مما دار بيني وبين مُختطفِي في لحظة بعينها خلال الحديث الذي تبادلناه منذ ساعات قلائل. نسخة تتَّسم بدقة عجيبة. تُراه «طعمًا آيديسيًّا» آخر؟ (المترجم)

[←136]

تاراسك: كائن أسطوري عبارة عن هجين من عدة حيوانات.

[←137]

مرة أخرى، تدفعني «الفتيات» و«البتلات البيض» إلى التفكير في صورة فتاتي، فتاة زهرة الزنبق. فأراها تعدو تحت شمس بلاد الإغريق الحارقة، ممسكة بزهرة زنبق، مفعمة بالبهجة، واثقة من ذاتها...

أرى كل ذلك في هذه الفقرة البشعة! أوه، أي كتاب آيديسي ملعون! (المترجم)

[←138]

تيتان (أو الجبابرة): جنس من الآلهة سابق على آلهة الأولمب.

[←139]

أرجو من القارئ ألا يعير انتباهًا لتلك السمات الأنثوية والذكورية التي اجتمعَتْ لدياغوراس فجأةً، علمًا أنها صورة آيديسية. إن الإبهام الجنسي، الذي طغى على وصف الشخصيات الثانوية في الفصل الحالي، يطال الآن واحدًا من الشخصيات الرئيسية. كما يبدو أنها إشارة إلى حضور مأثرة حزام هيبوليتا، حيث يتعيَّن على هرقل مواجهة الأمازونيات (العذارى المحاربات، أو بعبارة أخرى النساء المسترجلات) من أجل سرقة حزام هيبوليتا، ملكة الأمازونيات. وعلى الرغم من ذلك، أعتقد بأن المُؤلِّف يسمح لنفسه بإلقاء دعابة لاذعة على حساب واحد من الشخصيات الأكثر «جدية» في العمل بأسره (تصوَّرتُ دياغوراس بالهيئة التي ذكرها المُؤلِّف فاستغرقتُ في الضحك مُجدَّدًا). وفي رأيي أن حسَّ الدعابة الغروتسكي هذا لا يختلف كثيرًا عن حسِّ الدعابة الذي يتَّسم به سجَّاني المُقنَّع...

(المترجم)

[←140]

عن أي بعد؟ من هنا بالأسفل؟ (المترجم)

[←141]

أمضيتُ زمنًا أطول مما ينبغي وأنا حبيسٌ في هذه الزنزانة. للحظةٍ بدا لي ممكنًا أن أترجم هاتيْن العبارتيْن بصورة أقل فجاجة، ربما على النحو التالي: «كان القمرُ نهدًا، والغيمةُ تداعبه بأنملتها. كان القمرُ فُوَّهةً، والغيمةُ الرقيقةُ الحواف تصبو إلى الانزواء فيها»، أو شيء من هذا القبيل. على كل حال، هذه الترجمة أكثر شاعريةً بكثير من تلك التي اخترتُها. إلا أن...

أوه، هيلانة! كم أذكركِ وأحتاج إليكِ! لطالما ظننتُ بأن الرغبات المادية في خدمة النشاط الذهني النبيل وحسب...

أما الآن...

كنتُ أبذل الغالي والنفيس من أجل لقاء حميمي ساخن! (وأقولها هكذا، من دون لفٍّ أو دوران، فمن سيقرأ كل هذا؟ لنكُن صادقين مع أنفسنا!). أوه، الترجمة، الترجمة. مأثرة حمقاء من مآثر هرقل، نزولًا عند أمر الملك العبثي يوروستيوس، ذلك الملك الذي أمر هرقل بإنجاز مآثره جميعًا بحسب ما ورد في الأساطير الإغريقية! فليكُن إذًا! ألستُ أنا سيد ما أكتب، وأنا في هذا الحصن المعتم؟ فلتكُن هذه ترجمتي إذًا، مهما بدَتْ صادمة! (المترجم)

[←142]

ما هذا؟ من الجلي أن كلمة «مراقبة» تشهد طفرة آيديسية مفاجئة! ولكن...
ماذا تعني؟ ترى، أيكون هناك من «يراقب» هراقليس؟ (المترجم)

[←143]

سكاكين! الآيديسيس، إنها تتكاثر فجأةً كما يتكاثر اللبلاب السام!

ما الصورة المحجوبة؟

«المراقبة»... «السكاكين»...

أوه، هراقليس، هراقليس. حذار، فالخطر يحدِق بك! (المترجم)

[←144]

والآن، «ظهر»! إنه تحذير! ربما كان يعني: «راقبْ ما يدور خلف ظهرك... فثمة سكين مُصوَّب إليك».

أوه، هراقليس، هراقليس! كيف لي أن أحذِّرك؟ كيف؟ لا تقربها! (المترجم)

[←145]

يرمي تكرارُ الكلمات الآيديسية الثلاث في هذه الفقرة إلى تعزيز الصورة! هراقليس، راقب ما يدور خلف ظهرك، فهي تحمل سكينًا! (المترجم)

[←146]

لا تولها ظهرك! (المترجم)

[←147]

كلا، ملعون أنت!! (المترجم)

[←148]

ما زال الخطر قائمًا، فالكلمات الثلاث تعاود الظهور بإصرار كتحذيرات آيديسية! (المترجم)

[←149]

ترتخي أجفاني أمام هذه الكلمات الباعثة على النوم بالإيحاء. (المترجم)

[←150]

إني أنا هو. ما تلك أوصاف هراقليس، بل أوصافي أنا. إني أنا ذلك الذي استلقى على الفراش مع ياسينترا! (المترجم)

[←151]

شيء فظيع أن أرى نفسي هناك، أن أرى وصفًا لنفسي خلال لقاء حميمي. ربما كان القُرَّاء جميعًا يتخيَّلون أنفسهم في مشاهد من هذا القبيل. فيتصوَّر القارئ أنه هو وتتصوَّر القارئة أنها هي. أحسُّ بالإثارة رغم محاولتي تجنُّب ذلك. أقرأ وأكتب، وأحسّ بلذَّة غريبة جارفة في آن... (المترجم)

[←152]

كلمات التحذير الآيديسية الثلاث: «ظهر»، و«سكين»، و«مراقبة»! إنه شرك! يجب عليَّ أن...

أعني، يجب على هراقليس أن... (المترجم)

[←153]

إنها كلماتي أنا! كتبتُها لتوّي في حاشية سابقة! (وضعتُ خطًّا تحتها في المتن والحاشية كيما يتحقَّق القارئ منها). بالطبع، كنت قد كتبتُها قبل ترجمة العبارة المُشار إليها. ألا يكاد يكون ذلك مزجًا ما بين أمريْن؟ أليس عملًا من أعمال الحب؟ فما مطارحة الغرام إن لم تكُن مزجًا ما بين الواقع والخيال؟ أوه، ما أروع اللذَّة النصِّيَّة: أن أربت على النص، وأتلذَّذ بالنص، وتداعب ريشتي النص! لستُ آبه لكون اكتشافي عارضًا. فلم يعُد لدي أدنى شك، إني أنا هو، هناك، برفقتها... (المترجم)

[←154]

لم يتمكَّن هراقليس من الإتيان بردٍ فعل. ولا أنا. مضى هراقليس قدمًا. فمضيتُ أنا أيضًا. وهكذا حتى النهاية. كلانا اختار المضي قدمًا. (المترجم)

[←155]

فيمَ ظهور الكلمات الآيديسية التحذيرية مُجدَّدًا، الآن وقد بدا أن الخطر ما عاد يحدِق بهراقليس؟ (وضعتُ خطًّا تحت كلٍّ من الكلمات الثلاث). ماذا يجري؟ (المترجم)

[←156]

الآن فهمت! هراقليس، حذار، انتبه إلى ما يدور خلف ظهرك!! (المترجم)

[←157]

انظر خلفك!! (المترجم)

[←158]

لقد أنقذتُ حياتك يا صديقي القديم هراقليس اليونتوري! أمر لا يُصدَّق، ومع ذلك أظنُّ أنني قد أنقذتُ حياتك! يخطر لي أنها ربما كانت حقيقة فأبكي. دوَّنتُ صرختي في أثناء الترجمة، فسمعتَها أنت. بطبيعة الحال، ربما ظنَّ أحدهم أنني قد اطَّلعتُ على النص أولًا، ثم دوَّنتُ كلماتي في حاشية سابقة على ظهور تلك الكلمات في المتن. ولكنني أقسم بأن الأمر لم يجرِ على هذا النحو. ليس عن وعي، على الأقل...

والآن، ماذا تذكَّرتَ، هراقليس؟ ولمَ لا أتذكَّر الأمر نفسه أنا الآخر؟ ينبغي لي أن أدرك ما أدركتَه أنت، ولكن...! جرَتْ أمور مهمة. انصرف سجَّاني لتوِّه. كنتُ أدوِّن الفقرة السابقة حين دخل بحدة وعلى نحو غير مُتوقَّع كعهدي به أبدًا. جاء وعلى وجهه القناع نفسه الذي يمثِّل وجه الرجل الباسم، مُتَّشحًا بالرداء الأسود. جعل يذرع زنزانتي الصغيرة جيئةً وذهابًا قبل أن يسألني:

- كيف تسير الأمور؟

- انتهيتُ من ترجمة الفصل العاشر. الآيديسيس الواردة به تمثِّل مأثرة حزام هيبوليتا، والنساء المحاربات، أي الأمازونيات. ثم استطردتُ في حديثي:

- ولكنني هناك أنا أيضًا.

- حقًّا؟

فقلتُ:

- وأنت أعلم الناس بذلك.

جعل قناعه يتأمَّلني بابتسامة دائمة. قال:

- قلتُ لك إنني لم أضِف إلى العمل شيئًا.

تنفَّستُ عميقًا ورجعتُ إلى حواشيَّ.

- خلال اللقاء الحميمي بين الراقصة ياسينترا وهراقليس، يوصَف جسمه «بالنحول». غير أن هراقليس بالغ البدانة كما يعرف القارئ بالفعل.

- وماذا في ذلك؟

- أنا نحيل!

جاءت قهقهته مُفتعَلة من خلف العقبة المُتمثِّلة في القناع. وحين فرغ من الضحك قال مُعقِّبًا على قولي:

- إن اللفظة الإغريقية لبيتوس قد تعني «نحيلًا» أو «مرهفًا». وكما يعرف سائر القُرَّاء، فالمقصود بالحديث هنا ذكاء هراقليس اليونتوري، وليس قوامه...

أذكر العبارة، وقد ورد فيها ما يلي حرفيًا: «أما هراقليس المرهف فقد توتَّر جسده». إذ يُشار إليه باسم «هراقليس المرهف»، مثلما يشير هوميروس إلى يوليسيس واصفًا إيَّاه بـ«الحاذق»...

عاود الضحك. ثم استطرد في حديثه:

- بالطبع، كنتَ تودُّ ترجمة لبيتوس بمعنى «نحيل»، ولي أن أتخيَّل دوافعك الكامنة وراء ذلك! إلا أنك لستَ وحدك، لا تقلق. فكلٌّ يقرأ ما يشتهي قراءته. وما الكلمات إلا جملة رموز تتأقلم لتلائم ذائقتنا على الدوام. وبالمثل راح يهزأ بباقي الأدلة المُفترَضة: فربما كان شَعْرُ هراقليس أيضًا «ينحسر عند الصدغيْنِ على نحو جلي». أما الإشارة إلى اللحية «السوداء» شأن لحيتي، بدلًا من لحية هراقليس «المُفضَّضة»، فلعلَّها زلَّة وقع فيها الناسخ. أما الندبة، «تلك الذكرى التي طبعَتْها على وجنته اليسرى الضامرة إصابةٌ من عهد الطفولة» -بالغة الشبه بتلك التي أحدثها في وجنتي أحد زملاء الدراسة- فلا شك أنها كانت «مصادفة»، والقول نفسه يسري على خاتم الإصبع الوسطى من اليد اليسرى.

قال:

- الآلاف لهم ندوب ويضعون خواتم. كل ما هنالك أنك معجب بالشخصية الرئيسية وتودُّ التشبُّه بها مهما كلَّف الأمر...

لا سيما في اللحظات الأجدر بالاهتمام. وذلك ما يزعمه كل قارئ، فتحسبون أن المُؤلِّف قد وضع النصَّ وهو يفكِّر فيكم، وتقرأونه فتتخيَّلون المشاهد على طريقتكم!

وفجأةً بدا صوته بالغ الشبه بالتعبير المرتسم على القناع.

- تراك...

تراك استمتعتَ وأنت تقرأ تلك الفقرات، ها؟ لا تنظر إليَّ هكذا، فذلك أمر شائع! استغلَّ صمتي الثقيل، فدنا مني وقرأ الحاشية التي رحتُ أدوِّنها قبل أن يقاطعني.

وفيما هو واقف خلف ظهري، سمعتُه يقول بنبرة تشي بعدم التصديق:

- ماذا؟ «أنقذت حياة» الشخصية الرئيسية؟ أوه، أي قوى تسكن الكتب الآيديسيَّة!...

أمر يدعو إلى الفضول، عملٌ كُتِب منذ أمد سحيق...

وما زال يثير ردود فعل كتلك!

بَيْد أن قهقهته الجديدة انقطعَتْ بحدة عندما أجبتُه:

- ربما لم يُكتَب منذ أمد سحيق.

طاب لي أن أكيل له الصاع بمثله! وعَبْر تجويفَيّ القناع، تأمَّلَتْني عيناه العصيتان على النفاذ لحظةً. ثم عاجلني بسؤاله:

- ماذا تعني؟

- يؤكِّد مونتالو أن بردية الفصل العاشر لها عبير امرأة، وملمس ناعم كـ«نهد فتاة» وخشن كـ«ذراعِ رياضي» في آن. وعلى سخافة هذه الملاحظة نجدها تتَّسم بالطابع الآيديسي، بطريقتها الخاصة، ذلك أنها تمثِّل «المرأة المسترجلة» أو «المرأة المحاربة» في مأثرة حزام هيبوليتا. وإن عُدنا إلى الوراء، لوجدنا أمثلة مشابهة في الأوصاف التي ساقها مونتالو لبردية كل فصل...

- وماذا تستنبط من ذلك؟

- أن تدخُّل مونتالو يمثِّل شقًّا من النص. ابتسمتُ إزاء صمته. ثم أردفتُ:

- تتَّسم الحواشي الهامشية القليلة التي أوردها مونتالو بطابع آيديسي وليس لغوي، كما أنها تُعزِّز الصور الواردة في الكتاب. لطالما فوجئتُ بأن مونتالو العلَّامة لم ينتبه إلى الطابع الآيديسي الذي يميِّز كهف الأفكار. والآن أعرف أنه كان مُلمًّا بذلك، فراح يتلاعب بالآيديسيس مثلما فعل المُؤلِّف في العمل...

فأقرَّ بقوله:

- أرى أنك قد فكَّرتَ في الأمر. وماذا أيضًا؟

- إن كهف الأفكار، كما نعرفه، عمل زائف. والآن أدركتُ لماذا لم يسمع به أحد...

فلسنا نملك سوى نسخة مونتالو، بل إننا لا نملك حتى النسخة الأصلية. على كل حال، لقد وُضِع هذا العمل مع الأخذ في الحسبان بمترجم مُحتمَل، إذ نجده زاخرًا بحيَل وشراكٍ لا يقدر على إعدادها إلا زميل يضارع المترجم في المكانة العلمية، أو يتفوَّق عليه فيها...

وليس يخطر لي سوى تفسير وحيد...

مونتالو هو كاتب العمل! لم ينبس القناع. فمضيتُ في حديثي لا أنثني:

- لم تُفقَد النسخة الأصلية من كهف الأفكار، بل إن نسخة مونتالو هي الأصل! فسأل سجَّاني بنبرة محايدة:

- ولمَ عساه يكتب شيئًا من هذا القبيل؟

أجبتُه:

- لأنه قد جُنَّ. إذ استحوذ على مونتالو هوس الكتب الآيديسيَّة، اعتقادًا منه بأنها قد تمثِّل برهانًا على صحة نظرية الأفكار الأفلاطونية، وبالتالي فهي قد تمثِّل برهانًا على أن العالَم والحياة والكون كلَّها معقول وعادل. بَيْد أن ذلك لم يتحقَّق له. عند ذاك جُنَّ جنونه، وكتب عملًا آيديسيًّا بنفسه، مُستعينًا بمعرفته الهائلة بكلٍّ من الآيديسيس واللسان الإغريقي. فأزمع على توجيه العمل إلى زملائه أنفسهم، وكأني به يقول: «انظروا! إن للأفكار وجودًا! إليكم! هيَّا! عليكم باكتشاف المفتاح النهائي!»...

فقال سجَّاني:

- ولكن مونتالو كان يجهل المفتاح النهائي. كما أنني احتجزتُه هنا...

رحتُ أتفرَّس في تجويفَي القناع السوداوين وقلتُ:

- حسبك أكاذيب، يا مونتالو...

ما كان ليقولها خيرًا مني ولا حتى هراقليس اليونتوري نفسه!

ثم أردفتُ مُستغِلًّا صمته:

- برغم كل شيء، فقد لعبتَ لعبةً ذكية. الأرجح أنك استعنتَ بجثة أحد المُتسكِّعين...

أؤثر التفكير بأنك قد عثرتَ عليه ميِّتًا بالفعل ثم ألبستَ جثته ثيابك المُمزَّقة، مُحاكيًا بذلك الحيلة التي ابتكرتَها لإخفاء مقتل إيونيو...

أما وقد صرتَ «مُتوفًّى» بصفة رسمية، فقد شرعتَ تتحرَّك في الظلّ...

فكتبتَ هذا العمل آخذًا في الحسبان مترجمَه المحتمل. وعندما تحقَّقتَ لاحقًا من كوني أنا المُكلَّف بالترجمة، شرعتَ في مراقبتي. فأضفتَ صفحات زائفة بقصد إرباكي، حتى يستحوذ عليَّ الهوس بالنص رغمًا عني، فعلى حدِّ قولك: «ليس ممكنًا أن يستحوذ علينا هوسٌ بشيء ما لم نشعر، في الوقت نفسه، بأننا بعضٌ منه». وأخيرًا، عمدتَ إلى اختطافي واحتجازي هنا...

ربما كان هذا قبو بيتك...

أو المخبأ الذي سكنتَ فيه منذ اختلقتَ أمر موتك...

ثم ماذا تريد مني، إن لم يكُن ما أردتَه دومًا؟ أي البرهنة على وجود الأفكار! فلو أنني استطعت اكتشاف الصور التي حجبتَها أنت في كتابك، لكان ذلك دليلًا على أن للأفكار وجودًا مُستقلًّا عمَّن يفكِّر فيها، أليس كذلك؟ وبعد صمت بالغ الطول، ظلَّ وجهانا خلاله قناعيْن باسميْن، سمعتُه يقول مُشدِّدًا على كل كلمة من كلماته:

- أيها المترجم، حسبك أن تبقى في كهف حواشيك. ولا تحاول الخروج من هذه الزنزانة، ثم الصعود إلى المتن. فما أنت بكاشف ألغاز، مهما رغبت في ذلك...

ما أنت بأكثر من مُجرَّد مترجم. وعليه، تابعْ الترجمة! فأجبتُه في تحدٍّ:

- ولمَ أكتفي بكوني مترجمًا، إن لم تكتفِ أنت بكونك قارئًا؟ بما أنك مُؤلِّف هذا العمل، فدعني أقتدِ بشخوصه!

فقال القناع في ما يشبه الأنين:

- أنا لستُ مُؤلِّف كهف الأفكار! ثم خرج وصفق الباب من خلفه.

أشعر بتحسُّن. أعتقد بأن النصر قد حالفني في هذه المعركة. (المترجم)

[←159]

صحوت على أصوات كلاب تنبح في هياج. ما زلتُ أسمعها. لا يبدو مكانها بعيدًا كل البعد عن زنزانتي. أتساءل إن كان سجَّاني يسعى لإخافتي، أو أنها لا تعدو كونها مصادفة (ثمة أمر واحد صحيح على الأقل، فهو لم يكذبني القول حين أخبرني بشأن كلابه، ذلك أن لديه كلابًا بالفعل).

وعلى الرغم من ذلك، فهناك احتمال ثالث يحمل قدرًا من الغرابة: فما زال أمامي فصلان للانتهاء من الترجمة، وكلا الفصليْن يشتمل على واحدة من مآثر هرقل. في حالة كان الترتيب صحيحًا، فإن المأثرة الواردة في الفصل الحالي-الحادي عشر- هي أسْر الكلب كيربيروس، حيث ينزل هرقل إلى الجحيم حتى يأسر الكلب الخطير ذا الرؤوس الثلاثة، الذي يحرس بوابات الجحيم بضراوة. (أما الفصل الأخير فيشتمل على مأثرة تفاحات الهسبيريديات).

وعليه أتساءل: هل ينتوي حارسي المُقنَّع أن يصنع الآيديسيس من الواقع؟ ومن جهة أخرى، يؤكِّد مونتالو أن البردية: «مهترئة، قذرة، تفوح منها رائحة كلب نافق». (المترجم)

[←160]

كانت رمية النرد المعروفة باسم «الكلب» هي الأبخس قيمة، ذلك أنها كانت تساوي نقطة واحدة. وعلى الرغم من ذلك، يستعين بها المُؤلِّف للتشديد على الآيديسيس. وبالمناسبة، ما زالت الكلاب تنبح خارجًا. (المترجم)

[←161]

تنطوي الفقرات الأخيرة على حيرة تدعو إلى الفضول بين «اليمين» و«اليسار»، مثال ما قيل عن زنزانة سقراط وعيني العبد حارس البوابة. ربما كانت تلك الحيرة ترمي إلى تصوير رحلة هرقل عَبْر متاهات مملكة الموتى. (المترجم)

[←162]

تستحضر حركة «النزول» الحاضرة منذ مطلع الفصل الحالي، علاوةً على الحيرة بين «اليمين واليسار»، رحلةَ هرقل إلى مملكة الموتى. يعمد المُؤلِّف إلى تعزيز الصورة، فيُطلِع القارئ على المشهد من منظور قطرة من قطرات المطر، نراها تطوي طريقًا طويلة نزولًا حتى تسقط على رأس هراقليس اليونتوري. (المترجم)

[<-163]

تستمرّ حركة «السقوط» السردية، من السماء وحتى صدر هراقليس اليونتوري الذي يعتلج به الاضطراب. (المترجم)

[←164]

لا هذا ولا ذاك، قطعًا. كل ما هنالك أن دياغوراس «يتشمَّم» الآيديسيس من على بعد، كدأبه دومًا. بالفعل تحوَّلَتْ أثينا في هذا الفصل إلى مملكة الموتى. (المترجم)

[←165]

غنيٌّ عن التنبيه، في ما أعتقد، أنه حضور آيديسي وليس شبحًا. إذ يعجز الطفل وهراقليس عن رؤيته كما يعجزان عن رؤية علامات التنقيط في نصِّ العمل، على سبيل المثال. (المترجم)

[←166]

أستميحك عذرًا يا صديقي هراقليس. من لي بالتخفيف عنك؟ كنتَ في حاجة إلى قولٍ آخر، وكان بوسعي أن أقدَّمه لك، أنا المترجم القادر على كل شيء...

وعلى الرغم من ذلك، فلا يجدر بي أن أفعل! فالنصُّ مُقدَّس، هراقليس. وعملي مُقدَّس. تتوسَّل إليَّ، تحثُّني على مدِّ عمر الكذبة...

فتقول: «ليس الكذب بالكلمات عسيرًا». وأنت مُحقٌّ في ما تقول، ولكنني أقف عاجزًا عن مساعدتك...

فما أنا بكاتب، بل مترجم...

وواجبي يحتِّم عليَّ تنبيه القارئ الحليم إلى أنني قد اختلقتُ ردَّ إتيس هذا، وأعتذر عمَّا بدر مني. أعود بضعة أسطر إلى الوراء ثم أكتب ردَّ إتيس كما ورد في الأصل. معذرةً، هراقليس. معذرةً، أيها القارئ. (المترجم)

[←167]

من الواضح أن نبوءة إتيس لم تصدق. فقد اتَّخذَتِ المعتقدات الدينية مناحي أخرى، من حسن الحظ! (المترجم)

[←168]

شيء غروتسكي. يلقى مينيكمو حتفه فيتحوَّل جسده البشع إلى جسد فتاة زهرة الزنبق. أحتار في أمر هذا التلاعب القاسي بالصور الآيديسيَّة. (المترجم)

[←169]

أدوِّن هذه الحاشية وهو واقف أمامي. والحقُّ أنني لا آبه لذلك، إذ كدتُ آلف حضوره. كعهدي به دومًا، تصادف دخوله إلى المكان مع انتهائي من ترجمة الفصل، فيما رحتُ أتهيَّأ لنيل قسط قصير من الراحة. سمعتُ صرير الباب فتساءلتُ أي قناع يضعه يومئذ. بَيْد أنه جاء بلا أقنعة. تعرَّفتُ عليه في الحال، بالطبع، فصورته معروفة لدى أبناء المهنة: الشعر الأبيض المنسدل على الكتفيْن، والجبين الصافي، وأخاديد الشيخوخة الواضحة على الوجه، واللحية الخفيفة...

قال مونتالو:

- كما ترى، أسعى لأن أكون صادقًا معك. أصبتَ في بعض ما قلت، ولذا فلن أحجب عنك وجهي أطول مما فعلت. في واقع الأمر، لقد اختلقتُ قصة موتي وانزويتُ في هذا المخبأ الصغير، غير أنني تتبَّعت أثر نسختي رغبةً مني في معرفة المترجم الذي عُهِد إليه بها. فحدَّدتُ موقعك وراقبتُك حتى تمكَّنت من إحضارك إلى هنا أخيرًا. كذلك حقٌّ أن ما توعَّدتُك به كان مُجرَّد لعبة لئلا تفقد اهتمامك بالعمل...

كما فعلتُ حين عمدتُ إلى تقليد كلمات ياسينترا ولفتاتها...

كل هذا صحيح. أما لو ظننتَ أنني مُؤلِّف كهف الأفكار، فأنت مخطئ. فقلتُ:

- وتقول عن نفسك صادقًا؟ تنفَّس عميقًا وقال:

- أقسم لك إنني لا أكذب. ولمَ سأرغب في اختطافك للعمل على مُؤلَّفي أنا؟

فأجبتُه بهدوء:

- لأنك كنتَ في حاجة إلى قارئ. وما عسى أن يفعل المُؤلِّف من دون القارئ؟

بدا مونتالو مُتفكِّهًا بنظريتي. قال:

- هل أنا من الشر بحيث أختطف أحدهم ليقرأ ما أكتب؟

فأجبتُه:

- كلا، ولكن ما القراءة؟ القراءة مهمَّة خفيَّة. كان أبي كاتبًا، ولذا فأنا على دراية بأن المُؤلِّف حين يكتب فهو يخلق صورًا، تتبدَّى لأعين الآخرين لاحقًا بهيئات مغايرة، لا تخطر للمبدع نفسه على بال. أما أنت فكنتَ في حاجة لمعرفة رأي القارئ يومًا بيوم، لأنك تحاول البرهنة على وجود الأفكار من خلال عملك! ابتسم مونتالو في شيء من الدماثة المشوبة بالتوتُّر، ثم أقرَّ بقوله:

- حقيقة أنني، لأعوام طوال، أردتُ البرهنة على صحة ما ذهب إليه أفلاطون من أن للأفكار وجودًا، وبالتالي البرهنة على كون العالَم خيِّرًا، معقولًا، عادلًا. ظننتُ الكتبَ الآيديسيَّة قادرة على أن تزوِّدني بذلك البرهان، فلا حالفني نجاح ولا مُنيتُ بإخفاق فادح...

حتى عثرت على مخطوط كهف الأفكار، مخفيًّا منسيًّا في خزانات مكتبة عتيقة...

أطرق برهةً وزاغت نظراته في عتمة الزنزانة.

- تحمَّستُ للعمل في بادئ الأمر...

وكما فعلتَ أنت أيضًا، أدركتُ الصور المرهَفة بين دفَّتَيْه. ذلك الخيط المُتقَن الذي يؤدِّي إلى مآثر هرقل وفتاة زهرة الزنبق...

كنت أزداد يقينًا بأنني قد عثرتُ أخيرًا على الكتاب الذي قضيتُ حياتي أبحث عنه!...

رمقني بعينيْه مرة أخرى، فانتبهتُ إلى ما يعتمل في نفسه من قنوط دفين.

- عند ذاك...

بدأتُ أحسّ شيئًا غريبًا...

احترتُ في أمر صورة «المترجم»...

وددتُ الاعتقاد بأنني قد ابتلعتُ «طعمًا» وسمحتُ لتيار النصِّ بأن يجرفني، كما يحصل مع أي مبتدئ...

إلا أنني كلما استرسلتُ في القراءة، جاش ذهني بشكوك غامضة...

كلا، ما كان ذاك مُجرَّد «طعم»، بل أكثر من ذلك...

وحين بلغتُ الفصل الأخير...

عرفت. أطرق برهةً. كان شحوبه مُروِّعًا، وكأن الحياة قد فارقته البارحة. استطرد في حديثه:

- اكتشفتُ المفتاح فجأةً...

وأدركتُ أن كهف الأفكار ليس برهانًا على وجود ذلك العالَم الأفلاطوني الخيِّر المعقول العادل. بل إنه، على العكس من ذلك، يُعدُّ بمثابة برهان على النقيض تمامًا. ثم انفجر صائحًا فجأةً:

- أجل، حتى وإن لم تصدِّق ما أقول، فهذا العمل يبرهن على أن الكون، أي ذلك الحيِّز المُنظَّم المضيء المفعم بالأسباب والآثار وتحكمه شرائع عادلة رحيمة، لا وجود له!...

وفيما راح يلهث على مرأى مني، تحوَّل وجهه إلى قناع جديد شفتاه مرتعشتان ونظراته زائغة، فدار بخلدي: «لقد جُنَّ جنونًا مطبقًا». (ولست أمانع في تدوين ذلك، حتى وإن طالعه مونتالو). ثم بدا أنه قد استردَّ هدوءه، فأردف بنبرة خطيرة:

- فزعتُ لهذا الكشف حتى نازعَتْني رغبة في الموت. فانزويتُ في بيتي...

وتركتُ عملي، وأبيتُ أن أتلقَّى الزوار...

بدأ يُشاع عني أنني جُننت...

وربما كان ذلك صحيحًا، فالحقيقة تبعث على الجنون أحيانًا!...

بل وفكَّرتُ في إمكانية التخلُّص من العمل، ولكن ما عساي أجني بذلك، ما دمتُ قد عرفتُه؟...

ولذا فقد اخترتُ الحلَّ الوسط. كان ظنُّك في محله، إذ خطرَتْ لي فكرة الاستعانة بجثة كهل فقير كي أختلق أمر موتي، فألبستُ الجثة ثيابي وشوَّهتُها حتى وكأنما قد نهشَتْها الذئاب...

ثم وضعتُ نسخة من كهف الأفكار راعيتُ فيها النصَّ الأصليَّ وعمدتُ إلى تعزيز الآيديسيس، وإن لم أشِر إليها صراحةً...

قاطعتُه سائلًا:

- ولمَ؟

للحظة نظر إليَّ وكأنه على وشك أن ينهال عليَّ ضربًا.

- أردتُ أن أعرف ما إذا كان القارئ المستقبلي سوف يهتدي إلى الاكتشاف الذي اهتديتُ إليه نفسه، من دون مساعدة من جانبي! ذلك أن كوني مخطئًا ظلَّ احتمالًا قائمًا، مهما بلغ من الضآلة. ثم أردف وقد تندَّتْ عيناه:

- وفي تلك الحالة، فلسوف ينجو العالَم...

عالَمنا (وأرجو أن أكون مُحقًّا في ذلك). حاولتُ الابتسام، إذ تذكَّرتُ أنه من الواجب معاملة المجانين بقدر كبير من الودّ. ثم قلت:

- مونتالو، أرجوك، حسبك. هذا العمل غريب بعض الشيء، أقرُّ بذلك، ولكنه لا يمتُّ بصلة لوجود العالَم...

ولا وجود الكون...

ولا حتى وجودنا. إنه كتاب، ليس أكثر. مهما بلغ من الآيديسيَّة، ومهما استحوذ علينا الهوس به، فلا يسعنا الذهاب أبعد مما ينبغي...

لقد قاربتُ الانتهاء من قراءته و...

فقال:

- ما زلتَ لم تقرأ الفصل الأخير بعد.

- صحيح، ولكني قاربتُ الانتهاء من قراءته و...

أعاد قوله:

- ما زلتَ لم تقرأ الفصل الأخير بعد.

فازدردتُ ريقي ورحتُ أتأمَّل مخطوط النصِّ مفتوحًا على المكتب. عدتُ أراقب مونتالو ثم قلتُ مُقترحًا:

- حسنًا. دعنا نفعل الآتي، لسوف أنتهي من الترجمة وأثبت لك أنه...

أنه مُجرَّد خيال، مُتقَن الكتابة إلى حدٍ ما، ولكنه مُجرَّد...

فقال:

- ترجِمْ!

لم أرِد إغضابه، فانصعتُ لأمره. ما زال هنا، يراقب ما أكتب. والآن أشرع في ترجمة الفصل الأخير. (المترجم)

[←170]

قلتُ معترضًا:

- «تفاح»! كم مبتذل أن يرِد ذكره مباشرةً!

فأقرَّ مونتالو بصحة ما قلت:

- صحيح. فالإشارة المباشرة إلى الشيء موضوع الآيديسيس في الصورة المجازية يُعدُّ أمرًا خاليًا من الذوق. كان ينبغي الاكتفاء بالكلمتيْن الأكثر تكرارًا منذ مطلع الفصل الحالي: «تدلّى» و«ذهبي»...

فأومأتُ مضيفًا:

- ...إشارةً إلى تفاحات الهسبيريديات الذهبية التي تتدلّى من الأشجار، أنا على دراية بذلك. ولذا أقول إنها صورة مجازية مبتذلة. علاوةً على ذلك، لستُ مُتأكِّدًا من أن كعكات التفاح «تغلي»...

- اصمتْ وتابعِ الترجمة. (المترجم)

[←171]

سألتُ مونتالو من فوري:

- هل لي أن أشرب؟

- انتظرْ. سأحضر ماءً. فأنا أيضًا عطِش. سأعود قبل أن تفرغ من تدوين حاشية تسرد فيها هذه المقاطعة. إيَّاك وأن تفكِّر حتى في إمكانية الهرب.

والحقُّ أن ذلك لم يخطر لي على بال. على كلٍّ، فقد التزم بكلمته وعاد لتوِّه يحمل دورقًا وقدحيْن.

(المترجم)

[←172]

عقَّب مونتالو قائلًا من فوره:

- يُحتمَل أن يكون باخوسيات عملًا آيديسيًّا، ألا تعتقد؟ فهو عمل يتطرَّق إلى الدماء، والموت، والسخط، والجنون.... ربما عمد يوريبيديس إلى وصف طقس من طقوس طائفة ليكايون من خلال الآيديسيس...

فأجبتُه:

- لستُ أظنُّ المُعلِّم يوريبيديس قد بلغ ذلك المبلغ من الجنون! (المترجم)

[←173]

- صدقَتْ تكهُّنات هراقليس! ربما كان مفتاح العمل يكمن هنا! أما مونتالو فيطالعني مطرقًا، ثم يقول:

- تابعْ الترجمة. (المترجم)

[←174]

أشير قائلًا:

- أمر يدعو إلى الفضول. مرة أخرى يتحوَّل الحديث إلى ضمير المخاطب...

فيقاطعني مختطفي بلهفة وكأننا قد بلغنا نقطة بالغة الأهمية في النص:

- استمرّ! ترجمْ! (المترجم)

[←175]

يسائلني مونتالو:

- ما خطبك؟

فارتجف قائلًا:

- كلمات كرانتور...

- ماذا بها؟

- أذكر أن...

أبي...

- ماذا؟

يحثُّني مونتالو على الكلام:

- ماذا؟ أبوك، ماذا عنه؟

- لقد نظم أبي قصيدةً منذ زمن مضى...

يحثُّني مونتالو على الكلام مرة أخرى. أحاول العودة بالذاكرة إلى الوراء.

كان مطلع قصيدة أبي كما يلي، بحسب ما أذكر:

يرفع الأفعوان هيدرا رؤوسه المُتعدِّدة، ويزمجر الأسد المُروِّع، أما الأفراس آكلات لحوم البشر فتقرع الأرض بحوافرها البرونزية.

وفيما أنا في أوج دهشتي، أقول:

- إنه مطلع قصيدة نظمها أبي!

ولبرهة يبدو مونتالو غاية في الحزن. يومئ برأسه ويهمهم:

- أعرف بقية القصيدة:

أحيانًا، تتبدَّى لي أفكار البشر، ونظرياتهم، كما لو أنها مآثر هرقل، في معركة أبدية مع الكائنات التي تعارض نُبلَ عقلها.

بَيْد أني أتصوَّر نفسي المسكينة، بين الفينة والأخرى، كمترجم حبيس، سجَّانُه مجنون، مرغم على كشف طلاسم نصّ عبثي، وأنا العاجز عن كشف معاني الأمور.

أما أنتِ، أيتها الحقيقة النهائية، أيتها الفكرة الأفلاطونية، فما أشبهكِ بزهرة زنبق، لها رهافتكِ وجمالكِ، بين يدي فتاة، كم تصرخين طلبًا للمساعدة، إذ تدركين، أن خطرَ العَدَم يطمركِ طمرًا!

آهٍ يا هرقل، تذهب بطولاتك سدًى، أما أنا، فلقد عرفتُ رجالًا بالمسوخ مُتيَّمين، يستسلمون بلذَّة إلى التضحية، ويتَّخذون لهم من النهشِ دينًا!

يجأر الثور مُضرَّجًا بالدماء، وينبح الكلب وينفث النيران، أما تفاحات البستان الذهبية فتحرسها أفعى لا تلين.

نسختُ القصيدة كاملة. أعيد قراءتها. أذكرها.

- إنها قصيدة من نظم أبي!

يخفض مونتالو عينيْه. ما عساه قائل؟

يقول:

- إنها قصيدة من نظم فيلوتِكستو الخيرسونيسي. أتذكر فيلوتِكستو؟

- الكاتب الذي يظهر في الفصل السابع، فيتناول العشاء في الأكاديمية برفقة المرشدين؟ - هو بعينه. لقد استند فيلوتِكستو إلى القصيدة التي نظمها بنفسه من أجل استلهام الصور الآيديسيَّة الواردة في كهف الأفكار: مآثر هرقل، فتاة زهرة الزنبق، المترجم...

- ولكن...

يومئ مونتالو في ما يبدو عليه تعبير مستغلق ويقول:

- أجل، إن كهف الأفكار من تأليف فيلوتِكستو الخيرسونيسي. ولا تسألني كيف عرفت، فأنا أعرف وكفى. ولكن، تابعِ الترجمة، أرجوك. فما عاد بينك وبين الخاتمة سوى القليل. (المترجم)

[←176]

«أفعى» و«شجرة». تمثِّل الدماء المُتدفِّقة من رأس كرانتور صورةً آيديسيَّة بديعة ومزدوجة، إذ تجسِّد المسخَ الأفعواني حارس التفاحات الذهبية المدعو لادون، وكذا الأشجار التي تتدلَّى منها التفاحات...

ما زال يؤرِّقني احتمال أن يكون أبي قد انتحل قصيدة من نظم فيلوتِكستو!...

يأمرني مونتالو قائلًا: «ترجمْ». (المترجم)

[←177]

من خلال الآيديسيس، نجد أن مشهد جثث أتباع الطائفة المحفوف بالموت يمثِّل الشجرةَ التي تتدلَّى منها «تفاحات الهسبيريديات الذهبية» بوصفها الصورة الختامية في العمل. (المترجم)

[←178]

- النص منقوص! فيسألني مونتالو:
- وفيمَ قولك هذا؟
- لأنه ينتهي بعبارة: «ثم قال المترجم»...
فيقول مونتالو وهو يرمقني بنظرات غريبة:
- النص غير منقوص.
- هل تقصد أن هنالك صفحات محجوبة في موضع آخر.
- أجل.
- وأين؟
فيجيب مونتالو وهو يهزُّ كتفيْه:
- هنا.
يبدو أنه يتسلَّى بحيرتي. يسألني بحدَّة:
- هل عثرتَ على مفتاح العمل؟
أتفكَّر هنيهةً ثم أهمهم، في تردُّد:
- ربما كانت القصيدة؟...
- وماذا تعني القصيدة؟
مضَتْ برهة صمت، ثم أجبتُ:
- إن الحقيقة لا يُمكن أن تُعقَل...
أو أن العثور على الحقيقة شاق...
يبدو مونتالو مخذولًا. يعقِّب بقوله:
- نعرف أن العثور على الحقيقة شاقّ. ولكن، لا يمكن أن يكون هذا الاستنتاج هو الحقيقة...
وإلا لما كانت الحقيقة إلا عَدَمًا. ولا بد أن يكون هنالك شيء ما، أليس كذلك؟ خبِّرني، ما الفكرة النهائية؟ ما مفتاح النصّ؟ أصيح:
- لستُ أدري!
أراه باسمًا، وإن كانت ابتسامته مريرة. يقول:
- ربما كان المفتاحُ شعورَك بالغضب، أليس كذلك؟ ذلك السخط الذي تضمره الآن نحوي...
أو اللذَّة التي اختبرتَها حين تخيَّلتَ نفسك تداعب بائعة الهوى...
أو الجوع الذي كان يقرص معدتك كلما تأخَّرتُ في إحضار الطعام...
أو حركة أمعائك البطيئة...
ربما كانت تلك هي المفاتيح الوحيدة. فلمَ البحث عنها في النص؟ إنها كامنة في أجسادنا!
فقلتُ:

- كفّ عن العبث معي! أريد أن أعرف الصلة التي تجمع بين هذا العمل وبين قصيدة أبي!

تبدو على مونتالو أمارات الجدية ثم يقول وكأنه يتلو نصًّا، بنبرة تشي بالإعياء:

- قلتُ لك إن القصيدة من نظم فيلوتِكستو الخيرسونيسي، الكاتب التراقي الذي قضى سنوات نضجه في أثينا والتحق بأكاديمية أفلاطون. لقد وضع فيلوتِكستو الصور الآيديسيَّة الواردة في كهف الأفكار بالاستناد إلى قصيدته. وكلاهما عمل مُستلهَم من حوادث واقعية جرَتْ في أثينا إبان ذلك العصر، وتحديدًا واقعة انتحار جماعي أودَتْ بحياة أتباع طائفة بالغة الشبه بتلك المُشار إليها هنا. تأثَّر فيلوتِكستو بتلك الواقعة أيما تأثُّر، إذ كان يرى في تلك الأمثلة برهانًا على بطلان ما ذهب إليه أفلاطون. فنحن، البشر، لا نختار شرّ الأمور عن جهل بل نختاره مدفوعين بنزوة، بشيء مجهول يكمن بداخل كل واحد منا، لا يمكن إعمال العقل فيه أو تفسيره بالكلمات...

أصيح مُفعمًا بالحيوية:

- ولكن التاريخ أثبت صحة ما ذهب إليه أفلاطون! فالبشر في عصرنا مثاليون، يعكفون على التفكير والقراءة وكشف طلاسم النصوص...

الفلاسفة والمترجمون وسطنا كُثْرٌ...

نعتقد اعتقادًا راسخًا بوجود أفكار لا تُدرَك بالحواس...

صفوتنا تحكم المدائن...

الرجال والنساء يعملون في المجالات نفسها على حدّ السواء ويحظون بالحقوق نفسها. العالَم ينعم بالسلام. والعنف قد اجتُثَّ من الجذور...

أرى التعبير المرتسم على وجه مونتالو فيخالجني التوتُّر. أقطع تصريحي المُتأثِّر وأسأل:

- ماذا يجري؟

وفيما هو يطلق تنهيدة عميقة، بعينيْن محمرَّتيْن رطبتيْن، يجيبني:

- يا بنيّ، ذلك واحد من الأمور التي قرَّر فيلوتِكستو أن يبرهن على صحتها في مُؤلَّفه: إن العالَم الذي تصفه...

العالَم الذي نعيش فيه...

عالَمنا...

لا وجود له. وغالب الظن أنه لن يوجد أبدًا. ثم أردف بنبرة كئيبة:

- العالَم الوحيد الموجود هو عالَم العمل الذي ترجمتَه أنت: أثينا ما بعد الحرب، تلك المدينة الحافلة بالجنون، والنشوى، والمسوخ التي تفتقر إلى العقلانية. ذلك هو العالَم الواقعي، وليس عالَمنا. ولذا حذَّرتُك من أن كهف الأفكار له تأثير على وجود الكون...

أراقبه. يبدو جادًّا في ما يقول، إلا أنه يبتسم. أقول له:

- الآن اقتنعتُ بأنك قد جُننتَ جنونًا مطبقًا!

- كلا يا بنيّ. عُد بذاكرتك إلى الوراء.

وفجأةً تغدو ابتسامته وديعة، وكأن كلًّا منا يشاطر الآخر بلواه. يقول:

- أتذكر الرهان بين فيلوتِكستو وأفلاطون في الفصل السابع؟

- أجل. أفلاطون يجزم باستحالة وضع كتاب يضمُّ عناصر المعرفة الخمسة. بَيْد أن فيلوتِكستو لم يقتنع...

- فعلًا. وعليه، فقد نتج الرهانُ بين فيلوتِكستو وأفلاطون عن كهف الأفكار. بدَتْ المهمة لفيلوتِكستو غاية في المشقّة. فأنَّى له وضع مُؤلَّف يضمُّ عناصر المعرفة الأفلاطونية الخمسة؟...

لو تذكّر، كان أمر العنصريْن الأول والثاني يسيرًا، فالاسم ببساطة هو اسم الشيء، أما التعريف فالعبارة التي بها نتحدَّث عن الشيء. ونجد كلًّا من العنصريْن واردًا في أي نصٍّ معتادٍ. أما العنصر الثالث، أي الصورة، فيمثِّل إشكالية. أنَّى للمرء أن يبتدع صورًا تتجاوز الكلمات المكتوبة، شريطة ألَّا تكون تلك الصور مُجرَّد تعريفات أو أشكال لكائنات وأشياء؟ عند ذاك، اخترع فيلوتِكستو الآيديسيس...

أقاطعه غير مُصدِّق:

- ماذا؟ «اخترع»؟

يومئ مونتالو واجمًا:

- الآيديسيس من اختراع فيلوتِكستو. والفضل يرجع للآيديسيس في اكتساب الصور طلاقة واستقلالية...

فبالاستعانة بها لم تعُد الصور مقترنة بالمكتوب، بل بمخيلة القارئ...

فنجد أن الفصل الواحد قد يضمُّ صورة أسد، أو فتاة ممسكة بزهرة زنبق، على سبيل المثال!...

أبتسم إزاء السخافات التي أنصتُ إليها، ثم أقول:

- كلانا يعرف حق المعرفة أن الآيديسيس تقنية أدبية لجأ إليها بعض الكتاب الإغريق...

فيقاطعني مونتالو نافد الصبر:

- كلا! بل إنها مُجرَّد اختراع يقتصر على هذا العمل وحسب! دعني أفرغ من حديثي، وستفهم كل شيء!...

بذلك وجد فيلوتِكستو حلًّا لمسألة العنصر الثالث...

فما عاد ينقصه سوى العنصرين الأشد صعوبة...

كيف يهتدي إلى العنصر الرابع، ألا وهو النقاش الفكري؟ بدا جليًّا أن الحاجة تقتضي وجود صوت من خارج النص، أي صوت يناقش ما يطالعه القارئ...

شخصية قادرة على تأمُّل مجريات الحبكة عن بعد...

على ألّا تكون هذه الشخصية وحيدة، نظرًا لأن ذلك العنصر يستلزم قدرًا بعينه من المحاورة...

وعليه، فلا بد من وجود ما لا يقلُّ عن شخصيتيْن خارج العمل...

ولكن، مَنْ عسى أن يكونا؟ وبأية ذريعة يمكن تقديمهما إلى القارئ؟...

يطرق مونتالو برهةً ويقطِّب حاجبيْه بتعبير ينمُّ عن التسلِّي. ثم يستطرد قائلًا:

- عثر فيلوتِكستو على الحلِّ في القصيدة التي نظمها بنفسه، في الشطر القائل: «كمترجم حبيس، سجَّانُه مجنون». فاستنتج أن إضافة عدة مترجمين من نسج الخيال ستكون الوسيلة الأنسب لتحقيق العنصر الرابع...

ذلك أن واحدًا منهم سوف «يترجم» العمل، ويعقِّب عليه في حواشيه. أما باقي المترجمين فسوف تجمعهم به صلة ما، على نحو أو آخر...

وبتلك الحيلة، أفلح كاتبنا في تقديم العنصر الرابع. ولم يعُد ينقصه سوى الخامس، الأشد صعوبة. أي الفكرة في حد ذاتها!...

يطرق مونتالو برهةً قصيرة ويطلق ضحكة مقتضبة. ثم يردف:

- والفكرة في حدِّ ذاتها هي المفتاح الذي نفتِّش عنه سدًى منذ البدء. بَيْد أن فيلوتِكستو لا يؤمن بوجودها، ولذا لم نعثر عليها...

وعلى الرغم من ذلك، فلقد أُدرجَتْ في العمل بأية حال، وتكمن في بحثنا عنها ورغبتنا في العثور عليها...

تتَّسع ابتسامته، ثم يختتم الحديث بقوله:

- وعليه، فقد ربح فيلوتِكستو الرهان.

يفرغ مونتالو من الكلام، في حين أهمهم أنا غير مُصدِّق:

- لقد جُننتَ جنونًا مطبقًا...

يمتقع وجه مونتالو الجامد أكثر فأكثر. ثم يقرُّ:

- بالفعل، لقد جُننتُ جنونًا مطبقًا. ولكني أعرف الآن لماذا عبثتُ معك ثم اختطفتُك واحتجزتُك هنا. في واقع الأمر، أنا أعرف منذ أخبرتَني بأن القصيدة التي يقوم عليها هذا العمل من نظم أبيك...

فأنا أيضًا موقن أن هذه القصيدة قد نظمها أبي...

الذي كان كاتبًا هو الآخر، مثله كمثل أبيك.

لستُ أدري ماذا أقول. يتابع مونتالو في كدر متزايد:

- نحن بعضٌ من الصور الواردة في هذا العمل، أفلا ترى؟ أنا سجَّانك المجنون، بحسب ما جاء في القصيدة، وأنت المترجم. أما أبي وأبوك، الرجل الذي أنجبني وإيَّاك، وأنجب سائر شخوص كهف الأفكار، فيُدعى فيلوتِكستو الخيرسونيسي. تسري قشعريرة في بدني. أتأمَّل عتمة الزنزانة، والمكتب الذي تعلوه رقوق البردي، والمصباح، وقسمات وجه مونتالو الشاحب. أهمهم:

- كذب...

أنا...

أنا لي حياتي الخاصّة...

لي أصدقاء!...

أعرف فتاة تُدعى هيلانة...

أنا لستُ شخصية في عملٍ...

أنا حيّ!...

وفجأةً ينقبض وجهه ويرتسم عليه تعبير غضب عبثي.

- مُغفَّل! ألم تفهم بعد؟...

هيلانة...

إلْيُو...

أنا...

أنت...!

إننا جميعًا العنصر الرابع!! ذاهلًا، حانقًا، أنقضُّ على مونتالو. أحاول ضربه كي يتسنَّى لي الهرب، فلا أفلح سوى في نزع وجهه. كان وجهه قناعًا آخر، ليس من ورائه شيء. إن هي إلا عتمة. تتراخى ثيابه، وتتهاوى أرضًا. يتلاشى المكتب الذي كنت أعمل عليه، وكذا الفراش والمقعد. تتبدَّد جدران الزنزانة. أبقى غارقًا في الظلمات. أتساءل:

- لماذا؟...

لماذا؟...

لماذا؟...

تتضاءل المساحة المُفرَدة لكلماتي. أغدو هامشيًّا، مثلي كمثل حواشيَّ.

وهنا يقرِّر المُؤلِّف أن يضع خاتمتي.

خاتمة مُرتجفًا، أرفع ريشتي عن البردية عقب تدوين الكلمات الأخيرة في مُؤلَّفي. لا أتخيَّل رأي أفلاطون فيه، وهو الذي طالما ترقَّب أن أختتمه بلهفة تماثل لهفتي. يُخيَّل إليَّ أنه ربما انبسطَتْ أسارير وجهه المشرق عن ابتسامة رقيقة للحظات في أثناء القراءة. وفي لحظات أخرى، أعرف حقّ المعرفة أنه سوف يقطِّب جبينه. ويُحتمَل أن يخاطبني قائلًا (يُهيَّأ لي أنني أسمع صوته الرصين):

- مُؤلَّف عجيب يا فيلوتِكستو. ولا سيما الحبكة الثنائية. فمن جهة نجد تحريَّات هراقليس وذياغوراس، ومن جهة أخرى تلك الشخصية الجديرة بالفضول، المترجم الذي لم تخلع عليه اسمًا، والذي يُدوِّن ما يهتدي إليه من اكتشافات على الهامش، ويحاور شخوصًا آخرين، إلى أن يختطفه مونتالو المجنون في خاتمة المطاف، كل ذلك يجري في مستقبل لا وجود له...

أي حظٍّ تعيس هو حظ المترجم، الغافل عن كونه شخصية من نسج الخيال، مثله كمثل شخوص المُؤلَّف الذي عكف على ترجمته!

عند ذاك أقول له:

- بَيْد أنك تخيَّلتَ الكثير من الكلمات التي وضعتَها على لسان مُعلِّمك سقراط.

ثم أُردف سائلًا:

- أيهما أشدّ تعاسة، مصير مترجمي الذي لم يكن له وجود إلا في العمل، أم مصير سقراط الذي تحوَّل على يديْك إلى شخصية أدبية برغم وجوده في الواقع؟ من جهتي، أرى أن الحكم على كائن خيالي بالواقعية خيرٌ من الحكم على كائن واقعي بالخيالية.

ومن خلال معرفتي به، أظنُّ تقطيبَ حاجبيْه سيغلب على ابتسامه.

ومع ذلك، فلستُ أخشى بشأنه، فأفلاطون ليس بالرجل الذي يتأثَّر بسهولة. بل إنه سيظلُّ يرنو في نشوى إلى ذلك العالَم غير الملموس، المفعم بالجمال والسلام، بالتناغم والكلمات المكتوبة، عالَم أرض الأفكار، ولسوف يداوم على تقديمه إلى تلاميذه. في الأكاديمية، ما عاد المرء يعيش في الواقع بل في رأس أفلاطون. وهناك، يُعدُّ المُعلِّمون والطلاب بمثابة «مترجمين»، كلٌّ حبيس «كهفه»، كلٌّ عاكف على التفتيش عن الفكرة داخل نفسه. أما أنا، فقد أردتُ ممازحتهم قليلًا (أستميحكم عذرًا، فلم أكتب ما كتبتُ عن سوء نية)، أردتُ التأثير فيهم، ولكني أردْت الجهر بصوتي أيضًا (صوت الشاعر وليس الفيلسوف)، أردتُ الصياح بهم قائلًا: «حسبكم بحثًا عن أفكار محجوبة، عن مفاتيح ومعانٍ نهائية! حسبكم قراءة، وعيشوا! اخرجوا من النص! ماذا ترون؟ أفلا ترون سوى الظلمات؟ حسبكم بحثًا!».

ولستُ أظنُّ أنهم سيحفلون برأيي. بل سوف يتابعون بحثهم في همة، وهم في ضالّة حروف الهجاء، وقد استحوذ عليهم هوس العثور على الحقيقة من خلال الكلمة أو المحاورة. يعلم زيوس كم من النصوص والنظريات المُتخيَّلة المُدوَّنة بالريشة والمداد سوف تهيمن على حياة البشر في المستقبل وتبدِّل مجرى الزمان في حمق!...

بَيْد أني أستعين بكلمات زينوفون التي ختم بها دراسته التاريخية الجديدة:

«أما من جانبي، فقد بلغ عملي ختامه. ومهما يكُن من شيء، فليَتَوَلَّ غيري ما استجدَّ من الآن فصاعدًا».

تمَّ كهف الأفكار

المُؤلَّف الذي وضعه فيلوتِكستو الخيرسونيسي

في العام نفسه لمَّا كان أرخينيديس يشغل منصب الأركون

وأرخيلاوس يشغل منصب الإيفورو

وديميتريارتا تشغل منصب عرَّافةَ سيبيل